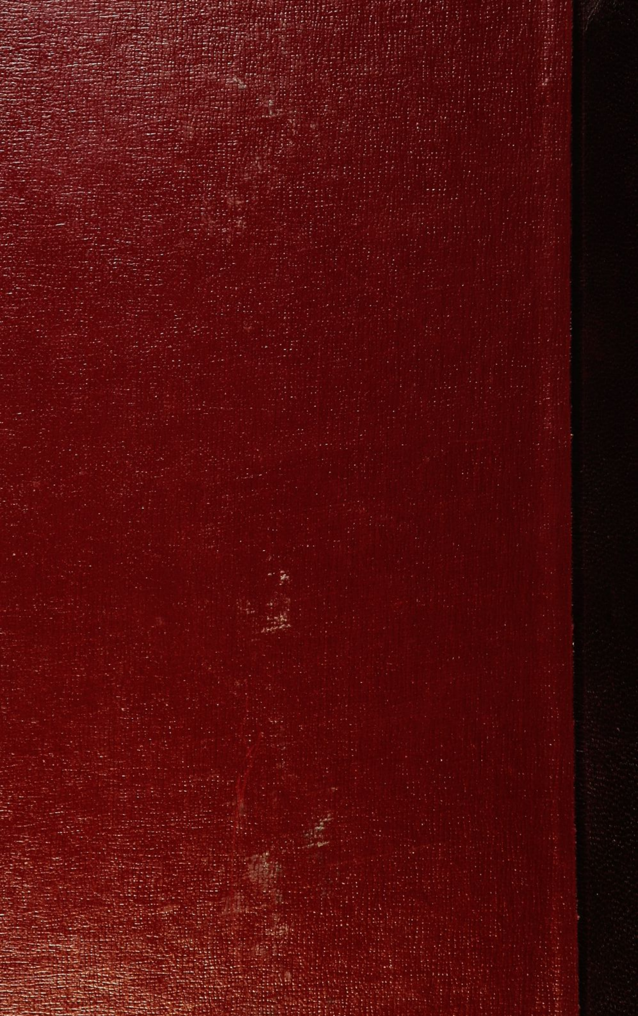


الإسلام في عصر العلم

• الـدين
• والرسول
• والكتاب

تأليف المرحوم الأستاذ الدكتور
محمد أحمد الغمراوي

إعداد الأستاذ الدكتور
أحمد عبد السلام الكرداني

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م





المؤلف رحمه الله

رجاء

يحسن — قبل المضى فى قراءة هذا الكتاب — مراجعة الآيات القرآنية الواردة فيه على المصحف وضبط كلماتها بالشكل، تجنبا للحن ؟

تقـــديم

بقـــلم

فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين .. أما بعد :

فإن من الناس من يعيش عمره المقدور على وجه الأرض ثم يمضى إلى الدار الآخرة لا يشعر به قلب ، ولا يجد له مجالا فى صدر ، ولا تحس حياته عين ولا أذن ، وإن ملأ الدنيا ضجيجاً وصخباً .

ومن الناس من يقضى حياته التى أراد الله له أن يقضيها فى هـذه الدنيا ، ثم يأخذ طريقه إلى لقاء الله الباقى وهو ملء الأسماع والأبصار — مع القلوب والنفوس — هنا وهناك ، وإن عمل فى صمت وأدى دوره فى هدوء ، وهؤلاء هم الطراز الفريد ، والقدوة الحقة والمثل الذى يحتذى .

ذلك أن السنة التى برأ الله عليها النـاس والأشياء هى تلك القضية الصادقة المـاثلة فى قوله تعالى : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ..) .

والأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى — رحمه الله وأجزل ثوابه — كان من هذا الطراز الفريد .. الذى ينبغى أن يكون قدوة حسنة ومثالا يحتذى .

عاش حياته فى جد العلماء .. وهدوء الحكماء .. ومثالية الرواد .. وأدب المعلمين .. وجلاد المجاهدين .. وله من هبات الله وعطاياه ، عفة اللسان والقلم ، فوق أنه جزل العبارة ، مشرق الأسلوب . قوى الحجة ، ناصع البرهان .

وقد أسعفه اتصاله بالقرآن المجيد : وشغفه به ، بكل هذه المزايا التى تمتع بها الراحل الكريم ، والتى انبعثت من قلب متفتح ، وروح شفافة ، وفكر متوقد ،

فلم يحل تعلمه وتعليمه بالمدارس المدنية التي قطعت صلتها بالعلوم والمعارف الإسلامية ، أو كادت ، فى فترة من فترات الغفلة ، وضغوط الاستعمار . ونزوغ التبشير بل وتمرده . . لم يحل ذلك كله دون أن يكون فى الطليعة بين الذائدين عن الإسلام ، باذلا غاية الوسع ومذخور الطاقة دفاعا مقنعا ، ودعوة جهيرة تملأ الوعى وتكتنه الإدراك ، وتوجيها صادقا للمسلمين وبخاصة أولئك المفتونين ، الذين حطبوا بليل دون تبصر . أو وقعوا ضحايا الغزو الفكرى الذى عبئت له الجهود والأموال ، وجندت له أضخم الطاقات ، وأعتى الأقلام.

ونعى على المسلمين موقفهم الأليم ، ونبه بقوة إلى معاودة النظر والرجوع الصادق إلى دينهم وما فيه من غناء للقلب والفكر والعقل والحياة . ووضع يده على موطن العلة فى انصراف بعض المسلمين عن الإسلام (دين الفطرة) وعن الالتزام بأحكامه والدعوة إليه . فقال : — رحمه الله — وهو بصدد الحديث عن : (الإسلام والفطرة) : « لكن مما يؤسف له أن المسلمين غفلوا عن آية (سورة الروم) — يقصد قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) . — فلا هم أطاعوا أولها ، ولا هم استمدوا التثبت من آخرها . ولا هم فقهوا ما بين ذلك ليتخذوا منه هاديا ودليلا ، وحجة تدحض كل ما افترى أو يفترى الخصوم . . ذلك أنه قد عدت إلى الشرق الإسلامى عدوى من الغرب فى أمر الدين لم تكن لتنتقل إليه لو كان يدرى ما الدين الذى بيده . أو كان يدرك فرق ما بين الدين فى الغرب وبين الإسلام » .

ثم يلفت نظر المقلدين . . وفكر الغافلين إلى تأمل هذا الفرق فيقول :

« لقد حاول الغرب كثيراً أن يوفق بين دينه وبين العلم فلم يستطع . لا لجمود رجال الدين فيه ، ولكن لنصوص فى كتابه ناقضت ما أثبته العلم واستعصت على التأويل : كالنص على عمر للأرض محدود لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين ، فى حين أن العلم اليقينى يقدر عمرها بالملايين . وكان من ذلك أن حمل بعض كتابه ، مثل « ماتيو أرنلد » وبعض قسيسيه ، على أن يظنوا أن الدين قد خذله

الفصل الأول

الإسلام والفطرة

أخذ وصف الإسلام بأنه دين الفطرة من قوله تعالى فى سورة الروم : (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون — ٣٠) . وذلك الوصف على حسنه مقصر كما ترى عن مدلول الآية من عدة وجوه : فالفطرة أولا مضافة فى الآية إلى الله فاطرها سبحانه ، وفى هذا ما فيه من تشريفها وتوكيد تمامها وكمالها ، وتمام الدين المعبر بها عنه وكماله . ثم هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها . والإسلام ، وإن شمل علاقة الأنسان بالكون كله وبالفطرة على إطلاقها ، بدلالة الآيات الكثيرة فى القرآن الكريم ، إلا أنه كدين يتعلق أول ما يتعلق بفطرة الإنسان نفسه ، وبالسنن التى فطر الله الإنسان عليها ، والتى لاراحة ولاسعادة له إلا فى تحقيقها وتطبيقها كاملة غير منقوصة .

والتعبير فى الآية الكريمة بلفظ «الناس» على الجمع بدلا من لفظ «الإنسان» على المفرد أصرح وأوضح فى الدلالة على أن الإسلام قد أنزله الله طبق فطرة الإنسان فردا وجنسا ، قبائل وشعوبا ، أفرادا وجماعات . فلو كان التعبير « فطرة الله التى فطر الإنسان عليها » لكان هناك محل للتساؤل عن المقصود بالإنسان ، أهو آدم أم نسله ، أى هل أداة التعريف فى « الإنسان » للعهد أم للجنس ، وهل الإسلام دين الفرد أو دين الجماعة ؟ أما التعبير فى الآية بلفظ الجمع فقد منع هـــذا التساؤل وأوصد دونه الباب ، إذ قد أفاد أن الناس على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم يجدون تمام تحقيق فطرتهم فى دين الله ، دين الإسلام .

والآية الكريمة تجعل الإسلام ليس فقط دين الفطرة، ولكن نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهذا أوجز تعبير وأوكده وأشمله بتمام انطباق الإسلام على سنن الله التى خلق عليها الانسان ، سواء تعلقت بالبدن أو النفس ، وبالعقل أو القلب ، فى الفرد والأسرة والطائفة ، أو فى القبائل والأمم والشعوب .

وثبات تلك السنن ، أى فى الإنسان وغيره ، واطرادها واتساقها فيما بينها ومع السنن الأخرى الجارية فى الكون ، دل عليه أبلغ دلالة قوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) .كلمات قليلة حوت معانى جليلة شرحها يطول . فهى أولا أكدت المعانى السابقة المستفادة من الكلمات قبلها وهى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) ، فزادت معنى الفطرة وضوحا إذ فسرتها بالخلق، وأضافت الخلق إلى الله سبحانه ، فوكدت كل معانى التشريف والتمام والكمال المنطوية فى إضافة الفطرة الى الله فى قوله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) . وإذا كانت هذه خصصت الفطرة بفطرة الناس للدلالة على الغرض الأساسى من الدين ، فإن التعميم فى قوله (لا تبديل لخلق الله) قد أكد مفهوم ذلك التخصيص لأنه شامل له ، ودال من ناحية أخرى على إتساق الإسلام وفطرة الإنسان مع الفطرة العامة فى الكون ، فلا تناقض ولا خلاف بين الفطرتين هذا هو التوكيد .

أما المعنى العجيب الجديد فهو المتمثل فى الكلمتين الجليلتين (لا تبديل) من قوله (لا تبديل لخلق الله) ، فالجلال والجمال والكمال كله يتمثل فى هذين الحرفين . فما خلق الله إنما خلقه على سنن كاملة لا تبديل لها ولا تحويل ، فليس فى الوجود قدرة غير قدرة الله تتحكم فيه ، وإرادة الله التى شاءت للكون أن يكون فكان على مقتضى حكمته ورحمته لا تتغير أو تتبدل بتغير الأزمان كما تقول الأديان الأخرى غير الإسلام . والعلم الحديث يقوم وجوده ، رغم الفلسفة وشكوكها ، على هذا القانون الإلهى ، قانون (لا تبديل لخلق الله) ، إذ العلم وطريقته النظرية العملية التجريبية متوقفة على اتساق الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبوت .

وكما بدأ الله الآية الكريمة بقوله (فأقم وجهك للدين حنيفا) ختمها عودا على بدء بقوله (ذلك الدين القيم) . وأمر تمام اتفاق الإسلام وكمال انطباقه على فطرة الإنسان وفطرة الكون هو من الأهمية والجدة للإنسانية جميعا بحيث يحتاج الى كل هذا التوكيد . فغير المسلمين يجهلون أن الإسلام دين الفطرة بالمعنى الذى بينته الآية، بل ذهب بهم الجهل إلى أن سموا المسلمين بالمحمديين اعتقادا منهم أنهم يعبدون محمدا . وقليل ، حتى من مستنيرى المسلمين ، من يعرف أن الإسلام دين الفطرة بالمعنى العلمى المتظاهرة عليه أجزاء الآية الكريمة ، أما الذين يعرفون منهم أن الإسلام ، فى سننه وفروضه وأحكامه ومبادئه ، يشمل الفطرة كلها ويطابقها تمام المطابقة خصوصا فطرة الناس فهؤلاء أقل من القليل، فانطبق على أولئك وهؤلاء قوله تعالى فى آخر الآية (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

والذى يحتاج فى هذا الأمر إلى مزيد من الحجة والدليل يجده فى الآيات التى قبل هذه الآية الكريمة فى سورة الروم ، فقد جاءت بعد آيات كلها كونية تتعلق بظواهر طبيعية لا يدرسها ولا يبحثها ويكشف عن أسرارها إلا العلم التجريبى الحديث ، وهى الآيات التى أولها (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ١٧ — ١٩) . والتى آخرها (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون — ٢٥)(١) .

(١) أما الآيات التى بينهما فهى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون (٢٠)، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٢١)، (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين (٢٢) ، (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون (٢٣) ، (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (٢٤) .

تسع آيات جمع الله للإنسانية فيها بين العلم والدين، ومزجهما للمفكرين مزجا يدهش ويبهر ، صار به العلم فى الإسلام جزءا من الدين، ميزة للإسلام وحده من بين الأديان . ومن بين الآيات التسع فى موضعها من سورة الروم آية هى نص فى هذا ينبغى أن تذهب بكل بقية من شك يدخل به الشيطان على المسلم استبعادا أن يكون العلم بمعناه الحديث هو فى الإسلام جزءا من الدين ، ألا وهى قوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين) . والبين الواضح أن العالمين هنا ليسوا العلماء بالمعنى العام ولكن العلماء الدارسين للسموات والأرض وأسرار خلقها ، ولأجناس الناس والشعوب وأسرار اختلافهم ، أفرادا وجماعات فى اللغة واللون ، وكل ما يرمزان إليه ويدلان عليه . وهؤلاء هم العلماء بالمعنى العلمى الحديث .

فتأمل معى الجمال الباهر والجلال القاهر الماثلين فى تعقيب الحق سبحانه على تلك الآيات التسع فى تفصيلها بالآية الكريمة فى إجمالها ذكر الفطرة والخلق وربطهما بالدين ، آية (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون — ٣٠).

ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة ، وأكبرها وأبهرها ، وصف الإسلام بأنه نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهذا شىء فوق العقل البشرى أن يتصوره فضلا عن أن يسبق إليه فى القديم والحديث . والإنسانية الى الآن لا تعقل حتى إمكان تحقيقه ، فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدثون أنفسهم بالوصول يوماما إلى نظام ينطبق على الفطرة من جميع الوجوه . والمسلمون فى شغل بما ينبذ إليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذى بأيديهم ، والنور الذى فوق أبصارهم ، وعن النعمة الكبرى التى من الله عليهم بها فى الإسلام .

وليس وصف الإسلام بأنه نفس الفطرة من باب المبالغة كما قد يظن بعض الناس ، فليس فى الآية الكريمة من أدوات المبالغة ولا من قراءتها شىء ، بل هو

وصف دقيق من فاطر الفطرة سبحانه للدين الذى أنزله وكمله ، وأمر الناس بإقامة الوجه له مائلين عما سواه ، فهو وصف محيط شامل لتمام انطباق دين الله على الفطرة ، كأنما هو هى لا تخالفه فى شىء ولا يند عنه منها شىء . وفرق بين المبالغة وبين هذا التعبير الدقيق عن تمام تطابق الإسلام والفطرة . إن المبالغة فيها دائما تزيد عن الواقع ولو قليلا ، لكن الوصف هنا طبق الواقع من غير زيادة ولا نقصان مادام الواصف هو الله الحق سبحانه الذى فطر الفطرة وأنزل الإسلام لإسعاد الناس .

ويمنع من احتمال المبالغة أيضا فى ذلك الوصف الإلهى المعجز أن مجرد القول بها يجعل الدين مقصرا تقصيرا ما عن حاجة الإنسان بفطرته ، وعندئذ ينفتح باب من جواز تطلب سد تلك الحاجة فى غير ماشرع الله من دين ، وهو باب لو انفتح أوشك ، لما يحيط به من إبهام ، أن يؤدى إلى التحلل حتى من أساسيات الدين وأصوله ، كما يحاول بعض الأفاكين أن يلقى فى روع المسلمين اليوم ، لكن الله سبحانه برحمته وحكمته قد سد هذا الباب من الاحتمال الى الأبد حين وصف الإسلام ، لتمام التطابق بينه وبين فطرة الإنسان ، بأنه هو نفس الفطرة .

وكون الإسلام والفطرة التى فطر الله عليها الناس شيئا واحدا صرح به إمامان من كبار المفسرين : الزمخشرى وابن كثير . عند تفسير هذه الآية الكريمة ، مستدلين من ناحية بنصب (فطرة) فى قوله تعالى (فطرة الله الذى فطر الناس عليها) ، ومن ناحية أخرى بحديثين شريفين اشتركا فى الاستشهاد بهما مع اختلاف يسير فى اللفظ من غير اختلاف فى المعنى . وزاد ابن كثير عليهما غيرهما كعادته فى الاستيعاب . وقد فسر الزمخشرى نصب (فطرة) بتقدير (إلزموا) أى والزموا فطرة الله ، بضمير خطاب الجماعة ، مستدلا بقوله تعالى فى أول الآية بعدها (منيبين إليه واتقوه) على الجمع ، ثم قال «والفطرة الخلقة، ألا ترى إلى قوله (لا تبديل لخلق الله) ؟ والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد

ودين الإسلام غير نائين عنه ، ولا منكرين له ، لكونه مجاوبا للعقل ، مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر . ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن » . وقال فى تفسير (لا تبديل لخلق الله) « أى ما ينبغى أن تبدل تلك الفطرة أو تغير » .

أما الإمام ابن كثير فقدر تفسير نصب (فطرة) تقديرا آخر يتفق مع توجيه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم فى أول الآية ، إذ يقول فى تفسير أولها « يقول الله تعالى فأقم وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله من الحنيفية ملة إبراهيم التى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده . وأنه لا إله غيره » ونقل فى تفسير (لا تبديل لخلق الله) قولين صححهما كليهما . وإن كان ثانيهما هو وحده المتفق مع السياق ، إذ يقول « وقال آخرون هو خبر على بابه ، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، لاتفاوت بين الناس فى ذلك . لهذا قال ابن عباس (مع سبعة من كبار التابعين عدهم ابن كثير) فى قوله (لا تبديل لخلق الله) أى لدين الله ، وقال البخارى (لا تبديل لخلق الله) لدين الله « الدين والفطرة الإسلام » .

فأنت ترى أن التفسيرين متتامان ، فى كل منهما ما ليس فى الآخر وما يتمم الآخر ، مع اتفاقهما فى الصميم ، فالزمخشرى مثلا أشار إلى مجاوبة الإسلام للعقل ومساوقته للنظر الصحيح مما لم يشر إليه ابن كثير . وابن كثير أظهر بقوله : « وكملها لك غاية الكمال » ما لم يظهره الزمخشرى مما انطوى تحت إضافة الفطرة إلى الله سبحانه من دلالة ، وكان أكثر توكيدا من الزمخشرى للوحدة التى بين الإسلام والفطرة خصوصا فيما وجه من خطاب النبى فى قوله من تفسيره المنقول آنفا « وأنت مع ذلك لازم فطرتك التى فطر الله الخلق عليها » وليس فى هذا بالطبع تسوية منه بينه صلى الله عليه وسلم وبين الناس ، بعد أن ينشأوا نشأتهم

ويتأثروا ببيئاتهم وتربياتهم المختلفة ، فهذا معنى لا يمكن أن يخطر للإمام ابن كثير على بال ، ولـكن المعنى الذى قصده أن النبى قد حفظ الله عليه وحقق له بيأديه بالإسلام تلك الفطرة السليمة التى ولد بها ، بأمره فى الآية الكريمة بالاستمرار مع التزامها .

أما غير النبي صلى الله عليه وسلم فقد خرج بالنشأة والتربية قليلا أو كثيرا عن نفس الفطرة السليمة التى يولد بها كل مولود ، كما أخـبر صـلى الله عليه وسـلم بذلك فى أحـد الحديثين اللذين استدل بهما كل من الإمامين المفسرين وهو الحديث الذى نذكره هنا نقلا عن ابن كثير رواية عن البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو يمجسانه . تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟) ثم يقول صلى الله عليه وسلم (فطرة الله الذى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) . فهذا الحديث الشريف الصحيح نص فى تفسير الآية الكريمة ، وهما معا متظاهران على أن الإسلام دين الله هو والفطرة الإنسانية السليمة شىء واحد ، وأن مبادىء الإسلام وأحكامه مطابقة تماما لسنن الفطرة ، وأن ما يعتور الناس من عوج إنما هو أمر طارىء راجع إلى الخروج عن التربية الإسلامية الصحيحة أى إلى عدم تنشىء النشء على أصول الإسلام وأخلاقه وأعماله ، وإلى عدم إشراب النشء روح الإسلام وحبه .

وواضح من هذا الذى سبق أن طريق تحقيق الفطرة السليمة بحذافيرها فى الانسان ـ وهو المثل الأعلى للغرض من التربية عند علمائها ـ إنما يمكن عن طريق الإسلام وتطبيق أصوله وأحكامه وروحه فى البيت والمدرسة والمجتمع، وأن كل طريق للتربية فى الصغر ولإحسان السلوك فى الكبر إنما يحقق من غرض التربية الأعلى ، ومن سعادة الإنسان والإنسانية ، بقدر ما يهتدى فى ذلك بالإسلام كما أنزله الله فى كتابه ، وطبقه الرسول فى جميع سنن الحياة .

لكن مما يؤسف له أن المسلمين غفلوا عن آية سورة الروم ودلالاتها غفلة يعجب منها كل ذى لب حتى يضرب كفا بكف ، فلا هم أطاعوا أولها (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) ، ولا هم استمدوا التثبيت من آخرها (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، ولا هم فقهوا ما بين ذلك (لا تبديل لخلق الله) ، ليتخذوا منه هاديا ودليلا وحجة تقوم وتدحض كل ما افترى أو يفترى الخصوم . ذلك أنه قد عدت إلى الشرق الإسلامى عدوى من الغرب فى أمر الدين لم تكن لتنتقل إليه لو كان يدرى ما الدين الذى بيده ، أو كان يدرى فرق ما بين الدين فى الغرب وبين الإسلام .

لقد حاول الغرب كثيرا أن يوفق بين دينه وبين العلم فلم يستطع ، لا لجمود رجال الدين فيه ولكن لنصوص فى كتابه ناقضت ما أثبته العلم ، واستعصت على التأويل ، كالنص على عمر للأرض محدود لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين ، فى حين أن العلم اليقينى يقدر عمرها بالملايين ، وكان من شأن ذلك أن حمل بعض كتابه مثل ماتيو أرنلد وبعض قسيسيه ، على أن يظنوا أن الدين قد خذله الواقع فلم يبق ما يستند إليه إلا الشعر ، أى ما يتمثل فى ذلك الدين من معان شعرية ، وقيم أخلاقية ، لا غنى للإنسانية عنها بحال . وقرأ ذلك وشبهه بعض مقلدى الغرب من المسلمين فظنوا أن ما ينطبق على الدين هناك ينطبق على الدين هنا ، من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث عن الدينين ، هل هما مشتركان فى مخالفة اليقينى من العلم حتى يشتركا أيضا فيما يترتب على تلك المخالفة من حكم ؟ ومن هنا نجمت هذه الناجمة التى تحاول أن تطفىء نور الله بأفواهها ، حين تدعو من ناحية إلى اعتبار القصص القرآنى فنا يرمز إلى قيم أخلاقية من غير أن يقوم على حقيقة تاريخية ، ومن ناحية أخرى إلى تأويل نصوص الدين وأحكامه وتقييدها وتخصيصها بما لم يقيدها أو يخصصها به الله ولا رسوله ولا جماعة المسلمين ، من وقت نزول القرآن إلى هذا العصر الذى فقد الشرق فيه اتزانه وكاد أن يبيع بأبخس الثمن إيمانه .

ومن العجيب أن الإسلام الذى يرمونه بداء غيره ، فينسبون إليه معاداة العلم أحيانا ومنافاة العقل أحيانا ، ومجافاة الفطرة أحيانا ، هو وحده من بين الأديان السماوية الذى احتضن العلم وتحاكم إلى العقل وميز الحق بخصائصه ، وما عليك إلا أن تردد النظر فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة لترى الدليل تلو الدليل على أن الإسلام هو دين العلم والعقل والحق ، وهو وحده من بين الأديان السماوية الذى عرف الفطرة وسماها باسمها ووصفها بأوصافها ، وشهد لنفسه أنه دين الفطرة ، بل أنه نفس الفطرة التى فطر الله عليها الناس ، والدليل على ذلك آية الروم التى صدرنا بها هذا الفصل وشرحناها .

إن فكرة الفطرة وحدها لا يمكن أن تكون قد خطرت على بال بشر من عند نفسه فى العصر الذى نزلت فيه الآية الكريمة ، ولا فى القرون الكثيرة بعده ، لأنها لم تنشأ بعد الإسلام إلا بنشوء العلم الحديث فى الغرب ، ومن يدرى لعل الغرب استوحاها مما نقل إليه فى القرون الوسطى من كتب الإسلام .

الفصل الثانى

الإسلام دين العزة

الإسلام يمكن أن يوصف بأوصاف كثيرة كلها حق ، فهو — فى غير حصر لأوصافه — دين الحق ، ودين العدل ودين الإحسان ودين الإخلاص ودين التوبة ودين العمل ودين الجهاد ودين الإخاء ودين التعاون . ولكن هذا كله يتصل من ناحية أو من أخرى بصفة من صفات الإسلام البارزة هى أنه دين العزة ، عزة الفرد وعزة المجموع ، وعزة الشرع الذى يدينان به ، ويستمدان عزتهما من عزته ، والعزات الثلاث متصل بعضها ببعض ومتوقف بعضها فى الحياة العملية على بعض .

وأول ما يدؤك من عزة الإسلام أنه ليس دين صومعة وعزلة ، ولكن دين حكم ودولة ، الحكم فى دولته لله ، وقانونها شرع الله ، ليس للإنسان فيه إلا الفهم والفقه وحسن التطبيق . فالقوانين الوضعية منكرة فى الإسلام . وكل هذه القوانين ، المستمدة من الغرب . أو من قدماء اليونان والرومان ، مردودة فى الإسلام ما خالفت أحكام الله ، وليس للمسلمين إليها من حاجة إن وافقت . وما حاجة المسلمين بل ما حاجة الناس إلى حكم إن خالف حكم الله فهو خطأ وقى الله الناس شره بالشرع ، وإن وافق حكم الله اتفاقا كان التماسه فى غير الشرع إثما للمسلم وذلة . كان إثما لأنه انصراف عن شرع الله وسوء ظن به ، وافتراض نقص فيه يلتمس سده فى غيره ، وكان ذلة لأن المسلم حين يحتكم إلى غير دين الله ، ويرضى بحكم من يعلم أنه لا يؤمن بما أنزل الله ، فقد خلع عن نفسه رداء العزة الذى أضفاه الله عليه حين أنزل له شرعا جمع له فيه وبه الخير والصواب ، وحرره به من الخضوع فى قول أو عمل أو

نية لغير الله ، وهذا الاستسلام لله وحده هو أصل عزة الفرد المسلم ، لأنه ينزع من صدره كل خشية ورهبة لغير الله ، فهو إذا أطاع الحاكم المسلم إنما يطيعه طاعة لله ، وإذا شكر المحسن إنما يشكره طاعة لله الذى أمره بشكر من يحسن إليه ، وهلم جرا .

والمسلم مأمور بألا يسمع لمخلوق ولا يطيعه فيما فيه معصية لله ، فهو عبد لله وحده ، قد تحرر بالإسلام من العبودية والخضوع لكل ما سواه . فنفسه قد برئت من خشية غير الله أو رجائه بقدر ما أوتيت من الإسلام . وهذه البراءة قد اجتثت من نفس المسلم الذلة من أصلها . وكم من عزيز فى رأى الناس هو فى ذاته ذليل ذلة يعرفها هو من نفسه بما يجد فيها من رهبة أو رغبة عند ما يلق من يرهبه أو يرجوه من عدو ينافقه ، أو رئيس يمالقه ، أو صديق يحابيه .

وهذه العزة النفسية التى يمنحها الإسلام المسلم الصادق تزداد رسوخا بالتحرر من سلطان الوهم الذى حرر الإسلام منه نفس البصير وعقله، بما بين له ووضح من الأوامر والنواهى ، ومن سبل الطاعة وسبل المعصية ، ومن الرشد والغى . كل ذلك وغيره مما بينه الكتاب الكريم والسنة المطهـــرة يسد الطريق على الخرافات والأوهام أن يكون لها سلطان على المسلم إذا عرف دينه كما ينبغى ، وتشرب حقا بروح الأسلام .

وقد صان الإسلام عزة الفرد فى الجماعة الأسلامية بما قرره من مبدأ المساواة بين الأفراد على اختلاف ألسنتهم وألوانهم من غير نظر إلى نسب أوجاه ، وبما أقامه من ميزان الحق والعدل فى الأحكام . فالقوى فى الجماعة الإسلامية ضعيف حتى يؤخذ منه الحق ، والضعيف فيها قوى حتى يؤخذ الحق له . كذلك أكد الخليفة الأول فى أول خطبة خطبها . ولم يكن ذلك مبدأ وضعه الصديق وإنما هو تعبير صادق عن أصل كبير من أصول الحكم فى الإسلام ، يتجلى فى آيات الكتاب المجيد وفى أعمال الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفى تنفيذ

هـذا الأصل من أصول الإسلام فى الحكم ، لا يلحق أى المتقاضيين ذلة من حكم القاضى ، فالمحكوم عليه إنما يخضع لحكم الله لا لحكم أحد ، أما المحكوم له فليس يخشى عليه إلا أن تأخذه عزة بإثم فينظر إلى الحكم من زاوية غير التى ينبغى أن ينظر منها المسلم إلى الأحكام المبنية على الشرع، سواء أكانت له أم عليه.

حتى ذلة الفقر وذلة الدين قد وقى الاسلام المسلم شرهما بما جعل له من حق فى الزكاة عند العجز ، وبما حرم من الربا عند التداين، وفى التعامل، وبما تكفل به ولى الأمر من سداد الدين عن المدين الذى يموت وليس فيما ترك سدادلدينه. وهذا أمر عجيب تفرد به الإسلام بين الشرائع يحفظ به لذى الحق حقه ويخفف به حساب الآخرة عن المدين ،ويدفع به ذلة الدين حتى عن ورثته . والنص فى ذلك وارد فى أكثر من موضع من الصحاح .

هذا كله فى البلاد التى للإسلام فيها دولة وحكم نافذ ، أما حيث لا سلطان للإسلام يكفل للمسلم العزة كلها فقد كفل له الإسلام العزة النفسية حين أمره بالهجرة من كل بلد يستضعف فيه إلى بلد يعز فيه ، أو يستطيع على الأقل أن يسلم فيه بدينه ، ولو اضطر أن ينزل بالهجرة عن بعض ماله . لأن الأصل فى الاسلام أن الدين فوق كل شىء من نفس وولد ومال ، فإن عجز عن الهجرة لأمر مانع كان عليه ألا يجيز لنفسه سماع ما يشعره بالذلة فى نفسه من طعن أو لمز فى دينه . فالله سبحانه وتعالى يقول فى سورة الأنعام (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ـ ٦٨) . ويقول فى سورة النساء قبل أن تشتد دولة الاسلام (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره، إنكم إذن مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا ـ ١٤٠) ، وليس بعد تشبيه المسلم المتهاون المتساهل بالمنافق والكافر تهديد ولا وعيد .

وعزة الفرد هي أساس عزة الجماعة ، لكن الإسلام قد أحاط عزة الجماعة المسلمة بسياج من الأحكام والنظم التي تضمن للمسلمين استمرار العزة وإزديادها على الدهر إذا عملوا بتلك النظم والأحكام . والأصل الشامل في ذلك مبدأ الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله . وأعجب مافيه ، وهو مايجهله أكثر المسلمين اليوم ، أن المسلمين جميعا يأثمون بترك جهاد العدو إن لم تقم به طائفة كافية لصده والتغلب عليه . ولم يكن للمسلمين ، في أيام النبي وأيام الخلافة الراشدة ولحقبة طويلة بعدها ، جيش معين محدود ، وإنما كان كل مسلم يحمل عبء الجهاد بالسلاح حين ينتدب له في السرية أو الجيش الذي يؤلف حسبما يقتضيه الظرف الداعي له . والمسلمون بعد ذلك من وراء الجيش مدد له . وكان المسلم القادر يقوم بنفقة نفسه وتجهيزها ، وقد يتحمل تجهيز غيره ، فالجماعة الإسلامية كانت كلها جيشا واحدا بالفعل أو بالقوة والاستعداد .

ولم يترك أمر الاستعداد بالسلاح للفرد وحده ولكن أمرت الجماعة كلها بالاستعداد والبلوغ به إلى أقصى مداه . وهذا هو الأصل الثاني الذي صينت به عزة المجتمع الإسلامي أن تذهب أو تنهار . نزلت بهذا الأصل العظيم سورة الأنفال (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم - ٦٠) . وهذا الأمر موجه إلى الفرد وإلى الجماعة معا . ومن مظاهر العزة في الإسلام ما أوجبه على المسلم من حماية الذمي فيبذل في سبيل حمايته دمه من غير أن يكلفه إلا مبلغا يسيرا مقابل تلك الحماية وهو الجزية .

فاعجب إذن من أمة دينها العزة ثم تهمله لتصير إلى ما صار اليه المسلمون اليوم .

الفصل الثالث

الإسلام دين الكرامة

(وكيف نرد عادية الطاعنين عليه)

هذا موضوع من أجل المواضيع . وأولاها بالعناية والدرس ، فى هذه الأيام التى كثر فيها المجترئون على الاسلام من جهلة أهله . ومن الطامعين فيه من أعدائه .

والطعن فى الإسلام والمساس بالنبى عليه الصلاة والسلام شيء لم يكن يعرف فى البلاد الإسلامية أيام كان للاسلام عزة فى بلاده ، وأيام كان المسلمون يعيشون بالإسلام وللأسلام . والنظام الإسلامى الذى أحكمه الله للناس حين أتم لهم الدين كفيل بحفظ كرامة الإسلام فى بلاده وخارج بلاده ، كما هو كفيل بصيانة البيئة الإسلامية من كل ما يضعف سلطان الإسلام فيها . ولكن المسلمين لم يخلصوا لذلك النظام فى العصور الأخيرة ، ولم يحرصوا على تنفيذه ، فدخل فى البيئة الاسلامية الفساد ، وكان من عوارض الفساد هذا الطعن الذى منه يشكون .

إن الاسلام دين العزة ، وهو أيضاً دين الحرية الصالحة فهو يكفل حرية الفرد فى دائرة مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فكما منع الفرد أن يعتدى على نفسه وعلى غيره بعقابه على مثل السرقة والخمر والزنا ، وبمنعه من أمثال الميسر والربا ، كذلك منع الفرد فى البيئة الإسلامية أن يفتح باب الهلاك على نفسه وعلى غيره بالطعن أو ما يشبه الطعن فى الإسلام من أى الوجوه .

إن الطعن فى الإسلام إذا صدر من مسلم كان كفراً يستتاب[١] صاحبه أو يقتل ، وإذا صدر من ذمى كان خيانة تبرأ ذمة الإسلام من مرتكبها . والطعن فى الإسلام أو فى القرآن أو فى الرسول صلوات الله وسلامه عليه نوع من محاربة الله ورسوله من غير شك، ومن السعى فى الأرض بالفساد ،لأنه سعى فى إفساد عقيدة الناس ، وتعريضهم للهلاك الروحى الأبدى ، فهو أخطر أنواع محاربة الله والأفساد فى الأرض. والله سبحانه يقول: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم — المائدة ٣٣ و ٣٤) .

وهذه الآية الكريمة تدل من ناحية على عظيم ذنب الخارج على الإسلام المحارب له بتغليظها له العقاب ، ولكنها من ناحية أخرى تبين أن الغرض من هذا العقاب ليس هو التشفى ، ولكن هو الردع وصيانة المجتمع الإسلامى من الفساد والإلحاد أن يطرأ عليه أو ينتشر فيه ، ولذلك يعفو الإسلام عمن تاب من محاربيه قبل أن ينزل به العقاب (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) .

فالأصل فى الإسلام إذن هو تحريم كل ما يشتم منه رائحة الطعن فى الإسلام ، ومنعه فى البيئة الإسلامية منعا باتا ، بل إذا صدر مثله فى دولة غير إسلامية ولم تعتذر منه ولم تمنعه كان ذلك سبباً كافيا لمحاربتها حتى يحكم الله بين المسلمين وبينها بالحق وهو خير الحاكمين ،

فإثم المسلمين بإباحتهم الطعن فى دينهم وسكوتهم عنه وصبرهم عليه فى بلادهم، باسم حرية الرأى أو حرية التفكير ، هو من غير شك إثم كبير كاف وحده

---

(١) أى يطلب منه التوبة .

لتعريضهم لغضب الله عليهم وإنزاله بهم صنوف العذاب والهوان ، حتى يتوبوا أو يرجعوا . وليس من المعقول أن يكفل الإسلام حرية التدين فى بلاده لغير المسلمين ، ويصون لهم بيعهم وكنائسهم ، ويدافع عنهم ما داموا فى ذمته ، ويجعل القاعدة فى معاملتهم « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ليس من المعقول أن ينصف الإسلام غير المسلمين فى بلاده هذا الإنصاف ولا ينصف نفسه ولا أهله بمنعه كل طعن فى الدين أو تجريح له من أى إنسان كائنا من كان .

فأمثل الطرق وأخصرها إلى المحافظة على كرامة الإسلام من هذه الناحية إذن هو منع كل طعن فى الإسلام وإنزال العقاب المناسب بمن يجترىء على ذلك . لكن هذا المنع لايمكن تحقيقه إلا فى بلاد الحكومة فيها إسلامية والحكم فيها لله . بلا تقصير من حكومات البلاد الإسلامية فى هذا وتفريط من المسلمين . فواجب المسلمين فى البلاد التى لهم فيها كثرة أن لايهدأوا ولا يطمئنوا حتى يحملوا حكوماتهم على صون كرامة الإسلام من كل طعن أو تجريح ، صيانة تامة . فلا يبيحوا نقداً لكتاب الله ولا لرسوله باسم حرية الرأى أو حرية الفكر أو حرية النقد أو حرية البحث أو ماشاء الشيطان أن يخترع للناس من أسماء ، يحارب الإسلام من وراء ستارها ويهون بها الأمر على المسلمين.

إن الذى يميز الإسلام عن غيره من الأديان أنه دين جاء ليجعل الحكم على الأرض لله ، والذى ميز المسلم الأول من غير المسلم هو أنه كان يضحى بنفسه فى سبيل الله ، فدينه كان أعز عليه من نفسه ومن ولده ، وهـــذا هو اللازم الأول من الحديث الكريم الذى معناه « لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه » والمسلم الذى يبتغى الرضا من الله والنجاة من النار يجب أن لايعدل بهذا الروح الإسلامى شيئاً من حطام الدنيا إن كان لديه ذلك الروح ، فإن لم يكن لديه فليعرف أنه على خطر وأنه على شفا جرف هار يوشك أن ينهار به فى نار جهنم ، وإذن فلا ينبغى له الهدوء ولا الإستقرار ولا الطمأنينة حتى يودع هـذا الروح فى نفسه ، وحتى يحس

الواقع فلم يبق ما يستند إليه إلا الشعر أى ما يتمثل فى ذلك الدين من معان شعرية وقيم أخلاقية لا غنى للإنسان عنها بحال .

وقرأ ذلك وشبهه بعض مقلدى الغرب من المسلمين فظنوا أن ما ينطبق على الدين هناك ينطبق على الدين هنا ، من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث عن الدينين . هل هما مشتركان فى مخالفة اليقينى من العلم حتى يشتركا أيضاً فيما يترتب على تلك المخالفة من حكم ؟ » .

وبعد ذلك يقدم حقيقة الإسلام واضحة جلية للشاردين فيقول :

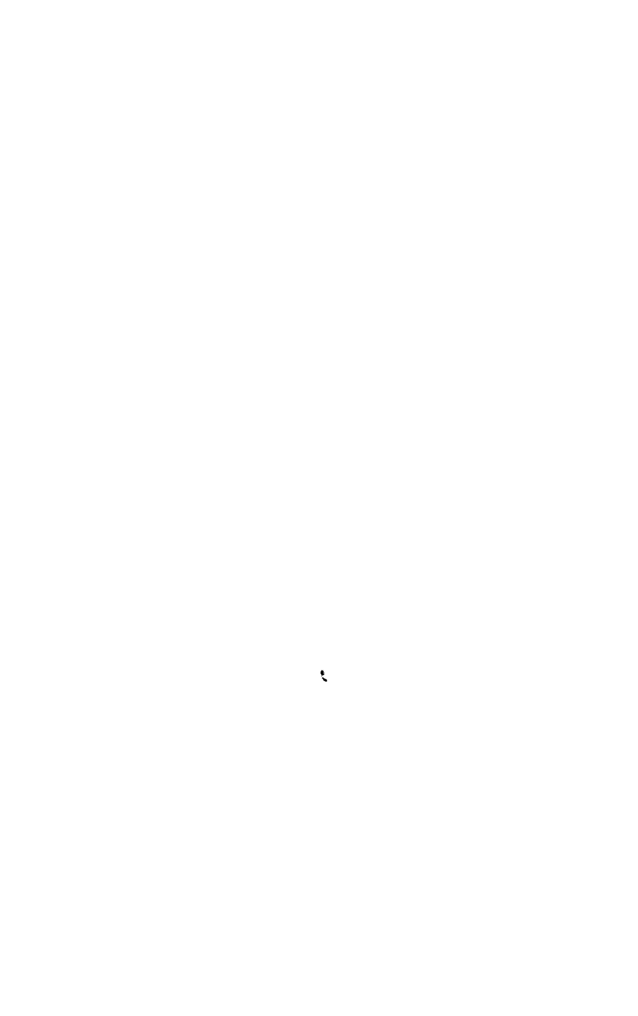
« ومن العجيب أن الإسلام ، الذى يرمونه بداء غيره فينسبون إليه معاداة العلم أحيانا ومنافاة العقل أحيانا ، ومجافاة الفطرة أحيانا ، هو وحده من بين الأديان السماوية الذى احتضن العلم وتحاكم إلى العقل ، وميز الحق بخصائصه . وما عليك إلا أن تردد النظر فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة ، لترى الدليل تلو الدليل على أن الإسلام هو دين العلم والعقل والحق ، وأنه هو وحده من بين الأديان السماوية الذى عرف الفطرة وسماها باسمها ، ووصفها بأوصافها ، وشهد لنفسه أنه دين الفطرة ، بل أنه نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها » .

وكتاب : « الإسلام فى عصر العلم » الذى نقدم له من الآثار الباقية للدكتور الغمراوى . . نأمل أن يكون بين يدى كل مسلم يقرأ سطوره ويتدبر أهدافه ويفيد منه علماً وتوجيهاً .

رحم الله الدكتور الغمراوى وأجزل ثوابه ، وأنزله أكرم المنازل ، وأحفلها كرامة ورضا ، كفاء ما قدم لدينه وبذل خالصا من جهده ، وهو وحده المرجو والمسئول ؟

٤ من جمادى الآخرة ١٣٩٣ هـ
٤ من يوليه ١٩٧٣ م

دكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر



بين يدى الكتاب

بقــــلم

الدكتور عبد العزيز كامل

نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية ووزير الأوقاف

هذا كتاب عن « الإسلام فى عصر العلم » قرأته مخطوطا عندما أطلعنى عليه الأستاذان الجليلان « الدكتور محمد جعفر » و « الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى » .

وكانت لمسة وفاء منهما للكاتب الإسلامى الكبير أستاذنا الدكتور محمد أحمد الغمراوى .

عاشوا معا ما شاء الله لهم العيش فى أخوة العلم والدين ، وجمع بينهم الخلق الرضى والعكوف على البحث الأصيل والحوار الهادف إلى الحقيقة . ورأى الدكتور الغمراوى الصراع بين العلم والدين الذى وفد إلينا من الغرب ، فإذا به يلقى الضوء بعد الضوء على جوانب الدين والعلم ، لتبدو الحقيقة فى تكاملها : الدين دعوة إلى العلم ، والعلم طريق إلى الإيمان .

وعاش التجربة بنفسه يحاضر فى كلية الصيدلة فى مادته الأصلية ، وفى كلية أصول الدين بالأزهر الشريف فى دينه . ويضم فى عقله وقلبه الثقافة الحديثة والأصيلة ، ويعيشها تجربة حياة خصبة ممتدة : الأخلاق الكريمة تتمثل فى سلوكه ، العلم الرصين يتمثل فى إنتاجه ، الإيمان العميق تبدو ثماره .

يشتد عليه المرض عندما تتقدم به السن ، ويحس العلة تسرى فى كيانه اختبارا من الله وامتحانا . . فيصبر ويعكف على هذه البحوث فى هدوء مطمئن ، وثقة فى الله . يكتب ويكتب فى العقيدة والعلم . . المرض قدر ،

ومغالبته قدر ، وواجبه العلمى قدر . وهو يغالب الأقدار بالأقدار : الإيمان فى قلبه ، والبسمة على شفتيه ، والقلم فى يده . . وكانت من ثمار جهوده المتواصلة، من مطلع شبابه حتى لقى ربه ، هذه الصفحات المشرقة بين يدى القراء وإلى شباب العالم الإسلامى وكل محب للحقيقة ، تضىء لهم طريق التقى والهداية والرشاد .

وإذا كنت أكتب هـذه السطور فإنها بعض الوفاء الذى أحسه لأستاذ جليل طالما قرأت مقالاته ، وتمنيت أن يضمها كتاب وقد يسر الله ذلك . . يتحدث إليك حديث صاحبه العالم المؤمن .

أدعو الله أن يجزى أستاذنا الغمراوى عن العلم والدين خير الجزاء ، وأن يبارك فى صحبه الأوفياء ، ولاسيما الذين عكفوا على بعض تراثه حتى أخرجوا هذا الكتاب العظيم ؟

عبد العزيز كامل

الكويت فى ١٨ من جمادى الأول ١٣٩٣
١٨ من يونيو ١٩٧٣

المؤلف والكتاب

بقلم

الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى وكيل وزارة التربية والتعليم سابقا

محمد أحمد الغمراوى :

ولد الأستاذ محمد أحمد الغمراوى - رحمه الله - بمدينة زفتى بمحافظة الغربية فى التاسع من شهر يونيو عام ١٨٩٣ ، وكان الرابع بين إخوة خمسة . . حفظ القرآن كله بالمدينة ليلتحق بالأزهر الشريف مثل إخوته . . لكن خاله رأى أن يكون أحد الأبناء طالبا للعلوم الحديثة ، فدخل أستاذنا الراحل المدرسة الابتدائية بطنطا ، وأتم تعليمه الثانوى معى بالمدرسة الخديوية بالقاهرة عام ١٩١١ . والتحقنا بالقسم العلمى بمدرسة المعلمين العليا وتخرجنا منها عام ١٩١٤ .

وكان يعيش أثناء دراسته بالقاهرة بين إخوته الذين التحقوا بالأزهر الشريف . فكان يستمع إلى مناقشاتهم ، ويشترك فى ندواتهم ، لذلك تفوق على أقرانه فى علوم اللغة والدين ، لما حباه الله به من ذكاء ونبوغ . وكان رحمه الله متفوقا طوال مدة دراسته ، متحليا بأجمل الصفات والقيم محافظا على واجباته الدينية .

اشترك فى عام ١٩١٤ فى تأسيس « لجنة التأليف والترجمة والنشر » مع نخبة من أصدقائه النابهين، أمثال المغفور لهم الأستاذ الدكتور أحمد أمين، والأستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، والأستاذ أحمد حسن الزيات ، صاحب مجلة الرسالة ، وكذلك الأستاذ الدكتور أحمد زكى ، رئيس تحرير مجلة العربى ، ومدير جامعة القاهرة الأسبق ، وزميله وصديق صباه كاتب هذه السطور أحمد عبد السلام الكردانى .

عمل المرحوم الغمراوى مدرسا بالمدارس الثانوية للجمعية الخيرية الإسلامية بعد أن تأجل سفره للبعثة العلمية بانجلترا بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى ،

حتى كان عام ١٩١٦ فسمح له بالسفر للتخصص فى الكيمياء والطبيعة . وكان طول مدة دراسته بانجلترا — كما كان فى مصر — مجدا متفوقا . وكان لشخصيته وأخلاقه أكبر الأثر فى إخوانه المصريين الذين زاملوه فى الدراسة بالخارج . وكنت معه حريصين على الذهاب إلى (ووكنج) إحدى ضواحى لندن حيث تقام صلاة العيد فى مسجدها . وفى لندن تقابلنا مع مولاى محمد على (الهندى)، أول من ترجم القرآن ، ومع الانجليزى المسلم « المستر مارما ديوك بكتول » الذى ترجم معانى القرآن ، وحضر إلى القاهرة ، قبل طبع الترجمة ، ليراجعها مع صديقه المرحوم الأستاذ الغمراوى .

ولما عاد من انجلترا عمل فترة فى التدريس ، ثم انتقل إلى معامل وزارة الصحة ، ومكث بها إلى أن اختير أستاذا للكيمياء بكلية الصيدلة . وكان هناك أيضاً مثلا رفيعا فى سعة العلم ودقة البحث، وقدوة حسنة فى خلقه وتدينه، لزملائه وطلابه إلى أن أحيل للمعاش . وفى عام ١٩٦٠ دعى إلى السعودية فأسس كلية الصيدلة بجامعة الرياض ، وظل يعمل بها أستاذا وعميدا لمدة ثلاث سنوات .

وعلى الرغم من مسئولياته العلمية فإن ذلك لم يشغله عن متابعة البحث فى علوم القرآن من لغة وتفسير ، وظل اتصاله بإخوانه وأصدقائه الأزهريين الذين كان تقديرهم له عظيما ، وظل هذا الاتصال وطيدا حتى قال له المغفور له الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى « لولا أن لائحة الأزهر لا تسمح بمنح إجازة العالمية لغير الخريجين فى معاهد الأزهر لمنحناك الإجازة الفخرية للأزهر » .

وظل اتصاله وطيدا بصفة خاصة بالبحوث القرآنية ، ومن ثم عهدت إليه إدارة الأزهر الشريف بالتدريس فى كلية أصول الدين ، واستمر يدرس فيها فى عهديها القديم والحديث . وطبعت له « لجنة التأليف » بعض محاضراته فيها بعنوان : « فى سنن الله الكونية » . وفى السنوات الأخيرة كان يدرس لطلبة الدراسات العليا بنفس الكلية ، وكانت محاضراته ومذكراته فريدة فى سعة الاطلاع ودقته . والتعمق فى تفسير الآيات الكونية . وقد استنبط بفكره الثاقب وعقليته العلمية تفسيرات جديدة تبين تطابق المعانى الواردة فى تلك

الآيات مع أحدث الحقائق العلمية ، التى لم تكشف إلا فى العصر الحديث . كما بين أنه ليس فى حقائق العلم الثابتة ما يتنافى مع آيات القرآن ، بل أثبت أن بعض آياته تنبأت بكثير من الظواهر الكونية التى كانت مجهولة عند نزول القرآن .

ولفت — رحمه الله — النظر إلى أن القرآن يخاطب الناس على قدر عقولهم من غير مخالفة للحقائق العلمية ، فيفهمون نصوص الآيات بقدر ما يتيسر لهم من العلم فى كل زمان، حتى إذا قيض الله لبعض رجال العلم اكتشاف حقائق جديدة ، وجدوا فى معانى القرآن ماينم عن تلك الحقائق . مثال ذلك قوله تعالى كناية عن حركة الأرض اليومية : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » ، وقوله « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » كناية عن نفس الحركة وعن شكل الأرض . وقوله تعالى كناية عن حركة الأرض السنوية « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » و « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » .

وعارض - رحمه الله - بعض المفسرين القدامى فيما ذكروه ، واستنبط ، بثاقب عقله وواسع اطلاعه وتمكنه العلمى والدينى، تفسيرات جديدة أدق، تتمشى مع المكتشفات العلمية الحديثة .

وقد حفلت المجلات الإسلامية . وبخاصة مجلة « الأزهر » بمقالاته الممتعة فى هذا الصدد، ومنها تلك السلاسل التى كتبها تحت عنوان « دلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله » و « السماء فى القرآن وفى العلم » و « الجبال فى القرآن » . كما أن مذكراته للطلبة التى دونوها بالآلة الكاتبة فى كراستين واحدة بعنوان « إسلاميات » والأخرى بعنوان « سنن كونية » غاية فى الإبداع .

وأخيراً أشير إلى أن من أمتع المقالات التى كتبها رحمه الله مقالا نشر فى مجلة لواء الإسلام فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ بعنوان: «الطواف من الفطرة» يقول فيه إن العلم الحديث يبحث عن أسرار الفطرة، وفاطر الفطرة هو الذى تعبد الإنسان بالطواف حول الكعبة بالبيت الحرام، فليس يمتنع أن يكون الطواف رمزا إلى سر عظيم تستوى فيه الروح والمادة ، وأن يكون فيما كشف عنه العلم من

أسرار الفطرة ما يدل عليه أو يشير إليه . ولا يكاد الناظر يتجه هـذا الاتجاه حتى يتكشف له ، فيما كشف العلم عنه من حقائق الفطرة ، نظائر للطواف ، ثم تتكاثر عليه النظائر حتى ليوقن أنها مظهر لسنة لله عامة فى الخلق أهم وأجل كثيرا فى دلالتها مـا يخطر لأول وهلة على البال .

فهنالك المجموعة الشمسية كل ما فيها يدور أو يطوف حول مركز ، والذرة تطوف إلكتروناتها حول نواتها ، حتى ليشبهونها بالمجموعة الشمسية ، فهى كلها فراغ تتوسطه نقطة مادية، يدور حولها عدد من الكهيربات ، أخف كثيراً من النواة . فالطواف ظاهرة منتشرة فى الفطرة من الذرة إلى المجرة ، وفى جميع الحالات المطوف به دائما واحد والطائفون متعددون . ألا يريك هـذا وجه الشبه واضحا بين هذا الطواف وبين الطواف الذى هو قوام الحج ، ويفتح بابا من التدبر ، وأفقا واسعا من التفكير ، فى حكمة الطواف ، ودلالة انفراد الإسلام به من بين الأديان ؟

الكتاب :

لقد دعانى كل ذلك إلى القيام بجمع هذا الكنز العلمى وتنسيقه وترتيبه، تمهيدا لطبعه فى كتاب ونشره لينتفع به المسلمون فى جميع أنحاء العالم ، ولاسيما شبابهم الذين كاد الغرب يضلهم عن دينهم ، بكتبه ونشراته الخبيثة التى ينفث فيها سمومه اللادينية ، ويصورلهم فيها دينهم بصورة بشعة رجعية. كما أرجو إذا ترجم بعض ذلك إلى اللغات الأجنبية أن يهتدى به البعض من غير المسلمين إلى دين الله الحنيف .

والتقسيم الذى رأيته لهذا الإنتاج العلمى الدينى القيم للعالم الراحل هو :

الكتاب الأول : « الإسلام دين الفطرة » يستعرض التطابق التام بين الإسلام والفطرة ، والتحدث عن الإسلام بوصفه دين العزة ، ودين الكرامة ودين الوفاء، وعن صلته بالمدنية، وبسنن العلم وسنن الاجتماع، وبيان أن الطريقة العلمية هى نفسها طريقة القرآن، ولاسيما من حيث اعتمادها على المشاهدة وإعمال

الفكر ، واستغلالها حواس الإنسان (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

والكتاب الثانى : « محمد رسول الهدى » يستعرض عظمته صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ، ويبين أنها كانت تبيانا وتفصيلا لما أجمله القرآن الكريم ، وأنها محصت بما لم يمحص بمثله شىء فى تاريخ البشرية ، ومن ثم فهى غير قابلة لأى تعديل أو تنقيح . ثم يفيض فى الكلام عن معجزاته ، وأخيرا يتعرض الكتاب إلى ما تخرص به المستشرقون عنه صلى الله عليه وسلم ، ويفند أقوالهم التى وصفته بأوصاف معيبة ، حاشا لله أن يصدق أى شىء منها عليه صلى الله عليه وسلم .

والكتاب الثالث : « القرآن المعجزة الخالدة » يستعرض ثناء الله سبحانه وتعالى على القرآن وعظمته وحفظ الله إياه وجعله مهيمنا على غيره من الكتب . ثم يفيض فيما حواه القرآن من إعجاز بيانى وبلاغى، وقف فصحاء العرب حياله مبهوتين، عاجزين عن أن يأتوا حتى بمثل أقصر سورة فيه. وقد أنبأهم الله سبحانه وتعالى مقدما بهذا العجز فى قوله « ولن تفعلوا » فى الآية : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم استعرض دلالات الأسلوب والمعانى وضمائر الجلالة والرسالة فى القرآن وبصفة خاصة فى قصصه ، ودلالة ذلك كله من واقع القرآن نفسه على أنه من عند الله .

والكتاب الرابع : «الإعجاز العلمى للقرآن» هو فتح جديد فى هذا الميدان . ولما كان القرآن مخاطب به الإنسانية كلها ، وأعجميها أكثر من عربيها ، فلا بد لها من إعجاز غير الإعجاز البيانى والبلاغى يقنعها، وهو هذا الإعجاز العلمى الذى فيه من وسائل الإقناع للناس على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ما يقره كل ذى عقل مجرد من الهوى والتعصب، دليلا على أن القرآن من عند الله . فالمؤلف رحمه الله يتصدى لتفسير كثير من الآيات الكونية الواردة فى القرآن فى ضوء ما أثبته العلم

الحديث فيبين أنها تنبأت بكثير مما لم يعرفه الإنسان إلا بعد نزول القرآن بعدة قرون . ومن العجيب أن القرآن يورد هذه الحقائق فى أسلوب حكيم خاص به يفهم منه الناس وقت نزوله على قدر عقولهم وما يبدو لهم فى الكون ثم بتقدم العلوم والوصول إلى حقائق جديدة نجد آيات القرآن الحكيم تتفق معها وبذا يتجدد ايمان الناس بإعجاز القرآن كلما ظهرت لهم حقائق جديدة يرون القرآن قد أشار إليها أو عبر عنها .

ومن الموضوعات الشيقة التى تعرض لها توضيح أطوار خلق السموات والأرض المستمد من بعض آيات سورة فصلت : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » ، وآية الأنبياء : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .

وكذلك بيان الإعجاز فى آية سورة يس : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » ، بعد أن أثبت العلم اليقينى أن للشمس حركة ذاتية واقعية فى الفضاء مقدارها نحو ١٢ ميلا فى الثانية واتجاهها نحو نجم النسر الواقع المسمى (فيجا) بالإنجليزية .

والفصل الأخير فى الكتاب يبين ببراعة « إحاطة القرآن باختراعات الإنسان » مصداقا لقوله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ، فاستنبط مثلا من قوله تعالى : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » ، أن المقصود من عبارة « من مثله » وسائل نقل تشترك مع الفلك فى أهم خاصة لها أو صفتها الأساسية وهى كونها « تسبح » فى الماء ، حقيقة لا مجازا ، أثناء انتقالها . ووسائل الانتقال فى الجو ينطبق عليها ذلك الوصف لأنها تسبح فى الهواء كسبح الفلك فى الماء . إلى غير ذلك من الاستنتاجات

العلمية الدقيقة من الآيات الكونية الكثيرة الواردة فى القرآن ، وجد فيها إشارات إلى الصواريخ والأقمار الصناعية والدبابات والغواصات .

ومن طريف ما ورد فى هذا الصدد تبريره لأهمية « الشفع والوتر » التى تبرر أن يقسم الله بها ، مبينا أن خواص العناصر ولا سيما من حيث فاعليتها أو عدم فاعليتها يتوقف على أن يكون عدد الالكترونات الموجودة فى ذراتها وتدور حول نوياتها زوجيا أو فرديا (شفعياً أو وتريا) .

وبعد ، فإنى أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا الإعداد لهذا الكتاب النفيس، سائلا المولى سبحانه وتعالى أن ينفع به عباده ، ويهديهم إلى طريق الحق والصراط المستقيم، ولا سيما الشباب منهم ، والله الموفق والهادى والنصير .

بقى أن أسجل بالشكر والامتنان ما بذله إخوان لى أوفياء فى سبيل هذا العمل من جهد وعناية ، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد داود التنير ، الذى أبدى لى كثيرا من الملاحظات القيمة أثناء إعداد الكتاب لا سيما فيما يتعلق بالتبويب و بعناوين الكتب والفصول . والأستاذ الدكتور لبيب السعيد الذى راجع الكتاب كله بدقة ولا سيما الآيات القرآنية وترقيمها ، والأستاذ نبيل الجداوى الذى عاونى فى كثير من خطوات الإعداد .

وأخيراً أقرر أن معظم الفضل فى إخراج هذا الكتاب يرجع أولا وأخيرا إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد جعفر وشقيقه الدكتور إبراهيم جعفر صهر المرحوم المؤلف . كما قامت السيدة كريمة المرحوم الغمراوى وقرينها الأستاذ مصطفى كامل خليل بالمعاونة فى قراءة التجارب النهائية لملازم الكتاب قبل طبعها . أثابهم الله جميعاً ؟

يوليه ١٩٧٣ أحمد عبد السلام الكردانى



الكتاب الاول

الإسلام دين الفطرة

ويشعر بما كان يحس ويشعر به المسلمون الأولون فى زمن الرسول صلوات الله عليه وفى عهد خلفائه الراشدين .

كذلك أمر الله المسلمين بمعاداة الملحدين وعدم اتخاذهم أولياء . وهذا أمر يملكه المسلمون — من غير شك — يحاربون به الخارجين على الدين الملحدين فيه من أهله أو من غير أهله. والآيات الواردة فى هذا المعنى كثيرة. فمنها الآيات العامة ، مثل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) مفتتح سورة الممتحنة. ولكى لا يخطىء المسلمون ويسووا فى العداوة بين من يؤذيهم من غير المسلمين ومن لا يؤذيهم أنزل عليهم من نفس السورة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون — ٨ و ٩) ، والذين يحاربون الدين بالقلم واللسان ، كالذين يحاربونه بالسلاح ، لا ينبغى أن يتخذهم المسلم أولياء .

على أنه لا داعى للقياس فى هذا ، ففى القرآن الكريم ما هو صريح فيما نحن بصدده ، مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون — المائدة ٥٧ و ٥٨) .

ومثل هذا فى تأديب المسلمين والتشديد عليهم فى هذا الموضوع الخطير قول الله سبحانه فى الآية ٢٢ من سورة المجادلة (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أوعشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب

الله ألا إن حزب الله هم المفلحون). وهى آية بحمد الله جامعة. تنذر المتهاون فى هذا بما يكاد يخرجه من دائرة المؤمنين، وتبشر من لا يواد من حاد الله ورسوله — والطاعنون فى الدين من هؤلاء من غير شك — بأنه من حزب الله المفلحين، وليس بعد هذا عذر فى مسالمة الملحدين فى الدين من المنتسبين للإسلام أو من غير المسلمين .

على أن معاداة الملحدين وقطع مودتهم يجب أن تتخذ صورة عملية فعالة . فلا يكتفى بمجرد المقاطعة فى المجالس وعدم مبادلتهم المجاملة . بل يجب تجاوز ذلك إلى مقاطعتهم فى المعاملة ، فلا يشترى منهم ولا يباع لهم ، ولا يتزوج منهم ولا يصهر إليهم ، ولا يعانون على شىء من أمر الدنيا فى يد المسلم أن يعينهم عليه ، ولا يظهر المسلم لهم شيئاً مهما صغر من مظاهر التوقير والاحترام مهما كان لهم من غنى أو جاه . وهذا سلاح بيد المسلمين قاطع ، لو استعملوه وأجمعوا عليه لم يجرؤ واحد من عباد الباطل على التعرض للإسلام فى صغيرة أو كبيرة بتهكم أو استهزاء .

وإجماع المسلمين فى أى بلد على مثل هـــذا أمر صعب ، لضعف الروح الإسلامى فيهم وعدم استعدادهم كلهم للتضحية بشىء من دنياهم فى سبيل دينهم — مع أنهم لو قاطعوا أعداءهم وقصروا معاملتهم على أنفسهم ومن وفى لهم من غير المسلمين لأقبلت عليهم الدنيا ولاضطروا غيرهم إلى احترامهم واحترام دينهم . لكن إذا كان مثل هـذا الإجماع اليوم صعبا لضعف الروح الإسلامى ، فإنه ينبغى النظر فى أسباب هذا الضعف وتجنبها فى تربية النشء الإسلامى الحديث، حتى ينشأ جيل من المسلمين يعتزون بالإسلام ، ولا يعدلون به كائنا ما كان .

* * *

وأسباب ضعف الروح الإسلامى فى البالغين من المسلمين اليوم يمكن إجمالها فى شىء واحد هو سوء التربية الإسلامية . وإذن فعلى المسلمين أن يعنوا العناية

كلها بإنشاء أولادهم نشأة إسلامية فى مدارس إسلامية ينشئونها من أجل ذلك ، ولا يدعوا أولادهم فريسة للمدارس غير الإسلامية الروح ، تربيهم على غير غرار الإسلام ، وتخرجهم عنه بالتدريج . فإن المسلمين إن لم يصونوا أولادهم — وهم صغار — عن تحكم الملحد أو غير المسلم فى عقولهم ونفوسهم ، لم يكن لهم أن يعجبوا من خروجهم — وهم كبار — عن طريق الدين — ومتابعتهم من يطعنه باسم العلم أو الأدب أو حرية الرأى أو حرية التفكير .

☆ ☆ ☆

فإذا كان للمسلمين مدارس غير إسلامية الروح والتربية فليسرعوا وليحولوها إسلامية، وإذا لم يكن لهم مدارس إسلامية لتربية النشء فليسرعوا ولينشئوا هذه المدارس ما دام فيهم الأغنياء القادرون . فإذا لم يكن معهم الأغنياء ، أو كانوا فيهم وبخلوا على دينهم وأمتهم وأنفسهم بما يحفظ عليهم العزة والكرامة وينجيهم جميعا من العار ومن النار ، فإن على الفقراء أن يتساندوا ويتعاونوا عن طريق التبرع بالقليل المستطاع الدائم — فى كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر — بما يكفل إقامة مدارس إسلامية تصون أطفال المسلمين عن التربى فى مدارس غير المسلمين . وكثرة الفقراء تجعلهم والحمد لله قوة ، وتجعلهم إذا أجمعوا واستمروا على التبرع بالقليل أغنياء . فهم فقراء أفراداً متفرقين .. لكنهم فى الواقع — لو عرفوا — أغنياء مجتمعين . وهى حركة تحتاج إلى تنظيم .

على أنه — حتى يمكن القيام بهذا — لا ينبغى التوقف والانتظار ، فإذا لم تكن مدارس حاضرة فهناك المساجد يجب أن يحمل النشء على التردد عليها وكثرة شهود الجماعة فيها ، ويجب أن يكون فى كل مسجد عالم بالدين لبق يلقن رواد المساجد من قرآنهم وحديث نبيهم وتاريخ نشأة الإسلام ما هو كفيل بتنمية الروح الإسلامى فى النشء وتقويته فى صدور من فات دور النشوء من المسلمين . وقديما كانت مساجد المسلمين فى العهد الأول هى مدارسهم . وهى دور ندوتهم ، فلماذا لا يستعيد المسلمون ذلك وهم أحوج ما يكونون إليه ؟ .

ومن وراء المساجد توجد البيوت، فكل مسلم يملك بيته إن لم يملك المدرسة، وعليه أن يجعل جو البيت إسلاميا صرفا ، وعلى المؤتمر الإسلامى الموقر أن يضع نظاما يعين الناس على ذلك ويبصرهم بطريقته ، نظاما يكفل فيما يكفل أن يمر بكل بيت بعض اللبقين الصالحين من العلماء — إن لم يكن كل يوم فكل بضعة أيام — ليعلمهم أمور دينهم فى لطف وترغيب وترهيب من الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة .

وأهمية هـذا كله — فيما نحن بصدده من رد طعن الطاعنين فى الإسلام وحفظ كرامة الدين — هو تسليح النشء الإسلامى بالروح الإسلامى المعتز المقاوم الذى لا يبالى فى سبيل الإسلام بالتضحية . والذى يقدم دينه على كل شىء . ثم تسليحه مع ذلك وقبل ذلك بالاطلاع الكافى على حقائق الإسلام ، وبالأخص على تاريخ الرسول ، حتى يستطيع كل فرد أن يدحض من نفسه ولنفسه طعن الطاعنين إن سمعه عفوا فى حديث أو وقع نظره عليه فى صحيفة أو كتاب لأى سبب من الأسباب .

وخير طريق لإكساب الناشىء المسلم هذه المقدرة ليس هو دراسته تفاصيل الأحكام الفقهية ، ولكن هو : أولا قراءة حصة يسيرة من القرآن كل يوم . وثانيا دراسة السيرة النبوية مجملة أولا ، ثم أكثر تفصيلا بعد ذلك ، مع العناية بما فيها للرسول من خطب وأحاديث . وسيرة الرسول صلوات الله عليه سهلة المأخذ سهلة الفهم على الصغير ، لأن الصغار مولعون بالقصص ، وخير القصص، بعد القرآنى منه ، هو من غير شك سيرة الرسول . وثالثا دراسة تاريخ الخلفاء الراشدين وخصوصا ما اتصل منه بالحروب والفتوح .

إن الناشىء المسلم إذا بلغ دور الشباب وقد عرف ذلك وتسلح به لن يضره مطلقا ما يصل إلى سمعه أو بصره من مطاعن فى الدين ، وسيكون هو أول الرادين على تلك المطاعن من تلقاء نفسه بما فيه مقنع لها من بين ما علمه عن الإسلام ، فإن مطاعن الطاعنين كلها تخييل ومغالطة تجوز على المسلم الجاهل

بدينه ، ولكنها لا يمكن أن تجوز على مسلم عرف حقيقة دينه من كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذا هو فى رأينا خير طريق لاتقاء شر طعن الطاعنين فى الإسلام وللمحافظة على كرامته فى نفوس المسلمين ، ترون أنا لم نعر دحض الطاعنين بالجدل والمناقشة اهتماما . لأن ذلك فى رأينا أضعف الطرق وأقربها إلى إغراء الطاعنين ، ولفت نظر غير الملتفت إليها من الناشئين . فإن كان لابد من ذلك فى مقام يدعو إليه فليكن الرد طبعاً مبنياً على الحق من التاريخ أو من العلم ، ولكن ليكن الرد — أيضاً — مفرغا فى قالب من التهكم ، والسخرية بالطعن والطاعنين من قريب أو من بعيد ، حتى يشعر الطاعنون دائما أن ليس لطعنهم قيمة ، وحتى يشعر المسلم القارىء للرد أن العزة له ، وأن مثل تلك الطعون يجب أن لاتلقى من المسلم إلا الاحتقار . واتباع هذا الأسلوب يحتاج إلى لباقة لكنه دائما ممكن ، لأن الطاعن فى الإسلام مبطل ، والباطل مقاتله كثيرة وهى دائما بادية سهل إصابتها .

وإذا كان الطاعنون كثيراً مايستعينون على محاربة الحق بالتهكم والاستهزاء ، ليوحوا إلى قرائهم أنهم أقوياء ، فأحرى بجنود الحق المدافعين عن دين الله أن يقاتلوهم بمثل سلاحهم ليصغروهم فى نفوس من يقع على ذلك من المسلمين ، خصوصا العوام منهم والناشئين ، وذلك مع عدم الإخلال بمواضع الحق . والتهكم المقترن بالحجة القاطعة يجهز على الخصم ، وكلاهما سهل على من يدفع بالحق ويدعو إلى الحق كالمتعرض للدفاع عن دين الله .

الفصل الرابع

الإسلام دين الوفاء

الإسلام دين العزة ودين الكرامة ودين القوة، وهو أيضا دين الوفاء. وقد علم الله كم تحمل العزة والقوة أهلها على الغدر والنكث ، وأن الوفاء لا بد منه لاستقامة الأمور بين الأفراد والجماعات ، ثم بين الأمم ،فأكد أمره على الناس كل التوكيد فيما شرع لهم من الدين الكامل ، دين الإسلام . وإنك لترى فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من ذلك العجب العجاب . فمما يحض على الوفاء بين الأفراد والجماعات ، مسلمة وغير مسلمة ، قوله تعالى من سورة الإسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا - ٣٤) وقوله فى مفتتح سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود - ١) . والإسراء أول سورة مكية أمر فيها بالوفاء ، والمائدة من أواخر السور المدنية ، لم ينزل بعدها إلا سورتا التوبة والنصر. فكأن آية الإسراءفى عمومها تأصيل لمبدأ الوفاء بالعهد ، وتمهيد للتفصيل الذى نزل بعد ذلك فى إيجاب الوفاء وتوكيده أثناء العهدين المكى والمدنى وكأن آية سورة المائدة فى عمومها وتأخر نزولها توكيد وإجمال لما نزل من تفصيل .

وفى السور المكية بعد الإسراء أربع سور متفرقة نزلت بتوكيد الوفاء هى بترتيب نزول الوحى بها : الأنعام والنحل والمؤمنون والمعارج . ففى سورة الأنعام جاء الأمر بالوفاء بين الوصايا العشر التى وصى الله بها عباده فى الآيات الثلاث الأولى من ربع (قل تعالوا) ، إذ يقول سبحانه فى ختام الآية الثانية منها (وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون — ١٥٢) ونسبة العهدهنا إلى الله سبحانه إيذان بأن العهد الذى يقع فى ظل الإسلام إنما هو عهد الله ، وفى هذا من توكيد الوفاء ما فيه .

أما فى سورة المؤمنون فقد جعل الله الوفاء من صفات المؤمنين الذين كتب لهم الفلاح ، فقد افتتحت السورة بقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون — ١ و ٢) هذا إلى صفات ذكرت فى سبع آيات سادستها قوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون — ٨) . وقد كررت الآية نفسها فى سورة المعارج وصفا للمصلين (الذين هم على صلاتهم دائمون — ٢٣) عقب أوصاف أخرى صانهم الله بمجموعها من سيئات هى من طبيعة الإنسان ذكرها سبحانه فى قوله من نفس السورة (إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين ١٩ — ٢٢) . وورود الوفاء فى السورتين للمؤمن المصلى الخاشع فى صلاته الدائم عليها يجعل الوفاء فى الواقع صفة لازمة للمسلم ، إذ الصلاة أول أركان الإسلام بعد الشهادتين . ورعاية الأمانات هى صورة من أهم صور الوفاء زيدت هنا على ما ذكر فى آيتى الإسراء والأنعام .

لكن الذى يستثير العجب ويدعو الى التأمل العميق هى الآيات التى تحض على الوفاء فى سورة النحل (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم ، ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ، إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ٩١ — ٩٥) . وليس الذى يستثير العجب ويستدعى مزيد التأمل فى هذه الآيات هو ما لقيه أمر الوفاء بالعهد والأيمان من توكيد لا يحتاج الى توضيح ثم ليس عليه من مزيد ، لكن موضع العجب والتأمل هو أن هذه الآيات الكريمة تبدو كأنها نزلت فى الوفاء بالعهود والأيمان بين الأمم مع أنها نزلت فى العهد المكى قبل أن يكون للإسلام دولة

تتعامل مع غيرها من الجماعات والدول ، فهل كانت إرهاصا (١) وبشرى بدولة عزيزة تكون للمسلمين يخشى عليهم فيها أن تغريهم العزة والقوة بنكث العهود التى قد تكون بينهم وبين مخالطيهم من الأفراد والجماعات غير المسلمة ، فجاءت الآيات تحذر وتنهى عن النكث ، وتحث على الوفاء ولو لغير المسلمين ، وإنها لكذلك فيما يبدو ، لكن لا بد لنزولها من سبب .

ويقول ابن كثير فى تفسيره ، أولا أن الأيمان المذكورة فى هذه الآيات هى الداخلة فى العهود ، والمواثيق لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع . وهذا يؤيد ولا يضاد مثار التعجب والتأمل فى الآيات ، ويقول ثانيا ، نقلا عن الطبرى ، ما يفيد أنها نزلت فى تحذير المسلمين الذين بايعوا النبى فى مكة على الإسلام أن تحملهم قلة أصحاب محمد وكثرة المشركين على نقض ما بايعوا النبى عليه . ومهما يكن من خصوصية فى سبب النزول فالقاعدة الأصولية تقول إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب . فالآيات الكريمة تشريع دائم فى الإسلام للناس كافة ، والجماعات عامة ، أن يوفوا بالعهود ولا يتخذوا من الأيمان والمواثيق وسيلة للخديعة والمكر حتى إذا وجدوا فرصة غدروا ، أو وجدوا أمة غير معاهدة أقوى من أمة معاهدة نقضوا عهد الأضعف لينحازوا إلى الأقوى .

وهذا الذى حذر الله منه فى هذه الآيات هو بالضبط ما ارتكبه فى الحرب الماضية والتى قبلها أمم تعد فى قمم الحضارة فى العصر الحديث . ففى الحرب الأولى الكبرى عاهدت انكلترا الشريف حسينا أن تجمع الأقطار العربية الشرقية فى مملكة يكون هو ملكها إن هو ساعدها على الأتراك أعداءها ، فلما ساعدها وانتصرت على الدولة العثمانية ، وخرجت من الحرب ظافرة غدرت به حتى مات فى المنفى . وغدرت بالعرب فى سوريا التى أعطتها لحليفتها فرنسا .

---

(١) إنباء مسبقاً .

وفى فلسطين التى جعلت منها وطنا قوميا لليهود على أن تصان حقوق أهلها المدنية والدينية فيما زعم وعد بلفور ، احتلت هى فلسطين لتنقض هذا الشرط الأعرج بالتمكين لليهود فيها حتى إذا خرجت ظافرة فى الحرب الثانية تخلت عن فلسين لليهود بعد أن كانت جردت أهلها من السلاح ، وأمدت به اليهود ليضربوا شعب فلسطين .

لكن لله سبحانه سنة فى أهل الغدر تقضى بأن تكون الدائرة عليهم، ذكرها سبحانه فى سورة الفتح . (من نكث فإنما ينكث على نفسه) ، هذه السنة العجيبة النافذة جاءت متممة لسنة مثلها سبق ذكرها فى سورة فاطر (ولايحيق المكر السيء إلا بأهله - ٤٣) ثم هى (آية الفتح) بعض آية نصها : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما - ١٠) .

والبيعة المشار إليها بيعة الرضوان فى غزوة الحديبية . فالآية نزلت لسبب خاص ، لكن منطقها عام ، والعبرة كما قلنا من قبل بعموم النص لابخصوص السبب. وسورة الفتح التى نزلت فيها الآية هى خامس سورة مدنية ذكر فيها الوفاء. والسور الأربع قبلها هى البقرة والأنفال والنساء والرعد ، فأما البقرة والرعد فالذكر فيهما من قبيل الذكر فى المؤمنين والمعارج : مدح للموفين ، ووعد لهم بالثواب الجزيل . فلم يبق من السور المدنية التى ذكرت الوفاء وحضت عليه إلا الأنفال والنساء والتوبه .

والأنفال هى ثانية السور المدنية إذ نزلت بعد البقرة ، وفيها حرم الله أخذ المعاهد على غرة بقوله سبحانه لنبيه (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين — ٥٨) لكن العجب العجاب فى توكيد الوفاء بالعهد هو فى قوله (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم

وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير- ٧٢) . فالمسلم المقيم فى الأرض الكافر أهلها له على المسلمين أن ينصروه ولو بالحرب ، إذا اعتدى عليه فى دينه ، إلا أن يكون المعتدى بينه وبين المسلمين ميثاق وعهد . وهذا من أعجب توكيد الإسلام للوفاء بالعهد .

وفى سورة النساء إشارة واضحة إلى المبادرة بقضاء حق الميثاق والعهد ، حتى قبل قضاء حق مثله لأهل الإيمان . وذلك فى حكم المؤمن الذى يقتل مؤمنا خطأ . تأمل معنى قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة — ٩٢) وواضح أن هذه الأحكام تشمل الأحوال التى يمكن أن يكون عليها قوم المؤمن المقتول خطأ ، فهو إما أن يكون من بين المسلمين وحكمه الحكم الأول الوارد فى الآية بدليل قوله (إلا أن يصدقوا) ، وإما أن يكون من قوم غير مسلمين ، وهؤلاء إما أن يكونوا أعداء فلا تدفع لهم الفدية حتى لا يتقووا بها على قتال المسلمين ، وتقتصر الكفارة على تحرير رقبة مؤمنة . وإما أن يكونوا بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق فيبادروا إلى دفع الفدية إلى أهل المقتول ، ثم تستكمل الكفارة بتحرير رقبة مؤمنة . والإشارة التى هى محل الاستدلال هى فى تقديم دفع الفدية إلى أهل القتيل على تحرير الرقبة ، إذا كان قومه أهل عهد غير مسلمين ، وتقديم تحرير الرقبة على دفع الدية أو التسوية بينهما إذا كان القتيل من بين المسلمين .

وفى السورة ما هو أصرح من هذا فى رعاية أهل الميثاق ، وذلك فى حالة استحق فيها أهل النفاق القتل ، واستثنى منهم من كانوا من قوم معاهدين بقوله (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) الآية ٩٠ والآيتين قبلها .

ويصل احترام العهود فى الإسلام إلى غايته فى سورة التوبة (أو براءة)

التي برىء الله ورسوله فيها من المشركين وأمهلهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ثم يقتلون بعدها أينما وجدوا (إلا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين — ٤) فمن التقوى التي يحب الله أهلها الوفاء بالعهد للموفى به، ولو كان مشركا، ومنها قوله بعد آيتين من السابقة (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين — ٧)

أما السنة المطهرة فهى مبينة لأحكام الكتاب مفصلة لمجملها، فلا يوجد حكم فى الكتاب ليس له فى السنة ما يناظره إن كان مفصلا، أو ما يفصله إن كان مجملا، كما نبه إلى ذلك الإمام الشافعي فى الرسالة التي أسس فيها أصول الفقه. وأظن الآيات السالفة التي أثبتت أن الإسلام حقا دين الوفاء هى من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعزيز من السنة. على كثرة النصوص المعززة فيها، اللهم إلا مثلا من عهد النبي ومثلين من بعده تبين كيف كان النبي والمسلمون ينفذون تلك الأحكام حتى فى أشد الظروف. أما المثل الأول فى عهد النبي فهو تسليم ابن جندل المسلم لأبيه الكافر فى غزوة الحديبية تنفيذاً لشرط كان النبي قد وافق عليه، وقال مخاطبا أبا جندل « ياأبا جندل اصبر واحتسب فإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا، وإنا لن نغدر بهم ».

ومثل أبي جندل أبو بصير، لجأ إلى المدينة بعد أن رجع إليها النبي من الحديبية، وأرسلت قريش فى طلبه رجلين فدفعه النبي إليهما وفاء بالعهد ونزولا على شرطه، وأمكن الله أبا بصير من أحد الرجلين فقتله بسيف الرجل، وفر الآخر إلى المدينة حتى دخل المسجد وهو يعدو. وجاء أبو بصير يظن أن الله قد أوفى ذمة رسوله ونجاه منهما، لكن الرسول صلوات الله عليه قال ما دل على أنه يرى أن الشرط مازال قائما. فخرج أبو بصير وتفلت أبو جندل فلحق به، ولحق بهما كل مسلم تفلت من قريش حتى اجتمعت منهم عصبة جعلت

تعترض كل عير لقريش إلى الشام حتى لم تجد قريش بدأ من أن ترسل إلى الرسول ترجو منه أن يؤوى إليه أبا بصير ومن معه فلا يقطعوا على عيرها الطريق . وحقق الله بذلك قول نبيه حين قال لأبى جندل سيجعل الله لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً .

هذا مثل من وفاء الرسول . لكن الرسول هو الرسول . فلم يبق إلا التمثيل لوفاء المسلمين بعد الرسول . وسنكتفى من ذلك بالإشارة إلى مثلين أحدهما من تاريخ ابن الأثير فى حرب مسيلمة ، بعد أن قتله الله وأظهر المسلمين بقيادة خالد على بنى حنيفة . قال مجاعة بن مرارة ، وكان أسيرا فى يد خالد ، هلم إلى الصلح فان الحصون لا تزال مملوءة بالرجال ، ففرض عليه خالد ما فرض ، فقال أستشير من فى الحصون ، ولم يكن فيها إلا الضعاف والنساء ، فألبس من استطاع الحديد ، وأمر النساء أن ينتشرن ويشرفن على الحصون . فأوهم خالدا بذلك أن الحصون حقا فيها الرجال . وكانت الحرب قد أنهكت المسلمين فآثر خالد السلامة لمن بقى وخفف الشروط على مجاعة . فلما فتحت الحصون ورأى أن ليس فيها إلا النساء والصبيان والضعفاء قال خالد لمجاعة خدعتنى ويحك ، قال هم قومى ولم أستطع إلا ما فعلت . (ووصل كتاب أبى بكر إلى خالد أن يقتل كل محتلم ، وكان قد صالحهم فوفى لهم ولم يغدر) كما يقول ابن الأثير .

والمثل الثانى عن ابن كثير فى تفسيره آيات سورة النحل السابق ذكرها ، إذ أشار إلى قصة لمعاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد ، « فسار معاوية فى آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من ديارهم أغار عليهم وهم لا يشعرون فقال عمر بن عتبه : الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر . سمعت رسول الله يقول : (من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضى أمدها) فرجع معاوية بالجيش كما يروى ابن كثير .

فما أحوج أهل المدنية الحاضرة إلى الإسلام يتلقون درسه فى الوفاء ، وما أحوج المسلمين إلى العمل بدينهم ، والوفاء فيما بينهم ، حتى ينصرهم الله على الأعداء .

الفصل الخامس

الإسلام والعلم والمدنية

قد يسبق إلى النفس أن المدنية الحديثة غاية عليا ونظام كامل نشأ من عدة عوامل أحدها الدين . ونحن هنا نحاول أن نحدد الصلة بين المدنية القائمة وبين الإسلام ، أو بالأحرى تحديد ما هنالك من توافق وتفاوت بين المدنية الواقعة كما نراها اليوم ، والمدنية الغائبة كما جاء بها الإسلام .

وفى الحق أن هذه المدنية الحديثة بعيدة جداً عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات قد جاد بتحقيقه الزمان ، فإن المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها فى الواقع جزءا من الفطرة التى فطر الله عليها الكون ، وآية ذلك أن يكون فيها ما فى سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء ، وهذا لا يتحقق لأية مدنية من المدنيات إلا إذا قامت على الحق فى جميع نواحيها ، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس أفرادا وجماعات . وشيوع الخلل والاضطراب فى النواحى الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل فى هذه النواحى ، ودليل بعد هذه النواحى عن الفطرة .

لكن إذا كان الباطل قد شاع فى أكثر نواحى هذه المدنية فإن هناك ناحية واحدة قد عزت على الباطل أن يكون له فيها مقام، ودانت للحق فهو فيها الحاكم المطاع ، تلك هى الناحية العلمية التى أثمرت للمدنية هذه القوى المادية التى فتن بها الناس فظنوا هذه المدنية أفضل المدنيات حين قدرت على ما لم تقدر عليه المدنيات قبلها ، من طيران فى الهواء وغوص فى الماء وتسخير للبخار والكهرباء ، وغفلوا عن أن تفاضل المدنيات ليس أساسه القوة ، ولكن إحسان استعمال القوة فى

سبيل الحق ، سبيل الله ، وإلا انقلبت تلك القوى على المدنية المغترة فزلزلتها وصيرتها إلى ما يصير اليه الباطل من الزوال .

هذه الناحية العلمية هي فخر هذه المدنية الحديثة ، بها ستذكر فى المدنيات ، إذا ذكرت المدنيات ، بأنبل ما فيها وأفضله وأصدقه ، بعد أن تصبح كما أصبحت المدنيات قبلها أحاديث ، ثم هى الناحية الواحدة التى اتحدت فيها هذه المدنية بالفطرة . وإذ كان الإسلام دين الفطرة فهى الناحية الواحدة التى تم فيها الاتصال بين المدنية الحديثة وبين الإسلام .

أما أن الإسلام يؤيد العلم ويحرص عليه ويكبر منه ، فأمر يعرفه كل من له إلمام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة فى العلم . فالذى يقرأ من الحديث الصحيح مثل قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، وقوله (اطلبوا العلم ولو بالصين)، وقوله (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع)، والذى يعرف ما فعله الرسول صلوات الله عليه بعد معركة بدر من جعله فداء بعض فقراء الأسرى تعليم عشر من أولاد المسلمين الكتابة ، يعرف من غير شك أن الإسلام هو دين العلم والتعلم . فإذا تلا من كتاب الله مع ذلك مثل قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون — الزمر ٩) و (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم — آل عمران ١٨)، والآيات الكثيرة التى جعل الله سبحانه العلم فيها حكما بين النبي وبين مجادليه ، مثل قوله تعالى على لسان نبيه (إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين — الأحقاف ٤)، إن تدبر الإنسان هذه الآيات الكريمة وأمثالها بعد تلك الأحاديث أدرك أن العلم على إطلاقه لم يكبر فى دين من الأديان كما أكبر فى الإسلام ، وأن دينا لم يلزم أهله بالعلم والتعلم كما ألزم الإسلام المسلمين .

هذا التأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل طبعا التأييد التام للعلم بمعناه الخاص، معناه الطبيعى المستعمل فيه اللفظ اليوم . لكن ليس هناك من حاجة إلى مثل

هذه الحجة على قوتها فى إثبات أن العلم بمعناه الحديث مطلوب ومأمور به فى الإسلام ، فإن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة فى الحض على تطلب آيات الله فى الكون وتعرف أسرار الخلق هى فى الواقع توجيه للعقل إلى مجالات العلم الذى يسميه الناس بالعلم الطبيعى ، بل هى أوامر من الله بطلبه ، لأن آيات الله فى الكون التى ندبت تلك الآيات القرآنية الكريمة إلى طلبها ليست بأكثر ولا أقل من أسرار الفطرة التى هى مطمح العلم ومرماه . فأنت إذا قرأت مثل قوله تعالى (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد . ونفضل بعضها على بعض فى الأكل، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون — الرعد ٣ و ٤) و (سخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر . والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ـ النحل١٢) و (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ العنكبوت٢٠) و (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ـ يونس ١٠١) ـ إذا قرأت هذا وأمثاله فى القرآن لم تشك فى أن العلم الحديث قرآنى فى موضوعه . إذ هذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عن أسرار هذه الظواهر الكونية التى نبه إليها وأمر بالبحث فيها القرآن .

فإذا أنت استقريت الآيات القرآنية الكونية لترى هل ورد فى بعضها مادة (علم) اللغوية وجدت أن هناك أكثر من آية وردت فيها هذه المادة ، إن لم يكن فى صيغة المصدر ففى صيغة مشتقاته ، مثل قوله تعالى من سورة الأنعام (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ـ ٩٧) ، وقوله من سورة الروم (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين-٢٢)، وكذلك من سورة فاطر (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات

مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور- ٢٧ ، ٢٨) . وواضح من السياق أن المراد بالعلماء هنا هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التى أودعها الله سبحانه وتعالى فيما أشارت إليه هذه الآيات الكونية . هؤلاء العلماء إذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الفطرة على خشية الله فاطر الفطرة ، لأنهم يكونون بعلمهم أبصر بعظمة الله سبحانه وجلاله وقدرته المتجلية فى آيات صنعه . وهذا فى الواقع هو الحكمة الكبرى التى من أجلها أمر الله الانسان فى كثير من آيات القرآن بالنظر فيما خلق الله فى السموات والأرض من خلق .

وهناك طبعاً إلى هذه الحكمة الكبرى حكم أخرى هى ما يتبع طلب هذه العلوم الكونية من منافع مادية دنيوية، آتية من استخدام حقائق العلم فى شئون الإنسان، كالانتفاع مثلا بخواص الكهرباء والبخار والحديد فى هذه القطارات والسفن البخارية ، وهذه المركبات والمصابيح الكهربائية . والحكم كلها مرادة لله سبحانه حين أمر الانسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض إلا أن الحكمة الأولى ، حكمة خشية الله ، المشار إليها فى (إنما يخشى الله من عباده العلماء - فاطر٢٨) هى الحكمة الكبرى ، إذ عبادة الله وخشيته هى الغاية الأولى والآخرة من وجود الانسان .

وفى الحق إن الانسان ليأخذه العجب من كثرة ما لقيت هذه الناحية من التوكيد فى القرآن ، ثم من تراخى المسلمين برغم ذلك فى طلب هذا العلم ، ولو للانتفاع به فى تفسير ذلك الجزء من القرآن . إن الآيات الواردة لتلفت الانسان إلى أسرار الفطرة وتحثه على تفقهها لا تكاد تقل عن سبع آيات القرآن ، ولم تلق ناحية من نواحى المدنية مثل هذا التوكيد فى الاسلام إلا ناحية الأخذ بالعدل والاحسان فى المعاملة ، فكأن المدنية فى الإسلام شطران : شطر يقوم على العلم وشطر يقوم على العدل ، ومن وراء ذلك كله مخافة الله ومحبته ، لا غنى

لأهل المدنية عن هذين إن أرادوا لها البقاء ، وعلى كل حال فإن حث الإنسان فى نحو سبع القرآن على دراسة الفطرة أريد به على الأخص حثه على عبادة الله عن طريق تلك الدراسة ، وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسات من ثمرات، وهذا لا يقلل شيئا من شأن العلم فى الإسلام، بل يزيده ، ثم هو أبلغ فى الدلالة على أن العلم فى الإسلام جزء من الدين .

على أن أمر التوافق بين العلم والإسلام قد جاوز الإجمال إلى التفصيل ، جاوز قرآنية الموضوع والاسم إلى قرآنية الروح والطريقة، فروح العلم وطريقته منطبقة تماما على ما جاء به القرآن. فأما روح العلم التى هى فى صميمها التجرد للحق والصدق فيه ، والاستمساك به والتعاون عليه ، فهى من روح الإسلام من غير شك . إذ الإسلام كله ليس إلا أمراً بالحق وتجردا له وجهاداً فيه . وما لقيه الحق من الإكبار فى العلم لا يزيد شيئاً عما لقيه الحق من الإكبار فى القرآن . وإذا كان هناك فرق بين الاثنين فهو لا يتعلق بذاتهما ولكن بامتداد سلطانهما ، فروح العلم مقصورة طبعاً على الميادين التجريبية التى قصر العلم عليها نفسه ، لكن روح الإسلام تشمل بسلطانها كل ميادين حياة الإنسان العلمى منها والاجتماعى ، ما يمكن إخضاعه للتجارب العلمية منها وما لا يمكن .

العلم قرآنى بطريقته

أما أن طريقة العلم فى طلب أسرار الفطرة هى نفس الطريقة التى أمر بها القرآن فيتبين من: ١ — أن العلم لا يقول عن شىء أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقينى القاطع ، والقرآن الكريم يأمر كذلك بألا يقبل الإنسان شيئا على أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان ، يتمثل ذلك فى مثل قوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين - البقرة ١١١) و (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا،

قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ـ الأنعام ١٤٨) ، والعلم المقصود هنا هو الحق اليقيني الثابت بالحجة القاطعة ، بدليل عيبه عليهم إنزالهم الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين فى قوله (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ـ الأنعام ١١٦) .

٢ ـ أن العلم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقينا ما ليس بيقيني ، وأن ينزل الظن منزلة اليقين ، أو أن ينزل الفرض والتخمين منزلة الظن والترجيح ، فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار متانة الحجة التى تشهد لها ، فإذا كانت الحجة قاطعة فالقضية حق . وإذا كانت غير قاطعة فالقضية ظن ، ويسميها العلم فى هذه الحالة نظرية إذا كانت أرجحيتها كبيرة ، إذ الواضح أن هناك فى الرجحان مراتب بعضها أرقى من بعض . أما إذا تساوى ما يشهد للقضية وما يشهد عليها ، فتلك هى القضية المجهولة التى وقعت موقعا وسطا بين الحق والباطل لا يدرى إلى أيهما هى أقرب ، وأمثال هذه القضية وما قبلها من القضايا الواقعة فى منطقة الرجحان ، قل حظها منه أو كثر ، هى موضع النظر العلمى والبحث ، لا يزال العلم يبحث عنها ويمحصها حتى ينتهى فيها إلى حكم قاطع فيلحقها إما بالحق اليقيني ، وإما بالباطل اليقيني .

وهذا التفريق من العلم فى المنزلة بين ما هو حق وما هو دون الراجح يتفق تماما مع روح القرآن الكريم فى النظر ، ومع طريقته المتجلية فى آياته كلها . خصوصا تلك الآيات التى من قبيل ماذكر تحت (١) . ومثل قوله تعالى من سورة النجم (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ١٩ ـ ٢٣) . ومثل قوله تعالى من سورة الجاثية (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ـ ٢٤) وقوله تعالى من سورة يونس

(وما يتبع أكثرهم إلا ظنا . إن الظن لا يغني من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون - ٣٦) .

٣ — وهو ملتحق بالأصلين السابقين ، أن العلم يمنع التقليد فى النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم قديماً فى هذا ، لأن العلماء قديماً ، خصوصا فى القرون الوسطى ، كانوا كثيراً ما يقنعون فى الاستدلال على الصحة أو البطلان باثبات أن القضية توافق أو تخالف رأى فلان أو علان من المشاهير ، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلا يتخذ حجة قاطعة فى موضوعه من غير أن ينظر فى رأى أرسطو هذا فى ذاته ، ومن غير أن يسأل ما هو دليل أرسطو ، وكان هذا منبع شر كبير ، ولعله كان سبب كثير من الشبه الكلامية التى قامت بين علماء المسلمين بعد أن ترجمت كتب اليونان فى العصر العباسى ، فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة وبين ما كانوا يسمونه الحكمة ، يريدون بالحكمة غالباً ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل أفلاطون وأرسطو وأضرابهما ، حتى جاء أمثال الغزالى من المسلمين فوضعوا الأمر فى نصابه .

والعلم فى منعه التقليد الأعمى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذى شدد النكير على أناس كانوا يستمسكون بالرأى ، لا لأنهم عقلوه ولكن لأن آباءهم فعلوه ، ترى ذلك فى مثل قوله تعالى من سورة البقرة (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون - البقرة ١٧٠) . وقوله من سورة المائدة (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون - ١٠٤) أو قوله من سورة الزخرف (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ٢٢ - ٢٥) .

فالتقليد الأعمى ، أى الأخذ بالرأى من غير دليل، أو رغم الدليل ، متابعة لزيد أو لبكر من الناس ، محرم على أهل النظر فى حكم العلم وفى حكم القرآن .

والأصل الجامع لذلك كله فى العلم وفى الدين هو تحكيم العقل فى كل ما يعرض للإنسان من أمر ، والمراد بالعقل ليس هو العقل الخاص عقل الفرد ، ولكن العقل العام أو العقل المطلق الذى ضبطت قوانين تفكيره عن طريق الاستقراء وأودعت ما يسمى بعلم المنطق ، هذا العقل هو الحكم فى العلم وهو الحكم فى الدين . فالقرآن دائماً يحاكم إلى العقل ، وينعى على من لا يستعمله ، بل إن العقل قد أكبره الإسلام إكباراً دونه أى إكبار ، حتى لقد أوجب الشرع تأويل النص إلى ما يطابق العقل إذا كان ظاهر النص يناقض ما ثبت قطعياً بالعقل . وكلمة (قطعياً) هنا مهمة ، فلا يجوز تأويل النص من أجل ما هو راجح عند العقل لأن العقل نفسه يجيز بطلان ذلك الراجح ، فلا حكمة إذن فى تأويل النص الشرعى من أجل ما قد يثبت المستقبل أنه من الباطل .

والأمثلة التى ضربت فى الشرع لوجوب التأويل كلها من باب قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم ـ الفتح ١٠) ، فإن نسبة الجارحة إلى الله تعالى محال ، فوجب تأويل الآية عن ظاهرها إلى معنى من المعانى المجازية اللائقة به تعالى ، فأولوا (اليد) إلى القدرة . لكن من الممكن أن يقال إن هذا النوع من التأويل غير لازم عند النظر فى الآيات الكونية القرآنية ، بل كثيرا ما يكون المعنى الحرفى للآية الكريمة هو المنطبق على ما ثبت عند العلم بالبرهان .

٤ — أن العلم فى تطبيقه قوانين التفكير المجموعة فى علم المنطق القياسى يتخذ أصلين اثنين يبنى عليهما ، الأول : أنه لا تناقض مطلقاً بين الحقائق ، فليس من الممكن أن ينقض حق حقا ، فما ينقض حقاً إذن فهو باطل ، وهذا يصح أن يسمى بأصل توافق الحقائق . والثانى : أصل اطراد الفطرة واستقلالها . فما ثبت أنه حق فى وقت ما سيكون دائماً حقاً ، أو بعبارة أخرى أن الحق مستقل عن الزمان والمكان .

وليس عند العلم برهان على هذين الأصلين إلا تجاربه الماضية ، فإنه لم يشاهد مطلقاً أن قضية حقيقية نقضت أخرى حقيقية ، أى لم يشاهد مطلقاً تناقضا بين حقائق العلم سواء اكتشفت تلك الحقائق فى الماضى أم فى الحاضر، فى الأرض أم فى كوكب آخر ، بل كثير من حقائق العلم إنما استنتج بناء على هذين الأصلين : أصل توافق الحقائق أو امتناع التناقض بينها ، وأصل اطراد الفطرة . وكانت التجربة دائما تؤيد الاستنتاج . بل من الواضح أن العلم يصبح مستحيل الوجود ومستحيل النمو لو انهار أحد هذين الأصلين أو كلاهما ، وهذا سبب آخر يجعل العلم يستمسك بهذين الأصلين محافظة على وجوده نفسه ، وإن عجز العلم عن إقامة الدليل على صحتهما فيما يتعلق بالمستقبل .

هذان الأصلان اللذان يستمسك العلم بهما هذا الاستمساك هما أصلان قرآنيان أكدهما منزل القرآن سبحانه كل التأكيد وهو أعلم بما خلق . فأصل اطراد الفطرة ثابت قرآنيا من مثل آية الأحزاب (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ ٦٢) أو آية فاطر (فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ـ ٤٣) ، وآية الروم (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ـ ٣٠) . فهذه آيات صريحة فى اطراد الفطرة وبقاء سنن الله فيها على الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل . والفطرة وسننها هنا تشمل كل ما وجد فى ملكوت الله ، سواء فى ذلك ما تعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان ، أو ما تعلق بالإنسان من ناحية النفس والروح ، فى الفرد والجماعة ، مما لم يرتق العلم إليه إلى الآن .

أما أصل توافق الحقائق أو استحالة تناقضها فثابت قرآنيا من الآيات السابقة لأن تناقض الحقائق يستلزم تناقض الفطرة ، ويزداد ثبوتا بقوله تعالى من سورة تبارك أو الملك (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ ٣) ، فإن

التناقض هو أكبر من التفاوت ، فإذا انتفى التفاوت فى خلق الله لزم أن التناقض فى خلق الله أيضا .

كذلك أعلن الرسول صلوات الله عليه استقلال الفطرة عن الإنسان ، وذلك يوم وفاة ابنه إبراهيم ، وحدوث كسوف الشمس ، فتحدث الناس أنها كسفت لموت إبراهيم فخاطبهم عليه السلام بقوله « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا » .

٥ — أصل المشاهدة : قد عرفنا أن العلم فى بحثه عن الحقيقة يسلك سبيل العقل فلا يعتبر حقا إلا ما قام البرهان على أنه حق . فالعلم دائب البحث إذن عن البراهين التى تثبت حقائق الأشياء . هذه البراهين عرفنا من أنواعها النوع القياسى أى الذى يتوصل إليه بالقياس الصحيح ، وإنما يؤدى إلى نتيجة صحيحة إذا صحت المقدمتان كلتاهما ، أما إذا كانت إحداهما باطلة أومشكوكا فيها فإن النتيجة يصيبها من البطلان أوالشك مثل ذلك ، وإن صحت طريقة الاستنتاج. وبعبارة أخرى يلزم لصحة النتائج شرطان : صحة المقدمات كلها ، وصحة طريقة الاستنتاج التى هى نفس القياس . أما صحة طريقة الاستنتاج فقد تكفل بها المنطق القياسى ، لكن المقدمات ما شأنها ؟ وما طريق التثبت من صحتها ؟

كثير من المقدمات ناتج عن طريق القياس من مقدمات أولية بديهية الصحة لايختلف فى صحتها العقلاء ، ويصلون إليها مستقلا بعضهم عن بعض . وعلم الهندسة النظرية على تعقد نظرياته مستنتج كله من أمثال هذه البديهيات . لكن ليس كل المقدمات يمكن رده إلى بديهيات كهذه عند إثبات صحته ، ولابد إذن فى إثبات صحة هـــذا النوع الثانى عن طريق آخر غير طريق الاستنتاج من البديهيات . هذا الطريق الآخر هو طريق المشاهدة الصحيحة ، وهو الطريق الذى سلكه إلى حد ما العلم قديما ويسلكه دائما العلم حديثا حتى صار طابعه الذى طبع عليه ، وميزته التى امتاز بها .

هذه المشاهدة العلمية تستعمل فيها الحواس خصوصا السمع والبصر ، لكن بشرط تربيتها وتدريبها من ناحية ، وإعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى . هذه الآلات هى فى الواقع وسائل هدى الله إليها الإنسان ليزيد فى مدى حسه ، فيزيد فى مدى إبصاره مثلا بالمجاهر (المكروسكوبات) التى يستطيع أن يرى الإنسان بها من الأجسام ماصغر حتى دق عن أن تبصره العين المجردة ، كالجراثيم وكرات الدم وخلايا الأجسام الحية . أو يزيد فى مدى إبصاره بالمراقب (التلسكوبات) التى تقرب للإنسان الأجسام البعيدة ، فيرى منها ما لم يكن يراه من قبل . فأما المجاهر فتستعمل كثيرا فى المعامل ، وأما المراقب فتستعمل غالبا فى المراصد .

هذا الأصل ، أصل المشاهدة الصحيحة هو إذن الطريق الثانى الذى يسلكه العلم الطبيعى للوصول إلى مقدمات صحيحة ، ولولاه ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع ولا نمت هذا النمو ، ولا كشفت ما كشفت من أسرار الخلق . فالمشاهدة أصل علمى عظيم ، وهى أيضا أصل قرآنى عظيم . فالآيات التى تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر والعقل كثيرة فى القرآن منها :

(١) استعمال البصر مع العقل (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ العنكبوت ٢٠) و (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ـ تبارك ١٩) و(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ـ الغاشية ١٧و١٨)

(٢) استعمال السمع مع العقل (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ـ الحج ٤٦)

(٣) استعمال السمع والبصر مع العقل (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ـ الأعراف ١٧٩) و (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل

ـكم السمع والأبصار والأفئدة لعلـكم تشكرون ـ النحل ٧٨) و (ولا تقف
ا ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا
لإسراء ٣٦) .

(٤) استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل (أولم ينظروا فى ملكوت
لسموات والأرض وما خلق الله من شيء ـ الأعراف ١٨٥) .

فهذه الآيات القرآنية الكريمة تحض الإنسان على استعمال العقل والسمع والبصر وما إليها من طرق المشاهده الصحيحة بجميع أساليب الحض ، ثم هى مع ذلك تؤدبه من حيث استعمال هذه المواهب على وجهها الصحيح : فآية الإسراء (ولا تقف ما ليس لك به علم . اخ ...) تنهاه من ناحية أن يجرى مع الوهم أو الظن ، وتدله من ناحية أخرى على طريق الوصول إلى ما ليس بوهم ولا ظن ، أى إلى اليقين والحق عن طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) . وفى قوله تعالى (كل أولئك كان عنه مسئولا) ليس فقط أمر شديد بإحسان استعمال البصر والسمع والعقل وعدم إهمالها ، بل فيه أيضا أمر بالاستمساك بما يهتدى إليه الإنسان من الحق عن طريقها . ففى هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هى جماع أصول النظر العلمى : (أولها) ألا يتبع الإنسان إلا الحق المعلوم يقينا (ولا تقف ما ليس لك به علم) ، (وثانيها) أن طريق الوصول إلى الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح ، (وثالثها) أن على الإنسان أن يستمسك بما يصل إليه من الحق عن طريق المشاهدة والتفكير (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

على أن علم الإنسان كله مصدره العقل والمشاهدة الصحيحة ، بل إن العقل لا يقوى ولا ينمو إلا عن طريق التجارب والمشاهدات . فلو أخذ طفل وحبس عن العالم ، إلا فيما يكفى لحياته من طعام وشراب ، فإنه وإن نمى جسمه حتى يبلغ جسم الرجال لا ينمو عقله عن عقل الطفولة . بهذا يقول علماء التربية ،

وإلى هذا تشير آية النحل ٧٨ (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) فهذه الآيات الكريمة تكاد تكون صريحة فى أن ما يحصله الإنسان من علم بعد أن يولد إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر وبقية الحواس - بدليل جمع الأبصار - والعقل .

مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث

وأصل المشاهدة الصحيحة هذا هو من أهم الفروق بين العلم الحديث والعلم القديم ، فإن القدماء كانوا فى جملتهم يعتقدون أن من الممكن أن يصل الإنسان إلى ما يشاء عن طريق العقل وحده أى لم يكونوا يقولون بضرورة المشاهدة، لحصول العلم ، بل منهم من كان يرى أن المشاهدة تضل العقل لأن الحواس غير مأمونة . ففى أثنائها يرى الشىء صغيراً كالنجم مثلا وهو كبير ، لذلك كانوا كثيرا ما يكتفون فى طلب العلم وأسرار الفطرة بالجلوس والتفكير ، فكانوا يصلون إلى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق ولم يقم عليها دليل ، إنما كان دليلهم فروضا يفترضونها يرونها حقاً ويركنون إليها فى الإثبات . ففيثاغورث مثلا يقول عن الكون أنه منفرد كامل كروى لأن الكرة أكمل الأشياء ، وأنه حى عاقل لأن ما هو حى وعاقل خير مما ليس بحى ولا عاقل .

فمثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالى غير المرتكز على حقائق يقينية ينكره العلم الحديث كما ينكره القرآن ، ومن هنا وقع قدماء الفلاسفة من اليونان فى أغلاط كثيرة من حيث لا يشعرون ، كقولهم إن للأجرام السماوية فى أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها ، وأن لهذه الأجرام أثرا كبيرا فيما يصيب الإنسان من نحس أو سعود . وقد سقط كثير من المسلمين فى نفس هذه الأغلاط حين أخذوا علم اليونان كله على أنه حق من غير أن يطيعوا الله فيه ليمحصوه ،ومن غير أن يردوه إلى القرآن . بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يردون القرآن إليه ،

كقول إخوان الصفا «إن إدريس عليه السلام هو هرمس المثلث بالحكمة ،» نفسه فصعدت إلى السماء ، وطافت مع بعض أجرامها ثلاثين عاما ، وشاهد من العجائب مالا يشاهده إلا من يطوف ذلك الطواف ، وأن إلى هذا فى زعمهم يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى (ورفعناه مكانا عليا - مريم ٥٧) » وهذا نوع من فهم القرآن لا يجيزه القرآن كما رأيت ولا العقل . ولعلنا لو بحثنا فى تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وما كان بين علماء المسلمين من خلافات كلامية لوجدنا أكثر هذه الخلافات ، إن لم يكن كلها ، راجعا إلى قضايا فلسفية أخذها المسلمون عن اليونان من غير تمحيص .

كان قدماء الفلاسفة إذن يرون العقل مصدرا للحقائق مستغنيا بذاته عن المشاهدة ، أما محدثوهم فيرونه وسيلة ، أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث فهى فى الكون خارج النفس ، خارج العقل . كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء نفسها ضروريا لطلب الحقيقة ، أما المحدثون فلا يرون سبيلا للوصول إلى الحقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل . والعلم الحديث باختراعاته واكتشافاته قد ولد حين ترك الإنسان مذهب الأقدمين فى طلب العلم عن طريق التفكير البحت ، وبدأ هو يطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير . لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث هو دور مشاهدة تكاد تكون بحتة ، ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها .

أدوار النظر العلمى

الدور الأول : هو دور جمع الحقائق ، فهو دور التجربة والمشاهدة ، ولابد فيه من الاستيثاق من صحة الوقائع ، لأن هذه الوقائع سيبنى عليها العلم بناءه فلابد من التأكد من متانة الأساس قبل إقامة البناء . وصحة الوقائع يستوثق منها عن طريق تكرار المشاهدة فى نفس الظروف . هذا التكرار إما أن

يكون على يد المشاهد الأول الذى شاهد الواقعة لأول مرة ـ يكرر التجربة والمشاهدة ليتأكد هو من صحة الواقعة قبل أن يذيعها على الناس ـ وإما أن يكون التكرار على يد غير المشاهد الأول من العلماء للتثبت من صحة الواقعة إذا خامرهم ما يدعو إلى الشك فيها ، أو للبناء عليها فى أبحاثهم ، فكل واقعة من الوقائع العلمية لابد أن تثبت من تجارب متعددة فى ظروف محدودة واضحة .

وهذا الدور فى العلم يشبه فى علوم الدين دور جمع الحديث من طرق متعددة للاستيثاق من صحتها ولترتيبها فى مراتبها ، فالمحدث يريد أن يستوثق من صحة نسبة الحديث إلى الرسول صلوات الله عليه لأنه سيبنى عليها فى دينه. والعالم الطبيعى يريد أن يستوثق من صحة الواقعة المنسوبة إلى الفطرة لأنه سيبنى عليها فى علمه . واتفاق الروح والطريقة عند علماء الدين الأولين والعلماء الطبيعيين المحدثين ، مع اختلاف الزمن واستقلال كل عن كل ، دليل عملى على أن الطريقة العلمية هى طريقة قرآنية ينبغى أن يأنس إليها ويقبل نتائجها رجل الدين ، وأن الطريقة القرآنية فى النظر هى الطريقة العلمية وينبغى أن يأنس إليها ويقبل نتائجها رجل العلم .

الدور الثانى : فى دور المشاهدة تجمع الوقائع ، لكن هذه الوقائع إن كانت من باب واحد لا بد أن تكون ناشئة عن قانون طبيعى واحد ، أو إذا شئت عن سنة من سنن الله واحدة . والعلم يرمى من وراء مشاهداته إلى الوصول إلى تلك القوانين أو هذه السنن . فالوقائع المجموعة ، وإن كانت مهمة فى ذاتها لأنها حقائق جزئية ، تزداد أهميتها كثيراً لأنها السلم الذى يوصل إلى القوانين الفطرية أو الحقائق الكلية التى كان من آثارها تلك الوقائع الفردية ، أو إذا شئت التى من صورها تلك الحقائق الجزئية .

طريق اكتشاف قوانين الفطرة

الطريق الوحيد المفتوح أمام العلماء لاكتشاف قوانين الفطرة أو سنن الله فى الكون، كما ينبغى لنا أن نسميها ، هو الاجتهاد فى انتزاع كل قانون من مجموعة الوقائع الصادرة عنه ، أو بعبارة أخرى من الوقائع التى هى من باب واحد، وذلك إما بالاستقراء إذا كان عدد الوقائع كبيراً ، وكان القانون فى ذاته بسيطا ، وإما بالتلمس إذا كان عدد الوقائع قليلا ، أو كان القانون خفياً أو كان أكثر تعقيداً .

وأمثلة اكتشاف قوانين الفطرة عن طريق الاستقراء هى فى العلم كثيرة نذكر منها مثالا واحداً : أن الكيماويين حضروا مركبات نقية كثيرة فوجدوا فى كل حالة أن المركب ، مثل ملح الطعام ، مهما اختلف مصدره أو اختلفت طريقة تحضيره يتركب دائماً من نفس العناصر متحدة مع بعضها بنفس النسب فى الوزن ، فاستنتجوا أن هذا قانون طبيعى للمركبات وسموه قانون التركيب الثابت ونصه : كل مركب كيماوى يحتوى دائماً على نفس العناصر بنفس النسب وزناً .

أما طريقة التلمس فهى أصعب من هذا كثيراً . ويراد بهذا الاصطلاح الاجتهاد فى الإتيان بتفسير لوقائع القبيل الواحد ، بحيث لا تشذ عنه فى بابه واقعة ، فاذا وفق العلماء فى اجتهادهم هذا ووصلوا إلى تعليل أو تفسير واحد لتلك الوقائع يثبت على الزمن ، رغم تكاثرها بالبحث والتنقيب ، حكموا أن ذلك التعليل أو التفسير قريب من الحقيقة الكلية أو القانون الفطرى المنشود ، إلا أنهم لا يسمون ذلك التعليل أو التفسير قانونا فطريا إلا إذا بلغت الوقائع المفسرة به من الكثرة الكاثرة مبلغا لا يدع مجالا للشك فى عمومية ذلك التفسير .

والطريقة العملية التى يسلكها العلم فى تلمس قوانين الفطرة من الوقائع المشاهدة تتلخص فيما يأتى : (أولا) يؤتى بفرض مفصل مقدر على وقائع القبيل الواحد

بحيث يفسرها جميعا . و (ثانيا) يختبر هذا الفرض عمليا لينظر أصحيح هو أم غير صحيح ، وهذا الاختبار ضرورى لأن الوقائع تكون فى الأول قليلة يجوز تفسيرها بأكثر من فرض واحد ، كما يجوز بل يغلب ، ألا يقع الإنسان فى أولى محاولاته على التفسير الصحيح . والاختبار يكون بجعل هذا الفرض الجديد مقدمة تضم إلى أى حقيقة أخرى معروفة مناسبة . ويركب منهما قياس يؤدى إلى نتيجة جديدة بالطبع ، فتختبر هذه النتيجة بإجراء تجارب عملية يعرف بها ما إذا كانت تلك النتيجة منطبقة على الواقع أو غير منطبقة .

فاذا وجد أنها منطبقة ازداد عدد الوقائع المفسرة بالفرض واقعة ، وازداد الفرض بذلك رجحانا . ولا يزال الفرض يختبر عن هذا الطريق حتى تبلغ الوقائع المفسرة به من الكثرة مبلغاً يجعلنا نرجح كثيرا صحة هذا الفرض فنسميه نظرية . ونستمر فى امتحان النظرية بنفس الطريقة حتى تبلغ الوقائع المفسرة بها من الكثرة مبلغا يجعلنا نوقن بأنها قانون عام .

أما إذا لم تؤيد التجربة النتيجة المستنتجة من ذلك القياس الجديد فإن ذلك يكون دليلا على أن الفرض الجديد ليس صحيحا فى صورته التى هو عليها ، وعندئذ يحاول العلم أن يوفق بين النتيجة الجديدة التجريبية وبين الفرض بإدخال تعديل على الفرض يجعله يشمل هذه النتيجة الجديدة . فإذا لم يمكن هذا نبذ الفرض أو نبذت النظرية ، وجىء بفرض آخر أو بنظرية أخرى تختبر بنفس الطريقة . وواضح أن أى فرض يؤتى به يجب أن يكون قابلا لهذا التمحيص العملى إذ هو الطريق الوحيد للتأكد من صحة الفرض . كما أن من الواضح أن الفرض إذا كان قابلا للتمحيص العملى سينفع نفعه ولو بتأديته إلى اكتشاف الحقيقة الجديدة التى قد تكون سببا فى نبذه ، أما الفرض الذى لا يقبل أن يمحص عمليا عن هذا الطريق فان العلم لا يأبه له ولا ينظر فيه . وإليك مثلا توضيحيا :

نظرية الفلوجستون للاحتراق

جاء على العلماء وقت أساءوا فيه تعليل ظاهرة الاحتراق ، فظنوها راجعة إلى خروج جوهر من الأجسام المحترقة سموه بالفلوجستون أو روح النار، فكان كل جسم قابل للاحتراق عندهم عبارة عن ناتج الاحتراق زائدا روح النار تلك أو الفلوجستون ، حتى العناصر مثل الرصاص والحديد كانت فى رأيهم مركبة من رمادها والفلوجستون. فإن لم يكن الاحتراق فى رأى عينهم ناتج فالجسم فلوجستون صرف . ورأيهم ذلك معروف فى تاريخ الكيمياء بنظرية الفلوجستون . وقد سادت هذه النظرية عالم الكيمياء حقبة طويلة ، وتغلبت فى الأول على كل صعوبة، أى أمكن العلماء فى الأول أن يفسروا كل ظاهرة طبقا لها ، ففسروا مثلا عدم احتراق الأجسام المعزولة عن الهواء فى أوان مغلقة بأن حبسها فى تلك الأوانى حبس للفلوجستون فلا يجد إلى الهواء مخرجا ، ولا بد فى رأيهم للفلوجستون من مخرج إلى الهواء قبل أن تتكون بمخرجه النار .

وقد خدمت هذه النظرية العلم بربطها بين كثير من الحقائق المتفرقة وتنبئها بحقائق لم تكن معروفة من قبل ، كتنبئها مثلا بأن رماد بعض المعادن ، الذى كانوا يسمونه فى ذلك الوقت كلسا ، إذا سخن مع الفحم أو الخشب عاد معدنا كما كان : رماد الرصاص أو كلسه يعود إلى رصاص ، ورماد النحاس يعود إلى نحاس وهلم جرا . ونحن نعرف الآن أن هـذا راجع إلى انتزاع الفحم أو الخشب الأكسجين من أكسيد المعدن ، فيتحول الأكسيد إلى المعدن ويتحول بعض الفحم أو الخشب إلى أكسيد الكربون ، لكنهم كانوا يفسرون ذلك بأن الكلس يسترد من الفحم أو الخشب ما فقده من الفلوجستون أثناء احتراق المعدن ، أو بالأحرى بأن الكلس يسترد من الفحم أو الخشب ما فقده من الفلوجستون أثناء احتراق المعدن ، أى أثناء تكليسه ، فيعود رصاصا أو نحاسا الخ كما كان .

ظلت تلك النظرية سائدة حتى انتبه العلماء إلى وجوب استعمال الميزان فى دراسة الظواهر الكيماوية ، وحتى اكتشف الأكسجين فى عصر « لافوازييه » وأثبت « لافوازييه » أن نواتج الاحتراق أثقل دائما منها قبل الاحتراق ، فى حين أن نظرية الفلوجستون تقضى بأن تكون النواتج أخف من الجسم مادام الجسم يفقد جوهر الفلوجستون أثناء الاحتراق . وإلى لافوازييه ترجع تجربة الشمعة الشهيرة التى أثبت بها أن الشمعة ونواتج احتراق ما احترق منها أثقل من الشمعة كلها قبل أن يحترق منها شيء ، وذلك بأن عادل بين كفتى ميزان فى إحداهما الشمعة معلقا فى العاتق فوقها شبكة معدنية تحتوى على قطع من الصودا الكاوية التى من خواصها أن تمسك ما يمر عليها من بخار الماء وثانى أكسيد الكربون الناتجين من احتراق الشمعة ، فلما أشعل الشمعة رجحت كفتها بعد فترة وشالت كفة الصنجات . وكان مقتضى فناء الشمعة كلها أو أكثرها كما يبدو للعين أن يحدث العكس أى أن تشيل كفة الشمعة وترجح كفة الصنج بعد الاشتعال .

فلما أثبت هذا لافوازييه وأثبت بتجارب أخرى أن الزيادة فى وزن الجسم أثناء الاحتراق يقابلها نقص فى وزن أكسجين الهواء يساوى تلك الزيادة بالضبط عرف يقينا أن الاحتراق ليس راجعا إلى فقدان الفلوجستون ولكن إلى الاتحاد بالأكسجين ، فسقطت نظرية الفلوجستون وحلت محلها الحقيقة ، ولكنها ككل نظرية مهمة لم تسقط حتى خدمت العلم ومكنته من التقدم فى طريقه خطوات .

وبعد ،فإن طريقة العلم هذه فى تعرف أسرار الفطرة والاهتداء إلى سنن الله فى الكون تضمن الوصول إلى الحق فى القريب أو البعيد . وإن استعانت على ذلك بفرض الفروض ، لكن لاخوف قط على الحقيقة من هذه الفروض مادام العلم يطبق فروضه على الواقع ، ويمحصها بالتجربة والاختبار . فهذه الطريقة فى الواقع هى طريقة العلم فى الاجتهاد ، وبينها وبين طريقة اجتهاد

المجتهدين فى الدين ، يستوحون الحقيقة من كلام الله وحديث الرسول ، صلة واضحة . فكل فى الحقيقة مرجعه إلى الله ، وإن لم يصل رجال العلم بعـــد إلى الله . وكل فى حكم الدين نفسه مرجعه إلى الله ، إذ أن هذه الحقائق الطبيعية التى يكشف عنها العلم ببحوثه إن هى إلا نوع من كلمات الله ، أو هى كلمات الله الواقعة النافذة ، كما أن آيات القرآن هى كلمات الله الصادقة المنزلة .

ولقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات الله فى مثل قوله تعالى (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ـ لقمان ٢٧) و (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ـ الكهف ١٠٩) . وكلمات الله سبحانه فى هاتين الآيتين لا يمكن أن تكون كلماته المنزلة على رسله ، لأن كلماته سبحانه فى كتبه المنزلة محصورة محدودة ، فى حين أن كلماته المشار إليها فى هاتين الآيتين لاحصر لها ولا نهاية . فلا بد أن تكون هى كلماته النافذة فى خلقه والتى يبدو أثرها متجسما فيما نشاهد من الحوادث ، وفيما يكشف العلم من أسرار الكون . فالإسلام متسع للعلم كله حقائقه وفروضه ، والمجتهد مثاب أخطأ أم أصاب ، مادام يريد وجه الحق ، وإن كان العلم لايعرف إلى الآن أن سبيل الحق من سبيل الله .

الفصل السادس

الإسلام وسنن العلم

إذا اتبعنا طريقة العلم وانتفعنا بيقينياته فى الاستدلال على وحدانية الله سبحانه وجدنا الطريق معبدا ميسرا لاعوج فيه ولاتعقيد . إن العلم دائما يستند إلى الواقع ، والواقع كما رأينا قد دل دلالة يقينية أن لاشيء من هذه الموجودات المحسوسة يمكن أن يكون قد أوجد نفسه ، أو أن يكون أوجدته المصادفة ، فلا بد له إذن من موجد أوجده بعد أن لم يكن . فهل موجد واحد أوجد كل هذه الموجودات أم هل تعدد الموجدون ؟

النظر العلمى يقضى ابتداء بأنه موجد واحد لا غير (أولا) لأن هذا أبسط تفسير للوجود ، والعلم يأخذ بأبسط التفاسير إن وجد للواقع أكثر من تفسير ، لأننا إذا تعدينا التوحيد إلى التعديد ، من غير قرينة ولا دليل ، كان ذلك قولا اعتباطيا لايجيزه العلم ولا ينظر فيه . و (ثانيا) إذا قيل بالتعديد اعتباطا لم يكن هناك فى عدد الموجدين حد يوقف عنده ، ما دام ليس هناك قرينة ولا دليل من الواقع يشهد لهذا أولذاك ، فهو اعتباط إلى اعتباط فىالقول وتخبط إلى تخبط فى النظر ، يناقض طريقة العلم ، وهى الطريقة التى وقته الاضطراب فى البحث ، وهدته إلى عجائب أسرار الفطرة التى جعلت العلم الحديث أعجوبة القرون .

والنظر العلمى لايقنع من نفسه بهذا ، بل يمضى فى بحثه عن وحدانية النظام فى الكون ، كنتيجة لازمة لوحدانية خالق الكون ، وهو بعمله هذا يزداد تفهما للكون الذى هو موضوع دراسة العلم ، ويزيد دليل وحدانية الخالق

ظهورا وقوة كلما كشف مظهرا من مظاهر وحدة النظام ، حتى إذا بلغ من ذلك منتهاه ، وأثبت عن طريق يقينيات العلم أن فطرة الكون على اختلاف مظاهرها إنما هى فطرة واحدة متماسكة متكاملة ، فقد جعل وحدانية فاطر الفطرة فوق شك الشاكين .

وميدان النظر يتسع بعد ذلك أمام الناظر اتساع الكون ، لكن لا يهم أين يبدأ ، فأينما بدأ وجد آثار الوحدة ومظاهرها ودلائلها ، بشرط أن يتجنب الوهم والخطأ والهوى ، أى بشرط أن يكون علميا فى نظره ، فإن باطلا واحداً يدخله على نفسه ويقبله على أنه حق جدير أن يفسد عليه كل شىء خصوصا فيما هو بصدده من تحرى الوحدة ، لأن الباطل هو نقيض الحق ، وأن أى تناقض يبدو له فى الكون ونظامه يضله ويسد عليه السبيل .

والنظرة الإجمالية تكفى فى الأول ، ولعلها أهم النظرات إذ يفهمها كل الناس ، والمحسوسات تنقسم فى أخصر تقسيم إلى حياة ومادة وطاقة ، والحياة فى مختلف صورها تنتفع بالمادة والطاقة وتتوقف عليهما ، والمادة والطاقة متلازمتان ، فالمادة لا تنفك عن الطاقة ظاهرة أو باطنة ، والطاقة لا تكاد تنفك عن مادة ، فدل ذلك على أن خالق المادة والطاقة واحد سبحانه ، وأنه هو خالق الحياة .

والطاقة فى الأرض مصدرها الشمس ، فكل نار توقد ، وكل طعام يؤكل مصدر طاقته الشمس التى يختزنها النبات كيماويا ليكون غذاء ووقودا للحيوان ، فضلا عن ضرورة الشمس للحياة بالنهار ، حتى طاقة الفحم وزيت البترول أصلها من الشمس ، لأن الفحم أصله نباتى وزيت البترول أصله نباتى أو حيوانى ، ولو كان أصله معدنيا لكان مرجع طاقته أيضا إلى الشمس . حتى حرارة جوف الأرض ونار البراكين أصلها الشمس ، لأن الأرض كانت قطعة من الشمس قبل أن تكون أرضا ، أثبت ذلك العلم ودل عليه القرآن ، فخالق الحياة والمادة والطاقة هو خالق الأرض والشمس .

والقمر مرتبط بالأرض يدور حولها وينفع أهلها ، وكان من قبل قطعة منها كما كانت هي قطعة من الشمس ، فخالق الشمس والقمر والأرض وما عليها واحد سبحانه .

والأرض إن هي إلا سيار من سيارات المجموعة الشمسية . وإن امتازت عن سائرها بالحياة الدافقة ، وبقية السيارات وأقمارها أصلها أيضا الشمس . وهي مرتبطة بها كارتباط الأرض وقمرها بها ، فخالق المجموعة الشمسية وما فيها واحد سبحانه .

والشمس ، وإن بدت لنا أعظم ما في السماء لقربها النسبي منا . وبعد الأجرام السماوية الأخرى عنا ، إن هي إلا نجم متوسط القدر من نجوم السماء كما أثبت علم الفلك الحديث ، ونجوم السماء إن هي إلا شموس متأججة كشمسنا بعضها أعظم منها وبعضها أصغر وأكثرها مثلها أو نحوها ، لكنها كلها طبيعتها واحدة وأصلها واحد خاضعة لنظام واحد هو ما اصطلح على تسميته بالجاذبية، وقانونها هو المتحكم في كل جسم في الأرض وفي السماء . فخالق المجموعة الشمسية وما في السماء بعدها من نجم وكوكب واحد سبحانه .

وفي السماء غير الشمس والنجوم سدائم ، أي سحب ملتهبة هائلة هي أصل النجوم ومجاميعها ، أي أن هذه كانت في الأصل سدائم كذلك ، وكلها خاضعة للجاذبية وقانونها ، فخالق الأرض وما عليها والشمس والكواكب والنجوم والسدائم واحد سبحانه .

وإذا ثبت هكذا أن خالق الأرض والسماء إله واحد فماذا بعد هذا يبتغي الناظر دليلا على الوحدانية ؟ وإذن فقد كفت النظرة العلمية الإجمالية لإظهار وحدة الكون ونظامه ، ولإثبات أن ليس للكون وما فيه إلا خالق واحد هو الله الخالق البارىء المصور سبحانه ، وثبت بذلك عرضا أن النظر العلمي كان على حق حين رفض ابتداء أن يجيز القول بالتعدد ، أو أن يضيع الوقت

بالنظر فيه كفرض من الفروض ، بله أن يكون احتمالا من الاحتمالات كما تفعل الفلسفة ويفعل علم الكلام .

ومع ذلك فالعلم فى طريقه الذى رسمه لنفسه من دراسة فطرة الكائنات بطريقته التى أثبت بباهر نتائجها صحتها وجدواها ـ هذا العلم باستمراره فى طريقه بطريقته ، لا يزال ولن يزال عاملا دائبا على الإثبات بالبرهان بعد البرهان على وحدة الكون من ناحية ، وعلى وجود الله ووحدانيته سبحانه من ناحية أخرى . فإن برهان الوحدانية هو أيضا أعظم براهين الوجود . وكل التفاصيل التى كشفها العلم بعلوم وبحوث رجاله تقيم البرهان تلو البرهان على وجود الله سبحانه ، وتزيد دليل وحدانيته ظهورا وتوكيدا يذهب بشك المتشككين وتمحل المتمحلين من أهل الأهواء والشهوات ، إن هم رجعوا عن أهوائهم إلى عقولهم وإلى متابعة العلم ولو قليلا .

لكن التفاصيل لا يمكن الإتيان بها فى مقال أو مقالات . فإن مجموعها هو فى صميمه كل العلوم ، فليس يحيط بها عالم أيا كان، لكن الإشارة إليها وضرب الأمثال منها أمر ممكن ، وهو يكفى فى توضيح أن العلم بمجهوده المتصل يكشف السر بعد السر عن وحدة الكون ونظامه ، ويزيد بكل سر يكشفه برهان وحدانية الله خالق الكون توكيدا ورسوخا يدخل باليقين والإيمان بالله على كل نفس ، ويغزو بالإقناع حتى نفوس الملحدين .

ودورة الماء بين البحر والبر ، ودورة العناصر اللازم كل منها لاستمرار الحياة على الأرض أمر معروف ، أو ينبغى أن يكون معروفا لكل المثقفين ، فالأكسجين والكربون مثلا ، اللازمان لتنفس وتغذى الأحياء ، وللوقود فى حياة الإنسان ، يتحولان تدريجيا إلى ثانى أكسيد الكربون الذى لا ينتفع به ، والذى يضر إذا زادت نسبته فى الجو إلى نحو بضعة أجزاء على العشرة آلاف فلو لم يتجددا بحياة النبات الذى يحلل ثانى أكسيد الكربون بخضرة ورقه وضوء الشمس فيتغذى بالكربون وينمو ، وينفث الأكسجين فى الهواء

للإنسان والحيوان يتنفسانه ، إذن لنفد الأكسجين من الهواء وبطل الانتفاع بمركبات الكربون فى الغذاء ، وأى هذين لو حدث كاف لوقوف الحياة على الأرض .

وخطر آخر يتهدد هذه الحياة بوقف دورة الكربون من ناحية أخرى ، ووقف دورة غيره من العناصر الأساسية - كالأزوت والفسفور الضرورى كل منهما للحياة ، ذلك أن الأحياء بعد موتها ، إن لم تتحلل فى الأرض بجراثيم التعفن وتتحول إلى تراب يبقى فى الأرض وغازات منها الأزوت وثانى أكسيد الكربون تعود إلى الهواء - وعليها كلها تقوم حياة النبات الذى يتغذى به الحيوان - إذن لتحول الكربون والأزوت وما إليهما تدريجيا إلى صور لا ينتفع بها نبات ولا حيوان ، لأن النبات عاجز عن التغذى بغير التراب والماء والهواء عجز الحيوان عن التغذى بالتراب وثانى أكسيد الكربون ، وإذن لبطلت بذلك الحياة ، حياة النبات والحيوان جميعاً .

فانظر إلى رحمة الله وحكمته ومظهر قدرته ووحدانيته كيف جعل حلقات الحياة مترابطة متكاملة ، يتوقف خلق فى حياته على خلق آخر كل ينتفع ويحيا بما يستضر به الآخر . . ويجدد له بذلك ما ينتفع ويحيا به .

لكن أمر وحدة الخلق قد جاوز الحيوان والنبات إلى الجماد ، إلى المادة والطاقة ، ليس من ناحية توقف حياة النبات والحيوان والإنسان عليهما ، ولكن من ناحيتهما هما بالذات ، فالطاقة فى صورها المختلفة ، من حركة وحرارة وضوء وكهربائية وما إليها ، قد أثبت العلم أنها فى صميمها أصلها واحد ، إذ يمكن تحويل بعضها إلى بعض كما ترى فى الحياة من تحويل الحرارة مثلا إلى حركة ، والحركة إلى حرارة وكهربائية ، والكهربائية إلى حركة وحرارة وضوء ، والضوء إلى كهربائية وإلى طاقة كيماوية مختزنة فى النبات ، تتحول بدورها إلى حرارة وحركة وكهربائية ، والكهربائية تتحول إلى مغناطيسية ، والمغناطيسية إلى كهربائية ، إلى آخر ما هنالك من تحولات .

والعجيب أن هذا التحول ليس كيفياً فحسب ، بل كمى أيضاً ، كل مقدار من نوع من الطاقة إذا تحول يتحول إلى مقدار يكافئه من النوع الذى تحول إليه. ولكل نوع من أنواع الطاقة وحدة أو وحدات تقاس بها عند العلماء وفى الحياة الصناعية العملية . وكل وحدة من نوع تكافىء من كل نوع آخر مقدارا من وحداته يختلف طبقاً لاختلافاتها ، لكنها كلها مقادير مضبوطة حددها وقدرها العلماء ، وهذا كله واحد سواء أ كانت الطاقة متولدة فى الأرض أو آتية من السماء .

والمادة هى الأخرى مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية ، وبرهان وثيق من براهين الوجود والوحدانية ، ليس فقط من حيث خواصها وتحولاتها العجيبة المختلفة التى هى موضوع علمى الطبيعة والكيمياء . ولكن أيضاً من حيث أصلها ، فقد ظل العلم قرونا يحول العناصر الكيماوية إلى مركبات ، ويحلل المركبات إلى عناصر . ويكشف من ذلك عن كل عجيب مدهش ، لكنه أثناء ذلك لم يستطع أن يحول عنصراً إلى عنصر حتى اعتقد العلماء أن العناصر بسيطة ، ذراتها غير قابلة للانقسام ولا للتحول من عنصريتها إلى عنصرية أخرى ، حتى شاء الله أن يهدى الإنسان إلى العناصر الشعاعة بالكشف فى أواخر القرن الماضى عن شعاعية اليورانيوم الذى أدى إلى الكشف بعد ذلك بنحو عام عن عنصر شعاعيته أكبر ، هو الراديوم .

وكان مما يقذفان به أثناء تحللهما الإشعاعى الذاتى ذرات مكهربة من عنصر الهليوم ، فكان هذا آخر عهد وأول عهد : آخر عهد القول ببقاء المادة وبقاء العناصر ، وأول عهد بتركيب الذرة وتفجيرها ، عهد يراه العلماء ألمع عهود العلم الحديث ، ثبت فيه أن المادة أيضاً أصلها واحد ، وأن العناصر النيف والتسعين مركبة كلها من أصلين بسيطين تتركب منها ذرة الأيدروجين يسميهما الإفرنج الألكترون والبروتون ، وينبغى أن يسميا فى العربية بالكهيرب والأبيب ،

حتى يؤتى بخير من هذين الاسمين ، إذ ينبغى ألا تطغى على العربية المصطلحات الأعجمية وهى تعد بالألوف .

فالمادة أصلها واحد ، وهى تفنى كادة ، إذ تتحول بالتحلل الإشعاعى والتفجير إلى طاقة ، والطاقة أصلها واحد . إذ يتحول بعض أنواعها إلى بعض تحولا كميا على مقدار مضبوط معروف . فالمادة والطاقة إذن أصلهما واحد ، أى خلقهما الخالق سبحانه من أصل واحد ، وخلق منهما كل هذه الموجودات المحسوسة منح بعضها منه الحياة .

فأى دليل يحتاج إليه بعد هذا إلى وحدة الكون وإتساق الفطرة ؟ وهل يحتاج عقل بعد هذا إلى دليل على الله الواحد الخلاق ؟ ! . . .

الفصل السابع

الطواف ... نظرة علمية

ما يسميه الناس الطبيعة [1] ينبغى أن يسمى الفطرة . والفطرة مذكورة فى القرآن الكريم (فطرة الله التى فطر الناس عليهـــا ـ الروم ٣٠) ، و (فاطر السموات والأرض ـ الشورى ١١ وفاطر ١ وغيرهما) ، ومذكورة فى الحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة » . أما الطبيعة فلم تذكر فى القرآن قط ، ولا أعرفها ذكرت فى الحديث .

والطواف حول الكعبة من مميزات الإسلام بين الأديان . فقد يحج أهل بعض الأديان الأخرى إلى محج لهم ، ولكن ليس فى غير حج الإسلام طواف. والطواف ببيت الله مطلوب فى غير الحج والعمرة ممن حضر البيت ، إذ تحية المسجد ركعتان فى غير المسجد الحرام ، وتحية المسجد الحرام الطواف .

والكعبة التى جعلها الله للناس مطافاً فى الحج جعلها الله للناس قبلة فى الصلاة . فالطواف جزء من كل يمثل الجاذبية التى ينبغى أن تكون بين العبد وبين بيت الله، يستقبله الإنسان ويتجه إليه فى صلاته مرات كل يوم وهو بعيد عنـه ، فإذا ما استطاع الحج إليه مرة فى العمر استقبله فى صلاته أيضاً كما كان ، وزاد على ذلك الطواف .

والناس لا يجدون صعوبة فى التماس حكمة لفرض قبلة واحدة عليهم فى الصلاة ، وأن تكون تلك القبلة بيت الله ، لكنهم فيما يبدو قد عجزوا عن إدراك

---

(١) ترجمة لكلمة Nature التى أخذ منها المرحوم جمال الدين الأفغانى كلمة النيشرية للدلالة على ضلالة معينة فى الرد على الدهريين .

حكمة للطواف بالبيت ، فجعلوه أمراً تعبدياً ، أى عبادة لايعرفون لها حكمة إلا النزول على حكم الله بالطاعة والتسليم . فهل ياترى فى العلم الحديث ما يعين على إدراك حكمة للطواف ، أو يفتح الباب إلى تفهم مغزاه ؟ .

قد يبدو لأول وهلة أن هذا سؤال لا محل له ولا فائدة ترجى من محاولة الإجابة عليـه ، إذ أى صلة بين الطواف فى الحج وبين العلم الحديث الذى لايبحث إلا فى الماديات ؟ لـكن السؤال ليس من النوع العبث الذى لا يمكن أن يؤدى إلى جواب معقول كما قد يبدو ، فإن العلم يبحث عن أسرار الفطرة ، وفاطر الفطرة سبحانه هو الذى تعبد الإنسان بالطواف بالبيت الحرام ، فليس بممتنع أن يكون الطواف رمزا إلى سر عظيم تستوى فيه الروح والمادة ، وأن يكون فيما كشف عنه العلم من أسرار الفطرة مايدل عليه أو يشير إليه .

ولا يكاد الناظر يتجه هذا الاتجاه حتى ينكشف له فيما كشف العلم عنه من حقائق الفطرة نظائر للطواف ، ثم تتكاثر عليه النظائر حتى ليوقن أنها مظهر لسنة عامة فى الخلق ، أهم وأجل كثيرا فى دلالتها مما يخطر لأول وهلة على بال .

وأول ما يلقى الناظر من تلك النظائر يلقاه فى المجموعة الشمسية : فالأقمار فيها تدور ـ أو تطوف ـ حول كواكبها ، فالقمر يدور حول الأرض ، وأقمار المشترى تدور حول المشترى ، والأرض وأخواتها من السيارات تدور وأقمارها حول الشمس دورانا متصلا ، يختلف حقا باختلاف كتلة السيار وبعده من الشمس . لـكن مهما يكن الاختلاف فى الـكيف والمدار فالدوران أو الطواف حول الشمس واقع من كل سيار .

وقد بين علم الفلك الحديث مبلغ انتشار ظاهرة الطواف هذه بين الكواكب فرادى وجماعات وعوالم . فـكم من كوكب يطوف ويدور حول كوكب ، توائم وغير توائم ، وعالم المجرة الذى منه مجموعتنا الشمسية يدور ، بل العالم الفلكى

كله - كما يشرح السير جيمز جينز فى كتابه «النجوم فى مسالكها»[١] - يدور، أو يبدو أنه يدور، دوراناً بطيئاً هائلا حول مركز دل الكتاب على منطقته، كما تدور عجلة حول مركزها، أو بالأحرى حول مجمع المحاور فيها . وفى ذلك الكتاب يجد القارىء المثل بعد المثل والتفصيل بعد التفصيل، فليرجع من يشاء من القراء المتشوفين إلى الكتاب لينظر مبلغ انتشار ظاهرة الطواف فى السماء، كأنما هى مظهر سنة عليا فطر الله عليها السموات .

فإذا ما تركنا العالم الفلكى جانبا ونزلنا إلى العالم الذرى ، وجدنا الأمر أعجب وأغرب ، أو هكذا يخيل إلى من يستثير الدقيق من تعجبه أكثر مما يستثير الجليل . والذرة لم يرها أحد قط ، ولا يطمع فى رؤيتها بالذات أحد ، لبلوغها فى الدقة والصغر غاية تقطع عن إمكان رؤيتها الأطماع ، لكنها مع ذلك لا يشك أحد من المشتغلين بالعلم فى وجودها ، ولا فى أن باطنها عالم مائج عجيب .

والعلماء المحدثون يشبهون الذرة بالمجموعة الشمسية ، فهى جلها فراغ تتوسطه نقطة مادية يتمركز فيها ثقل الذرة ووزنها تسمى نواة الذرة ، ويدور حولها فى ذلك الفراغ العظيم بالنسبة لها عدد من الكهيربات أخف كثيرا من النواة ، كل كهيرب - كما قد يدل عليه اسمه - وحدة من الكهربية السالبة الخاصة، ولكنها فى مجموعها تكافىء بالضبط ما تحمل النواة من كهربية موجبة ، أى أن كل نواة فى ذرة عنصر تحمل من شحنات أو وحدات الكهربية الموجبة قدر عدد الكهيربات التى حولها .

وكان من شأن الكهربيتين هاتين أن يتحدا للتجاذب العظيم بينهما ، لولا أن فاطر الفطرة وخالق الذرة سبحانه قضى للمادة بالوجود ، فمنع ذلك

---

(١) نقله إلى العربية الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى ، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الاتحاد بين كهيربات الذرة ونواتها بحركة أنشأها وقدرها فى الكهيربات حول النواة ، كما أنشأ وقدر فى كل سيار وفى كل قمر حركة حول شمسه أو حـــول كوكبه تحول دون سقوط السيار فى الشمس أو القمر على الأرض ، أو بالأحرى أنشأ الخالق البديع سبحانه فى كل كهيرب وفى كل سيار وفى كل قمر حركة فرار وابتعاد عن النواة أو الشمس أو الكوكب الذى يجذبه ، وقدر الحركتين إلى داخل أو خارج بحيث تكون نتيجتهما طواف الضئيل حول الجليل ، ودوران الكهيرب حول النواة ، والأرض حول الشمس ، والقمر حول الأرض .

والعجب العجاب أن عناصر المادة تزيد على التسعين ، ولا تختلف ذراتها فيما بنيت منه وخلقت ، فالنويات جوهرها واحد ، والكهيربات شىء واحد ، لكن عدد الكهيربات يبدأ من الواحد فى ذرة الأيدروجين التى هى كهيرب Electron يدور حول أبيب Proton ، ويذهب العدد يزداد واحدا بعد واحد ، كلما زيد كهريب — وزيد فى النواة ما يتحقق به التوازن الضرورى — نشأت ذرة جديدة لعنصر جديد ، ويمضى الأمر كذلك مبعدا فى العناصر الطبيعية بترتيب محدود معروف ، من ذرة الأيدروجين ذات الكهيرب الواحد إلى ذرة اليورانيوم التى تبلغ كهيرباتها اثنين وتسعين .

لكن ذرات العناصر على اختلافها متحدة فى دوران كهيربات كل ذرة حول نواتها ، فى طبقات يزداد عددها هى أيضا كلما ازداد عدد الكهيربات زيادة كافية ، طبق نظام محكم بديع سيأتى بعض تفصيله فيما بعد .

والآن ما رأيك فى انتشار ظاهرة الطواف هكذا فى الفطرة من الذرة إلى المجرة وما فوقها ؟ تذكر أن كل ذرة من مادة فى الكون فيها طائف ومطوف به ، وأن ذلك كله فى باطن الذرة تقوم عليه بنيتها وذاتيتها ، ولا سلطان لمخلوق عليه كما لا سلطان لمخلوق على دوران الأقمار حول كواكبها ، ولا السيارات حول شموسها فى الكون الشاسع العظيم . ثم تذكر أن فى كل حالة من تلك الحالات فى

العوالم الذرية والفلكية ، المطوف به دائما واحد والطائف كثيرا ما يتعدد ، ففى كل ذرة نواة واحدة تطوف بها الكهيربات قلت أو كثرت ، وفى كل مجموعة شمسية شمس واحدة تطوف بها سياراتها ، قلت أو كثرت كذلك .

والعالم المجرى بملايين شموسه وكواكبه يدور أو يطوف حول شيء واحد ، والكون كله بالألوف المؤلفة من عوالمه المجرية يبدو أنه يدور أو يطوف حول شيء واحد لا يدرى ما هو ، وتوحد المطوف به فى كل حالة مع تعدد الطائفين فى الكثرة الغالبة من الأحوال يريك وجه الشبه واضحا بين الطواف الذى هو من قوام الحج وبين ظاهرة الطواف التى فطر الله عليها الكون . ويفتح ، أو أرجو أن يفتح ، لك بابا واسعا من التدبر ، وأفقا شاسعا من التفكير فى حكمة الطواف ودلالة انفراد الإسلام به من بين الأديان .

الفصل الثامن

الإسلام وسنن الاجتماع

الإسلام دين الفطرة كما قدمنا ، شهد بذلك الله سبحانه إذ يقول فى الآيه ٣٠ من سورة الروم (فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) . وأحكام الإسلام إن هى إلا تطبيق محكم من الله عز وجل للسنن التى فطر الناس عليها فى الاجتماع ، إن الكون قد فطره فاطره على سنن وقوانين لا تتخالف ولا تتخلف ، كشف بعضها العلم الطبيعى الحديث . كذلك الإنسان فطره فاطر الكون على سنن وقوانين لا تتخلف ولا تتخالف ، لا مع نفسها ولا مع غيرها من سنن الله فى الخلق . وفى نسبة فطرة الإنسان إلى فاطرها فى آية سورة الروم يتمثل الفرق بين الإسلام ودين الغرب الذى يقول بأن الإنسان مفطور على الإثم . فالإسلام بتلك النسبة الكريمة يرفع الإنسانية وفطرتها إلى الأوج ، ويفتح أمامها الباب واسعا إلى السعادة والترقى الذاتى ، فى حين أن نسبة الإنسانية إلى الإثم توصد هذا الباب أمام الإنسان وتنزل بفطرته إلى الحضيض .

ومن عجائب آية الروم هذه ودلائلها الباهرة وصفها الفطرة بأخص أوصافها وهى الاطراد والثبوت وعدم التخلف (لا تبديل لخلق الله) ، ووصف فطرة الإنسان خاصة بأخص خصائص فطرة الكون عامة من الاتساق والاطراد والثبوت هو برهان على أن القرآن من عند فاطر الفطرة سبحانه . فإن الإنسانية بعلومها الطبيعية الحديثة إذا كانت قد اهتدت إلى اطراد الفطرة فى المادة والطاقة ، فإنها لم تهتد إلى الفطرة ولا إلى اطرادها فى الاجتماعيات ، فهى فى فلسفتها ومذاهبها الاجتماعية فى بلبلة واضطراب لا نرى له مثيلا فى الطبيعى من العلوم .

وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) فى موضوعها من الآية ليس فقط وصفا للفطرة التى فطر الحق سبحانه عليها الإنسان وغير الإنسان . من حيث اطراد السنن وثبوتها ، ولكنه أيضا أمر وتشريع ألا يبدل الإنسان دين الله بتشريع من عنده كما فعل المسلمون ويفعلون منذ اتصالهم بأوربا فى القرن التاسع عشر ، حين اتخذوا ويتخذون منها إماما ، ومن قوانينها ونظمها الاجتماعية بديلا من أحكام الله . ثم هو أيضا توكيد أى توكيد لما أمر الله به فى صدر الآيه الكريمة من إقامة الوجه للدين فى تصميم وعزم ، وانصراف كلى إليه ، وميل عن كل ما سواه ، وإلا تعرض فى روحه واجتماعياته لكل ما يتعرض له من يخالف قوانين الفطرة وسننها فى المادة وما إليها .

ومن العجيب أن الإنسان مقبل كل الإقبال على الانصياع لما يعلم من قوانين الفطرة فى المادة والطاقة ، لا يجترىء على مخالفتها فى معامله ولا فى مصانعه ، فنال بذلك ما نال من القوة المادية الهائلة التى حملته وتحمله على الغرور والاغترار ، ثم هو منصرف انصرافا كبيرا عن الانصياع لقوانين الفطرة فى الروح والاجتماع بانصرافه عن الإسلام دين الفطرة دين الله ، واجترائه عليه بالشك والتشكيك ، والإهمال والتجريح أو بالتأويل والتبديل والتحريف والتعديل ، كيفما شاء هواه . فكانت عاقبته أن صار قزما فى الروح عملاقا فى المادة ، أو قزما فى الناحيتين الروحية والمادية كلتيهما . وكان عاقبة المسلمين بتركهم الدين وانخداعهم عنه ما نرى من الضعف والمهانة ، حتى اجترأ عليهم من لم يكن يدفع عن نفسه ، وكان عاقبة الغرب ، حين لم تجد قوته المادية قوة روحية تكبح جماحها ، أن تعاورته الخطوب ودمرته الحروب وفرقته المذاهب والأهواء شيعاً لا اتفاق لها ، ولا أمل فى الاتفاق .

والناس فى اجتماعياتهم لم يهتدوا بعد إلى قوانين الفطرة ، وإنما يحدسون ويظنون ، فنجاحهم فى الكشف عن سنن الفطرة فى المادة لا يعادله إلا فشلهم فى الكشف عن سنن الفطرة فى الروح ؛ روح الفرد وروح الجماعة ، وهم أنجح

فى تفهم روح الفرد فى علم النفس منهم فى تفهم روح الجماعة فى علوم الاجتماع، وآية ذلك الاختلاف السائد فى هذه العلوم فى حين ألا اختلاف هناك فى العلوم الطبيعية، علوم المادة والطاقة، لا فى قوانينها ولا فى وقائعها. وإن كان هناك طبعا اختلاف فى الفروض والنظريات المتعلقة بما لا يزال منها قيد البحث والنظر والتمحيص. فعلوم الاجتماع فى كثرة اختلافها وقلة اتفاقها تشبه العلوم الطبيعية فى جزئها المجهول وما يتعلق به من فروض، أى أنها لا تزال فى دور التكوين، دور الحدس والتخمين.

ودور الحدس والتخمين هذا ضرورى، يمر به كل علم فى بحث ظواهره قبل أن يصل فيها إلى يقين، ولكن علوم الاجتماع يعوزها ما ليس يعوز العلوم الطبيعية من معيار يفصل به بين الحق والباطل، ويميز به بين الخطأ والصواب. فالعلوم الطبيعية تحتكم إلى التجربة العملية فى الفصل بين الفروض المختلفة التى يؤتى بها لتفسير الظاهرة الواحدة. أى تحتكم فى الواقع إلى الفطرة نفسها التى تجيب دائما نفس الجواب عن نفس السؤال كلما أحسن العلم الطبيعى توجيهه.

وهذا إن هو إلا مظهر لاطراد الفطرة فى سننها، ونتيجة لازمة لذلك الاطراد. لكن العلوم الاجتماعية لا تملك ما يملك العلم الطبيعى من التجربة العملية التى يتحكم العالم فى إجرائها بالصورة التى يرى أنها أدنى إلى أن تؤدى إلى الكشف عن الحق فى موضوعها، صحيح أن علماء الاجتماع يستعينون أيضا بنوع من المشاهدة، ولولا ذلك ما كانت هناك علوم اجتماعية قط، لكن شتان بين المشاهدتين: مشاهدة يكيفها ويضبط ظروفها المشاهد كما فى العلم الطبيعى، وبين مشاهدة لا يكاد يكون هناك سبيل إلى التحكم فيها أو ضبط ظروفها وتكييفها كما فى العلم الاجتماعى، وهذا الفرق الأساسى هو سبب نهوض العلوم الطبيعية، وقعود العلوم الاجتماعية عن أن تبلغ من الدقة والإصابة المبلغ الذى يليق. هذه النتيجة ليست راجعة إلى فضل فريق من العلماء على فريق، وإنما ترجع إلى طبيعة الموضوع فى كل علم.

فوضوع العلم الطبيعى هو المادة والطاقة والحياة فى غير الإنسان . وما نفقد أو نخسر من ذلك أثناء التجارب لا يكاد يهم لأنه ممكن تعويضه ، كلما تلف أثناء التجربة الفاشلة كمية من المادة مثلا أعدنا التجربة بكمية جديدة فى ظروف جديدة حتى نهتدى الى ما نريده . لكن مادة العلم الاجتماعى هى الإنسان ، متفرقا أفراداً أو مجتمعا جماعات وشعوبا . ومن المحظور أن نعرض الفرد أو الجماعة إلى تجربة تؤدى إلى التلف أو حتى إلى ضرر ملحوظ . بل إن نفس احتمال الضرر فى التجربة يكفى لمنعها وتحريمها قانونا .

فليس أمام العالم الاجتماعى إلا أن يشاهد ما يجرى فى حياة الجماعات من غير أن يكون له سلطان على تكييف ظروف الحياة تكييفا يصل من خلاله إلى ما يريد من اختبار فرض أو اختيار الأرجح من رأيين . والأصح من نظريتين. وهذا معناه أن الأمد سيطول على العلم الاجتماعى ، أو الفلسفة عموما ، قبل ان يصل أو تصل إلى إثبات سنة من سنن الفطرة فى الاجتماع ، كما قد وصل العلم الطبيعى إلى إثبات الكثير من سنن الفطرة فيما هو موضوعه من مادة الكون عدا الإنسان من حيث هو إنسان .

وعجز العلم الاجتماعى عن الوصول إلى الحق ، مهما تكن أسباب ذلك العجز ، لن يعفى أحدا من عواقب الخطأ أو التخبط فى الحياة الاجتماعية نتيجة الجهل سنن الله التى طبعت عليها الفطرة فى الاجتماع . فليس ميدان الروح والحياة الإنسانية بأقل خضوعا لنواميس الفطرة من ميدان المادة والطاقة ، وليست نواميس الفطرة فى ناحيتها الإنسانية الاجتماعية بأقل دقة وصرامة من نواميس الفطرة فى ناحيتها المادية ، وإن خفى ذلك على الأكثر الأغلب من الناس . فالفطرة فى حقيقتها كل شامل متصل وإن جزأه الإنسان ميادين وعلوما متباينة لعجزه عن دراسة الفطرة دفعة واحدة .

إن الإنسان مضطر الى التحليل أولا ليتوصل بعده إلى التركيب ، مضطر لدراسة الجزء قبل أن يستطيع إدراك الكل فى أمر من الأمور . فإذا قدر

للإنسان فى علومه المختلفـــة أن يحيط بالفطرة أجزاء منفصلة فسوف يستطيع أن يهتدى إلى فلسفة غير فلسفته الحاضرة ، وأن يبصر الطريق إلى ضم بعض تلك الأجزاء على تباينها إلى بعض ، ضما يجعل منها كلا متصلا تتجلى فيه الفطرة وحدة موحدة ، يجلوها علم جامع لشتات العلوم كلها هو علم الفطرة . عندئذ يرى الإنسان أن سنن الله فى الكون واحدة فى اطرادها وتناسقها وفى دقتها وصرامتها . لاسبيل إلى تغييرها ولا الإفلات من عواقب مخالفتها . سواء فى ذلك ناحية المادة والطاقة منها وناحية النفس والروح والأفراد والجماعات .

ومهما عذر الناس فى جهل أن الفطرة وحدة واحدة فى طبيعياتها واجتماعياتها فالمسلمون من بينهم لا عذر لهم لأن كتاب الله فاطر الفطرة قائم بينهم يخبرهم من ذلك بما جهلته الفلسفة ولم يدركه العلم ، فى آيات هى فى أيدى المسلمين — وا أسفاه — كالمصابيح فى أيدى العميان ، من نحو قوله تعالى من سورة تبارك : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت — ٣) ومن سورة فاطر (فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا — ٤٣) .

والعجيب أن هذه الآية الكريمة وأمثالها فى القرآن لم تنزل فى سنن الله فى المادة ، وإنما نزلت فى سنن الله فى الاجتماع ، لتنذر الناس عواقب كفرهم إن كفروا بالدين الذى هو دين الفطرة ، ولتبين لهم أن لله فى هذه الناحية سنن لا تتخلف ، جرت فى الأولين بالإهلاك حين عصوا واتبعوا أهواءهم ، وهى جارية لا شك فى الآخرين إن هم عصوا أيضا وخرجوا عن سننه سبحانه التى فطر عليها الناس ، سواء أكان خروجهم ومخالفتهم عن جهل أو عن عناد .

ولقد بين الله سبحانه هذه الحقيقة فى كتابه الكريم بشتى صور البيان . فتارة يجمل ، كما فى قوله تعالى من سورة الحج : (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ، فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة

فهى خاوية على عروشها ٤٢ — ٤٥) ، وتارة يفصل ثم يدل على موضع الحجة والعبرة فى التفصيل ، كما تجد فى سورة القمر مثلا إذ قص سبحانه ما جر التكذيب بسننه ورسله على قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون ، حتى إذا بين سبحانه من ذلك ما شاء تفصيله التفت الى كفار العرب مخاطبا بقوله : (أكفاركم خير من أولئكم ؟ — القمر ٤٣) فدل بذلك على أن سنته فى الكافرين المكذبين بكتبه ورسله سنة عامة لا استثناء فيها ولا منجى منها إلا بالإيمان والعمل بالدين الذى تتمثل فيه قوانين الله فى الفطرة . وتتضمن أحكامه التطبيق المحكم لسننه سبحانه فى الاجتماع . تلك السنن التى علم الله أن السبيل إليها وإلى تطبيقها غير ميسور للناس على الزمن ولا مضمون ، خلافاً لسننه سبحانه فى المادة والطاقة وما إليهما ، فأمرهم أن يطلبوا هذه بأنفسهم ، ومن عليهم بتلك مطبقة محكمة فى أحكام الإسلام .

ونحن اليوم نرى صدق عموم تلك السنن رأى العين فيما حاق بمخالفيها فى الغرب وفى الشرق . فالغرب قد نال من العلم الطبيعى عن طريق البحث التجريبى ما نال حتى ظن أنه قد ملك الأرض يفعل بها ما يريد ، غير مراقب فى الناس إلا ولا ذمة . ولا مراع فى اجتماعياته شرعاً ولا سنة . فإذا بنفس علوم المادة تنقلب عليه نقمة ، وإذا بأمواله تتحول بتلك العلوم مناجل وقنابل تحصد أهله ، وتمزق شمله ، وتترك دياره العامرة بلقعاً ، ومدنه الزاخرة حطاماً (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد — هود ١٠٢) . وسيان أن يهلك العاصون لله وسننه بحجارة من سجيل يمطرونها على أيدى الملائكة ، أو بقنابل ذرية وغير ذرية يمطرونها على أيدى أمثالهم من الناس مصداقاً لقوله تعالى : (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون — الأنعام ١٢٩) .

ومن العجيب أن الغرب لاقى ببغيه ومعصيته حربين هائلتين أنسته أولاهما حروب التاريخ ، وأنسته أخراهما أهوال الأولى ، وكان فى كل منهما يكى

ويستبكى ، ويدعو ويتضرع ، ويعد ويمنى ، حتى إذا خرج من الأولى نسى ما عاهد عليه الله ونقض ما عاهد عليه الناس ، فأذاقه الله بالثانية لباس الجوع والخوف ، فلم يعتبر ولم يرتدع ، ورجع إلى بغيه الذى ألف .

وأعجب من أمر الغرب أمر هذا الشرق الإسلامى الذى لا يزال يتخذ الغرب فى اجتماعياته إماماً ، كأن فشلها وخطلها لم يثبت بما أشاعته فى الغرب من فرقة وبغض ، وما جرت عليه من ويل وحرب ، أو كأن هذا الشرق ليس بيده نور الله يهديه ، ودين الله يعتصم به . فلئن لم يتدبر قوله تعالى : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون — هود ١١٣) ، وقوله سبحانه : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون — الزمر ٥٥) فيسمع لأول كل منهما ويطيع ، ليوشكن أن يحق عليه سائرهما ، فإن رأس سنن الله أن يطاع ، وأن من لا يطيع يهلك ، وسنن الله لا تتخلف كما يشهد به العلم فى المادة ، أو كما يشهد به القرآن فى الاجتماع .

الفصل التاسع

الإسلام والهجرة

الهجرة حادث كريم لم يكن بعد النبوة أعظم ولا أبعد أثراً منه فى تاريخ الإسلام، بل فى تاريخ الإنسانية . فلولا الهجرة ما ظهر الإسلام وتغلب على جزيرة العرب ، ثم على أهم مواطن نصف الكرة الشمالى من الأرض . ولولا ظهور الإسلام ، وما استلزمه من جهاد فى سبيل الله ، وما أنزل الله من هدى يهدى به المجاهدين سبله لحرم الإنسان ذلك الهدى ، ولظل فى أموره موكولا إلى نفسه لا يكاد فى السلم يقف عند حد فى طلب اللذة ، ولا يكاد فى الحرب ، كما تشهد الحرب الأولى العظمى والثانية ، يقف عند حد فى إتيان ما يظن أنه يكفل له النصر .

فالعهد الذى كان فى الإسلام قبل الهجرة إنما هيأه الله ليؤدى بقدر منه إلى الهجرة ، ثم إلى ما كان فى حياة الرسول بعدها . وهو إلى ذلك عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما ينبغى أن يفعلوه إذا كانوا فى حالة من الضعف لا يملكون معها من أمورهم إلا القليل ، يصابرون فى سبيل الله ، ويصبرون ما استطاعوا ، ويهاجرون إن استطاعوا بدينهم فى سبيل الله إلى حيث يمكنهم أن يقيموا دينهم آمنين ، فإن أمكنتهم بعد ذلك قوة يستطيعون بها الدفاع عن دينهم ولو بالسلاح فقد وجب الدفاع ، إنما عليهم فى كل ذلك ، مهما يكن الحال ، أن يستمسكوا بدينهم كما يستمسك الغريق بحبل النجاة .

والعهد الذى كان فى النبوة بعد الهجرة كان ، فيما كان ، عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما يجب عليهم وما ينبغى لهم فى حالة القوة . سواء أكانت قوة ناشئة قد قام حيالها الأعداء ، أم كانت قوة غالبة قد مكن

الله لأهلها فى الأرض ، فلم تبق يد أعلى من أيديهم ، ولا كلمة تنافس كلمتهم فى الرفعة والسلطان . وفيما بين هذين الحالين أحوال تتقلب فيها الأمم الناشئة ، لولا الهجرة ما عرف الناس سنن الله فى مثلها ولا طريق الفلاح فيها .

فالهجرة إذا شئت هى نقطة الانقلاب من الضعف إلى القوة ، لا فى تاريخ شعب فحسب ، ولكن فى تاريخ دين شاءت رحمة الله بالبشر أن يمن عليهم به ، ليعرفوا مالم يكونوا لولاه ليعرفوه من سنن الله فى الإنسانية بحذافيرها ، لا فيما يتعلق بالفرد فقط ، فقد كان فيما أنزل الله قبل الإسلام من دين ما يكفى لأن ينجو به الفرد مما يتهدد نفس الفرد من أخطار ، ولكن فيما يتعلق بالمجموع على الأخص ، أى فيما يتعلق بالإنسان من حيث هو أمم وشعوب . ثم من حيث هو جنس واحد أبدعه إله واحد ، وجعل طريق بلوغه أعلى غايته التى قدرت له فى التعاون فى الله وبالاجتماع ، لا فى العزلة والافتراق .

ولعل هذه الناحية هى الفرق الأكبر بين الإسلام وبين ما قبله من الأديان التى أنزلها الله قبل الإسلام ، هدى الله بها الإنسان من حيث هو فرد ، ومن حيث هو جماعة منعزلة . وبالإسلام هدى الله الإنسان من حيث هو فرد ، ومن حيث هو جماعة منتشرة متصلة ، ثم من حيث هو جنس ، حياته ورقيه فى اتباع سنن الفطرة التى فطر الله الناس عليها وفطر عليها الكون . وكان عهد التشريع الإلهى للجماعة العامة هو ما بعد الهجرة ، وعهد التشريع للفرد كان فيما قبل الهجرة ، ثم فيما بعد الهجرة ضمن دائرة الجماعة ، فكأن الله سبحانه حين أراد أن يكمل للإنسانية دينها فى الإسلام ويجمع لها فيه الدين كله ، جعل الإسلام عهدين يكادان يتساويان : عهد الفرد قبل الهجرة ، وعهد الجماعة بعد الهجرة .

فقبل الهجرة كان عهد التضحية فى سبيل الله من الناحية الفردية البحتة ، كما كان يحدث فى الأديان التى قبل ، كالنصرانية . وبعد الهجرة كان عهد تكون الجماعة وتطورها إلى جماعة كاملة تسير فى الاجتماعيات طبق

الفطرة : قانونها كتاب الله ، ولا حكم فيها ولا سلطان عليها إلا لله . فتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم يمثل تاريخ الأنبياء قبله فى شطره الأول ، ويختص ويمتاز فى الشطر الآخر ، وبالشطر الآخر . فهو من مبدئه إلى منتهاه يمثل تاريخ ترقى الله بالإنسان فى الدين ، كما يقولون إن تاريخ خلق الله الإنسان يتمثل فى خلق الجنين .

ما نزل من القرآن أثناء الهجرة

لننظر الآن فيما قرره علماء تاريخ القرآن من حيث ترتيب نزول آياته وأماكن نزولها : تاريخ القرآن الكريم عنى به العلماء والحفاظ عناية فائقة ، وفقهم الله إليها فيما وفقهم إليه تحقيقاً لوعده سبحانه بحفظ كتابه . فكما وفق فريقاً لحفظ نص القرآن لفظاً وأداء ، وفريقاً لحفظ اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، وفريقاً لحفظ الحديث النبوى الذى هو التفسير لآيات الأحكام والغيبيات فى القرآن ، وفق فريقاً لحفظ تاريخ القرآن العزيز من حيث ترتيب نزول سوره وأماكن نزولها ، ونزول نجومه بل وأوقات ذلك النزول .

ولم يقتصر علماء تاريخ القرآن على تبيين أى سوره مكى وأيها مدنى ، بل عنوا ببيان المدنى من الآيات فى المكى من السور ، والمكى من الآيات فى المدنى من السور . ووجود آية أو آيات مكية فى سورة مدنية أو العكس هو من عجيب خصائص القرآن الكريم الذى تميز به عن كلام البشر . فمن العجيب حقاً أن ينزل النجم القرآنى فى المدينة ، فيأمر ملك الوحى رسول الله أن يضعه موضعه بين آية كذا وآية كذا فى السورة المكية التى شاء الله أن يكون ذلك النجم جزءاً منها . وأعجب من ذلك أن ينزل النجم القرآنى بمكة فيظل قائماً بذاته محفوظاً حتى يهاجر الرسول صلوات الله عليه وسلامه إلى المدينة وتنزل السورة التى قدر الله سبحانه أن يلحق النجم المكى بها فيأمر الملك رسول الله أن يضعه موضعه بين آية كذا وآية كذا من السورة

المدنية ، كما جاء الحديث الصحيح بذلك كله . ثم تقرأ السورة المكية التى فيها المدنى ، مثل سورة القلم وسورة المزمل وسورة النجم وسورة الماعون وغيرها كثير يبلغ إحدى وثلاثين سورة ، أو تقرأ السورة المدنية التى فيها المكى مثل سورة البقرة وسورة الأنفال وغيرها قليل يبلغ ثلاثة سور — تقرأ هذه أو تلك فلا ترى إلا انسجاماً وإحكاماً ، فلا تعرف من المدنى فى المكى ولا من المكى فى المدنى إلا ما عرفك أهل العلم والرسوخ فيه ، مهما أوتيت أنت من البصر بالعربية ومن دقة الذوق فيها . وهذا الإنسجام والإحكام ، مع اختلاف أوقات نزول النجوم القرآنية تبعاً لاختلاف أوقات الحوادث الاجتماعية الطبيعية التى نزلت نجوم القرآن طبقاً لها ، هو حجة ظاهرة قاهرة على أن القرآن من عند الله مدبر تلك الحوادث التى وقعت طبق سنن الفطرة ، لا طبق إرادة فرد من الناس .

وقد أظهر هذه الحجة المرحوم فقيد الإسلام الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) فأحسن فى إظهارها وإقامتها كل الإحسان .

وقد لخص تاريخ القرآن الإمام الجلال السيوطى فى كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) ذاكراً ما اتفق العلماء عليه منه وما اختلفوا فيه . ويظهر أن ما جاء من اختلافهم فى بعض القرآن أمكى هو أم مدنى راجع إلى الاختلاف فى تعريف المكى والمدنى . وقد ذهبوا فى ذلك مذاهب ثلاثة ، ذكرها صاحب الإتقان : أولها وأشهرها أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى بعدها ؛ سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار . وثانيها أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة (وعلى هذا تثبت الواسطة ، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكى ولا مدنى) كما يقول صاحب الإتقان . وثالث تلك المذاهب أن المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة . ومن تذكر هذه المذاهب الثلاثة استطاع فى ضوئها تفسير الخلاف فى السورة

الواحدة ، مثل سورة المطففين ، أمكية هى أم مدنية ، وفى النجم الواحد من القرآن أمدنى هو أم مكى ، أم لا مكى ولا مدنى .

وقد جرت العادة فى طبع المصحف أن يذكر فى عنوان كل سورة أنها مكية أو مدنية مع ذكر عدد آياتها . لكن اللجنة التى أشرفت على طبع مصحف فؤاد برياسة الشيخ محمد خلف الحسينى شيخ المقارىء إذ ذاك ، قد قامت بعمل جليل عظيم يسرت به تاريخ القرآن الكريم للناس حين ضمنت عنوان كل سورة ترتيب نزولها بذكر السورة التى سبقتها ، كما ضمنته ما فيها من الآيات المدنية إن كانت السورة مكية ، أو الآيات المكية إن كانت السورة مدنية ، وموضع نزول الآية أو الآيات إن كانت لا مكية ولا مدنية ، معتمدة فى ذلك على أمهات المراجع التى ذكرتها فى التعريف بتلك الطبعة الجليلة من المصحف الشريف .

ومن ذلك طبعاً أن ذكرت فى عنوان سورة (اقرأ) أو سورة (العلق) أنها أول سورة نزلت من القرآن ، وعن سورة (المطففين) أنها آخر سورة نزلت بمكة بعد سورة العنكبوت . وعن سورة (البقرة) أنها أول سورة نزلت بالمدينة إلا آية (٢٨١) فنزلت بمنى فى حجة الوداع . وعن سورة (النصر) أنها آخر ما نزل من السور ، نزلت بعد سورة التوبة بمنى فى حجة الوداع أيضاً .

فجزى الله تلك اللجنة عن كتابه خير الجزاء بما ضبطت من رسمه ووقفه وقراءته ، وبما يسرت من تاريخه حتى أصبح من الميسور لمن شاء أن يستخرج معالم ذلك التاريخ باستقراء ما فى عناوين السور من البيانات . ومن تلك البيانات عن طريق الاستقراء أخذنا ما سبق ذكره من عدد السور المكية التى فيها آيات مدنية ، والتمثيل لكل من الصنفين . وقد تبين لنا من ذلك الاستقراء أيضاً أن هناك نجوماً [١] ثلاثة نزلت

---

(١) النجم القرآنى يقصد به آية أو آيات نزلت فى موقف أو مناسبة ما .

أثناء الهجرة ، الأول : آية ١٣ (وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) من سورة محمد المدنية . والثانى : آية ٨٥ (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) من سورة القصص المكية . والثالث : يتكون من الآيات الأربع المتتالية التى أولها (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم) ٥٢ من سورة الحج المدنية .

أما مواطن النزول فقد ذكر عن النجم الأول أو الآية الأولى أنها نزلت فى الطريق أثناء الهجرة ، وعن الثانى أو الآية الثانية أنها نزلت بالجحفة أثناء الهجرة ، وعن الآيات الأربع المكونة للنجم الثالث أنها نزلت بين مكة والمدينة ، فلم يتحدد بالضبط إلا موطن نزول النجم الثانى . والجحفة على بعد اثنين وثمانين ميلا من مكة ، كما فى القاموس .

وقد أردنا تحديد موطنى نزول النجمين الآخرين إن أمكن ، فرجعنا إلى تفسير ابن كثير فوجدنا فيه رواية تحدد موطن النجم الأول من غير أن نجد فى تفسيره لسورة الحج شيئاً مما نحن بصدد بحثه عن النجم الثالث ، وجدنا فيه رواية ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة وأتى الغار التفت إلى مكة وقال (أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلى ، ولولا أن المشركين أخرجونى لم أخرج منك) ، فأنزل الله تعالى على نبيه (وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) ، فكان فى ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الإشارة إلى أنه سبحانه سينتقم له ممن أخرجوه ، وتكون آية سورة محمد أو سورة القتال كما يسميها ابن كثير هى أول النجوم الثلاثة نزولا .

ثم رجعنا إلى نفس التفسير لعلنا نجد فى تفسيره الآية الثانية أو النجم الثانى ما يدل على حكمة نزوله أثناء الهجرة فى ذلك المكان البعيد عن مكة ، فوجدنا ابن كثير فسر (معاد) بيوم القيامة ، ثم ذكر عدة روايات عن ابن عباس فى تفسير (إلى معاد) ، بعضها يؤيد ذلك التفسير الذى ذهب إليه ابن كثير ، وبعضها يفسر (إلى معاد) بأنه إلى الموت ، وبعضها يفسره بأنه إلى الجنة .

وليس فى هذا ما يدل على الحكمة التى ننشدها . اللهم إلا ما قد يكون فى آخر هذه التفاسير من التسلية للرسول . ثم وجدنا ما ننشده فى ما رواه ابن كثير للبخارى فى التفسير من صحيحه عن ابن عباس أيضاً : (لرادك إلى معاد) قال إلى مكة ، وروى مثل ذلك عن ابن عباس للنسائى وابن جرير والعوفى وابن أبى هاشم ، وأيده بعدة تفاسير عن بعض أعلام التابعين مثل سعيد بن جبير والضحاك .

قال سفيان رواية عن الضحاك : لما خرج النبى من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى إلى مكة . وبهذا تتم تسلية الحق سبحانه لنبيه ورسوله عن بعده عن أحب بلاد الله إلى الله وإليه . ففى آية سورة محمد سلاه بأن أشار إلى انتقامه سبحانه من أعدائه ، وفى آية سورة القصص وعده وأكد الوعد أن سيرده إلى مكة . ولا يمكن أن يكون هذا إلا عن طريق فتحها . ففى الآية الكريمة أعظم تسلية لأنها بشارة للرسول بالنصر والفتح . وفيها فوق ذلك مثل من إعجاز القرآن من الناحية التاريخية ، لأنها وعد بفتح مكة وعده الله نبيه فى وقت هو أحرى أن يكون وقت يأس من الرجوع إليها .

وقد حقق الله لرسوله ذلك الوعد الذى وعده بالغيب بعد ثمانى سنوات أو أقل من إخراج المشركين إياه . ويرى ابن كثير أن من الممكن الجمع بين أقوال ابن عباس على اختلافها فى تفسير الآية وبين طريق ذلك ، لكن إن كان

لا بد من الاختيار من بين تلك الأقوال ، فرواية البخارى عن ابن عباس هى لاشك أصح الروايات ، ونهاية حكمة النزول ، وبها يتحقق مثل من أمثلة إعجاز القرآن الكريم .

والنجم الثالث ، وهو الآيات الأربع من سورة الحج له أهمية خاصة فى تاريخ القرآن ، لأنه بنزوله خارج مكة لا فى مكة نفسها ، بل بين مكة والمدينة ، أى أثناء الهجرة ، يبطل تاريخيا حكاية الغرانيق[١] التى استند فيها أصحابها إلى هذه الآيات الأربع بالذات . وحكاية الغرانيق من اختلاق الزنادقة ، كما قال ابن إسحاق صاحب السيرة . أى أن ابن إسحاق ، وهو الثقة المتخصص فى سيرة الرسول ينكر تلك الحكاية تاريخياً كل الإنكار .

وقد أبطلها الثقات من أهل الحديث ومن بينهم جميع أصحاب الصحاح ، فزيفوا ما اتصل بها من الروايات وأثبتوا أنها كلها إما مرسلة أو منقطعة ، إلى حد أن أصحاب الصحاح لم يرو واحد منهم شيئاً منها . كذلك أبطلها أعيان النظار من علماء المسلمين بإقامة الدليل العقلى بعد الدليل على أن تلك الحكاية فرية مستحيلة الوقوع .

لكن لم أجد أحداً فى القديم أو الحديث انتبه إلى أن الآيات التى استند إليها مروجوا تلك الحكاية — بسوء التأويل أو بقبول مالم يثبت من الروايات — لم تنزل بمكة كما تقتضيه تلك الحكاية ، بل نزلت أثناء الهجرة بين مكة والمدينة عند من يقول إن سورة الحج ليست مدنية كلها ، أو نزلت بالمدينة عند من يقول إنها كلها مدنية فى رواية رواها صاحب الإتقان .

---

(١) إشارة إلى عبارة « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى » التى افتراها الزنادقة على محمد صلى الله عليه وسلم بزعمهم أنه نطق بها عقب قراءته للآيتين ١٩ و ٢٠ من سورة النجم « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » وهى ثلاثة أصنام عبدها الكفار .

فكيف يمكن أن تكون تلك الآيات نزلت بمناسبة وقوع تلك الحكاية وهى لم تنزل إلا بعيداً عن مكة ، بعد سنين من نزول سورة النجم التى افترى عليها المفترون ما افتروا من حديث الغرانيق ؟ إن سورة النجم هى الثالثة والعشرون فى ترتيب نزول سور القرآن ، وسورة الحج هى الثالثة بعد المائة فى ترتيب النزول . فكيف يمكن أن تنزل ثمانون سورة بين الحادثة لو كانت صحيحة وبين الآيات التى نزلت فى الحادثة على القول بأن سورة الحج كلها مدنية ؟ أم كيف يمكن أن تنزل ثلاث وخمسون سورة بين الحادثة والآيات التى نزلت فيها إذا كانت الآيات قد نزلت أثناء الهجرة ، أقرب ما تكون إلى العهد المكى ، إذ عدد السور المكية هو ست وثمانون سورة . إن ذلك يذهب تاريخياً بأساس تلك الحكاية ويظهر بوضوح أنها من اختلاق الزنادقة ، كما قال ابن إسحاق .

أما معنى تلك الآيات الكريمة[١] ففيه تسلية ثالثة من الله لرسوله بتنبيهه صلى الله عليه وسلم إلى سنة الله فى رسله وأنبيائه وما يلقونه من الشيطان وجنوده من أهل الكفر والنفاق الذين يصدون عن سبيل الله وعن قبول الدعوة إلى الله بما يلقونه فى صدور الناس من باطل الشبه والتهم ، امتحاناً من الله للناس حتى يأذن الله بانتصار الحق وظهوره فيبطل ما ألقى الشيطان من شبه وأقوال ضلل بها من صدقه فيها ، ويظهر الله سبحانه الحق الذى أنزله ناصعاً محكماً لا عوج فيه ، فيزداد من آمن من قبل بذلك إيماناً . هذا هو مجمل تفسير الآيات ، وليرجع إلى تفسير الألوسى أو البحر المحيط من شاء أن يزداد .

---

(١) ذكرنا فى صفحة ٧٣ الآية ٥٢ من سورة الحج ، أما الآيات الثلاث الباقية فهى « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ، ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم — ٥٣ — ٥٥ » .

الفصل العاشر

الاستعمار والإسلام

أساس الحياة فى الإسلام أن الملك لله وأن الحكم لله ، لا لأحد من خلقه ، وأن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فلا يصح لمسلم أن يطلبها لذاتها ، ولا أن يعصى الله فيها ، بظلم نفسه أو بظلم غيره . فالاستعمار بمعناه المعروف باطل من أساسه فى نظر الإسلام ، لأنه إخضاع للناس لغير الله فردا كان أو أمة ، وتناحر وتقاتل فى سبيل المال والتجارة والدنيا ، لا فى سبيل الله ، وحكم للناس بالقوانين الوضعية لا بقوانين الله ودين الله .

والحاكم الإسلامى . أى الذى يحكم بالإسلام وللإسلام ، فرد من الناس ليس له فضل عليهم إلا بتقوى الله ، فهو يحكمهم باسم الله لأنه من أبصرهم بدين الله وأقدرهم على التزام حدود الله فى نفسه ، وعلى تنفيذها فى غيره ، وهذا وحده كاف للحيلولة بينه وبين استعباد خلق الله بالظلم والهضم والاذلال .

والحاكم الإسلامى له الطاعة على الناس ما أطاع الله ، فإذا عصاه فلا طاعة له على الناس فيما عصى الله فيه ، أى أن الناس فى حكومة الإسلام فى حل من عصيان الإمام الحاكم فيما يخالف فيه الدين . لأنهم مأمورون ألا يطيعوا غير الله ، وهم إنما أمروا بطاعة الحاكم لأنه القوام على تنفيذ الدين وأحكامه فى نفسه وأهله وفى غيرهم من الناس . وهذا أقصى حدود تحرير النفس البشرية من كل سلطان غير سلطان الله .

ولا خوف من أن يؤدى هذا المبدأ الإسلامى إلى الفوضى لأن حدود الإسلام ومعالمه معروفة ومبينة بالكتاب والسنة ، والحكم بمخالفة الحاكم للكتاب والسنة فى أمر من الأمور ليس إلى فرد ولكن إلى أهل الحل والعقد

من المسلمين ، وأهل الحل والعقد ليسوا فى الإسلام أكثر الناس مالا ، ولكن أكثرهم علما وأتقاهم وأطوعهم لله . فالحكومة الإسلامية هى إقامة الدين لله فى الأرض ، قانونها كتاب الله وسنة رسوله ، ولا قيمة فيها لما خالفهما من آراء الناس وقوانين الناس مهما عظمت أو عظموا فى رأى العين .

ومن هذا ينتج أن الاستعمار بالمعنى المعروف ليس موجودا فى الإسلام ، وإن وجد فى تاريخ المسلمين ، لأن الغرض من حكم الغير فى الإسلام هو إقامة حكم الله فى أرض الله التى يسكنها ذلك الغير ، فإذا تعهد ذلك الغير بأن يقيم حكم الله فى أرضه ترك وشأنه فى بلاده ما دام قائما بذلك التنفيذ ، وهو لن يقوم به طبعا إلا إذا كان مسلما لله ودخل فى الإسلام . وهذا هو السر فى أن الدعوة للإسلام كانت تسبق القتال دائما فى الحروب الإسلامية فى العصر الأول ، فإذا أسلم العدو ترك وشأنه فى دياره لا يدخلها جيش المسلمين ليقوم فيها أو ليحكمها ، لأن تلك الديار بإسلام أهلها تكون قد دخلت فى الوطن الإسلامى ، وفى أخوة المسلمين ، أى الأخوة الإسلامية العظيمة التى غايتها إقامة دين الله فى الأرض والتى شعارها إسلام الوجه والقلب لله . والأمثلة على هذا فى تاريخ الفتوح الإسلامية الأولى كثيرة ، وليرجع إلى ابن الأثير فى تاريخ فارس فى موقعة القادسية من شاء .

والعمل الذى جرى عليه المسلمون فى الفتوح مبنى على عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، فإن كتبه ناطقة بأن الملك أو الأمير المخاطب إذا أسلم أقر على ملكه أو إمارته ، وإن لم يسلم فعليه إثم رعيته ، وهذا واضح فى أن إسلامه الذى دعى إليه ليس المقصود منه إسلام شخصى فقط ، ولكن العمل بالإسلام فى الناس ، ولن يتم هذا طبعا حتى يسلم ، فإقامة دين الله فى الأرض بين قوم تستلزم اعتراف هؤلاء القوم بدين الله ، ودخولهم فيه ، وعندئذ تسلم لهم أرضهم وديارهم كما كانوا قبل الإسلام ، لم يتغير فيها إلا قانونها وطريقه الحكم فيها ،

فهو تغير لمصلحة الناس أفرادا وجماعات ، إذ شتان بين حكم للفرد أو للجماعة بالعقل أو بالهوى أو بالمصلحة المؤقتة ، وبين حكم لله طبق سنته التى فطر عليها الخلق ، المتمثلة فيما أنزل سبحانه فى الإسلام من أحكام .

أما إذا لم يدخل الناس فى الإسلام كما دخل ملكهم أو أميرهم الذى أقره الإسلام عليهم ، ولم يخرجوا على الملك أو الأمير من أجل ذلك ، فإنه يحكمهم بدين الله ، ويكونون هم فى ذمة الإسلام لا يظلمون ولا يهضمون ، أحرارا فى خاصة دينهم وعبادتهم إلا أن يكونوا وثنيين ، فان الإسلام لا يقر الوثنية بحال لأنها منتهى الضلال عن الله . أما ما زاد على الاعتقاد والعبادة الخاصة من أمور المعاملة فالحكم فيها لله طبق شريعة الإسلام ، أى طبق ما يعامل به المسلمون أنفسهم ، على أن يؤدوا مبلغا صغيرا يطيقونه فى غير إرهاق لهم ، يفرض على كل فرد منهم مقابل حمايته وحماية بلده وحماية عرضه وماله من كل من يريد الإعتداء عليه ، وعلى المسلمين أجمعين حكومة وأفرادا أن يحموه من ذلك كما يحمون أنفسهم ، ويبذلون فى سبيل ذلك ما يبذلون لأنفسهم لأنه فى ذمة الله وذمة الإسلام وذمة المسلمين ومن أجل ذلك سمى (ذميا) .

فلقب الذمى لقب تشريف وتأمين لا لقب تعيير وتحقير ، إذ لو كان المراد منه التحقير ما كان حكمه فى الإسلام أن « له ما لنا وعليه ما علينا » ، أى التسوية التامة بينه وبين المسلمين . ودفعه الجزية لا ينقص تلك التسوية ، لأنه دفع فى مقابل ، هو يدفع المال القليل والمسلم يدافع عنه ، ولو يبذل نفسه من غير أن يتكلف الذمى غير المسلم فى سبيل الدفاع شيئا .

وهذا أمر فى التشريع الإسلامى عجيب ، وفرق بين الإستعمارين الإسلامى والأوربى عظيم ، لأن الإسلام يحتم على المسلم أن يدافع عن الذمى ويحميه ولو يبذل نفسه من غير أن يتعرض الذمى لخطر أو لقتال ، ومن غير أن يرزأ إلا بذلك القليل من المال . وشتان بين هذا وبين ما يفعله الغرب من تجنيد

أهل المستعمرات وتعريضهم للأخطار وحملهم على القتال دفاعا عن حكامهم ومستعمرى بلادهم . فالاستعمار الأوربى يضحى بالقادرين من أهل مستعمراته دفاعا عن نفسه ، وليبقى أهل المستعمرات خاضعين له فهو يذلهم ويرغمهم على بذل نفوسهم فى سبيل دوام ذلهم ، وهذا منتهى الظلم المبين .

أما الاستعمار الإسلامى — إذا صح أن يسمى الحكم بين الناس بدين الله استعمارا — فيسوى بين المحكومين والحاكمين فى الحقوق والواجبات ، لا يعرضهم لخطر ولا لقتال ، ولكن يدفع عنهم الأخطار مقابل قليل من المال يأخذه منهم كل عام يستعد به للدفاع عنهم ، وليستعين به أيضا على إقامته حدود الله بينهم وعلى أن ينشر بينهم العدل والرحمة طبق دين الله .

والمهم فى كل ذلك هو أن الإسلام يوجب على المسلم أن يحكم نفسه وغيره بدين الله ، فهو حين يخضع الذمى لله إنما يسوى بين الذمى وبين نفسه فى ذلك لأن الناس كلهم ، حاكمين ومحكومين ، يجب أن يكونوا خاضعين لله ، لأنهم عباده وخلقه يعيشون فى أرضه ، فأقل ما ينبغى عليهم لله أن ينفذ فيهم حكمه. فان لم يطيعوه ويسلموا له بقلوبهم ، وهم عباده ، فلا أقل من أن يحملوا ولو كرها على أن يطيعوه فى ظاهرهم لمصلحتهم هم. ولاستتباب السلام والأمن والصلاح والعدل فى الأرض .

وهذا هو السر فى أمر الله بقتال من لم يخضع لحكمه سبحانه فى الآية ٢٩ من سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .

فالغرض من قتالهم حتى يعطوا الجزية هو إقامة دين الله وحكمه بينهم ، وتحريم ما حرم الله فيهم ، لا إذلالهم لذاتهم ، ولا لأخذ أموالهم لتنفق فيما تمليه الشهوات . فالغرض الأول والآخر فى الحكومة الإسلامية هو إقامة حكم الله

فى الأرض لصلاح الأرض وصلاح الناس ، فإذا لم يخضعوا لحكم الله قوتلوا حتى يصغروا ويخضعوا له ، وهـذا هو عين ما يفعله المسلم بأخيه المسلم إذا لم يخضع لحكم الله ، كما هو ظاهر فى آية ٩ من سورة الحجرات (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) .

فالغاية العليا فى الإسلام وحكومته هى إقامة حكم الله فى الأرض بين المسلمين وبين غير المسلمين على السواء ، فإذا دخل أهل أرض ما فى الإسلام قنع الإسلام منهم بأن يقيموه بينهم ، وتركوا شأنهم فى بلادهم لا يزاحمهم فيها أحد ولا يرزأهم أحد شيئاً ، فإن لم يقيموه قوتلوا على إقامته حتى يفيئوا إلى أمر الله . أما إذا لم يسلموا فالإسلام لا يرضى عنهم إلا بإقامة حكم الله فيهم ، ولما كانوا لا يستطيعون أن يقيموه وهم كفار به أقامه المسلمون فيهم ، فإذا رضوا بذلك سوى بينهم وبين المسلمين فى كل شىء ، وأخذ منهم الجزية ودافع عنهم من غير أن يعرضهم لخطر فى سبيل ذلك ، وكلف المسلم أن يدفع عنهم ولو بنفسه ، وأن يحميهم وأعراضهم مما يحمى منه نفسه وعرضه . أما إذا لم يرضوا بذلك فإن المسلمين يقاتلونهم حتى يرضوا ، وحتى يكون الحكم فى بلاد الله لله .

وفى الحرب ، كما فى السلم ، لا يخرج المسلم عما شرع الله له فى القتال ، فإن خرج فهو آثم ، وآداب القتال فى سبيل الله معروفة مشروحة فى كتاب الدين ، منها ألا يقاتل المسلم إلا من قاتله ، ومنها أن يدعى العدو إلى الله والإسلام قبل القتال ، ومنها ألا يقتل طفل ، ولا امرأة ، ولا شيخ ، ولا غلام ، ومنها ألا يؤخذ برىء بجريرة مذنب ، وألا تزر وازرة وزر أخرى ، ومنها أن يوفى المسلمون بعهودهم التى يعطونها ، وأن يوفوا بالعهد الذى يصدر من

أحدهم ، فاذا أمن أحدهم قوما أو أحدا كان على بقية المسلمين أن يوفوا بذلك ولا يخفروا أخاهم المسلم فى ذمته « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يجير أدناهم على أعلاهم ، وهم يد على من سواهم » .

فمدار الحكم فى هذه المسألة كلها هو : هل الاسلام دين الله أنزله على محمد رسوله ؟

إذا كان كذلك ـ وإنه لكذلك ـ لم يكن هناك استعمار إسلامى ، ولكن إقامة لحكم الله فى الأرض ، وتسوية فى ذلك بين الناس أجمعين ، حاكمهم ومحكومهم ، وفى ذلك صلاح الناس . لاصلاح لهم إلا به ، وفيه تحريرهم من كل سلطان غير سلطان الله .

الكتاب الثانى

محمد رسول الهدى



الفصل الأول

عظمة الرسول

كتب الكاتبون فى عظمة الرسول ما كتبوا فلم يبلغوا إلا بعض قدره ، وإنما يصف كل كاتب من ذلك ما يطيق ، فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بأبطال التاريخ وخرج من المقارنة بأنه بطل الأبطال فأخطأ بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل ، لأنه أوهم بهذه المقارنة وبهذا الحكم أن الرسول والبطل من قبيل واحد ، وهو ليس كذلك ، ولا يمكن أن يكون كذلك . فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول . فرسالة الرسول صلوات الله عليه خرجت الأبطال وربت عظماء الرجال . بل لم يعرف التاريخ عظمة فى أبطاله تضارع ، أو تقارب ، عظمة أصحاب الرسول رضوان الله عليهم . وأين فى التاريخ - إلا فى تاريخ الإسلام - من دانت له الدنيا بالفعل فأعرض عنها وعن زخرفها ، غير معتزل فى جبل ولا مترهب فى صومعة ، بل حاكما بين الناس بالعدل ، وسائسا إياهم بالحق والحزم ، من غير أن يرزأهم من دنياهم إلا بقدر القوت . إن بطولة أبطال التاريخ تتضاءل إذا قيست ببطولة أصحاب الرسول ، فكيف يمكن أن يحشر الأبطال مع الرسول وبينهم وبين أصحابه من البعد ما بين أصحابه وبينه صلوات الله عليه .

ومن الناس من التمس فى العبقرية وجه الثناء على الرسول وتقديره ، ولو جعله عبقرى العباقرة ما وفى ، بل ما زاد على أن جعله فردا من نوع متجدد ، وإن يكن نوعا نادرا فى الناس ، فالذى يثنى بالعبقرية كالذى يثنى بالبطولة ، كل قد غفل عن أن العباقرة والأبطال يوجدون فى كل زمان ، ولا كذلك الأنبياء والرسل ، بله أعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد .

ثم فى الناس من جاوز ذلك فزعم أنه يثنى على الرسول حين ينسب إليه ما أجرى الله على يديه أو ما أوحى الله إليه ، كأن ذلك من عمله ، أو كأنما بلغه باجتهاده ، ويجعله بذلك أعظم العظماء ، كأنه صلى الله عليه وسلم لا يكون أعظم العظماء إلا إذا كانت الرسالة من عنده ، أو كان وحيها من وحى قلبه وفكره ، كالذى يجرى على قلوب أهل الإصلاح والفكر وعلى عقولهم . وليس هؤلاء ولا أولئك مهما ارتقوا ببالغى أدنى مراتب الرسالة فى أنفسهم ، أو فى أثرها فى الناس .

إن كل ثناء على الرسول بما ينتقص من رسالته جهل بالرسول وانتقاص له ، وكل تصوير للرسالة بما يبعدها عن المعنى الإلهى الحقيقى المعروف فى الأديان ، ويدنيها من المعنى الإنسانى المجازى المعروف فى كلام بعض الناس ، هو ستر للرسالة وتعطيل لها يمهد فى النهاية للتحلل من الدين .

مفهوم الرسالة

والمسألة ليست مسألة رغبة أو رأى ، ولكن مسألة حقيقة وواقع ، فالرسالة بالمعنى الدينى ثابتة للنبى صلوات الله عليه ، ليس فى هذا شك ، وكل ما كان له من عظمة فهو من رسالته وإليها ، ليس فى ذلك شك أيضاً ، فقد لبث فى الناس عمرا من قبلها لم يعرف فيه بعظيم . ولما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم أعم الرسالات وأتمها كان هو أعظم الرسل إذ أداها ، وأكمل البشر ، وهذا معنى يضيق عنه أن يقال أعظم العظماء . لقد لبث محمد قبل الرسالة عمرا فى الناس فكانوا يثنون عليه كما يثنون على فاضل فيهم . فلما كرمه الله بالرسالة وأكرم الخلق به تطور خلقاً آخر وإنساناً آخر . وتطورت أمته به أمة أخرى فى الأمم ، وتحقق للإنسانية مثلها العملى الأعلى فيه وفى أمته فى عهده .

إن من يعرف معنى رسالة الرسل ، ويلم بطرف كاف من حقيقتها لا يرى فوقها لإنسان مرتقى ، ولا يخطر له أن وراءها فى مجال العظمة وراء ، لكن الألفة حالت بين الناس فى هذا العصر الحديث وبين حقيقة تقديرها ، كما تحول الألفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة الله عليهم فى الشمس والقمر والماء والشجر والسمع والبصر ، وسائر ما أنعم الله عليهم به فى الفطرة ومظاهرها وآياتها.

إن هذه الفطرة مظهر قدرة الله وعظمته ، وفيض حكمته ورحمته ، فهى منه سبحانه على الناس نعمة ، وهى على وجوده دليل ليس وراءه دليل ، فما فيها من سر يبهر إنما مرده إلى الله سبحانه ، وما فيها من عظمة تقهر إنما مستمدها منه سبحانه ، فعظمة العظيم فى الوجود مرجعها إلى موجد الوجود ، هو أوجد ، وهو أفاض على كل موجود ما أفاض من عظمة بما أودع فيه من سر ، وبما فطره عليه من سنن جلت عن أن يغيرها أو يبدلها مخلوق فى الأرض أو فى السماء . فإذا مددت هذا التفكير مدا ينقله من فطرة ما يحيط بالإنسان إلى فطرة الإنسان نفسه ، وتصورت أن فاطر الفطرة ، سبحانه ، قد اختص واحداً من الناس بوحى مباشر . ورسالة إلى البشر يبين لهم بها سبحانه السنن التى فطر عليها أرواحهم . وناط بها وباتباعها عزتهم وصلاحهم فى الدنيا وسعادتهم فى الآخرة، إذا تصورت اصطفاء خالق الخلق لإنسان رسول على هذه الصورة ، أيقنت أن ليس يدانى مقامه فى الناس أحد وإن عظم ، وأدركت عظيم رحمة الله ، وعظيم نعمته على البشر فى ذلك الرسول .

لكن مجرد إحاطة الإنسان بسنن الله فى النفس والروح والاجتماع على يد رسول لا يكفى ، فقد يخطىء الناس الفهم والتطبيق ، فكان من حكمة الله ورحمته أن جعل رسالة الرسل تشمل شقى التبليغ: النظرى على لسان الرسول، والعملى بالحياة التى يحياها الرسول .

تقدير عظمة الرسول ورسالته

وهناك معايير عدة لتقدير عظمة الأنبياء والرسل ، أحدها استنباطى يتعلق بما يكون عليه النبي أو الرسول حتى يصلح لتلقى الوحى من الله سبحانه ، والباقى معايير تكاد تكون كمية فى طبيعتها لأنها تتعلق بمقدار ما يبلغ الرسول من قول ، ومقدار ما تقتضيه الرسالة منه من عمل . ومقدار ما لاقى فى سبيل التبليغ من أذى ، ومقدار صبره على الأذى فى سبيل الله ، ومقدار تعدد نواحى الحياة التى جاء الدين ليشرع لها ، وليرقى بها ، ولينظمها طبقا لسنن الله فى الفطرة . وهنالك معيار إيجابى آخر هو ما أصاب الرسول من نجاح فى رسالته كما يبدو من آثارها فى الناس .

إن رسالة محمد عليه السلام لم تدع ناحية من نواحى الحياة الإنسانية للفرد وللجماعة إلا شملتها بتشريع ، ومع ذلك فقد بلغها صلوات الله عليه فى نحو ثلاث وعشرين سنة أحسن تبليغ وأبينه وأتمه ، بالقول وبالعمل . فالقرآن الكريم هو ما هو ليس للنبي منه حرف ، ولم يسقط منه حرفا ، والسنة الكريمة هى ما هى تفسر القرآن كلام الله تفسير صدق بالقول والعمل . وأثر الإسلام فى الناس فى عهد النبي ، وفى الانسانية من بعده ، لا يزال يعجب به العاجبون .

إن من العجب العجاب أن ينهض إنسان ، أيا كان ، بكل ما فى الإسلام من تكاليف وتعاليم وتشريع . إن الإنسانية كلها أفراداً وأمما لم تستطع نهوضا بكل ما كلفها الإسلام ، بعد الحقبة الأولى التى طبق فيها الإسلام أتم تطبيق فى نصفها الأول فى عهد الرسول ، وأقرب تطبيق فى نصفها الثانى فى عهد الخلافة الراشدة ، فكيف استطاع محمد أن ينهض بعبء الإسلام كله فى نفسه وفى الناس حتى لم تجد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وصفا له إلا قولها (كان عمله دينه) ، و (وكان خلقه القرآن) . أشهد أن محمد بن عبد الله هو رسول الله حقا ، إذ كيف يقوى على سيرته صلى الله عليه وسلم إلا رسول ، ورسول

محض الله فطرته ومحصها ، وأعدها ، واستخلصها سبحانه من بين البشرية كلها طبق سننه فى الاستخلاص والإعداد ، حتى إذا آن الأوان وجد فى البشر إنسان واحد كان هو وحده الصالح لتلقى الرسالة العامة الكاملة ، وقوى هو على العمل بها ، أصولها وفروعها ، فى نفسه وفى الناس .

هذا هو المقياس الحق لعظمة الرسول ، إنه وحده نهض بما كلفت به الإنسانية قاطبة فلم تستطعه كله ، وتفرق ما استطاعه صلى الله عليه وسلم فى الناس أجمعين ينهضون به جملة إن استطاعوا ، ويتأسى المتأسى به فى ناحية يلتزمها فيصبح فى الناس مثلا من أمثلة الكمال . وبعبارة أخرى إن سنن الله سبحانه التى يتحقق بها الكمال الإنسانى قد تحققت فيه صلوات الله عليه ، فصارت حقيقة واقعة فى الكون ، مجتمعة فى فرد ، ومنتشرة فى أمة ، وصار ذلك الفرد هو المثل العملى الأعلى للإنسانية ، لا يمكن أن يبلغه الناس على مر الزمان وإن اجتهدوا ، ولكنهم يقربون منه شيئا فشيئا كلما اجتهدوا .

الفصل الثاني

معجزات الرسول

من نواحى عظمته صلى الله عليه وسلم ما آتاه الله إياه وأجرى على يديه من المعجزات ، فالذى آتاه الله وميزه به من بين الرسل هو المعجزة الخالدة على الدهر ، معجزة القرآن الكريم . والذى أجرى الله على يديه وأكرمه به من الخوارق التى من جنس معجزات الرسل عليهم السلام هو شىء كثير ، ذكر القرآن الكريم بعضه وثبت سائره بالحديث الصحيح .

معجزة القرآن الخالدة

وتمييز النبى صلوات الله عليه بالقرآن معجزة عظمى خالدة ، أمر اقتضته حكمة الله الذى علم ماستكون عليه الإنسانية فى مستقبلها من الحضارة والعلم ، فأنزل إليها الإسلام دينا تاما كاملا (فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ الروم ٣٠) ، وجعل معجزته نفس كتابه ليدل الكتاب بنفسه على نفسه أنه كتاب الله فاطر الكون وفاطر الناس ، وتكفل بحفظه فلا يلحقه تبديل ولا تحريف (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ـ الحجر ٩) ، وكان من حفظه سبحانه لكتابه ما هو معروف من توفيق أصحاب رسوله فى عهد الخليفة الأول إلى جمعه ممن كتبوه عن الرسول ، وذلك على يد لجنة من الحفاظ الذين حفظوا القرآن كله عن ظهر قلب تلقيا من فم الرسول ، فلم يند عنهم من القرآن شىء عند الجمع .

وقد بالغوا فى الاحتياط ، فلم يقبلوا منه شيئا مكتوبا إلا بشاهدين : كل كتبه مباشرة عن النبى عليه الصلاة والسلام ، إلا آيتين وجدوهما عند أبى خزيمة الأنصارى الذى جعل النبى شهادته بشهادتين ، كما وفقهم سبحانه فى عهد الخليفة الثالث إلى جمع المسلمين على قراءة واحدة من الأحرف السبعة التى نزل بها

القرآن ، وذلك باستنساخ عدة نسخ بلغة قريش من المصحف السابق جمعه ، وتوزيعها فى الأقطار بعد الفتوح لتكون للناس إماما ، فلا يختلفوا فى القرآن كما اختلف من سبق من أهل الكتاب فى التوراة والإنجيل .

وكما حفظ الله نص القرآن مكتوبا ، حفظه بعد ذلك من اللحن مقروءاً ، فوفق المسلمين فى عهد الخليفة الرابع إلى وضع أساس علم النحو . وفى عهد عبد الملك بن مروان إلى إدخال النقط فى الكتابة ، ثم إدخال الشكل بعد ذلك . ومن قبل ذلك ومن بعد ذلك سهل الله حفظ القرآن على الناس حتى صار الصبيان يحفظونه فى تجويد عن ظهر قلب ولما يبلغوا الحلم ، كما هو مشاهد إلى الآن . فكان ذلك ميزة ميز الله بها القرآن على غيره من الكتب المنزلة ، صار بها حفاظه يعدون فى كل عصر بالألوف . وكثر الله المصاحف كما كثر الحفاظ وذلك بالاستنساخ أولا ، ثم بالطباعة ثانيا ، مع الحرص الشديد على التزام رسم المصحف الأول ، والتزام الدقة فى النقط والشكل وعلامات الوقف ، اللازم منه والجائز والراجح ، والممتنع ، مما لم يخدم به قط كتاب غير القرآن .

وكما حفظ الله كتابه هكذا فى النص والهيئة والأداء ، حفظه من ناحية المعنى . فسخر فى العصور الأولى الأجيال من علماء اللغة لتدوين العربية التى نزل بها القرآن ، والأجيال من علماء الحديث لتدوين السنة ، وتمييز صحيحها من مدخولها ، حتى يتبين من أقوال النبى وأفعاله تفصيل ما أجمل الله فى القرآن . ولولا ذلك ما اهتدت الأجيال من الفقهاء أئمة الاجتهاد إلى ما اهتدوا إليه من فقه الدين .

فالقرآن الكريم معجزة المعجزات ، ليس فقط من ناحية أسلوبه ومعناه ، ولكن من هذه الناحية التاريخية ، ناحية حفظ الله إياه ، وإذ قد حفظ الله دينه التام وكتابه المعجز هذا الحفظ المكفول المخلد لم يبق للبشرية من حاجة إلى دين جديد على يد نبى يبعث بعد النبى محمد ، فكان صلى الله عليه وسلم آخر الرسل وخاتم النبيين ، تلك هى المعجزة الكبرى التى خص الله بها رسوله من

بين الرسل ، معجزة حاضرة باقية مخلدة ، أقام الله بها حجته ويقيمها على الناس من جميع الأجناس ، مادام فى الناس عقل وما دام فيهم أولو علم وإنصاف ، وكان فى المسلمين من أولى العلم والعزم من الرعاة والرعية من يصدق الدعوة إلى الله .

معجزة انشقاق القمر

أما المعجزات التى من جنس ما أجرى الله على رسله من قبل فكثيرة ، لكن شرط التحدى لايتحقق منها إلا فى واحدةهى معجزة انشقاق القمر الثابتة بالقرآن والحديث الصحيح . أما ثبوتها بالقرآن فذلك فى قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ـ القمر ١ و ٢ و ٣) . وهذه الآيات هى على ظاهرها ، كما فهمتها الأجيال المتعاقبة من علماء المسلمين ، علماء اللغة وعلماء الدين ، فالقاعدة العامة فى فهم آيات القرآن أنها على حقيقة اللفظ فيها إلا إذا قامت قرينة كافية تحمل على المجاز ، وليس هنا من مثل هذه القرينة شىء يدعو إلى فهم (وانشق القمر) على معنى (وضوح الحجة) كما ذهب إليه بعض العلماء المحدثين . بل القرائن كلها تؤيد ظاهر الآية ، وأنها على الحقيقة لا على المجاز .

فاقتران اقتراب الساعة بانشقاق القمر يفيد أن الانشقاق علامة حسية من علامات الساعة كسائر العلامات التى وردت فى الحديث الصحيح . ولامعنى لأن يكون وضوح الحجة علامة من علامات الساعة ، فإن حجة الحق والإيمان بالله الواحد واضحة فى كل وقت ، وبها أرسل جميع النبيين ، فضلا عن أن التعبير بانشقاق القمر عن وضوح الحجة مجاز خفى بعيد ليس فى الآيات ما يؤيده أو يقربه إلى الذهن ، بل فيها ما يضاده من مثل التعبير بلفظ (يروا) فى الآية الثانية ، مما يدل على أن الآية حسية ترى ، لا آية قرآنية تسمع ، ولا حجة معنوية تفهم بالعقل المجرد .

ومن مثل اعتراضات الكفار على الآية التى يرونها أنها سحر ، وسحر مطرد دائم أو قوى مستحكم ، أو ذاهب باطل على اختلاف المعنى اللغوى لكلمة (مستمر) . وكلها معان قريبة مفهومة إذا كانت الآية المرتية من الخوارق الحسية ، لكنها تصبح كلها غير ذات معنى إذا كانت الآية المعنية من انشقاق القمر حجة عقلية ، إذ لا معنى للاعتراض على الحجة المعنوية المنطقية بأنها سحر أو سحر مستمر مطرد .

فالاستمرار الذى ادعوه جاء من أنهم حين نسبوا ما رأوا من انشقاق القمر فلقتين إلى السحر ، كما جاء فى الحديث الصحيح ، قال بعضهم : إن كان بلغ من سحر محمد أن يسحرنا فما بلغ أن يسحر كل الناس ، فاسألوا القادمين من السفر ، فسألوهم فقالوا رأيناه منشقا ، فقال من شهد الانشقاق من المعاندين سحر مستمر لم يقتصر علينا ، فجاءت الآية الكريمة الثالثة (وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر) ملخصة فى نصفها الأول عنادهم هذا ومكابرتهم فيما رأوا بأعينهم ورآه غيرهم معهم ، وموعدة إياهم فى نصفها الثانى ومنذرة بعاقبة كل من يكذب الرسل عنادا واتباعا للهوى رغم الآيات . وهو تهديد على خفاء فيه رهيب ، يعبر عن سنة الله عامة مطبقة فى بقية السورة تطبيقا خاصا على من كذب الرسل ، رغم الآيات والبينات ، من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون .

وقد ظهر ما استتر من التهديد والوعيد بعد ذلك جليا واضحا لما عقب الله سبحانه على حديث أولئك المكذبين المهلكين بتوجيه الخطاب إلى قريش ، ومن كذب بآية انشقاق القمر ، يسألهم منكرا ومحذرا ومنذرا ومقيما عليهم الحجة بالغة (أكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة فى الزبر ؟ـ القمر ٤٣) وهذه الآية الرهيبة فى موضعها عقب الآيتين قبلها وهما (ولقد جاء آل فرعون النذر — كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ـ ٤١و٤٢) ينبغى ألا يدع مجالا للشك فى أن كلمة (آية) الواردة فى قوله تعالى (وإن يروا آية يعرضوا) هى من جنس الآيات الواردة فى قوله تعالى (كذبوا بآياتنا

كلها) حتى يتم التطابق بين المكذبين المشار إليهم فى أول السورة من قريش والمكذبين من آل فرعون . ومعلوم أن الآيات التى كذب بها آل فرعون كانت خوارق حسية أجراها الله على يد نبيه موسى ، وذكرها فى سورة الأعراف ، فلا بد أن يكون انشقاق القمر آية من ذلك القبيل أجراها الله على يد نبيه محمد حتى تقوم الحجة على من كذب بها من قريش بنفس القوة التى قامت بها على آل فرعون .

فالاعتبارات كلها تدل على أن الآيات الأولى من سورة القمر هى على ظاهرها من غير تأويل . على أن الرأى القائل بالتأويل ليس له فى الواقع محل بعد أن جاءت الأحاديث الصحيحة مجمعة على انشقاق القمر بالفعل . ولقد بلغت تلك الأحاديث من القوة والكثرة ما جعل الإمام الحافظ ابن كثير يصرح فى تفسيره بأن انشقاق القمر ثابت بالتواتر متفق عليه بين العلماء .

وقد روى الحافظ الأحاديث التى صحت عنده من طرقها المختلفة عن كل من أنس بن مالك وابن عباس وجبير بن مطعم وعبدالله بن عمر وابن مسعود . وليس يضعف من حديث أنس بن مالك أنه مدنى والانشقاق مكى ، ولا من حديث ابن عباس أنه كان صغيرا حين وقع الانشقاق قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، فإن تحدثهما بالانشقاق ولم يرياه معناه أن أمره كان مشهورا مستفيضا بين الصحابة فى المدينة زمن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا أكبر دلالة وقوة فى إثبات الانشقاق . فليس هناك شك إذن ، بعد اتفاق الحديث الصحيح مع ظاهر القرآن ، أن انشقاق القمر أمر كان قد وقع ، وأن الذاهبين إلى التأويل جد مخطئين .

ويبدو أن الذى حمل على التأويل أحد أمرين أو كلاهما : عجزهم عن التوفيق بين ظاهرية آية (اقتربت الساعة وانشق القمر) وبين الآيات المتعددة التى تأبى وتنكر على طلاب الآيات ما طلبوا ، وظن المؤولين أن انشقاق القمر فيه خرق للسنن الكونية يأباه العلم الحديث والقرآن . وهم فى العجز مقصرون وفى الظن مخطئون . فلو أنهم رجعوا إلى ترتيب نزول سور القرآن فى تاريخ القرآن للزنجانى ، أو طبقوا المعلومات القيمة المذكورة فى ديباجات السور

فى مصحف فؤاد ، لتكشفت لهم حقيقة تاريخية مهمة ، هى أن نزول آية الانشقاق سابق على نزول الآيات الأخرى ، إذ ليس فى الست والثلاثين سورة السابقة فى النزول على سورة القمر آية ما تنكر أو تمنع إجراء معجزة على يده صلى الله عليه وسلم كالتى طلبت قريش. وإذن يكون نزول آيات الإنكار نتيجة لتكذيب من كذب بمعجزة انشقاق القمر بعد أن رآها ، فإن من يكذب بمعجزة رآها وينسبها إلى السحر سيكذب غيرها من المعجزات وينسبه إلى السحر أيضاً ، ويكون إذن من العبث إجراء معجزة أخرى كالتى طلبوا . وإلى هذا يشير قوله تعالى فى الآيتين ١٤ و ١٥ من سورة الحجر (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون) ، وسورة الحجر متأخرة فى النزول عن سورة القمر . وليس من المحتمل أن تكون آية (اقتربت الساعة وانشق القمر) متأخرة فى نزولها عن نزول السورة نفسها لأنها أول آية فيها ، ومعروف أن نزول السورة المنجمة إنما كان يعرف بنزول البسملة وأول السورة .

وسبب آخر منع من تكرار المعجزات الحسية لقريش أو غيرها من العرب أن سنة الله فى المكذبين بالمعجزات بعد أن شهدوها تقضى بإهلاكهم كما هو واضح من القصص القرآنى فى سورة القمر وغيرها ، لكن رحمة الله كانت قد سبقت لأكثر قريش والعرب أن سيؤمنوا ، ويكون لهم فى نشر الإسلام والجهاد فى الله شأن أى شأن ، فاقتضت حكمة الله ورحمته ، بعد أن كذب من كذب بمعجزة انشقاق القمر فاستحق الهلاك ، أن يحبس الله عمن غاب عنها غيرها من المعجزات الحسية حتى لا يكذبوا بها فيهلكوا . ولا بد أن تكون سنة الله قد نفذت فى القليل الذين أجريت لهم معجزة انشقاق القمر من كفار قريش ، فيكونوا ممن هلك فى بدر أو قبلها مع من هلك من المستهزئين . والحديث الذى ذكره الألوسى رواية عن أبى نعيم يشهد لهذا على ضعف فيه عند الألوسى ، فقد ذكر أسماء بعض رؤوس المشركين الذين شهدوا الآية وكذبوا بها ، وكلهم أهلكوا مثل النضر بن الحارث .

الإسراء

وآية الإسراء (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) وقعت بعد آية انشقاق القمر . وهى وإن كانت من المعجزات الكبرى إلا أنها بالنسبة للمشركين لم تكن إلا خبرا أخبرهم به من أخبار العير التى رآها فى الطريق ، مما صدقه فيه أهلها بعد قدومها ، ورأوه بأعينهم فى بعضها . ولو أنهم صدقوه عليه الصلاة والسلام فى خبر الإسراء لأخبرهم خبر المعراج ، وهو أكبر وأعجب من الإسراء . وكل منهما ثابت بالقرآن وبالحديث الصحيح على ظاهره من غير تأويل . ويبدو أن من لم ير انشقاق القمر من المشركين ألح فى أن يشهد آية مثلها ، وأقسم وأكد أنه يؤمن لو رآها ، وود النبى والمسلمون لو أنزل الله آية أخرى لعلهم يؤمنون ، فأراد الله سبحانه ، إقناعا للمسلمين ، أن يمتحن المشركين مرة أخرى فى صورة لا تقتضى إهلاكهم إن كذبوا ، وذلك لما ادخر لأكثرهم من الإيمان بعد الفتح فأكرم نبيه بالإسراء ، وجعله يحدثهم به صبيحته ، وجعلهم يجتمعون حوله ويمتحنونه فى بيت المقدس ، وجلى سبحانه لنبيه بيت المقدس فوصفه لهم وصف مشاهد ، وزادهم ما زاد من أخبار عيرهم التى صدقها الواقع فيما بعد ، لكنهم رغم ذلك كله مضوا فى تكذيبهم ، وقد كان فى بعض ذلك مقنع لهم لو كانوا يؤمنون ، فكانت آية الإسراء آخر ما أجراه الله لرسوله فى مكة من المعجزات .

أما فى المدينة وما بعد الهجرة فقد أكرم الله نبيه بكثير من المعجزات الحسية ، شهدها الجم الغفير من المسلمين ، وروت أخبارها الأحاديث الصحاح فى البخارى وغيره ، مثل حنين الجذع فى المسجد يوم الجمعة لما ترك النبى أول مرة الاستناد إليه عند الخطبة ، بعد أن اتخذ عليه الصلاة والسلام المنبر ، وكان الحنين بصوت ظل يسمعه الناس حتى نزل صلى الله عليه وسلم وضم الجذع إليه . ومثل تكثير الطعام فى غزوة الخندق ، وتكثير الماء فى غزوتى الحديبية وتبوك ، إلى آيات كثيرة صنعها الله لنبيه تكريما له ورحمة للمؤمنين فى ظروف شديدة نزلت بهم أو ببعضهم ، وفرجها الله عنهم بتلك الآيات .

المعجزات والعلم الحديث

وواضح أن ما منع من المعجزات بين المشركين بعد معجزة انشقاق القمر غير متحقق هنا ، فيمنع من إجراء مثلها بين المسلمين . ولا ينبغى لمسلم ولا لمنصف أن يكذب بالمعجزات فى العهد المدنى ، أو يشك فيها بعد أن شهد بوقوعها شهود العيان فى الأحاديث الصحيحة الممحصة تمحيصا لم يشهد مثله فيما قبله المؤرخون من أخبار التاريخ. فتلك الأحاديث راجحة الصحة رجحانا كبيراً على أقل تقدير ، والعلم الحديث والعقل يقضيان بالاستمساك بالراجح حتى يستبدل بما هو أرجح منه بالدليل والحجة . وهيهات أن يقوم الشك الجزاف لمجرد الظن مقام الدليل والبرهان ، أو أن يحمل منصفا على إهدار شهادة الصادقين من شهود العيان كما يفعل بعض مسلمى العصر الحديث .

ومن عجب أن يشك مسلم فى المعجزات عامة أو فى معجزات النبى خاصة ظناً منه أن العلم الحديث أثبت استحالة المعجزات لأنها خرق للسنن الكونية وأن خرق السنن الكونيـة مستحيل ، ألا يرجع ذلك النفر إلى نفسه فيسألها : كيف يمكن أن يثبت العلم استحالة المعجزات بالمعنى الذى فهمه مع أن الله ـ فاطر الفطرة التى يدرسها العلم ـ هو الذى أخبر فى كتابه الكريم أنه هو الذى أجرى المعجزات على أيدى أنبيائه ورسله شهادة منه لهم بأنه هو الذى أرسلهم إلى الناس ؟ إن الخطأ او الكذب أو مجاراة الناس فى معتقداتهم الباطلة مستحيلة كلها على الله ، فلا بد أن يكون الكذب أو الخطأ إنما هو فيما بلغ ذلك النفر عن العلم . أو فى فهمه لما أثبته العلم . ولو رجع إلى العلم وأهله ليعرف ماذا ثبت فى هذا الصدد لوجد أن الذى ثبتت استحالته هو خرق العلماء والبشرية كلها لشىء من السنن الكونية . أى أن الذى ثبت فى العلم هو عجز العلماء والبشرية كلها عن الإتيان بشىء من معجزات الأنبياء ، وهـذا هو بالضبط الشرط المميز للمعجزة : أن تكون مما يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه إلا الله .

فالعلم ، حين أثبت استحالة خرق السنن الكونية على الناس ، قد أثبت أن المعجزات إذا ثبت وقوعها ـ ووقوعها ثابت بشهادة الكتب المنزلة كلها وشهود العيان ـ لايمكن أن تكون سحر ساحر ولاشعوذة مشعوذ ، ولا عمل أحد من الخلق ، ولازم هذا أن تكون المعجزات من صنع الله كما هومقرر فى الأديان.

أما كون المعجزة خرقا للسنن الكونية لجدير أن يكون موضع نظر . إن المعجزات عند علماء الدين هى خوارق للعادات . وثبوتها التاريخى — لأنها فيماعدا القرآن من وقائع التاريخ الذى مضى — يجعلها عند العلماء الطبيعيين ، أو علماء الفطرة كما ينبغى أن يسموا ، من ظواهر الفطرة الراجعة إلى سنن كونية يجهلونها ، وهم لم يبلغ بهم الغرور أن يظنوا أنهم قد أحاطوا بجميع سنن الفطرة فى المادة والطاقة التى هى موضوع علومهم التجريبية ، فكيف بسنن الفطرة المتعلقة بالروح والقوى الروحانية ، وصلة ما بينها وبين عالم المادة والطاقة، وهم لايكادون يعرفون عن النفس والروح إلا القليل ؟ والنبوة أمر روحانى قبل كل شىء والمعجزات من شرطها أن تكون على يد نبى أو رسول : أى أنها ظواهر ليست من جنس ما يدرس علماء الفطرة اليوم ، لأن الروحانية العليا شرط فى تحققها .

وظاهرة انشقاق القمر بالذات ليست مستحيلة فى العلم ، وإن كان مستحيلا أن يصنعها إنسان ، فالعلم قد شاهد انشقاق مذنب بروكس شقين سنة ١٨٨٩ ، وكذلك انقسام مذنب بيلا إلى جزءين سنة ١٨٤٦ كما ذكر الفلكى « سبنسر جونز » فى فصل المذنبات والشهب من كتاب « عوالم بلا نهاية » والفرق بين انشقاق القمر وانشقاق هذين المذنبين أنهما لم يلتئما بعد الانشقاق والقمر التأم ، وهو الفرق المنتظر بين الظاهرة الفلكية فى الفطرة والمعجزة الفلكية على يد رسول ، لأن المعجزة مؤقتة تزول بزوال وقتها وتحقق الغرض منها . ولو استمرت لكانت ظاهرة طبيعية صرفة ، ولخرجت عن دائرة المعجزات .

فالحمد لله الذى أكرم الإنسانية بسيد الرسل وخاتم النبيين ، وخصه من بينهم بكتاب (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) معجزة باقية خالدة وآتاه بعد ذلك مثل ما آتاهم من باهر المعجزات .

الإسراء والمعراج بين الدين والعلم

الدين مقصود به الكتاب والسنة ، والعلم مقصود به علوم الفطرة التى جرى العرف بتسميتها بالعلوم الطبيعية ، والإسراء ثابت بالكتاب بأولى آيات سورة الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) ، وثابت بالسنة فى أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب الصحاح . والمعراج ثابت بالسنة فى أحاديث صحيحة متعددة ، مع الإسراء فى بعض الأحاديث ومفردا بالذكر فى بعض . وثابت بالكتاب فى الآيات ١٣ — ١٧ من سورة النجم فى (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى) .

فالضمير المستتر فى الفعل (رأى) راجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم المقصود بقوله تعالى : (ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) فى الآيات الفواتح ٢و٣و٤ من السورة . وضمير المفعول فى (رآه) راجع إلى جبريل عليه السلام المقصود بقوله تعالى : (علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ٥ - ٩) فى الآيات التى تليها . وعز وجل وجه الله أن يكون هو المقصود بهذه الآيات فيقول سبحانه عن نفسه أنه (دنى فتدلى) كما فهم منها بعض مفسريها .

فيما يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم لا خلاف بين علماء المسلمين فى أنه قد كان إسراء به إلى بيت المقدس ، وأنه قد كان معراج به صلوات الله عليه

فى السموات السبع ، حيث بلغ من سابعتها ما شاء الله أن يبلغ . إنما الخلاف كان بين قلة ترى أن الإسراء والمعراج كانا بالروح ، وبين كثرة ترى أنهما كانا بالبدن والروح معا كما هو ظاهر آية الإسراء وآيات النجم من غير تأويل ، عملا بالقاعدة البلاغية التى تقرر أن النص على حقيقة لفظه ما لم يكن فى نفس النص قرينة تحمل اللفظ على المجاز . ولا قرينة فى آية الإسراء تدل على أن المراد من قوله تعالى (بعبده) هو روح النبي لاشخصه الكريم ، ولا أن الرؤية فى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) كانت بالروح مجردة ، ولكن بالروح عن طريق البصر بدليل قوله (ما زاغ البصر وما طغى) .

لكن القلةقامت بأنفسهم شبهة أو شبهات لم يجدوا مخلصا منها إلا بالقول أن الإسراء، فضلاعن المعراج ، كان بالروح لابالبدن ، غيرآبهين باحتجاج الكثرة عليهم بأن تكذيب المشركين بما حدثهم به صلى الله عليه وسلم صبيحة الإسراء إنما كان لاستبعادهم أن يكون قد انتقل ببدنه من مكة الى بيت المقدس ثم أصبح بينهم فى ليلة ، وهم يقطعونها ذهابا فى شهر . وليس عجبا أن ينكر أبوجهل ومن إليه حديث الإسراء وهو لا يؤمن بالله ولا برسوله ، لكن العجيب أن يجد مؤمن بالله ورسوله فى نفسه ما يحمله على تأويل ظاهر القرآن وظاهر الحديث من غير قرينة ولا داع .

فالإيمان بالغيب من شروط المؤمن المتقى كما نطقت به الآية الثالثة من سورة البقرة (الذين يؤمنون بالغيب) ، وقدرة الله لايعجزها شيء فى الأرض ولافى السماء . فمن يؤمن بالمعجزات التى قص الله سبحانه فى كتابه أنه أجراها لأنبيائه ، كتلك التى أجرى لموسى وعيسى لا ينبغى أن يحيك فى صدره شيء يحول دون الإيمان بما قص سبحانه من أنه أسرى بنبيه ورسوله وعبده محمد من مكة حيث المسجد الحرام الى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى فى بعض ليلة ، على عظم آية الله فى ذلك بما دل عليه تصدير آية الإسراء بتسبيح ذاته العلية ، آمرا عباده أن يسبحوه ـ سبحانه ـ من أجل آيته لهم ونعمته عليهم

فى الاسراء بالرسول الذى أرسله إليهم ، وإيذانا بأن عظم تلك الآية وجلالها سيهول قوما من غير المسلمين فينكرونها . ويتعاظم آخرون من المسلمين فيؤولون قول الله فيها .

وآية الله فى المعراج أعظم وأجل من آيته فى الإسراء ، فهى أقرب أن ينكرها المنكرون ويتأولها المتأولون إلا من آمن بالغيب واعتصم بالنص القرآنى أو النبوى من الشبه الفلسفية أن تجد سبيلا الى نفسه . ومن نزغات الشيطان عدوه المبين أن يعكر عليه صفو إيمانه بالشبهات والاستشكالات يأتيه بها من بين يديه ومن خلفه ، فيما لم يحط به علمه أو يدركه فهمه ، من آيات الإسراء والمعراج .

وليس من المعقول أن تحيط العقول بكل ما أودع الله فى كتابه العزيز من أسرار دينه وأسرار خلقه ، إلا إذا أحاط علم العلماء ، علماء الفطرة ، بكل ما أودع الله فى فطرة الكون من أسرار ، وهيهات . . إن الكتاب الذى تحيط بأسراره العقول هو كتاب من عند البشر ، فما يأتى به الإنسان يمكن أن يحيط به الإنسان . أما ما كان من عند الخالق فلا يمكن أن يحيط به المخلوق ، سواء أكان ذلك مما أنزل الله أم مما خلق ، ويكفى فى تقريب هذه القضية للأذهان فيما يتعلق بالخلق ، أن العلماء لا يزالون غارقين فى أبحاث الذرة ، وكانوا يظنون فى القرن الماضى أنهم أحاطوا بها علما ، وأن العلماء لم يكتشفوا أن فضاء ما بين الأرض والقمر لا يكادون يعرفون منه شيئا حتى أخذوا يدرسونه دوليا عن طريق القميرات الصناعية والسفن الفضائية ، بل إن الغلاف الهوائى نفسه المحيط بالأرض لم يبدأ علمهم به يتسع إلا فى عهد اللاسلكى والطيران ، ولم يقو رجاؤهم فى التغلب على صعوبات أرصاده إلا فى عهد القميرات والصواريخ .

أما تقريب القضية فيما يتعلق بالكتب التى أنزلها الله دينا للناس ، فيكفى فيه أمر الوحى ، فسره وكيفيته لا يحيط به أحد ، والمعجزات كذلك

لا يدرك سر وقوعها أحد، إلا أن الله أرادها فكانت . ولكن الغرور يأخذ بعض الناس فيظنون أن ما لا يستطيعون إدراك سره لا يمكن أن يكون حقا ، أو أن ما يبدو لهم خرقا للنواميس الكونية لا بد أن يكون باطلا ، كأن الحق والباطل متوقف على ما يتصورون ويدركون لا على الواقع .

إن الواقع أن قد كانت معجزات للبشر أجراها الله على أيدى أنبيائه ورسله ، لتكون برهانا محسوسا لدى كل من يعقل أنهم حقا أنبياء الله ورسله . وإيمان سحرة فرعون ، رغم التعذيب والصلب ، دليل قاطع على أن معجزة العصا لم تكن من السحر فى شىء فمن ير المعجزة وينسبها إلى السحر ، وهو لا يدرى ما السحر ، فإنما يتبع هواه ، ويقول ما ليس له به علم . وعلى أى حال فإجماع أهل الأديان على أن قد كانت معجزات يوجب التسليم بوقوعها ، وإلا لما صح من التاريخ شىء ، وإذن فكل تفكير يؤدى إلى إنكارها تفكير خاطىء ، وما يترتب على إنكارها فهو باطل .

ووقوع المعجزات تاريخيا يؤدى إلى إحدى نتيجتين فيما يتصل بالنواميس الكونية : إما أن تكون خرقا لبعضها حسب نوع المعجزة أو لا تكون . فإن كانت فهى أدل على صدق النبي أو الرسول فى دعواه أنه من عند الله ، لأنه لا يقدر على خرق السنة الكونية إلا الله الذى سنها ، وإن لم تكن فهى قد وقعت طبق سنة كونية ، النبوة أو الرسالة الإلهية شرط فى تحققها ، فإذا تخلف الشرط تخلفت النتيجة ولم تقع المعجزة . وهذا هو السر فى امتناع المعجزات اليوم وإلى يوم القيامة ، بعد أن ختمت النبوات والرسالات الإلهية بالإسلام ونبوة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه .

وغير الإسلام من الأديان قائم على ثبوت المعجزات التى لم يشهدها إلا أهل عصرها ، فلما أنكرها فى الغرب المنكرون خطأ ، بناء على أنها خرق للنواميس الطبيعية ، تزلزلت تلك الأديان فى نفوس أهلها حتى اضطر كثير من

رجال الدين فى الغرب الى تأويل نصوصها فى كتبهم المقدسة ، أو إنكار تلك النصوص بتاتا على أنها دخيلة فى تلك الكتب . فكانوا فى إنكارهم كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولو كانت كتبهم المقدسة ثابتة بنفسها تاريخيا أنها نفس الكتب التى جاء بها أنبياؤهم ورسلهم ، لثبتوا على الدفاع عن المعجزات التى نصت عليها تلك الكتب .

لكن النقد التحليلى لكتبهم المقدسة ألقى الشك على أن تكون هى التى جاء بها أنبياؤهم ورسلهم ، ورجح أو أثبت أنها كتبت بعدهم . فأقدم الأناجيل مثلا قدروا أنه كتب حوالى عام ٧٠ بعد الميلاد ، ومن هنا تتجلى حكمة الله ونعمته على البشرية فى أن جعل معجزة الإسلام هى نفس كتابه ، وجعل كتابه ثابتا بالتواتر أنه هو بنصه وفصه نفس القرآن الذى أنزله سبحانه على محمد نبيه ورسوله ، فى غضون سنى رسالته حتى ختمه فى حجة الوداع قبل وفاته عليه السلام بنحو ثلاثة أشهر ، فكان مما أنزله الله عليه فيها قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا — ٣ المائدة) .

فالقرآن الكريم ثابت بذاته أنه هو كتاب الله . ومعجزات الأنبياء ثابتة بالقرآن ، ومن بينها للنبى عليه الصلاة والسلام معجزة انشقاق القمر ومعجزتا الإسراء والمعراج إذا تجاوزنا فى هاتين عن شرط التحدى الذى يشترطه علماء الكلام ، وهو شرط اعتبارى لا يتوقف عليه أن الإسراء والمعراج كانا من عند الله لا يقدر عليهما سواه .

على أن الحق سبحانه قد اقتضت حكمته أن ينسخ ما ألقى الشيطان أو يلقى من شبهة فى أمر الإسراء والمعراج بما يسر للإنسان من العلم النظرى والتطبيقى فى عصر العلم هذا ، والتقدم العلمى التطبيقى مكن من قطع المسافات بسرعة تذهب بشبهة أن الإسراء لم يكن بالبدن ، والتقدم النظرى الذى أيدت التجربة نتائجه ذهب بشبهة أن المعراج لم يكن إلا بالروح . ويكفى للذهاب بالشبهة فى أمر الإسراء ما حققه الإنسان من سرعة الانتقال بالنفاثات الأسرع من

الصوت ، والقميرات الصناعية . فسرعة الصوت كيلومتر فى كل ثلاث ثوانى ، وإذن فالنفاثات الأسرع من الصوت مرتين - وليست هى أسرع النفاثات - يستطيع الإنسان بها قطع المسافات من مكة الى بيت المقدس ذهابا وإيابا فيما دون الساعة ، ولا يجد من ينكر عليه ذلك لو أنه قام بالرحلات ليلا واصبح مستريحا يحدث بها الناس .

ولو أنه اتخذ فى رحلته تلك مركبا له سرعة القمير الصناعى فى دورانه حول الأرض التى تبلغ نحو ثمانية كيلومترات فى الثانية — لقام برحلة الإسراء فى دقائق معدودة دون العشر ، ولأمكن أن يعود إلى فراشه وفيه دفء كما حدثت به السيدة عائشة أم المؤمنين ، مما يدل على أن الخبر كان مستفيضا فى آل بيت الرسول ، ولعلها سمعته من الرسول نفسه بعد أن أكرمها الله بأن صارت من أمهات المؤمنين — رضوان الله عليهن — بعد الهجرة ، والإسراء كان قبل الهجرة ، فحديثها رضى الله عنها — دليل آخر على أن الإسراء كان بالبدن ، إذ لا معنى للتحدث عن العودة إلى الفراش قبل أن يبرد إن كان صلى الله عليه وسلم لم يفارقه فى الإسراء .

والخبر يكون أيسر أن يحققه الإنسان لنفسه لو انه اتخذ فى رحلته مركبا له سرعة سفينة الفضاء فى رحلتها إلى القمر ، وتبلغ نحو اثنى عشر كيلو متراً فى الثانية ، وعندئذ يسمح الزمن بصلاة ركعتين ببيت المقدس قبل العودة إلى مكة ، كما أخبر الحديث الصحيح أنه عليه السلام قد صلاها بالأنبياء .

لكن رحلة الإنسان إلى القمر حتى نزل عليه لا تفسر أمر المعراج ، بل ولا السير فى الفضاء بسرعة الضوء على عظمها البالغ ثلثمائة الف كيلو متر فى الثانية . لكن الذى يعين على تفسيره هو نظرية النسبية ، التى يتقبلها علماء العصر بعد أن حققت التجارب لها نتائج عدة ، فإن من نتائجها الرياضية أنه لو وجد كائن له سرعة أكبر من سرعة الضوء لانمحت أمامه المسافات مهما عظمت ، أى لأمكنه قطعها فى غير زمن . فما علينا لتفسير نزول الملك بالوحى

من السماء العلا وصعوده إليها فى غير زمن إلا أن نستنبط من ذلك أن سرعته كانت أكبر من سرعة الضوء .

وعروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء فى معراجه لم يكن ذاتيا ولكن بواسطة ملك الوحى جبريل عليه السلام ، ولذا جاء حديث المعراج بصيغةالبناء للمفعول ، أو المجهول كما نقول اليوم ، فلم يقل صلى الله عليه وسلم عرجت إلى السماء ولكن عرج بى ، واذن لا تستغرق رحلة العروج من مثل زمننا إلا بقدر ما يستغرقه حديثه صلوات الله وسلامه عليه مع الأنبياء من دقائق معدودة تسمح فى مجموعها بالعودة والفراش لا يزال فيه دفء .

والعلم يجيز أن تكون هناك سرعة أكبر من سرعة الضوء ، وإن جهلها . والصديق ـ رضى الله عنه ـ قد احتج فى الواقع للمعراج بسرعة الملك يأتى بخبر السماء ، التى احتج بها للإسراء فى رده على اعتراض ابن جهل .

ونحن أهل القرآن نرى أن تفسير النظرية النسبية لأمر الإسراء والمعراج دليل آخر على صدقها إلى الأدلة التجريبية التى حققها العلماء .

الفصل الثالث

أحاديث الرسول

يموج العالم الغربى اليوم بمتلاطم من المذاهب والنظريات التى بلبلته حتى تكاثرت عليه ، فصار لا يدرى ما يأخذ أو ما يدع ، والعالم الإسلامى عرضة لتلك الأمواج تتوافد عليه فتحدث فيه بعض ما أحدثت فى عالم الغرب من اضطراب فى الفكر والاعتقاد ، وذلك رغم ما يملكه المسلمون من معايير وثيقة للحق والباطل تتجلى فى كتاب الله وسنة الرسول . ولعل من بوادر البلبلة الوافدة ما تبدو لبعض الناس فى بعض الأحاديث الشريفة من مخالفة للعقل ، يقترح من أجلها تنقيح كتب الحديث القديمة أو تنقيح الأحاديث نفسها فى كتب جديدة .

وتمحيص الحديث لا يمكن من الناحية النظرية إلا عن طريقين : تمحيص المتن أو تمحيص السند ، فأما تمحيص الأسانيد فقد قام به أئمة الأحاديث على صورة لم تدع زيادة لمستزيد ، وأما نقد متون الأحاديث فلا يزيد على أن يكون تحكما للرأى فى الدين بحيث يصبح الدين رأيا ويصبح الرأى هو الدين .

إن القدماء كانوا على حق حين حكموا أن الطريق الوحيد المأمون فى تصفية الأحاديث هو طريق تمحيص السند ، لأنه بعد أن قامت الحجة القاطعة على رسالة الرسول صلوات الله عليه ، وأنه لا ينطق عن الهوى فى كل ما بلغه للناس عن الله ، لم يبق ليتميز الحق من الباطل إلا أن يثبت القول عن الرسول. وتمحيص الأسانيد المتصلة إلى الرسول هو الطريق البديهى لهذا الإثبات ، فمن آيات الله الباهرة فى حفظ هذا الدين أن وفق علماء المسلمين للقيام بتلك المهمة الكبرى قبل أن يفوت وقت إمكان القيام بها ، فلو تأخرت إلى ما بعد تلك العصور

التى تمت فيها لأصبح القيام بها مستحيلا ، إذ لو جد العلماء الراغبون فى بذل الجهد القادرون على التمحيص لمـا وجد ما يفحص أو يمحص بعد موت جميع الشهـــود .

فمن فضل الله علينا وعلى الناس جميعا أن كان الدين وعلومه شغل العلماء الشاغل عصورا طويلة حتى تم حفظ اللغة وحفظ القرآن وحفظ الحديث ، وإلا أصاب الإسلام ما أصاب غيره من التحريف والتبديل والتضييع .

ولست أدرى كيف يمكن إذا كان الحديث ثابتا عن الرسول أن يمتد إليه عقل ، مهما قدر ، بتنقيح أو تعديل . لست أدرى كيف يمكن أن يجوز عند العقل أن قولا ثابتا عن الرسول ، الذى قطع العقل برسالته عن الله ، يصح أن يكون محل بحث غير بحث يرمى إلى استنباط المعنى منه ، لا إلى تصحيح أو تنقيح شىء فيه ، إن الدين قد جاء الإنسانية بكثير مما لم تكن تعرف ، والمسألة ليست مسألة ماذا نفهم من الدين ، أم ماذا نعقل ، أو ماذا يتفق مع ما نعرف أو نعلم عن غير طريقه ، ولـكن المسألة هى أمر الواقع الذى كان ، والذى بلغه الرسول للناس عن الله سبحانه ، فإذا ثبت أن أمرا قد وقع أو قولا قد صدر عن الرسول وجب قبول هذا الواقع وذاك القول ، مهما بدا للعقل غريبا أو عجيبا أو غير مفهوم .

إن الدين صادر عن خالق الخلق ، وقد تناول جميع الفطرة ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، بالإجمال فيما اقتضت الحكمة الإلهيـة إجماله ، وبالتفصيل فيما اقتضت تفصيله ، والعقل الذى يمكن أن يحيط بالفطرة لم يخلقه الله بعد ، وهو على أى حال عقل المجموع لا عقل الفرد . والعلم الذى يتسع حتى لا يند عنـه شىء من الفطرة لم يوجد ولن يوجد أبدا . فسيظل الإنسان يعلم ويزداد علما من غير أن يصل إلى نهاية العلم .

وإذا كان الأمر كذلك فهل من المعقول أن يتطلع الإنسان إلى فهم كل شىء فى الدين ، كأن ليس فى دين الله مايسمو عن عقل الإنسان ؟ وإذا كان فى الدين

ما يسمو عن عقل الإنسان ويزيد عن علمه ، فهل من المعقول أن يحكم الإنسان عقله وعلمه فى الدين ، فلا يقبل من الحديث إلا ما طابق ذلك العقل . على محدوديته ، وذلك العلم على قلته ؟ ألا يكون ذلك غرورا يضل الإنسان به عن الله ويصبح به إلهه هواه ؟

ما هو المقياس الذى يمكن أن يفسر به الإنسان متون الحديث ومعانيها ليقبل منها ما يوافقه ويرفض أو ينقح منها ما يخالفه حتى يزول الخلف ؟ إن الحق القاطع لا يختلف ، ذلك أمر معروف مقطوع به ، فهل يمكن أن يتناقض نص قاطع وأمر واقع عرفه الإنسان بالعلم المستقل عن الدين ، كالعلم الطبيعى مثلا ؟ إن هذا غير ممكن ، فالدين من عند خالق الفطرة ، واليقينى من العلم الطبيعى هو جزء من الفطرة ، بمعنى أنه وصف حقيقى صادق لجزء منها . والفطرة متجانسة متساندة فلا يمكن أن يناقض بعضها بعضا .

وإذن فلا يمكن أن يناقض علم دينا أو دين علما ، إذا كان العلم صحيحا وإذا كان الدين من عند الله . لكن الدين ، بحكم تناوله جميع الفطرة . يجمل القول أو يبهمه فيما لا يتعلق بضرورى لسعادة الإنسان الآن ، وفيما ضاق عنه علمه وعقله . بل لعله لا إجمال ولا إبهام هناك إلا بقدر ما يكون فى العبارات الكلية عند من لا يعرف جزئياتها ، فهى تبدو مجملة أو مبهمة لكثرة ما فيها من المعنى الذى استغلق على الإنسان ، حتى إذا ما ازداد علمه باطراد تقدمه. فهم من النص مالم يكن يفهمه ، واطلع منه على دنيا من الحقائق جديدة يتجدد بها له وللإنسانية الحجج عصرا بعد عصر أن الإسلام دين الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن القرآن كتاب الله ، وأن ما يثبت عن الرسول لا يجوز أن ينقحه ، وإن وجب أن يتفهمه ، الإنسان .

سيقال طبعا إن الثابت عن الرسول صلوات الله عليه مختلف فى درجة الثبوت . فالمتواتر من الحديث قليل أو أقل من القليل ، لا يكاد يجاوز أن يبلغ أصابع اليد عدا . وهذا لا اختلاف فى قبوله ولا فى أنه فوق التنقيح . والثابت

غير المتواتر هو الصحيح على تفاوت فى درجة الصحة ؛ وهذا لا يفيد إلا الظن، أى ترجيح أنه من قول الرسول على تفاوت فى درجة الرجحان ، وهذا هو الذى يصح أن يكون عرضة للتنقيح عند اللزوم .

إنى أقول أولا أن احتياط علماء الحديث رضوان الله عليهم ، من الناحية العقلية المنطقية الصرفة ، هو الذى جعلهم يضيقون دائرة المتواتر ذلك التضييق، وإلا فكثير من الحديث يلتحق بالمتواتر لتعدد طرقه وسلامة أسانيده ، ولئن لم يتواتر هذا الكثير من ناحية اللفظ فهو متواتر من ناحية المعنى أو يكاد . ولو دقق علماء التاريخ فى ثبوت التاريخ تدقيق علماء الحديث فى ثبوت الحديث لما كاد يثبت من التاريخ شىء .

فمسلك علماء الحديث فى نقد الأسانيد غاية فى التشدد . كانوا يضعفون الحديث إذا عرف عن أحد رواته أنه كذب ولو مرة ، وهذا تشديد كبير ، لأن الذى يكذب مرة ليس معناه أنه يكذب كل مرة ، أو أن الكذب له عادة ، والذى يكذب على الناس ليس بضروى أن يكذب على الرسول الذى توعد الكاذب عليه بالنار . لذلك لست أشك فى أن من بين ما رفضه علماء الحديث صحيح وغير قليل ، فينبغى أن يكون ما قبلوه بالغاً فى الصحة كل مبلغ ، وجديرا أن تتلقاه العقول بالطمأنينة والقبول . فالرجحان هو أقل ما يمكن أن يوصف به ما صححه أولئك العلماء الأعلام المدققون . أى أن ما وصفوه بالظنى والراجح هو فى الواقع فوق ذلك بكثير، ولكنهم وصفوه بأقل ما يمكن ان يوصف به ، لأن العقل لا يقطع بغير هذا . اى ان الأحاديث الصحيحة عند العقل هى قطعية الرجحان ، وما كان قطعى الرجحان هكذا فى الثبوت عن الرسول فأى حكمة ياترى هناك فى القول بتنقيحه ؟ أفمن الممكن إنزاله عن مرتبة الرجحان مع أن رجحانه مقطوع به ؟ أم من الممكن إعلاؤه عن مرتبة الراجح إلى مرتبة اليقين ؟ ليس هذا ولا ذاك ممكنا عند العقل اليوم ، وإذن فلا محل هناك للقول بتنقيح صحيح حديث رسول الله عليه السلام .

ويجب ألا يعزب عن البال أن الأحاديث الصحيحة ، وإن وصفت بأنها راجحة الثبوت عن النبى عليه الصلاة والسلام ، فإن الإجماع منعقد على العمل بها فى الدين ، أجمع على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، وأجمع على ذلك العلماء عصرا بعد عصر إلى عصرنا هذا . فمن يحدث نفسه بترك حديث صحيح لمجرد أنه لايفهمه أو أنه يستغرب معناه يعرض نفسه للخروج على إجماع المسلمين ويعرضها بالخروج على الإجماع لما فى ذلك من خطر حقيق عليه ، لا عند الناس ولكن عند الله . (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ـ النساء ١١٥) . فالإجماع واجب الاتباع ، بالكتاب بهذه الآية على الأقل ، وبالسنة بعدة أحاديث .

على أن كل إنسان حر فى ذات نفسه فى قبول ما يقبل ، أو رفض ما يرفض ، فإن ذلك متعلق بقلبه وبعمله هو . هو أمر بينه وبين الله ، بل وترجى له النجاة ما صدق النية لله فى ذلك ، لكنه إذا بدأ يدعو غيره إلى ما يشبه أن يكون خروجا على إجماع المسلمين فإنه عندئذ يعرض نفسه لأخطار لا يقدم على التعرض لها عاقل من الناس .

الفصل الرابع

المستشرقون والرسول

نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق على الإطلاق ، وأسماهم مقاما ، وأعزهم شأنا ، كتب فى عظمته المتقدمون والمتأخرون فما بلغوا على اجتهاد المجتهدين منهم كفاء قدره ، ولا جزاء فضله . لكن المتقدمين كانوا أكثر من المتأخرين توفيقاً ، وأقوم فيما كتبوا طريقا ، وأصدق نظرا وأكثر تحقيقاً . وما بالمتأخرين قلة استعداد أو فهم ، ولكن بهم غرور ، وتقليد لعله أصل ذلك الغرور ، بهم تقليد المستشرقين فيما كتبوا ، وفى المنهج الذى سلكوا ، حين عرضوا للسيرة ينقدونها ، وللرسول الأعظم يزنونه ـ زعموا ـ ويقدرونه .

وللنقد آفة يؤتى الناقد من قبلها إن لم يفطن لها ، هى شعور الإشراف والاستعلاء على المنقود . هذه الآفة يصبح قليلها كثيراً وصغيرها كبيراً حين يتعرض الناقد للموضوع العظيم الخطير ، فإذا كان الموضوع هو أعظم المواضيع الإنسانية قاطبة ، كموضوع تناول حياة الرسول بالوزن ، وشخصيته الكريمة بالتحليل ـ زعموا ـ وبالنقد ، فإن الغرور القليل المعفو عنه فى غير هذا يصبح هنا جرما وإثما ، ويفضى إلى الباطل حتما . فإذا اقترن غرور الاستشراق هذا باعتقاد المستشرق من البداية بطلان دعوى النبى المخالفة لدين المستشرق فقد ركب الباطل باعتقاده هذا ركوبا يحول بينه وبين لقاء الحق .

فمهما اجتهد المستشرق فى بحثه بعد ذلك فإن تلك المقدمة الباطلة التى بدأ بها كافية وحدها أن تضله ، وتخرج به من زور وباطل إلى زور وباطل . ومهما اجتهد فى الإنصاف بعد ذلك ، فتلك المقدمة التى اعتقد كافية وحدها لإقحامه

فى أقبح الظلم ، وحمله على أكبر الإثم ، وأى إثم أكبر من تكذيب نبى الله وخاتم الرسل عليه صلوات الله من البدء ، بغير نظر ولا تمحيص،وتلوين حقائق التاريخ كلها بما يلائم ذلك التكذيب . وأى ظلم فى التقدير والحكم أقبح من نسبة الكذب إلى صاحب الدعوة الكبرى ، دعوى الرسالة من الله ، قبل النظر فى دعواه . حتى إذا نظروا وواجهتهم أدلة صدقه ، عن يمين وشمال ، برأه منصفوهم من تعمد الكذب ليتهموه بالوهم والانخداع فى النفس،برؤوه من تعمده الكذب على الله فى دعوى الرسالة ، ليتهموه بأنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان مخدوعا فى نفسه يعتقد أنه رسول ، وهو فى الواقع غير نبى ولا رسول . أى برؤوه هو واتهموا الخالق سبحانه الذى حقق كل ما ادعاه محمد بن عبد الله ، ولم يكذبه فى جزئية واحدة فى حياته النبوية الممتدة ثلاثة وعشرين عاما .

فإن كان محمد فيما زعموا مخدوعا فى نفسه فكيف لم يكن مخدوعا أيضا فى الناس؟ وفى القوى الطبيعية التى لا تخضع لتكهنات مخدوع ولا لسلطان مخلوق . فالتطابق التام الذى كان بالفعل بين ما جاء به محمد وبين الحق الخارجى ، والنتائج المحتومة الرائعة التى صارت إليها دعواه ، وتصديقها له فى كل ما ادعاه ـ هذا كله هو البرهان العلمى على أن دعواه صلى الله عليه وسلم كانت من صميم الحق ، وتتفق مع كل حق آخر فى ميادين الفطرة التى لا حول لإنسان فيها ولا قوة ، وليس هناك بين الباطل والحق فرق أكبر أو أكثر من أن الباطل لا يصدقه الواقع ، ولا توافقه السنن الفطرية فى قليل ولا كثير .

لكن المستشرقين مثل (رودول) ، الذين قالوا بصدق محمد، وكذب رسالته، لم يكونوا يريدون إحقاق حق ولا إزهاق باطل ، وإنما كانوا يريدون التوفيق بين دلائل صدقه صلى الله عليه وسلم وبين تلك المقدمة التى بدأوا بها ، والتى لو سلموا ببطلانها للزمهم أن يخرجوا من دينهم ويدخلوا فى دينه . وهذا بالطبع ما لم يكونوا ليفعلوه . فهم من أجل ذلك يمضون فى سبيلهم يشكون فيما شاءوا أن يشكوا فيه من حقائق التاريخ ـ كما شكوا فى أميته من غير برهان ولا مبرر ـ

ما دامت حقائق التاريخ لا تتلاءم مع مقدمتهم التى جعلوها أساسا لبحوثهم ، فلما عجزوا عن أن يشكوا فى كل حقائق التاريخ ، وبقيت منها بقية صالحة استعلت على شكهم ، وتناقضت مع مقدمتهم التى ائتفكوا ، آثروا أن يفرضوا أسخف الفروض ليوفقوا بين مقدماتهم وبين الحقائق التى تكذبها .

ومن هنا فرضهم الذى افترضوا من أن محمدا كان يعتقد حقا أنه رسول الله من غير أن تكون رسالته نفسها من عند الله ، أى أنه فى زعمهم كان واهما مخدوعا فى اعتقاده هذا . يزعمون ذلك من غير أن يسألوا أنفسهم : كيف أمكن أن يتوهم محمد نزول الملك عليه آلاف المرات فى نحو ثلاث وعشرين سنة من غير أن يتبين خطأ نفسه ، أو يتبين أتباعه خطأه ؟ أم كيف أمكن أن يتفق توهمه مع الحقائق الخارجية فى تلك السنين الكثيرة ، وهو صلى الله عليه وسلم ، فى حياته النبوية فى قرابة ربع قرن ، لم يكن معتزلا العالم فى صومعة ، ولكن كان فى معمعة الحياة ، يدعو الناس ويحاجهم ويهديهم ويشرع باسم الله لهم ؟

ثم هم لا يسألون أنفسهم : كيف أمكن أن يتوهم محمد أن الملك يأتيه بكلام من عند الله منجما فى تلك السنوات التى تزيد على العشرين فى ظروف ليست من صنعه صلى الله عليه وسلم ، ثم يكون ذلك الكلام معجزاً لفصحاء أمته ، يتحداهم بإعجازه وهم خصومه فلا يملكون لإبطال ذلك التحدى شيئا ، مع أنه لم يتحدهم إلا بسورة من مثله ، وفى سور القرآن الكريمة ما لا يزيد على ثلاث آيات قصار .

والعجيب الغريب فى أمر أولئك المستشرقين ، الذين يكذبون برسالة محمد مع إقرارهم صدقه ، هو أنهم يرون القرآن بين أيديهم ينسبه محمد إلى الله تعالى ، وضمير المتكلم فيه ، فيما ليس بحكاية ، يرجع لا إلى محمد ولكن إلى الله سبحانه ، والخطاب فيه موجه تارة إلى محمد وتارة إلى الناس ، وكثير مما خوطب به محمد صلى الله عليه وسلم مسبوق فيه بأمر التبليغ ، بكلمة (قل) ، والآيات الكثيرة

أنه كاذب ، كما يزعم أقرب المستشرقين إلى الإنصاف . فى القرآن آيات مثل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ـ النساء ١٦٣) ، ومثل (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما ـ الأحزاب ٧ و ٨) ، ومثل (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ـ البقرة ٣٤) ومثل (فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ العنكبوت ٤٠) ومثل (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ـ ق ٧) ، ومثل (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ـ الإنسان ٢) .

هذا وأمثاله فى القرآن — بل القرآن كله — لا يمكن ، لو كان الإتيان بمثله فى طاقة أو مقدور البشر ، أن يتوهمه متوهم وينسبه إلى الله كذباً من غير أن يعلم فى قرارة نفسه أنه كاذب ، ومع ذلك فأولئك المستشرقون الذين يزعمون أنهم علميون فى نظرهم وفى بحثهم ، والذين تضطرهم حقائق التاريخ أن يقروا بصدق محمد فى اعتقاده برسالة نفسه ، يفضلون أن يجمعوا بين المتناقضين ، بالقول بصدقه وكذب رسالته فى آن واحد ، على أن يستنتجوا النتيجة الحتمية اللازمة ، ويقولون بصدق رسالته ما داموا لا يجدون مفرا من القول بصدقه ، وباعتقاده حتما فى رسالته نفسه وبإيمانه حقا أن القرآن من عند الله .

ولم يكن يخفى على المستشرقين المكذبين أن محمداً صلوات الله عليه كان يأتيه القرآن حين يأتيه فى غيبوبة عن الدنيا ، فإذا أفاق منها تلا على الناس القرآن ، يقول إن الله أوحاه إليه فى غيبوبته تلك ، وتحدى مكذبيه بأن يأتوا بسورة مثله . لم يكن يخفى على المستشرقين تلك الحال الخاصة التى كانت تلازم

نزول القرآن ، أو توهم نزوله كما يأفكون ، ولم يكن يخفى عنهم عجز العرب قاطبة عن تحديه ، وعن الإتيان ولو بمثل أقصر سورة فيه . ومع ذلك لا يجد أقربهم إلى الإنصاف ما يقوله فى تفسير هذا كله إلا أن محمدا كان مريضا بنوع من الصرع . كما يقول (رود ول) و (إرفنج) ، وليس فى الحق أعرق من الإتيان بمثل هذا القول تفسيرا لتلك الحقائق .

إنه ليس فى الأرض عاقل لا يعرف أن المرض حالة ضعف لا حالة قوة ، وأن من المستحيل أن يأتى الإنسان فى غيبوبته ما لا يستطيعه هو ، بله نظراءه من الناس ، فى حالة صحوه وصحوهم ، وقوته وقوتهم ، ومع ذلك آثر أمثال (وشنجطن إرفنج) أن يأتوا بذلك التفسير ظاهر السخف والبطلان عن أن يقولوا بالنتيجة المنطقية الحتمية ألا وهى أن القرآن من عند الله حقا وأن محمدا حقا رسول الله .

فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يلق ممن لم يؤمن من المستشرقين إلا ظلما ، وإن تفاوتوا بينهم فى مقدار ذلك الظلم . ولو كانوا ينكرون الأديان قاطبة ، ولا يسلمون بوجود الأنبياء والرسل ، لكان ذلك مفهوما منهم إلى حد ما ، لكنهم يسلمون باليهودية والنصرانية ، ويؤمنون بنبوة إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان ، فليت شعر العلم والعقل ماذا فى الإسلام أو فى القرآن يجعلهم ينكرون نبوة محمد خاصة ، فى الوقت الذى يؤمنون فيه بأنبياء كتب العهدين ؟ بل فى الوقت الذى يقر أكثرهم بألوهية عيسى ، صلوات الله على نبينا وعليه ، لكنهم مستشرقون ومستشرقون من الطراز العلمى الحديث !

الكتاب الثالث

القرآن المعجزة الخالدة

الفصل الأول — القرآن كتاب الله

الفصل الثانى — القرآن معجزة الدهر

الفصل الثالث — عظمة القرآن

١ ـ عظمته معجزا ٢ ـ عظمته محفوظا

٣ ـ عظمته مهيمنا على الكتب قبله

الفصل الرابع — الإعجاز البيانى والبلاغى للقرآن

الفصل الخامس — دلالة ضمير الرسالة (أو الخطاب) فى القرآن

الفصل السادس — دلالة ضمير الجلالة (أو المتكلم) فى القرآن

الفصل السابع — دلالة المعنى فى القرآن

الفصل الثامن — دلالة المعنى مع دلالة ضميرى الرسالة والجلالة فى القرآن

الفصل التاسع — دلالة الأسلوب والمعنى فى قصص القرآن

الفصل الأول

القرآن كتاب الله

فيما كنا نحفظ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم قوله يثنى على ربه عز وجل « لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » — كلمات كريمة دون العشر ، هى من جوامع الكلم ، التى لايقولها إلا نبى . إنها الغاية فى الأدب مع الحق سبحانه ، وفى مراعاة ما يليق بجلاله ، فشطرها الأول إقرار بالعجز ، عجز أفصح الخلق عن توفية الله حقه من الثناء ، وشطرها الثانى تقرير للحقيقة الكبرى أن محامده عز وجل لايقدرها على حقيقتها إلا هو سبحانه .

وفى الكلمات الشريفة لطائف قد تمر فلا تلحظ ، فضمير الجمع فى قوله عليه الصلاة والسلام « لا نحصى ثناء عليك » يدل على أن الأمر يتجاوز ذات النبى الكريم ومقدرته إلى الأمة بل والبشرية كلها ومقدرتها ، وضمائر الجلالة والتفويض إلى الله المنطوى فى قوله صلى الله عليه وسلم « أنت كما أثنيت على نفسك » تفيد أن صفاته عز وجل التى دلت عليها أسماؤه الحسنى فى القرآن الكريم ، لايعرف مدى جلالها وكمالها إلا هو سبحانه ، فكل تصور للعظمة الإلهية مثلا هو دون ما يتمثل فى اسم الله (العظيم) ، وكل تصور لحكمته تعالى هو دون ما يدل عليه اسمه (الحكيم) ، وقس على ذلك سائر أسمائه الحسنى سبحانه .

والقرآن الكريم كلام الله وكتابه الذى يخاطب به عباده ويتعرف إليهم فى آياته . فى لغة اختارها سبحانه وأعدها طبق سننه تعالى فى تطور اللغات على مر الأحقاب والعصور ، حتى صارت قابلة لتحمل ما أراد سبحانه أن يحملها من معنى لهداية العرب ، ثم لهداية البشرية إليه سبحانه ، وإلى دينه الذى

يطابق الفطرة (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم - الروم ٣٠). ولولا أن الإنسان طرف مخاطب بالقرآن ما أمكن أن توجد لغة تتحمل معانى كلام الله ، ولولا أن القرآن أنزله الله لهداية البشرية التى علم سبحانه أن سترقى بفضله فى العقل والعلم إلى ما يؤهلها بالتدريج لفهم كتابه ، ما اقتضت حكمته أن يجىء القرآن مطابقاً لسنن الله فى فطرة عالم الشهادة ، ومبصرا بالفطرة فى عالم الغيب بالقدر الذى يكفى لتنجية الإنسان من الهلاك الذى لابد يؤدى إليه الجهل بالله ، والكفر به سبحانه وبأحكامه .

والتعبير البيانى عن هذا كله هو الذى يجعل القرآن معجزاً للبشرية ، مهما بلغت من الأدب والعلم . أن تأتى بسورة مثله ، ويوجب على الإنسان تمام الدقة والاحتياط فى فهم القرآن وفقهه ، ولن يبلغ الإنسان من تقدير القرآن ما ينبغى له إلا إذا اهتدى بما وصفه الله به وما أثنى به عليه ، ناظراً فى كل صفة يتدبرها ، ويطلب السر الذى من أجله وصف الله بها كتابه العزيز .

ولعل خير ما يبدأ به من هـذا أن ينظر نظرة إجمالية فيما أثنى الله به على القرآن الكريم ، وهناك لهذا سبيلان : سبيل استخلاص وجوه ثناء الله على كتابه من سوره حسب ترتيب نزول الوحى بها ، وسبيل استخلاصها من سوره حسب ترتيبها التوقيفى فى المصحف الشريف ، وفى هـذه الحالة يكون علينا ابتداء أن نحسب أى طرفى المصحف يبدأ منه الباحث : طرف الطوال من السور أم طرف القصار . فهذه طرق ثلاث ، كل منها كاف شاف ، ويا حبذا لو أمكن سلوكها جميعها للمقارنة بينها فيما تؤدى إليه من ترتيب لصفات القرآن ومحامده ، وأكبر الظن أن كلا منها سيكون له مزاياه فى التبصير بخصائص القرآن .

ولنضرب لذلك مثلا بنظرة فى أول وصف للقرآن نلقاه إذا سلكنا على التتابع كلا من الطرق الثلاث : ففى طريق ترتيب السور حسب نزول الوحى بها نلقى فى الآيتين ٥١ و ٥٢ من آخر سورة القلم - ثانية تلك السور — قوله تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون

إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) . ولا ندرى فى هاتين الآيتين الكريمتين أى الثناءين على القرآن أعظم وأفخم : الثناء عليه بأنه الذكر لا ذكر غيره يساميه أو يدانيه ، أم الثناء عليه بأنه ذكر (للعالمين) على هذا التعميم العجيب الذى يشمل الإنس قاطبة بل والجن ، لافى عصر بذاته ، أو قطر ، ولكن فى جميع الأقطار وفى كل العصور .

وفى طريق ترتيب السور فى المصحف نلقى فى طرف الطوال منها ، فى الآية الثانية من سورة البقرة قوله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ـ ٢ و ٣) ، وفى طرف القصار من السور نلق أول ما نلق قوله تعالى فى الآيات الأولى من سورة البينة (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة ١ ـ ٣) ، فقد توالى الثناء من الله على كتابه فى كل من هذين الموطنين الكريمين .

القرآن هو الكتاب، لا كتاب يدانيه فى سموه . ليس فى ذلك شك ، وليس فى شىء حواه القرآن شك . ثم هو هدى لمن آمن وعمل به ، فاتقى بذلك الضلال والخسار ، واستوثق من أن الله هاديه ومؤتيه النجاة والفوز على الإطلاق والدوام . ووصف الاهتداء بالقرآن وعاقبته تؤديه الآيات الثلاث التى تلى آية وصف القرآن ، ونفى الشك بشطريه المذكورين آنفا ، يؤديه قوله تعالى (لاريب فيه) بوجهيه حسب مرجع الضمير ، فهو يرجع إما إلى معنى الجملة (ذلك الكتاب) وإما إلى (الكتاب) . وإذن فهو يفيد المعنيين على الجمع لاعلى التخيير ، فكذلك ينبغى أن نفهم كل عبارة قرانية تفيد فى صحيح العربية أكثر من معنى لايمنع منه مانع ، وهذا من خصائص كلام الله الذى لو شاء لأنزل العبارة نصا فى معنى واحد إن كان وحده هو المراد ، وهى خاصة بكلام الله إذا روعيت فى فهمه جلت من إعجاز القرآن وجها جديدا عجيبا ، وذهبت

بكثير من الخلافات بين أهل التفسير ، وذهبت بكل إيهام يوهمه إيرادهم معانى العبارة الواحدة على التخيير بالحرف (أو) بدلا من إيرادها على الجمع بالحرف (و) هذا عن ثناء الله على كتابه فى آية سورة البقرة .

أما ثناؤه سبحانه على كتابه فى آيات سورة البينة فهو منصب على صحف القرآن ، فهى إذ يتلوها الرسول حجة الله البينة على عباده ، ورسالته إليهم ، وهى مطهرة ، وهو وصف عجيب جامع يؤكد من ناحية نفى الريب عن القرآن كالذى فى آية سورة البقرة ، ويزيد من ناحية أخرى نفى التحريف عن صحف القرآن نفسها ، فلا يدخل فيما خط فيها خطأ ما ، هذا جانب عجيب من الحفظ الذى وعد الله به مؤكدا فى قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون — الحجر ٩) ، جانب حققه ويحققه الواقع ، وحفظ يذهب بكل ما أثاره أو يثيره أعداء الإسلام ، أمثال (جلد تسهير) من شبهة مبنية على عدم النقط والشكل فى مصاحف سيدنا عثمان لحكمة لله فى ذلك بالغة ، هى احتمال المصحف عصرئذ لجميع القراءات التى نزل بها القرآن وتلقاها الصحابة من فم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكما وصف الله صحف القرآن بأنها مطهرة وصفها بأن فيها كتب قيمة . نزهها عن العيب بالوصف الأول ، وأثبت الكمال لما فيها بالوصف الثانى ، فالسور فى تلك الصحف كتب . طويلها كتاب ، وقصيرها كتاب . واللفظ فى العربية يفيد المعنيين المناسبين للطويل منها والقصير ، فالطويل منها كتاب بالمعنى المألوف والقصير كتاب بالمعنى الذى نطلق عليه الآن كلمة (خطاب) ، وكل منها بعد ذلك (قيم) بالمعنى الذى وصف الله به كتابه فى مفتتح سورة الكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما) فهو مستقيم فى ذاته ، قيم ووصى على ما يناظره من الكتب السابقة المنزلة والكتب اللاحقة المؤلفة ، ثم هى مجتمعة قيمة على الناس ، تهديهم إلى الحق والخير وتحذرهم مصارع الباطل والإثم .

والآن تأمل واعجب معى من الترابط الوثيق بين ذلك الثناء المتوالى ، على تطاول فترات ما بين نزول الوحى به . فسورة القـــلم ، التى أثنى الله فيها على القرآن بأنه (الذكر) ، و (ذكر للعالمين) ، هى ثانية السور المكية ، وسورة البقرة ، التى أثنى الله فيها على القرآن بأنه (الكتاب) ، (لاريب فيه) ، وأنه (هدى) ، هى أول السور المدنية فبين نزول الوحى بالثنائين نحو عشر سنين. وسورة البينة التى أثنى الله فيها على القرآن بأن صحفه (مطهرة) من الباطل ومن التحريف ، وأن سوره (كتب) ، وكتب (قيمة) ، بكل ما يدخل تحت ذلك من معنى ، هى رابعة عشرة السور المدنية ، كأنها فيها واسطة عقدها البالغ عدد سوره ثمانيا وعشرين . ففترة ما بينها وبين سورة البقرة تقرب من خمس سنين، ومع ذلك فالنجوم القرآنيـــة الكريمة تبدو فى ترابطها وترابط الثناء فيها على القرآن كأنها نزلت متتالية متتابعة ، وذلك يتبين بتأملها ، لا بالترتيب السابق وحده ولكن بأى ترتيب تشاء بين السور الثلاث ، ولكن البدء من طرف ترتيب النزول هو الأولى بالتتبع التاريخى وليس يهم أن تتطلب بعد ذلك ثناء الله على القرآن من أى طرف للمصحف شئت .

فلنتتبع النظرة السابقة بنظرة أخرى ولننظر ماذا تسفر عنه : إن السورة التى تلى سورة القلم ، وفيها ثناء على القرآن ، هى سورة التكوير ، سابعة السور من حيث ترتيب النزول ، وهنا نلقى ثناء سورة القلم قد تكرر فيما يبدو فى قوله تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم - ٢٧ و ٢٨) ومن رحمة الله بعباده أن قرر صفة الإســـلام الأساسية هذه من طرفيها : طرف القرآن كتاب الله ، وطرف الرسول الذى أرسل بالقرآن ، وأنه سبحانه يكل إلى عباده أن يستنتجوا عمومية أحد الطرفين بالاقتصار على تقرير عمومية الآخر ، حتى لا يكون لأحد عذر فى أن يزعم أن الإسلام دين خاص بالعرب الذى نزل بلسانهم ، أو أن العصر قد تطور وتقدم وراء ما جاء به القرآن ، كما يزعم بعض أهل هذا العصر ، يبررون بذلك مخالفة كتاب الله فما

جاء به من أحكام بينها ونفذها الرسول ، حتى إذا أدت المخالفة إلى مشاكل لا قبل للناس بها تلمسوا حل تلك المشاكل فى غير إزالة أسبابها من مخالفة الكتاب والسنة ، وهيهات أن يجدوا لها حلا إلا بالرجوع إليهما والوقوف عند شرع الله .

والسورة من طرف القصار ، التى تلى سورة البينة ، وأثنى الله فيها على القرآن هى سورة الطارق إذ يقول سبحانه فيها (إنه لقول فصل . وما هو بالهزل - ١٣ و ١٤) على وجه التأكيد على هذا مرتين بعد القسم على ذلك مرتين فى قوله تعالى (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع - ١١و١٢). وهو قسم عظيم لم يتبين بالعلم إلا بعض سره ، وليس هذا مجال النظر فيه ، اللهم إلا بالتنبيه إلى حسن التناسب فى القسم بالسماء على صفة القرآن المنزل من السماء ، وفى القسم بالأرض على صفة القرآن المنزل لأهل الأرض . الذين كثيراً ما يهزلون فى الجد ، ويتخبطون فى الحق . لا يدرون ، بعيداً عن القرآن ، كيف يفرقون بين الحق والباطل فى أمور الحياة . فالقرآن على وجه القطع يفصل لهم بين الحق والباطل . وبين الرشد والغى ، يقسم لهم على ذلك خالقهم الذى أنزله هدى وبينة لهم ، إذ يقول سبحانه (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل) ، ولكن الناس عن القرآن وآياته غافلون .

ثم نأتى فى خاتمة هذه النظرة الثانية إلى ما أثنى الله به على القرآن ثانى مرة فى سورة البقرة . أولى السور الطوال حسب الترتيب التوقيفى ، فبعد آيات معدودات من قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) نلقى قوله (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين - ٢٣) . فانظر كيف أن الله ، بعد أن نفى كل ريب عن كتابه ، تحدى أهل الريب أن يأتوا بسورة من مثله ، مستعينين بمن شاءوا إلا بالله القادر وحده على مثل كتابه ، وهى آخر آيات التحدى ، فيها ثناء لا ثناء

بعدله بانفراد القرآن من بين الكتب المنزلة بأنه ـ حتى فى أقصر سوره ـ معجز للخلق أجمعين فى جميع العصور ، إذ القرآن مخاطب به البشرية إلى يوم الدين .
وقد يظن أن هذا التحدى الأخير فى العهـــد المدنى تكرار للتحدى الأخير فى العهد المكى فى آية ٣٨ من سورة يونس (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ففى كل من الآيتين الكريمتين جاء الأمر (فأتوا) يتحدى المرتابين بسورة (مثل) القرآن فى يونس ، و (من مثله) فى البقرة فهل لزيادة الحرف (من) مغزى يزيد فى قوة التحدى ؟ .

إن ضمير الجلالة للمتكلم فى آية البقرة ، بدلا من ضمير الرسالة المستتر فى فعل الأمر (قل) يجعل التحدى مباشرا من الله فى البقرة بدلا من أن يكون من الله بواسطة الرسول فى يونس . وهذا لا شك يجعل وقع التحدى أقوى ما يكون ، فلا ينبغى قط أن يفهم قوله تعالى (من مثله) على وجه يجعل الحرف (من) مضعفا للتحدى ، فيكون فى مغزاه منافيا لمغزى ضمير الجلالة فى قوله تعالى (مما نزلنا على عبدنا) ، وهذا ما يكون لو أرجع الضمير فى (من مثله)إلى الرسول المكنى عنه بعبدنا بدلا من القرآن برده إلى الاسم الموصول (ما) الدال على القرآن فى قوله (مما أنزلنا) فشتان ثم شتان بين التحدى بسورة من (مثل القرآن) فى آخر صور التحدى الباقى على الدهر ، والتحدى بسورة (من مثل النبى) فى أميته كما ذهب إليه بعض كبار المفسرين فى القديم وفى الحديث .

فالمثلية التى هى ركن التحدى فى قوله تعالى (من مثله) هى إذن مثلية القرآن كما عليه جمهور المفسرين ، لا مثلية النبى كما عليه قليل منهم ، وفى هذه الحالة يمتنع أن تكون (من) بيانية ، إذ تصبح زائدة لامغزى لها ، لأن (فأتوا بسورة مثله) أصح وأخصر من (فأتوا بسورة من مثله) عند اتحاد المعنى . وليس فى القرآن حرف زائد ، حذفه خير من وجوده أو حذفه ووجوده سواء ، كما قرره الفخر الرازى فى القديم والأستاذ الأكبر السابق الشيخ تاج فى الحديث . لكن إذا كانت (من) تبعيضية كأن قد قيل (فأتوا بسورة بعض مثله) كان فى التحدى تساهل وإرخاء

يزيده قوة فوق التى يزيدها ضمير الجلالة للمتكلم . كأنهم لما عجزوا عن المثلية التامة لسورة من القرآن ، طولبوا على وجه التعجيز بسورة تشبه أن تكون مثل القرآن أسلوبا ومعنى ، وهذا لاشك ترق فى التحدى فى آخر صوره تجاوز به الذروة التى بلغها فى آية سورة يونس .

فهذه سلسلة أخرى من ثناء الله على كتابه ، بدأت ، كما بدأت الأولى ، بأنه (ذكر للعالمين) توكيداً أو تثبيتا لحكمة الله فى إنزاله ، وانتهت بأنه معجز للبشر أن يأتوا بما يمكن أن يدنو من مثل أقصر سورة فيـــه . فماذا يا ترى يسفر عنـه البحث لو استمر يتتبع ثناء الحق سبحانه على قرآنه الكريم ؟

الفصل الثانى

القرآن معجزة الدهر

مرت المعجزات وبقيت معجزة واحدة خالدة هى القرآن . والمعجزات هى براهين الأديان أنها من عند الله وليست من عند الإنسان . والأديان لا تكون شيئا إن لم تكن من عند الله ، ويقم البرهان الناصع الساطع على أنها من عند الله . فصدورها من الله ضمان هدايتها الإنسانية فى كل الظروف ما أطاعتها الإنسانية . ووضوح البرهان على أنها من عند الله ضمان استيقان الإنسان إياها وطاعته لها . وسواء أكان الدين خاصا بأمة أم عاما للبشر فالبرهان عليه ينبغى أن يكون عاما يخضع له كل عقل ، لا خاصا تخضع له بعض العقول . وليس يفى بهذا الشرط فى البرهان على الدين الحق أنه من عند الله إلا المعجزات .

والإنسانية الآن فى حاجة إلى دين تخرج به من ورطاتها بعد أن كادت تهلك حين نسيت الدين . ولو أرادت البحث بعقلية علمية عن دين الفطرة — كما لا بد لها يوما أن تبحث — فليس أمامها إلا أن تنظر فى الأديان كظاهرة كونية . وفى الحق إنها ظاهرة من أكبر الظواهر الواقعية ، وأعظمها مظهرا وأثرا فى حياة الإنسان ، والواقع هو موضوع الدراسات العلمية - أو هو موضوع العلم الطبيعى - بشرط ألا يكون لهوى الإنسان دخل فيه ، لأن الهوى والحق قلما يجتمعان . لذلك لم يجعل العلم التاريخ مجالا لبحثه لأن الأهواء من عوامل التاريخ .

لكن هناك ظاهرة تاريخية هى أهم ظواهر التاريخ وأشبهها بالظواهر الطبيعية التى ليس للإنسان عليها سلطان ، وإن جرت على أفراد من الناس ، تلك هى ظاهرة النبوة وظهور الأنبياء ، وهى فى تاريخ البشرية أشبه ببعض

الظواهر الفلكية النادرة المتجددة . ولو ضربنا لها مثلا ، ظاهرة المذنبات لم نبعد. يظهر النبي فى أفق البشرية من عصر لعصر كما يدخل المذنب أفق الأرض بين حقبة من الزمن وحقبة ، فيشغل به الناس ما لبث فى أفقهم ، ثم يذهب المذنب غير تارك أثرا ويبقى للنبي عظيم الأثر فى الناس .

وظاهرة الأنبياء فيها كل ما فى الظواهر الطبيعية والفلكية من ميزات . فهى من ناحية ظاهرة واحدة متجددة ، فالنبى أشبه بالنبي من النجم بالنجم : واحد من الناس يظهر فيهم على غير إعداد منهم ، يتجرد من كل ما يشغل الناس من إقبال على الدنيا واستمتاع بها ، جاعلا شغله الشاغل دعوة قومه إلى طاعة فاطر الفطرة وخالق الناس . ثم هو لا يدعوهم من عنده فيلتبس عليهم بالفلاسفة والحكماء الذين يكثرون فى بعض العصور ، ولا يكاد يخلو منهم عصر ، ولكن يدعوهم باسم الله الذى خلقهم ، مؤكداً لهم أنه مرسل إليهم من عند الله ربهم برسالة ليس له فيها إلا التبليغ . وسواء آمن به كثير أو آمن به قليل فإنه هو يعمل فى جميع الأحوال بما يدعو إليه من دين مهما شق العمل به على الناس ، ويتحمل فى سبيل تأدية الرسالة على وجهها ما يتحمل ، لا يصرفه عن رسالته أذى أو إغراء . فهو يطلع على الناس طلوع نجم أو قمر أو شمس أو مذنب ، يجرى بجراه ولا يحيد قيد أنملة عن مسراه .

تلك ظاهرة تاريخية ، ولكن فيها كل ما فى الظواهر الفلكية من صفات أساسية : فيها التجدد ، وفيها رغم تجددها الإطراد ، وفيها التجرد عن هوى البشرية ومشاغلها ، وفيها التقيد بأوامر فاطر الفطرة سبحانه تقيد النجم فى مشرقه ومغربه . وفيها الإشراق على الناس بهدى الله كما تشرق الشمس عليهم بالضياء .

وتصحب النبوة والرسالة عادة ظاهرة أخرى ، هى أشبه بما يشتغل به العلم من الظواهر ، نسميها معجزة . ويسميها القرآن آية . وهى دليل دعوى النبى أو الرسول أنه نبى الله أو رسوله . وهى حجة الله على من شهدها أو تواتر

سماعه بها عمن شهدها . والمعجزات تشبه ظواهر الفطرة فى أنها مما لا يقدر عليه إنسان . كلها تشترك فى هذا التفرد لتكون دليلا عند من يعقل أن الذى أجراها على يد الرسول هو الله فاطر الفطرة ومرسل الرسول .

والعلم أسرع إلى التسليم بمثل هذا الدليل إن ثبت لديه وقوعه ، لأن العلم أعرف وأبصر بعجز الإنسان عن خرق عادة الفطرة وسننها فى الكون . فابتلاع العصا لعصى السحرة وحبائلهم ، وإبراء الأكمه والأبرص فى لحظة ، وإحياء الموتى بكلمة ـ هذا وشبهه يعرف العلم ويعرف الناس أنه مما لا يقدر عليه البشر . فلو ثبت لدى العلم وقوعه فى ظروفه لسلم العلم بدلالته .

لكن إذا قدر أن يبحث العلم الأديان عن طريق بحث ظاهرة النبوة فسيجد أن العقبة فى سبيله هى أن معجزاتها قد مرت وانقضت ، فهو لا يجد سبيلا إلى بحث شىء منها ، إلا معجزة واحدة لرسول واحد على دين واحد ألا وهى القرآن معجزة الإسلام على يد محمد بن عبد الله . لقد ذهبت المعجزات كلها وبقى ، وتغيرت الكتب وحرفت ولم يتغير هو ولم يحرف . وعلى أى حال فهو معنا ومع العلم والعلماء لمن شاء أن يبحث أو يفحص .

فلو قدر للإنسانية أن تفحص الأديان بعقلية علمية لما وجدت غير الإسلام دينا يثبت للفحص العلمى إذ ليس غير الإسلام دين بقيت معجزته إلى اليوم ، وتبقى إلى ماشاء الله ، لتكون موضوع بحث وامتحان وفحص ، وليهتدى البشر بفحصها إلى الله . وليعلموا عن طريقها أن الإسلام هو دين الله فاطر الفطرة وخالق الناس : جعل كتابه عين معجزته ومعجزته عين كتابه ، ليكون حفظ الدين وحفظ معجزاته أمرا واحدا سواء ، ولتدوم حجة الله على الناس .

ودلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله لا من عند بشر أمر تنبهر منه العقول إذا نظرت فيه نظرة علمية صادقة ، ففيه أولا التحدى : تحدى العرب وتحدى البشر أن يأتوا بسورة مثله . وهذا التحدى وحده دليل عجيب على أنه ليس من عند محمد ، فلو علم محمد من نفسه أنه قائله ما اجترأ، وهو ما هو من

العقل وهم ما هم من الفصاحة ، أن يتحدى العرب ، بله البشر ، أن يأتوا بمثله ، ثم بعشر سور من مثله . ثم بسورة ، ثم يجعل التحدى بأقصر سورة لا تزيد على عشر كلمات . فهذا من غير شك دليل عجيب . وأعجب منه عجز العرب خصومه — وقد كانوا جميعاً خصومه فى الأول — أن يقبلوا هذا التحدى ويهدموا محمدا ودعوته بالإتيان بسورة من مثل سور القرآن الكريم .

وعجزهم ذلك جاء مصدقا لنبوءة تنبأها لهم حين تحداهم أنهم (لن يفعلوا) ولم يفعله أحد من البشر حتى الآن . فاعجب من كلمتين اثنتين قامتا بصدقهما المستمر معجزة باقية على الزمن .

وعجز العرب والبشر عن سورة قصيرة من القرآن أمر غريب يجعل من القرآن الكريم ألف معجزة فى معجزة . لأن القرآن قدر أقصر سورة فيه آلاف من المرات . وسر هذا العجز هو نفسه سر عجز البشر عن خلق شىء مما حولهم فى الفطرة ، فالقرآن والفطرة كلاهما من عند فاطر الفطرة بل هو دين الفطرة وكتابها . وقد جهد الناس قديما وحديثا فى الوقوف على سر إعجاز القرآن فلم يبلغوا من ذلك إلا قدر ما يغرف غارف من بحر وإن ظن أنه قد بلغ ، وليس إعجاز القرآن الناس هو كل دلالة القرآن على أنه من عند الله .

ليت من يقوم بالقرآن وللقرآن يحفظه ويفحصه ، ويجلو برهانه للناس من جديد . ليت المسلمين لم يشغلوا عن القرآن بكلام البشر ، ولم يحاولوا أن يتأولوه حين يجدونه غير نازل على أهوائهم وعلى ما يظنونه المناسب للعصر الحديث . ليت من علماء الإسلام جماعات تلقوا صنوف العلم الطبيعى ، وتمكنوا من علوم القرآن ليجلوا للإنسانية القرآن على النمط العلمى الذى هو من نمط النظم القرآنى ، وفيه للإنسانية فى هذا العصر العلمى مقنع .

ليت المسلمين ينتهون إلى هذا فيتداركوا ما فاتهم ، ويعدوا للدعوة إلى الله وإلى القرآن عدتها ، فالإنسانية فى حاجة إلى دين الفطرة ، وما المسلمون بأقل حاجة من الإنسانية إلى تبصير بالإسلام .

الفصل الثالث

عظمة القرآن

١ — عظمته معجزاً

إن الناظر فى عظمة القرآن الكريم ليهولنه أمرها ، حتى لا يدرى كيف السبيل إلى تقديرها ، فالقرآن كتاب الله فاطر السموات والأرض الذى وسعهما كرسيه والذى (لا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم - البقرة ٢٥٥) فالثناء على القرآن ثناء على الله ، وأنى للمخلوق أن يبلغ من ذلك ما ينبغى للخالق ؟ ولقد رأيت أن الرسول لم يجد سبيلا للثناء على الله إلا أن يقول : « لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فليس أمام من يريد الثناء على كتاب الله وتقدير عظمته إلا أن يقتدى بالرسول فيلتمس السبيل إلى ذلك فيما أثنى الله به على القرآن فى القرآن .

وقد أثنى الله سبحانه على القرآن (بالعظيم) إذ يقول مناً على رسوله ، (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم — الحجر ٨٧) ، وأثنى سبحانه عليه (بالمجد) إذ يقول فى سورة البروج (بل هو قرآن مجيد — ٢١) ، وإذ يقسم سبحانه بالقرآن توكيدا لمجده وتعظيما له فى قوله فى مفتتح سورة (ق) (ق ، والقرآن المجيد) . وأثنى سبحانه عليه (بالإحكام) إذ يقول فى مفتتح سورة هود (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ، وتأمل سر سبق (أحكمت) على (فصلت) إشارة إلى أن التفصيل وقع فى دائرة الإحكام . وأثنى سبحانه على القرآن (بالحكمة) ، وأقسم به فى الوقت نفسه تعظيما له وتوكيدا لرسالة رسوله ، وذلك فى قوله تعالى فى مفتتح سورة يس : (يس ، والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم) .

وأثنى سبحانه عليه بأنه (الحق) فى مواطن عدة ، مثل قوله فى الإسراء : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل — ١٠٥) ، وفى آل عمران : (إن هذا لهو القصص الحق — ٦٢) . ونفى سبحانه عنه الريبة بتاتاً ، بعد أن أشار إلى علوه ، وإلى أنه الكتاب لا كتاب مثله ، إذ يقول فى مفتتح سورة البقرة (ذلك الكتاب لا ريب فيه) . وأثنى سبحانه على القرآن (بالعزة) ونزهه عن أن يقربه الباطل فى أى زمن ومن أى ناحية ، وذلك فى قوله تعالى من سورة فصلت : (وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد — ٤١ و ٤٢) ، وأكد سبحانه ذلك إذ وعد بحفظه أبد الدهر ، فلا يصيبه شيء مما أصاب الكتب قبله من التغيير والتبديل والتحريف فقال سبحانه فى سورة الحجر (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - ٩) .

وكان من عزته أن تحدى الله به المعاندين من العرب وغير العرب ، وجعله بذلك آية الرسالة ومعجزة الدهر ، وتدرج بهم سبحانه فى التحدى فتحداهم به كله فى قوله من سورة الطور (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين - ٣٣ و ٣٤) فلما عجزوا تحداهم ببعضه ، بعشر سور من مثله فى قوله فى سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين — ١٣) فلما عجزوا تحداهم بسورة واحدة على الإطلاق فى قوله فى يونس (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين — ٣٨) وهذا الإطلاق معناه التحدى بأقصر سورة ، وما هو فى قدرها من آيات القرآن ، وأقصر سورة هى سورة الكوثر ، آياتها ثلاث وكلماتها عشر ، فانظر كم فى القرآن من آية ، أو كم فيه من مثل كلمات سورة الكوثر ، لتعلم أى عزة وأى إعجاز أودع الله فى القرآن .

هذا التحدى كان كله فى مكة مركز العزة العربية والفصاحة والبيان ، لأن تلك الآيات كلها مكية . فلما نكلت عنه قريش أفصح العرب ، ونكل معها

غيرها من القبائل ، وانتقل مركز الدعوة بالهجرة من مكة إلى المدينة ، التى كانت أيضا مركز أهل الكتاب فى جزيرة العرب ، جدد الله التحدى فى أول سورة نزلت بالمدينة ، سورة البقرة ، واستحث المكذبين من العرب ومن أهل الكتاب ، ومن لف لفهم أبلغ استحثاث أن يقوموا لذلك التحدى إن استطاعوا وذلك بإنبائه إياهم أنهم لن يستطيعوا ، فأبلسوا ولم يتحركوا . وذلك إذ يقول سبحانه فى الربع الأول من سورة البقرة (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ـ ٢٣و٢٤) ، أى فآمنوا حتى لا تكونوا من وقود النار فى الآخرة. فلم يؤمنوا ومضوا فى عنادهم مؤثرين الحرب والقتال على مقابلة هذا التحدى ، فكان ذلك أبلغ إقرار منهم بالعجز ، وأوضح دليل على إعجاز القرآن ، ولو فى أقصر سورة منه ، ولا يزال ذلك التحدى قائماً إلى اليوم .

وليس معنى التحدى بسورة ، أو مادون السورة ، من القرآن ، ولو كان أقصر سورة ، غير معجز . كلا . . فتعدد نواحى الإعجاز فى القرآن يجعل كل آية معجزة، بل كثيراً ما يكون بعض الآية معجزا ، عند من يبصر ويعلم ، فمثلا فى قوله تعالى (الحمدلله رب العالمين) صنوف من الإعجاز تتجلى فيما فى (الحمد الله) من الاستغراق والاختصاص . وفيما فى (رب العالمين) من الإيجاز المعنوى ، ومن الإعجاز العلمى ، فى جمع (العالم) ، ولم يعرف ، إلا فى العلم الحديث ، أن هناك أكثر من عالم بل عوالم كثيرة ، وفى جمعه (العالم) جمع العاقل إشارة إلى أن العوالم فى السماء وفى الأرض تطيع الله ربها تمام الطاعة ، بالجرى عن اختيار على سنته التى فطرها سبحانه .

واقرأ إذا شئت قوله تعالى من سورة فصلت (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ـ ١١) وفى هذه الآية الكريمة وحدها صنوف من الإعجاز يكفى منها فيما نحن بصدده قوله

تعالى (وهى دخان) فلم يكن أحد قبل عصر العلم الحديث يعلم ، مستقلا عن القرآن ، أن السماء أتى عليها عهد ، قبل خلق نجومها وكواكبها وعوالمها المجرية ، كانت فيه على حالة أصدق وصف علمى لها أنها (دخان) .

فهاتان آيتان لهما أشباه كثيرة فى القرآن تدل على ناحية من الإعجاز ليست فى كتاب غيره ، وتكشف عن جانب من عظمة القرآن لا يعرفه كثير من الناس ، ثم تثبت أن ما دون أقصر سورة من القرآن هو فى الحقيقة معجز ، لكن الإعجاز فيه لا يدركه إلا الأقلون . ولما كان التحدى قد أريد به إلزام جميع الناس الحجة أن القرآن من عند الله أنزله على محمد رسوله ، وكان لا يتضح الإلزام ولا وجه الحجة للناس عامة بأقل من أقصر سورة من القرآن ، نزل التحدى بسورة إطلاقا من مثل القرآن .

تلك صنوف من ثناء الله سبحانه على القرآن فى القرآن ، وهناك غيرها صنوف يضيق المقام عن ذكرها ، وقد أفاض الله من عظمة القرآن على كل ما اتصل به اتصالا وثيقا : على الليلة التى أنزل فيها ، والشهر الذى أنزل فيه ، ثم على النبى الذى أنزل عليه ، والأمة التى آمنت به وعملت بما فيه .

فأما الليلة فقد وصفها الله خالقها بأنها خير من ألف شهر ، أى خير من عمر مؤمن معمر قضى عمره كله فى الصالحات . فإن الألف شهر لا تقل عن ثلاثة وثمانين عاما ، فما أعظم ليلة يتعبدها المؤمن فتكون له خيراً من تعبد ثلاثة وثمانين عاما ليلا ونهاراً ، فلو أنه بلغ رشده بعد العشر بسنتين ، وعاش حتى بلغ الخامسة والتسعين ، وأنفق عمره كله مجاهداً عابداً لقام بذلك كله قيام تلك الليلة المباركة ، ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن .

وأما الشهر (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ـ البقرة ٨٥) فقد كرمه الله وعظمه إذ فرض صومه على الناس ، وجعل صومه ركنا من أركان الإسلام . وشدد العقوبة على مفطر ولو يوم منه بغير عذر ، فلا يكفر ذلك عنه

إلا صوم شهرين متتابعين من غيره ، أو إطعام ستين مسكينا عند العجز عن قضاء الصوم . وما خص الله رمضان بمثل هذا التشريف والتكريم إلا لنزول القرآن فيه هدى للناس ، فكأنما أراد سبحانه من عباده أن يكون مظهر شكرهم على نعمته العظمى عليهم بالقرآن ، الذى هداهم به ، أن يصوموا الشهر الذى أنزله الله فيه على محمد عبده ورسوله ليكون لهم بشيراً ونذيرا ، وإلى صراط الله هاديا ، وفى ظلمات الحياة سراجا منيرا ، وإذا شئت فاقرأ بقية الآية (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون - ١٨٥) وتأمل موقع الفاء من قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فى موضعها من الآية ، لعلك ترى معى أن الأمر بصوم شهر رمضان كان نتيجة لنزول القرآن فيه (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

وأما النبى الذى أكرم الله البشرية برسالته التى كان بدؤها فى شهر رمضان ، فلا سبيل هنا إلا إلى الإشارة إلى أن عظمته صلى الله عليه وسلم ، التى جعلته خير البشر وخاتم النبيين ، إنما ترجع فى صميمها إلى أن خلقه كان كما وصفته زوجته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إذ قالت كما فى صحيح البخارى « كان خلقه القرآن » ، وإلى أنه صلى الله عليه وسلم قام بأعباء الرسالة كاملة كما فى القرآن ، وهى الأعباء التى تعجز البشرية ويعجز الفرد إلا عن القيام ببعضها ، قل البعض أو كثر . أما الكل فلا سبيل إليه لفرد مهما اجتهد ، ولا سبيل للبشرية إلى سعادتها واستقامة أمورها إلا بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم قدر الإمكان .

وأما الأمة التى نزل فيها القرآن أول ما نزل فعملت ما استطاعت مقتدية بالرسول الذى أكرمها الله به وبالقرآن ، فقد أثنى الله عليها بما لم يثن به على أمة قبلها إذ يقول (كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف

وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ـ آل عمران ١١٠) واستخلفها سبحانه فى الأرض فظهرت على غيرها من الأمم ، وأورثها ملك الفرس والروم فى نحو ربع قرن من الزمان ، ولم يكن ذلك بفضل قوة عدة ، أو كثرة عدد ، ولكن بطاعة الله وإقامة أحكام دينه فى الأرض ، تعمل هى بها قبل أن تفرضها على الناس .

فالقرآن كان الروح الذى أحيا الله به تلك الأمة الأسلامية الأولى ، مصداقا لما وصفه الله به إذ يقول (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا — الشورى ٥٢) ولا يحيا آخر هذه الأمة الإسلامية إلا بما حيي به أولها ، فليعمل المسلمون اليوم بالقرآن إن أرادوا الحياة والعزة بين الناس (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً — فاطر ١٠) و (ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ـ المنافقون ٨) .

٢ — عظمته محفوظا

تناولنا فى غير حصر صنوفا من نواحى عظمة القرآن ، تتبين من صنوف من ثناء الله على كتابه العزيز ، تناولناها على وجه الإجمال ، إلا عظمة القرآن من ناحية إعجازه فقد تناولناها بشىء من التفصيل ، كمثل من أمثلة العزة التى وصف الله بها كتابه فى تلك الآية الكريمة العجيبة التى ليس لها فى غير القرآن ضريب ، آية فصلت (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد — ٤١و٤٢) .

هذه العزة الدائمة ، والامتناع الأشم على الباطل أيا كان ، على مر الأزمان هى نتيجة حتمية اقتضتها الحكمة الآلهية لكون القرآن آخر الكتب المنزل على آخر رسول ، بالدين العام الكامل . فلو مس القرآن الكريم العظيم داعى ريبة يدعو إلى الشك فى شىء منه ، من نحو تحريف أو شبهة ، لبطلت الحجة به على الناس واحتيج إلى رسول جديد ، كما احتيج فى أزمان ما قبل القرآن ، إلى

دين جديد كلما أصاب الدين الذى قبله تبديل أو تحريف . فلتحقيق تلك الحكمة الإلهية الكبرى تكفل الله سبحانه بحفظ القرآن من كل مايضعف حجة الله به على الناس ، فقال سبحانه من سورة الحجر : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون — ٩) .

وهذه آية أخرى كريمة عزيزة ، منة الله ونعمته على البشرية فيها تجل عن الشكر ، وتعظم فلا يحدها حصر ولا تقدير ، فشطرها الأول تقرير من الله ذى الجلال لطبيعة القرآن والحكمة فيه ، أنه ذكر ، بل أنه الذكر لا ذكر غيره ، أو لا ذكر يضارعه أو يدانيه أو يغنى عنه . وشطرها الثانى تقرير وتوكيد من الله القادر المقتدر أنه هو الحافظ للقرآن من عوامل التغيير والتحريف على مر الأزمان وتغير الظروف . فالشطر الثانى من الآية محقق للحكمة المقررة فى شطرها الأول . وكل من الشطرين معجز فى نظامه وفى معناه . فالآية مثال آخر يبين فى وضوح كيف أن التحدى بأقصر سورة من القرآن لايعنى أن الإعجاز لايتوافر إلا فى الآية منه ، بل يتوافر فيماهو بعض آية ، وأنى للبشرية كلها مفترقة ، أو مجتمعة ، أن تأتى بـ (إنانحن نزلنا الذكر) فى فخامة أسلوبها وقلة ألفاظها وجلال معناها ؟ وأنى للبشرية كلها أن تجرؤ على مثل الوعد الجليل الوثيق الماثل فى (وإنا له لحافظون) ؟

ليكرر النظر كل من له بالكلام بصر فى هذه الآية العجيبة . وتتابع ضمائر الجلالة فيها ، وما فى (نزلنا الذكر) من معان كل منها فضل وحده ، ونعمة على الناس تامة ، وما فى (إنا له لحافظون) من الجلال ، ثم فى مقاطع الآية ، ومواقع السكنات والحركات فيها ، وتجانس الكلمات ، وتناسق الحروف وبديع تتابع (النون) فى أوائل (نحن نزلنا) ، وتتابع (اللام) فى (له لحافظون) وهو نوع من البديع لم يلحظه علماء البديع فى العربية فيما أعلم ، وإن كان هو عند علماء البديع فى الإفرنجية من المرموق الموموق ، هذا إلى الجناس التام فى (لام) له و (لام) لحافظون ، إذ المعنى مختلف والحرف واحد .

إن الإعجاز ودلائله فى كل من شق الآية الكريمة فضلا عن مجموعهما لأمر يروع الناظر ويأخذ بلب المتأمل البصير .

لكن المعجزة الكبرى فى الآية ـ بصرف النظر عن أسلوبها وجلالها المنقطع النظير ـ هو تحقق ذلك الحفظ الموعود به فيها تحققا فعليا ، رغم القرون الكثيرة التى مرت بأحداثها وتقلباتها منذ نزول القرآن . فالقرآن اليوم ، رغم ما يوسوس به أعداؤه من المستشرقين أمثال اليهوديين (جولد زيهر وجيوم) والنصرانيين (مرجليوث وموئر) ، هو القرآن الذى توفى عنه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بجملته وتفصيله ، بترتيب سوره وترتيب الآيات فى كل سورة والكلمات فى كل آية ، لم يتقدم ولم يتأخر لفظ ولم يسقط أو يتحرف حرف . وهذا وحده آية ومعجزة تاريخية جديرة بالتأمل العميق ، وإن ضاق المقام إلا عن الاستعراض الإجمالى دون تفصيل .

إن ملاك الحفظ أولا هو تكفل الحق سبحانه بتحفيظ نبيه القرآن عند الوحى ، لا يند عنه صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء الوحى من القرآن حرف . وآيات (القيامة) هى الشاهد على شدة حرص النبى على القرآن وتلهفه على حفظه أثناء الوحى ، وعلى تكفل الله لنبيه بالحفظ تكفلا أدخل الطمأنينة على نفسه الكريمة ، وأذهب عنه خوف النسيان أو الخطأ فى القرآن بعد انقضاء وحيه ، تلك الآيات الكريمة هى (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ١٦ — ١٩) .

وملاك حفظه لقرآنه ثانيا ترتيب آيه بعد كل وحى ، فقد نزل القرآن نجوما للحكمة التى بينها الله سبحانه فى آية الفرقان (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ـ ٣٢) ، فكان جبريل عليه السلام إذا نزل ببعض القرآن أمر النبى أن ضع ذا فى سورة كذا بعد آية كذا كما هو ثابت فى الحديث الصحيح .

ويأتى بعد ذلك من ملاك الحفظ الوقاية من النسيان ، يتكفل الله بها لنبيه فى

الآيتين ٦ و ٧ من سورة الأعلى (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى) والاستثناء لا ينبغى أن يشكل على أحد ما دام متوقفا على مشيئة الله منزل القرآن سبحانه .

ثم يأتى تيسير الله حفظ القرآن على الناس ، حتى على الصبيان ، فصار حفاظه فى كل عصر لا يكادون يحصون كثرة . وهذا وحده آية من الله تشهد للقرآن بأنه من عنده ، خصه بها سبحانه من بين الكتب منزلة أو غير منزلة . وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا نزلت سورة أو نزل نجم من القرآن علمها أو علمه من شاء من الصحابة . وكان أحدهم لا يتجاوز السورة إلى غيرها حتى يتعلم أيضا ما فيها من الأحكام ، يشهد بذلك الحديث الصحيح أيضا ، أى أنهم رضى الله عنهم كانوا يتلقون السورة منه ، ويتلقون معها تفسيرها وفقهها . فما كان أحكم وأبصر ذلك التعليم . وكل الصحابة حفظ بعض القرآن عنه صلى الله عليه وسلم وكثير منهم حفظه كله أخذا عن الرسول الكريم ، كما يشهد صحيح الحديث .

ومن عظيم صنع الله فى حفظ كتابه وشريعته للناس مدارسة النبى جبريل القرآن كل رمضان ، وعرضه كله مرة ، حتى إذا كان رمضان الذى توفى صلى الله عليه وسلم بعده بأشهر تم العرض مرتين ، فكان ذلك إيذانا بقرب اختتام الوحى والرسالة . وكان آخر القرآن نزولا ما نزل فى حجة الوداع بعد آخر رمضان بشهرين ، فنزلت آية كمال الدين (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ـ المائدة ٣) فى عرفة ، فى الموقف . ونزلت آية (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ـ البقرة ٢٨١) فى منى ، كما نزلت فى منى كذلك سورة النصر . التى بكى عندها الصديق رضى الله عنه حين شعر معها بقرب أجل الرسول ما دام الدين قد كمل ، والنصر قد جاء وقد أمر صلوات الله عليه فى ختام السورة بالتسبيح والاستغفار : كأنما كان التسبيح إعظاما لما تم من أمر الله فى إكمال دينه ، ونصر رسوله فيما دون ربع قرن وهو زمن لا يمكن أن يتسع فى العادة لمثل ذلك الأمر العظيم رغم كثرة العدو وقلة النصير من الناس . أما الاستغفار فكأنما كان أمرا للنبى بالاستعداد للقاء الله .

ثم جاءت الأحداث بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، أحداث الردة وأحداث الفتوح ، فتوالت آيات الله فى حفظ كتابه . مات كثير من الحفاظ فى حروب الردة ، فألهم الله عمر أن يطلب إلى الصديق ، خليفة الرسول ، أن يجمع القرآن خوفا من ذهاب شيء منه بذهاب حفاظه ، وشرح الله صدر الخليفة فندب لذلك من الحفاظ بالمدينة نفرا على رأسهم زيد بن ثابت ، وشرح الله صدر زيد بعد أن توقف فى الأول ، كما توقف الصديق ، تحرجا من القيام بعمل لم يعمله الرسول، وأعان الله زيدا فقام خير قيام بذلك العمل العظيم ، على صورة فذة هى فى ذاتها آية من آيات الله .

وذلك أنه لم يجلس ومن معه ، وكلهم يحفظ القرآن كله عن الرسول، ليكتبوا القرآن من حفظهم ، ولو فعلوا لكان وثيقا من الأمر ، فكلهم حفيظ مؤتمن مأمون . ولكن زيدا نادى فى الناس : « من كان عنده قرآن كتبه عن النبى فليأت به » فجاءه الناس كل بما كتب عن الرسول نفسه ، وكان زيد مع ذلك لا يقبل شيئا إلا بشاهدين أنهما أخذاه عن الرسول مباشرة ، وزيد بوثيق حفظه يعرف ما جاءه وما لم يجئه ، فيعود فيطلب ما افتقد ، حتى جمع القرآن كله مما كتب الصحابة كل عن النبى ، ومعه غيره كتب عن النبى مثل ما كتب إلا آيتين فى آخر سورة (براءة)[1] فإنه لم يجدهما مكتوبتين إلا عند أبى خزيمة الأنصارى، الذى حكم النبى فى قضية بشهادته وحده ، كما فى صحيح البخارى ، أى أنه صلى الله عليه وسلم عد شهادته بشهادتين من بين الصحابة . ولست أشك فى أن ذلك كان بوحى من الله الذى علم أن سيكون لأبى خزيمة ذلك الموقف فى حفظ آيتين من آيات كتاب الله .

ثم جاءت الفتوح وانتشر الصحابة فى الأرض ، كل يقرأ بالحرف الذى

---

(١) هما « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ، فإنه تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ١٣٨ و ١٣٩ » .

تلقاه عن الرسول من بين الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ووقع بينهم من الخلاف ما وقع لعمرو بن حزام رضى الله عنهما فى سورة الفرقان فى زمن النبى ، حتى تحا كما إلى الرسول فأقر صلى الله عليه وسلم كلا على قراءته ، كما روى الحادثة مفصلة الإمام البخارى فى صحيحه ، فسخر الله حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فوقف من الخليفة الثالث ، فى أمر جمع الناس على قراءة واحدة ، موقف عمر من الخليفة الأول فى أمر جمع القرآن المكتوب . وندب عثمان رضى الله عنه لذلك لجنة أخرى من الحفاظ من أعضائها زيد بن ثابت وأبى بن كعب ، فاستنسخوا على لغة قريش ستة مصاحف من النسخة التى جمعها زيد فى خلافة أبى بكر الصديق ، فاحتفظ عثمان رضى الله عنه بواحدة ووزع الخمس البواقى فى الأمصار آمرا ولاته فيها أن يجمعوا عليها الناس ، دون ما عداها مما بأيدى الناس من القرآن بغير لغة قريش .

وتوالت عناية الله بكتابه ، فقد كانت الكتابة لذلك العهد لا تنقط ، ويقرأ الناس القرآن صحيحا بالتلقى من حفاظه عن النبى ، وممن تلقى عنهم ممن شهدوا له بالحفظ . ولكن علم الله ما يتهدد كتابه من الأخطار بعد موت حفاظه الأولين وتغير العصور ، فسخر لكتابه من ابتدع تمييز الحروف فيه بالنقط فى زمن عبد الملك بن مروان .

وكانت الكتابة غير مشكولة ، وكان الناس يقرأون القرآن صحيحا بالتلقى المؤيد بالسليقة العربية . وعلم الله ما قد يصيب كتابه من التحريف إذا ظلت المصاحف غير مشكولة ، وانتشرت العجمة فى الناس بانتشار الإسلام إثر الفتوح ، فسخر أولا من ابتدع الشكل بالنقط الملونة ، ثم جاء الخليل بن أحمد فاخترع الشكل بصورته الحالية التى لا تلتبس على أحد ، رغم ما يزعمه الآن بعض من تثقف بثقافة الغرب من مقلدة المستشرقين ، وسخر ثانيا من قعد قواعد النحو من عصر أبى الأسود إلى عصر سيبويه حتى يستطيع المسلم

بالتأديب أن يقرأ صحيحا . ولو بدون شكل ، فكان هذا آية أخرى من آيات حفظ الله لكتابه .

والقراءة الصحيحة وحدها لا تكفى إذا لم تحتفظ اللغة العربية ، لغة القرآن بمعانى كلماتها الأصلية زمن نزوله . واللغات إذا تركت للتطور الزمنى اختلفت ، وتراكم الاختلاف ، حتى لا يفهم آخر أبنائها آثار آبائه الأولين ، وعندئذ يستغلق كتاب الله على المؤمنين ، إن لم يفهموا منه بفعل التطور ما أراد الله فيضلوا عن دينه . فكان من صنع الله لكتابه وحفظه إياه أن سخر لجمع العربية من مظانها بالبادية وغير البادية ، قبل أن يغشاها مد التطور ، رجالا من علماء العربية من العرب وممن نشأ فى الإسلام من العجم . فكانت كتب اللغة والأدب والقواميس الأصلية الصحيحة التى حفظت على لغة القرآن كيانها إلى اليوم ، وصيرتها بين اللغات آية من آيات الله .

والقرآن لا يكفى فى فهم مراد الله من آيات الأحكام فيه فهم كلماته وعباراته على العربية العريقة التى كانت فى عهد الرسول ، إذ لابد لفهم كل ما أراد الله فيه مما شرع للناس به من الإحاطة بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم قولا وعملا ، فسخر الله للسنة رجالا أعدهم الله لحفظها جميعا وتمييز صحيحها من مدخولها ، وتمييز أقدار رواتها ، على نسق صحيح علمى سبق المسلمون العالم إليه بهدى وتأييد من الله ، متبعين فى ذلك المبادىء التى سنها الله فى القرآن لمن يريد الوصول إلى الحق ، فى أى مجالات النظر والبحث شاء .

حتى لقد بلغ من تدقيقهم وتشددهم واحتياطهم لدين الله وسنة رسوله أن أخرج الإمام البخارى مثلا فى صحيحه نحو ستة أو سبعة آلاف من بين ستمائة أو سبعمائة ألف حديث ، وإن جاء اليوم بعض من لا يحسنون نظرا ولا بحثا ، ولا لهم إلمام بالحديث وعلومه يشككون الناس ويدعونهم إلى ترك أحاديث الرسول ، غرورا منهم بأنفسهم وتقليدا لأعداء الدين من المستشرقين .

وهـذه بعض آيات الله التي صنعها سبحانه لعباده لتحقيق ما وعد بحفظ كتابه في قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . أليست هي عند من له عقل وقلب دليلا لا ينقض على عظمة القرآن وعزته وجلاله ، وعلى أنه حقا من عند الله فاطر الفطرة ورب الناس ؟

٣ — عظمته مهيمنا على الكتب قبله

من عجيب جوانب عظمة القرآن ما وصفه الله به أنه مصدق لما سبقه من الكتب المنزلة ومهيمن عليها ، وأن ذلك كله بالحق لا بالجور ولا بالتزيد أو التجني أو ما سوى ذلك من الحكم الباطل والتحكم . فقد ذكر الله سبحانه في سورة المائدة (آية ٤٤ وما بعدها إلى ٤٨) التوراة والإنجيل ووصفهما بأنهما فيهما هدى ونور . وخص الإنجيل بأنه مصدق للتوراة ، ولم يصفه بالهيمنة عليها ، فلما ذكر سبحانه القرآن بعد ذلك جمع له بين تصديق ماقبله من الكتب المنزلة وبين الهيمنة عليها . وذلك في قوله (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه - ٤٨) .

وفي هذه الآية الكريمة وردت كلمة (الكتاب) في موضعين بمعنيين ، فهي في الموضع الأول بمعنى القرآن بدليل ضمير الخطاب ، والمخاطب هو خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبر عن القرآن هذا بالكتاب للتنويه والتنبيه على أنه هو الكتاب لا يساويه ولا يدانيه من الكتب المنزلة غيره ، فهو الكتاب بين الكتب أنزله الله بالحق على محمد ورسوله ، فكل ما جاء به القرآن الكريم حق ، قصصا كان أو غير قصص ، لا كما يوسوس بعض المحدثين في قصص القرآن من أنه حق في دلالته لا في حوادثه ، ويوشك من ينكر الحوادث أن ينكر الدلالة أيضا .

ولقد لجأ إلى هذا المسلك كثير من غير المسلمين بالنسبة لنصوص في كتابهم المقدس لما أثبت العلم والبحث بطلان تلك النصوص ، فجاء بعض المحدثين ممن نشأوا في الإسلام يقلدونهم بالنسبة للقصص القرآني من غير داع ، فليس في

يقينيات العلم ولا يقينيات التاريخ ما يخالف نصا من نصوص القرآن فى قصص أو فى غير قصص ، وليس ذلك بممكن ولا جائز الحدوث ، فالله سبحانه يقول (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق - المائدة ٤٨) ويقول (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل - الإسراء ١٠٥) ، ويقول سبحانه (إن هذا لهو القصص الحق - آل عمران ٦٢) ، ويقول عن أهل الكهف (نحن نقص عليك نبأهم بالحق - الكهف ١٣) ويقول بعد ما قص فى سورة هود (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق - ١٢٠) ، ويقول سبحانه بعد قصص سورة يوسف (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى — يوسف ١١١) ،

ثم ذلك النص الكريم العظيم الذى يقطع الطريق على كل مبطل يبغى آيات الله عوجا ، ألا وهو قوله تعالى وصفا للقرآن (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد - فصلت ٤١ و ٤٢) فمن يؤمن بهذه الآية وما سبقها لا يمكن أن يحيك فى صدره شبهة أو شك فى أن القرآن ، قصصا أو غير قصص ، هو الحق الصرف الذى لا يعلق به ولا يدنو منه الباطل من أية ناحية ، أو على أى احتمال ، ومصيبة من مصائب الدهر أن تحتاج هذه البديهية فى بلد مثل مصر إلى توكيد أو توضيح .

هذا فيما يتعلق بمعنى كلمة (الكتاب) ودلالتها فى الموضع الأول الذى وردت فيه من الآية (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) . أما كلمة (الكتاب) فى موضعها الثانى من الآية فمعناها عام يشمل الكتب المنزلة قبل القرآن ، (فالألف واللام) فيها للجنس ، وفى أختها قبلها للعهد ، فاللفظ واحد ولكن له فى كل من الموضعين معنى خاص : ففى الآية الكريمة إذن مثال فريد للجناس التام . غفل عنه علماء البديع الذين زعموا أن ليس للجناس التام فى القرآن إلا مثالان ، ذكرهما من حكى ذلك الزعم صاحب الوسيلة الأدبية ، ومن قبله صاحب « الإتقان » ، وهذا يدل

عرضا على أن القرآن حتى من الناحيـة البيانية الصرفة لم يحط به الدارسون إلى الآن .

وتصديق القرآن لمـا بين يديه ، أى لمـا سبقه من الـكتب المنزلة . معناه أن ما وافقه من قضايا فهو حق وما خالفه فهو باطل . وليس من المخالفـة المقصودة أن تذكر الـكتب شيئا لم يذكره القرآن ، ولـكن أن تذكر فى الأمر الواحد شيئا يذكر القرآن خلافه . ففى حالة الاختلاف هذه يكون القرآن هو الأعلى . ويكون قوله الفصل ، ومن أجل هـذا وصفه الله بالهيمنة على الـكتب المنزلة قبله . فالقرآن شاهد للـكتب قبله بالصدق عند الاتفاق ، وشاهد عليها ومصحح لها عند الاختلاف فى أمر من الأمور . أما ماجاء فى القرآن مما لم يجىء فيها فهو حق انفرد به القرآن لأن الله أنزله بالحق ، أما ماجاء فيها مما لم يرد فيه فهو من المعلق الذى أمرنا النبى أن نقف منه موقف المتحفظ . لا نصدق ولا نـكذب حتى يتبين لنا وجه الحكم فيه .

وهذا الموقف هو النتيجة الحتمية لما أخبر به الله عن أهل الـكتاب أنهم يحرفون الـكلم عن مواضعه ، وأنهم غيروا وبدلوا فى الـكتاب (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالـكتاب لتحسبوه من الـكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الـكذب وهم يعلمون ـ آل عمران ٧٨) و (فويل للذين يكتبون الـكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ـ البقرة ٧٩) ، وفى القرآن الـكريم آيات غير هاتين تشهد عليهم بالتحريف والتبديل . وهذه الشهادة جانب من جوانب الهيمنة التى وصف الله بها القرآن .

أما الجوانب الأخرى فتشمل إظهار ما أخفوا . أى إظهار ما تقضى الحكمة الإلهية بإظهاره (يا أهل الـكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لـكم كثيرا مما كنتم تخفون من الـكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكـتاب مبين

ـ المائدة ١٥) كما تشمل ناحية التشريع وناحية تصحيح ما حرفوا وبدلوا مما تقضى الحكمة الإلهية بتصحيحه .

هذا هو الإجمال فى بحث هذا الموضوع ، أما بحثه تفصيلا فأمر صعب يحتاج إلى الإحاطة بالتوراة والإنجيل والمقارنة بينهما وبين ما جاء به القرآن ليتبين مكان الهيمنة ومكان الصديق ، ثم لا يفى بذلك ، إن وفى ، إلا كتاب يؤلف لا مقال ، لكن بالرغم من ذلك . وبالرغم من أن الإنجيل الأصيل ضائع بين الأربعة الأناجيل المعتمدة وبين غيرها ، كإنجيل برنابا مثلا ، وبالرغم من أن اسم التوراة يطلق الآن على الأسفار الخمسة الأولى فقط من (العهد القديم) ، وليس يعلم إلا الله مم كانت تتألف التوراة . وبالرغم من ذلك كله فإن من الممكن توضيح ما أجملنا سابقاً بضرب بعض الأمثال .

والمثل الأول الواضح يتعلق بالأصل الأول فى الدين ، أصل وحدانية الله سبحانه ، فاليهودية تدين بالتوحيد وتتشدد فيه ، والنصرانية تحاول أن تجمع بين المتضادين ، أى بين التوحيد والتثليث فلا تستطيع ويغلب عليها التثليث ، ويجىء القرآن بالتوحيد الصرف ، ويكذب النصارى فيما ذهبوا إليه من التثليث وغيره مما ينافى توحيد الإله الحق سبحانه . مؤكدا لهم أن عيسى رسول الله وعبده لا ابنه . وأنه عليه السلام كان موحدا يدعو إلى توحيد الله كما دعا جميع الأنبياء والرسل قبله ، وأن الإنجيل الحق لم يدع إلا إلى التوحيد ، فما فيه مما ينافى التوحيد ليس منه ولكن أدخل عليه ، فالقرآن فى آيات التوحيد مصدق للتوراة وفى الآيات التى نفى فيها مازعم النصارى للمسيح وأمه عليهما السلام — مما ينافى التوحيد — مهيمن على الإنجيل.

وأمثلة هيمنة القرآن على التوراة كثيرة خصوصا فى سفر التكوين ، ففيه أمور كثيرة يصححها القرآن . فيه مثلا أن حواء هى التى حملت آدم على الأكل

من الشجرة . وأن الذى وسوس لحواء وحملها على الأكل من الشجرة قبل آدم هى الحية ، من غير ذكر للشيطان كأنه لا يد له فى الإغواء ، والذين يريدون الجمع بين هذا وبين ما فى القرآن يقولون إن الشيطان لبس الحية ، وبلسانها أغوى آدم وحواء ، ولكن القرآن الكريم لا يذكر الحية ولا يحمل حواء وزر البدء بالأكل من الشجرة ، خلافا لما أمر الله ، بل مفهوم آية سورة (طه) أن آدم هو الذى اقتنع أولا بالأكل طلبا للخلود بإغواء الشيطان وتزيينه ، وأن زوجه — ولم تذكر باسمها قط فى القرآن — تابعته فى ذلك فهى على أسوأ تقدير أكلت معه إن لم تكن أكلت بعده .

هذا هو المتبادر من قوله تعالى (فوسوس إليه الشيطان . قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها - ١٢٠) والشيطان وسوس إلى زوج آدم أيضا ، حين وسوس إلى آدم بدليل آيات سورة الأعراف (فوسوس لهما الشيطان ، ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ٢٠—٢٢) . لكن ليس فى القرآن الكريم آية تخص زوج آدم بالوسوسة ، أو تنسب الوسوسة والإغراء بالشجرة إلى غير الشيطان . فالقرآن فى هذا المثل مهيمن على التوراة ومصحح لما جاء فى سفر التكوين .

وقد ذكر سفر التكوين من أنباء نوح وإبراهيم وأنباء لوط وإسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته ، وفى كل ذلك ما يهيمن عليه القرآن بالتصحيح تارة وبالتنويه أخرى . ففى قصة نوح مثلا أن الطوفان جاء وعمر نوح ستمائة سنة ، وأنه مات وعمره تسعمائة وخمسون ، وأنه ركب الفلك هو وأبنائه وزوجه وأزواج أبنائه من غير ذكر لركوب أحد ممن آمن معه ، والقرآن لم يتعرض لعمر نوح لا قبل الطوفان ولا بعده ، واقتصر من ذلك على ما فيه عبرة ، فذكر

أنه لبث فى قومه يدعوهم إلى الله تسعمائة وخمسين سنة إعذارا من الله إليهم قبل أن يأخذهم الطوفان ، كما هو المتبادر من آية سورة العنكبوت (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سـنة إلا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين — ١٤ و ١٥) .

وأصحاب السفينة كان من بينهم القليل الذين آمنوا معه ، ولم يكن منهم بعض أهله كما هو صريح آية سورة هود (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا القليل ـ ٤٠) والمستثنى من أهله كان أحد أبنائه وزوجه ، أما الابن فبصريح النص فى بقية القصة من سورة هود (ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ـ ٤٢ و ٤٣) وأما الزوج فبدليل آية سورة التحريم (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ـ ١٠) .

فالقرآن الكريم يصدق بعضا ويصحح بعضا من قصة نوح فى سفر التكوين وهو السفر الأول من الأسفار الخمسة التى يطلق عليها الآن اسم التوراة . وقل مثل ذلك فى قصة ابراهيم وقصة لوط عليهما السلام ، فهو يصدق القصتين مثلا فى أن إبراهيم لم يرزق إسحاق إلا على يأس وكبر ، وأنه وزوجه أخذهما العجب ، حين جاءتهما البشرى بذلك ، وأنه امتحن فى أحد بنيه إذ أمر بذبحه قربانا ، حتى إذا خضع للأمر وهم بالذبح تداركه الله بلطفه وفدى ابنه .

وأنه جادل ربه فى قوم لوط حين علم أن سينزل بهم العذاب ، وفى أن لوطا جاءه الضيوف ، وأنه جادل قومه عن ضيوفه حتى وقاه الضيوف شر قومه وأمروه بالنجاة بنفسه وأهله قبل الصبح ، إذ سينزل بأهل المدينة العذاب ، إلا أن سفر التكوين يجعل من أهله زوجه ، والقرآن يستثنيها صراحة فى قصة لوط فى سورتى الحجر وهود ، وضمنا فى آية التحريم .

ويصحح القرآن إلى ذلك من القصتين ، فينكر مثلا أن يكون الضيوف الملائكة أكلوا الطعام عند إبراهيم أو عند لوط كما تقول التوراة ، كما ينكر ما تقرره من أن إبراهيم حين اصطفاه الله كان شيخاً . ويقول إنه كان فتى كما فى سورة الأنبياء (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم - ٦٠) والضمير فى يذكرهم يعود إلى آلهة قومه التى جعلها جذاذا ، والتى لم تذكر التوراة من قصتها وقصة قومه شيئا .

وهذا من أعجب ما سكتت عنه توراة اليوم ، ونبه إليه القرآن مهيمنا على التوراة ، بل إن التوراة ، فيما قصت من أنباء الأنبياء والمرسلين فى سفر التكوين ، لم تذكر شيئا من أمر رسالتهم وما لقوا فى سبيل الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده فليس فى قصة نوح فى التوراة شىء مما قص القرآن من نهيه قومه عن عبادة غير الله ، وما كان بينه وبينهم من حجاج ، واقتصرت قصة التوراة على التمهيد لحديث الطوفان بأن الله غضب على أهل الأرض غضبا شديدا لفجورهم وعصيانهم ، بل تزعم أن الله جل وعلا حمله فجور أهل الأرض إذ ذاك على الندم على خلق الإنسان . تعالى الله عن افتراء المفترين علوا كبيرا .

أما نوح فكان مستقيما على صراط الله فأطلعه الله على ما يريد من إهلاك أهل الأرض ، وأمره ان يبنى الفلك بأبعادها فى الطول والعرض والارتفاع لينجو بها وأهله من الطوفان ، إلى غير ذلك من تفاصيل ليست من الدين فى شىء ، فشتان بين قصة نوح كما جاءت فى التوراة ، وبين قصة نوح الرسول فى أى موطن من مواطنها المتعددة فى القرآن .

كذلك لم تذكر التوراة من أمر رسالة ابراهيم إلى قومه شيئا ، واقتصرت على الثناء عليه ثناء مجملا باستقامته على أمر الله واصطفاء الله إياه ، ووعده أن سيكثر ذريته حتى تملأ الأرض ويملكها ما كان إبراهيم رآه منها ، وقل مثل ذلك فيما ذكرت التوراة من أمر لوط أو إسحق أو يعقوب أو يوسف ، ليس فيما ذكرت من ذلك شىء من الدعوة إلى الله ، والاحتجاج لوحدانيته سبحانه.

المملوءة بهما قصصهم فى القرآن ، حتى إن الإنسان ليعجب كل العجب من أولئك المستشرقين الذين يصل بهم الجهل أو التبجح إلى حد الزعم للناس أن البحث دلهم على أن محمدا أخذ قصص القرآن من قصص التوراة ، وهم مع ذلك يعتقدون أن قصص التوراة من عند الله كأنهم لا يدركون ، مع الفرق الهائل بين القصصين فى المعنى والروح ، بله الأسلوب ، أنهم بفريتهم تلك يهدمون التوراة ، بل يهدمون اليهودية والنصرانية جميعا من غير أن ينالوا من القرآن ، إذ الواقع البادى من المقارنة بين القصصين يكذبهم فيما يفترون .

هذه أمثلة ضربناها عسى أن تكفى فى توضيح جانب آخر من جوانب عظمة القرآن وهو الجانب المتمثل فى ما وصف الله به كتابه العزيز من أنه مصدق لمـا أنزل الله من كتاب قبله ومهيمن عليه .

الفصل الرابع

الإعجاز البيانى والبلاغى للقرآن

١ — (أم يقولون افتراه)

هذه الكلمات الثلاث وردت فى الكتاب العزيز أول مرة (حسب ترتيب نزول الوحى بآيات التحدى) فى آية التحدى بعشر سور مثل القرآن فى سورة هود (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ـ هود ١٣) . وكلمة (مفتريات) التى لم ترد فى القرآن الكريم إلا هذه المرة ، فيها إعجاز فى الرد على قولهم (افتراه) ، إذ فيها إقامة الحجة عليهم من نفس قولهم ـ قالوا افترى محمد القرآن ، فأمر الله رسوله أن يجيب : إن كنت افتريت السور الكثيرة التى بين أيديكم من القرآن فافتروا أنتم عشرا مثلها ، فالممكن لى وحدى على زعمكم ممكن لجمعكم من باب أولى ، بل واستعينوا بمن شئتم من أهل الفصاحة والمعرفة لتعلموا ، إذا عجزتم رغم ذلك عن عشر سور ، أنى من باب أولى أعجز عن إحدى وخمسين (وهو عدد السور التى كان الوحى قد نزل بها قبل نزوله بآية التحدى هذه فى سورة هود) .

هذا التحدى لم يوجه إليهم إلا بعد أن كانت دعواهم على النبى قد أقيم الدليل على بطلانها مرتين : مرة فى نفس آية التحدى بالأمر الجليل (قل) ، خطابا له صلى الله عليه وسلم ، ومرة فى الآية قبلها بضمائر الخطاب المتكررة (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك . إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل ـ هود ١٢) إذ من غير المعقول أن يفترى القرآن من هو مخاطب به على ذلك الوجه من الخطاب فى الآيتين الكريمتين : وفيما بين ذلك وقع الاستفهام الإنكارى

(أم يقولون افتراه) موقعه ، فكان فى الواقع أقوى مبطلات دعوى الافتراء ، إذ من الواضح فى موقعه فى الآيتين أنه صادر من الحق سبحانه الذى هو على كل شىء وكيل ، والذى يوجه إلى رسوله الكريم تلك الصور الجليلة من صور الخطاب .

ثم وردت الكلمات الكريمة الثلاث فى ثانية آيات التحدى ، حسب ترتيب نزولها ، آية سورة يونس ، التى وقع فيها التحدى بسورة مثل القرآن . والترقى واضح فى التحدى بسورة بعد التحدى بعشر . فهل يا ترى هناك أيضا ترق يقابله ويناسبه فى الآيتين قبل آيتى التحدى ؟ هذا ما سنحاول بعون الله أن نتبينه فى هذا البحث ، ثم نستعرض بمشيئة الله الآيات الأخرى التى بدئت بنفس الكلمات الثلاث . وقد مر الكلام باختصار على ثنائية التحدى - آية التحدى والتى قبلها - فى سورة هود . فلم يبق إلا النظر فى نظيرتها من يونس .

ثنائية التحدى فى سورة يونس

الآيتان الكريمتان فى سورة يونس هما (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين - ٣٧ و٣٨) . وواضح أن موضوع الآية الأولى هو القرآن الكريم ، الذى سيبلغ التحدى به ذروته فى الآية الثانية ، فانظر كيف مهدت الآية الأولى لبلوغ التحدى تلك الذروة : قرر صدرها امتناع القرآن على الافتراء ، إذ جعله غير قابل لأن يفترى (وما كان هذا القرآن أن يفترى) ، وصار وسطها مستودع هذه الاستحالة (ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب) . فهذه صفات ذاتية ميز الله بها القرآن لتحول دون إمكان افترائه ، ثم أكدت خاتمة الآية الكريمة كل ذلك أبلغ توكيد - أولا بنفى الريب عنه نفيا باتا (لا ريب فيه) وثانيا بتقرير أنه (من رب العالمين) رب عوالم الغيب وعوالم الشهادة فى الأرض وفى السماء - حتى لا يستعظم ناظر

ما أودع الله فى القرآن من خواص ميزته من بين الكتب المنزلة ، وحالت بجملتها وتفصيلها دون إمكان افترائه على الله .

فالناظر فى قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب) تحديدا لماهية القرآن وذاتيته — إذا صح هذا التعبير — ينبغى أن يلتمس وجه المعنى الذى يجعل افتراء شىء من القرآن أمرا مستحيلا على من يحاوله ، كاستحالة خلق نبات أو حيوان من عناصره الأولية فى المعمل، وهى الاستحالة التى أقام الله منها برهاناً على أنه الإله وحده ، وضرب الله لها مثلا فى قوله مخاطبا المشركين به (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له — الحج ٧٣) ، كذلك يستحيل على الشاكين فى أن القرآن من عند الله أن يخلقوا من عناصر اللغة ومعانى الوجود شيئا يمكن أن يكون له مميزات آية طويلة أو سورة قصيرة من القرآن .

فلننظر الآن فيما قاله أئمة التفسير فى قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب) ، هل هو كاف فى تعليل ما صدرت به الآية من أن القرآن مستحيل افتراؤه ؟ وإذا لم يكن ما قالوه كافياً فهل من الممكن من غير خروج عن اللغة وقواعدها ، أن نتوسع فى معنى التصديق والتفصيل بحيث يصبح كلاهما حائلا دون إمكان افتراء شىء من القرآن ؟ .

إن المفسرين ، جزاهم الله خيراً عن كتابه ، فهموا من (القرآن) فى الآية الكريمة جملته ، فلو لم تدل الكلمة فى لغة القرآن إلا على هذا لما انتفى إمكان افتراء القرآن فى الآية إلا عنه جملة . لكن كلمة (القرآن) تطلق أيضاً على بعض القرآن ، كما فى قوله تعالى (إن قرآن الفجر كان مشهودا) وقوله (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ـ الإسراء ٧٨ و٤٥) . وواضح أنه صلى الله عليه وسلم يكن يقرأ كل القرآن مرة واحدة، لا فى الفجر عند صلاة الصبح ، ولا على الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإنما كان

يقرأ بعض القرآن . وإذن فكلمة (القرآن) فى صدر الآية يجوز بل يجب أن تحمل على بعض القرآن ، فيكون إمكان الافتراء منتفيا عن أقصر سورة وما فى حكمها من القرآن ، وعن جملته من باب أولى .

وفى تفسير قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه) لم ينص على موقع (لكن) إلا أبو حيان لأنه كان أيضاً إماما فى النحو ، قال « وقعت (لكن) هنا أحسن موقع ، إذ كانت بين نقيضين وهما الكذب والتصديق المتضمن الصدق ، كأن الذى استلفته هو وقوعها بين (أن يفترى من دون الله) والمصدر (تصديق) ، والأولى أن يقال بين النفى والإثبات — بين جملة (وما كان هذا القرآن أن يفترى) وجملة (كان) التقديرية الناصبة للمصدر خبرا لها ، إذ التقدير (ولكن — كان — تصديق الذى بين يديه) كما فى المغنى (مغنى اللبيب لابن هشام جزء أول ص ٢٠٩ الطبعة الأولى) عن ابن مالك فى قوله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ـ الأحزاب ٤٠) .

وهذا فى الموضعين من بديع أمثلة الإيجاز بالحذف مع تمام الوضوح فى المعنى بل إنه يزيد فى المعنى ، إذ يسمح بأكثر من تقدير . فمن الممكن مثلا ، فى الآية الكريمة التى نحن بصددها أن يكون التقدير « ولكن — جعلناه أو أنزلناه أو أنزله الله — تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب » . ولكل تقدير منها وجاهته ودلالته . فكأنما كان الحذف للاقتصاد فى اللفظ والازدياد فى المعنى ، فيكون قد جمع بين الإيجازين ، إيجاز الحذف وإيجاز القصر ، وهو باب من البلاغة القرآنية لطيف عجيب .

والفخر الرازى وحده هو الذى فسر (تصديق الذى بين يديه) على أنه يشمل المستقبل أيضا من ناحية تحقق أخبار القرآن الغيبية المستقبلة ، والعلامة الألوسى لم يرض هذا وإن لم ينسبه إلى الرازى ، وقال إنه ليس بشىء ، مع أن من الممكن توجيهه بتفسير للألوسى نفسه ، بل زاد على ما قاله أئمة التفسير ،

فقد جعلوا التصديق من القرآن للكتب المنزلة قبله ، كالتوراة والإنجيل ، أى جعلوا الإضافة بين المصدر والاسم الموصول من باب الإضافة إلى المفعول (أو المجهول) .

وزاد الألوسى على ذلك وجه الإضافة إلى الفاعل ، فيكون التصديق أيضا من الكتب المنزلة للقرآن ، فهو كغيره من أئمة التفسير إلا الرازى . قد قصر معنى (الذى بين يديه) فى الآية على الكتب المنزلة ، وأخذ فى تفسيره (التصديق) بالوجهين جميعا ، أى على الجمع لا على التخيير ، وهو أول من رأيته فعل ذلك من المفسرين عند تعدد الأوجه (إن لم يمنع من أحد الوجهين مانع) ، كما ينبغى لكتاب الله .

فجعل تصديق الكتب للقرآن « بأن ما فيه من العقائد الحقة مطابق لما فيها ، وهى مسلمة عند أهل الكتاب » وجعل تصديق القرآن للكتب « أنه دال على نزولها من عند الله ، ويشتمل على قصص الأولين كما ذكر فيها » . وقوله بالمطابقة فى العقائد يحتاج إلى تعديل ، ولا أدرى كيف فاته أن القرآن ينكر على أهل الكتاب ويصحح لهم عقيدتهم فى عيسى عليه السلام مثلا ، وكذلك قوله فى القصص ، ومثله قول الرازى فى نفس المناسبة إن القرآن أتى « مشتملا على أقاصيص الأولين ، موافقا لما فى التوراة والإنجيل » كأن الإمامين قالا قولهما من غير رجوع إلى ما بأيدى القوم من التوراة والإنجيل،وإلا لتبينا أن القرآن يصحح من القصص عندهم كما يصحح من العقائد .

وأعجب من قول الإمامين الرازى والألوسى بأطلاق المطابقة قول أبى حيان فى (البحر) عند الكلام على نفس العبارة من الآية الكريمة « ولا يقوم البرهان على قريش إلا بتصديق القرآن ما فى التوراة والإنجيل » . وما كانت قريش تعلم ما التوراة ولا ما الإنجيل ، وما كان الله ليجعل برهانه متوقفا على ما يقول أهل الكتاب صدقوا أم كذبوا .

ومن أخبارهم : أن سألتهم قريش ، أديننا خير أم دين محمد ، فقالوا دينكم ـ أى وثنيتكم ـ خير ، فلعنهم الله من أجل ذلك فى كتابه إذ أنزل على رسوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ـ النساء ٥١و٥٢) .

والإمام ابن كثير هو الذى راعى جانب رقابة القرآن وهيمنته على الكتب المنزلة قبله ، إذ يقول فى تفسير قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب المتقدمة ، ومهيمنا عليها ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتعديل ، ومستنده فى هذا ، وإن لم يذكره ، هو لا شك قوله تعالى (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ـ المائدة ٤٨)، والتعبير عن التصديق باسم الفاعل هنا ، بدلا من المصدر هناك ، يدل على أن إضافة المصدر إلى الاسم الموصول هو من إضافته إلى مفعوله لتكون اليد العليا فى التصديق هى للقرآن على الكتب المنزلة ، وبخاصة على التوراة والإنجيل اللذين نزلا مباشرة بين يديه .

ولا يبق محل فيما يتعلق بالقرآن والكتب المنزلة ، للوجه الآخر الذى ذكره الألوسى ، وهو وجه الإضافة إلى الفاعل ، لأن مواطن الاتفاق بين القرآن وبين الكتب المنزلة هى هى لا تتغير ، ولكن يتغير اعتبارها . فعند أهل القرآن هى تصديق منه للكتب ومنها التوراة والإنجيل . وهى عند أهل الكتاب تصديق من التوراة والإنجيل للقرآن ، أو هكذا ينبغى أن تكون إن صدقوا الله ، وصدقوا أنفسهم . وعندئذ يلزمهم أن يؤمنوا بالقرآن وهو إلزام ألزموه مرات فى القرآن العظيم فى آيات بعضها أشد من بعض ، وفيها القرآن هو المصدق دائما .

فمن أشدها قوله تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا ـ النساء ٤٧) . ومن بينها آية تذكر الوجهين جميعا هى قوله (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ـ البقرة ٨٩) فانظر كيف جعلت الآية القرآن هو المصدق على اسم الفاعل ، ولو جعلت غيره من الكتب مصدقا له لتساوى الطرفان . والقرآن هو الأعلى لا مساوى له فى الكتب المنزلة قبله . ثم انظر كيف تجنبت الآية وصف غيره بالتصديق فى ست كلمات حققت المقصود من التصديق لو عبرت به . وأظهرت الحجة المنطوية فيه (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)، فكان ذلك فى الآية من وجوه إعجازها .

إن الوجه ـ وجه إضافة المصدر إلى فاعله الذى نبه إليه العلامة الألوسى وثبت أن فائدته اعتبارية فيما يتعلق بالقرآن والكتب المنزلة قبله ـ هو الوجه الذى لا غنى عنه فى تحقيق ما نبه إليه الإمام الرازى من أن (الذى بين يديه) فى الآية تفيد ما بعد القرآن ، ممتدا فى المستقبل . كما تفيد ما قبل القرآن ممتدا فى الماضى . والامتداد فى الماضى يذهب إلى ما لا يعلم مداه إلا الله ، من بدء خلق السماوات والأرض قبل بدء خلق الإنسان . والامتداد فى المستقبل لا يقف عند الغيبيات المتعلقة بأمور الدنيا التى أشار إليها الرازى ، ولكن يذهب إلى ما وراء ذلك مما يتعلق بأشراط الساعة ، وأمور القيامة ثم بالحياة الآخرة .

فهذه كلها اختص القرآن بتوكيدها وتفصيلها حتى صارت ميزة له عظمى على التوراة والإنجيل ، وما أنزل قبلها من كتاب . وستتحقق لا شك فى المستقبل على الوجه الذى ذكر الله فى القرآن عندما يشاء سبحانه ، فيكون ذلك تصديقا لكتابه العزيز . فانظر ماذا جمع الله لعباده فى تلك الكلمات الجليلة الخمس (ولكن تصديق الذى بين يديه) .

والذى سمح لهذه المعانى كلها أن تفهم فى العربية من هذه الكلمات القليلة هو أنها من عند الله ، ثم أمران على الأخص : التعبير بالمصدر (تصديق) بدلا من اسم الفاعل (مصدق) ومجىء (الذى بين يديه) مطلقا غير مقيد ، ليشمل المستقبل كما يشمل الماضى . ولو كان التعبير (ولكن مصدق الذى بين يديه) لما جاز فيه وجه الإضافة إلى الفاعل ، ليشمل المستقبل ، وبخاصة أخبار الآخرة والقيامة وأشراطها ، ولذا جاء التعبير باسم الفاعل لما اقتضى المقام تخصيص (ما بين يديه) كما فى قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) .

والمقام كان مقام ذكر الكتب الثلاثة وما خصها الله به من فضل ، وما أوجب على أهلها من حكم بها فى الآيات من ٤٤ إلى ٤٨ من سورة المائدة ، إن فيها تدرجا عجيبا ، وبخاصة من ناحية تصديق بعضها بعضا ، فليس بين أوصاف التوراة فى الآية ٤٤ (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أنها مصدقة لشىء من الكتب قبلها ، فهى خاصة باليهود مقصورة أحكامها عليهم ، كما توضحه الآية ٤٥ (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس [1]) . لكن الإنجيل وصف بأنه مصدق للتوراة فى الآية ٤٦ (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة) فقصر تصديقه على التوراة لم يتعدها إلى كتاب قبلها .

فلما وصف القرآن فى صدر الآية ٤٨ (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) جمع الله له بين التصديق والهيمنة على التوراة والإنجيل وما سبقهما من كتاب ، لأن الألف واللام (ال) فى

---

(١) سريان حكم هذه الآية فى الإسلام راجع إلى ذكرها فى القرآن وحكم النبى بها . وهذا نوع من تصديق القرآن للتوراة .

قوله (من الكتاب) للجنس ، كما هي للعهد في قوله (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق). وكون أداة التعريف للعهد تارة وللجنس أخرى من أسرار العربية العجيبة التي أعدها الله في سابق علمه لتكون لغة كتابه العزيز المعجز من جميع الوجوه ، ومنها هذا الإيجاز الجامع الذي نحاول بسط ماجمع فلا نستطيع إلا بقدرمقدور.

٢ — (أم يقولون افتراه)

هذه الكلمات الكريمة نزلت في صدر خمس آيات من كتاب الله ، منها آيتا التحدي في سورتي هود ويونس . وقد تأملنا آية التحدي بعشر سور ، والآية التي قبلها ، وسميناهما ثنائية التحدي في سورة هود ، لأن أولاهما تمهد لثانيتهما، وأخذنا نتأمل ثنائية التحدي بسورة في سورة يونس متسائلين : هل هناك ترق في آيتي التمهيد يناظر ويناسب الترقي في آيتي التحدي ؟ والتمسنا الجواب في الآية الأولى من الثنائية وهي قوله تعالى (وماكان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين — ٣٧) ، فإذا بصدرها يقرر أن افتراء القرآن كله أو بعضه أمر جعله الله مستحيلا لصفات ذاتية ميز الله بها كتابه العزيز ، وأودع سرها وسط الآية بدلالة حرف الاستدراك ، وجعل آخرها توكيداً لذلك كله ما عليه من مزيد .

ثم التمسنا الصفات الجامعة المانعة المودعة في قوله تعالى (ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب) مستعرضين أقوال مشاهير المفسرين ، فلم يتسع المجال إلا لتأمل المعاني المودعة في الوصف الجامع المانع (ولكن تصديق الذي بين يديه) . ومن هـــذا الإيجاز الجامع الرائع قوله تعالى (وتفصيل الكتاب) . والمفسرون على أن معناه تفصيل أحكام الشرع في الإسلام ، كأن قوله (ولكن تصديق الذي بين يديه) أغنى عندهم عن أن يكون (الكتاب) في الوصف الكريم شاملا أيضاً ما عدا القرآن من الكتب المنزلة ، وبخاصة التوراة والإنجيل المنسوب إليهما أهل الكتاب المخاطبون في كثير من آيات

القرآن العظيم الحكيم . لكن تصديق القرآن للذى بين يديه من الكتاب يدل أول ما يدل على جانب الإقرار والموافقة .

ويبقى جانب التصحيح والهيمنة وهو لا يقل أهمية عن جانب التصديق ، وإلا أوهم إطلاق التصديق ألا تصحيح ولا هيمنة هناك ، مع أن الهيمنة منصوص عليها فى الآية (٤٨) من سورة المائدة المدنية التى يقول الله فى الآية (١٣) منها عن بنى إسرائيل خاصة (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه) ، ويخاطب فى الآية (١٥) أهل الكتاب عامة (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) ، فكان لابد فى آية يونس المكية من استتمام صفة القرآن الذاتية التى تحول دون إمكان افترائه بأن يذكر أيضاً أنه تفصيل الكتاب .

وكلمة (الكتاب) فى الآية الكريمة لها شقان : أداة التعريف للعهد أو للجنس ، ولفظ (كتاب) يكون اسماً وهو الشائع ، أو مصدراً كما فى (كتاب الله عليكم) فى الآية (٢٤) من النساء ، وهو المعنى الذى اختاره المفسرون ، يتقدمهم الزمخشرى ، لينطبق على القرآن من حيث هو تشريع ، وأغفلوا المعانى التى يدل عليها اللفظ من حيث هو اسم معرف بالأداة للجنس . فيشمل التوراة والإنجيل وتفصيلاتهما . أو معرف بالأداة للعهد فيدل أيضاً على تفصيل التوراة والإنجيل المعهودين لأهل الكتاب المخاطبين بالآية الكريمة ككل الناس .

ومن تفصيل التصديق آيات سورة المائدة المذكورة بأرقامها وأوائلها فى الجزء - ١ - من هذا الفصل — ومن تفصيل التصحيح والهيمنة الآيات الكثيرة التى تزجر أهل الكتاب عن عقيدتهم فى عيسى وأمه عليهما السلام ، والآيات الكثيرة التى تشرح من قصص الأنبياء ما أجمل الكتابان كما هما فى أيدى الناس . وتصحح مما فصلا من القصص أموراً فاتت المفسرين الذين قالوا بالتطابق بين قصص التوراة والإنجيل وقصص القرآن . فقصة يوسف

مثلا فى سفر التكوين يصححها القرآن فى عدة مواضع ، منها أن يوسف أخبر إخوته برؤياه ، ومنها أن أباه هو الذى أرسله إلى إخوته ، وهم فى المرعى ، ومنها أنه انسلت من قميصه بيد امرأة مولاه فلم يقد لا من قبل ولا من دبر ، وقده من دبر هو الذى برأ يوسف عند مولاه .

فالتصديق والتفصيل اللذان وصف بهما القرآن فى الآية الكريمة على ذلك الوجه البليغ العجيب — وجه وصفه بالمصدر فى الحالين لا بمشتق منه — هما وصفان متتامان يوضح أحدهما من معنى الآخر ما لعله يفوت الناظر ، ويحولان معا ، وقد أضيفا إلى ما أضيفا إليه فى الآية الكريمة ، دون إمكان أن يفترى من دون الله شىء من القرآن .

لكن من بين معانى لفظ (الكتاب) ، كما ورد فى مواطنه المتعددة فى القرآن الكريم ، معنى آخر يميز القرآن عن جميع الكتب المنزلة التى بين أيدينا ، فهو إذن أساسى فى تمام إظهار ذاتية القرآن التى تجعل افتراء شىء منه مستحيلا على العباد . ذلك هو الكتاب بمعنى ما عرف فى لغة الشرع باللوح المحفوظ ، الذى كتب الله فيه كل ما كان وكل ما سيكون .

وقد ورد المعنى على التعريف فى مثل قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب — الأعراف ٣٧) وقوله عز وجل (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم — الزخرف ٤) . والضمير فى (إنه) راجع إلى القرآن المذكور فى الآيتين قبلها من سورة الزخرف . وورد اللفظ على التنكير فى مثل قوله (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين — هود ٦)، وأيضاً آية ١١ من سورة فاطر (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) .

والآيات القرآنية المتعلقة بالكتاب بهذا المعنى كثيرة جدا ، بل هى أكثر من آيات الأحكام فى التشريع ، التى قصر المفسرون عليها معنى (الكتاب)

فى الآية الكريمة إلا الأستاذ صاحب تفسير (المنار) — رحمه الله — فقد أشار إلى (الكتاب) بمعنى كتاب الفطرة حين ضمن تفسيره قوله تعالى (وتفصيل الكتاب) « شئون الاجتماع وسنن الله فى خلقـــه » . والواقع أن القرآن الكريم محيط بالفطرة فى الكون إحاطته بالدين من حيث الأحكام فكما ترك الحق سبحانه تفصيل كثير من الأحكام للرسول صلى الله عليه وسلم تحت إشراف الوحى ، ونص على ذلك فى مثل قوله (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم — النحل ٤٤) وقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا — الحشر ٧) ، كذلك ترك سبحانه تفصيل ما أجمل ، وشرح ما فصل فى كتابه من آياته فى الفطرة لعلماء الفطرة ، ونص على ذلك فى مثل قوله (ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختـــلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، بكسر اللام — الروم ٢٢) .

فالتفصيل بهذا المعنى من أعظم سمات القرآن التى تميزه عن سائر الكتب وينبغى إذن أن تكون داخلة فى معنى قوله (وتفصيل الكتاب) تلخيصا للشطر الثانى من شمائل القرآن التى تجعل افتراء شىء منه غير جائز ولا ممكن ، فشمائل القرآن وسماته المأخوذة من قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب) على تعدد المعانى مجتمعة لا على التخيير هى :

(١) أنه يصدق الأديان السماوية التى سبقت ، يقر كتبها كما أنزلت ، ويوجب الإيمان بها وبرسلها ، وليس فى الأديان غير الإسلام ، ولا فى كتبها غير القرآن ، ما له سمة العموم والشمول هذه ، فكلها كانت خاصة بمن نزلت فيهم . والقرآن بهذه السمة هو الدين العام وحده .

(٢) أنه وحده . بين الكتب المنزلة المعروفة . الذى عنى بشرح رسالات الرسل قبل موسى وعيسى عليهما السلام . وهذا من أنباء الغيب فيه المتعلقة بماضى الإنسان .

(٣) أنه الوحيد بين الكتب المنزلة الذى عنى بشرح الحياة الأخرى وأحوال القيامة وأشراط الساعة . وهذا من أنباء الغيب فيه المتعلقة بالمستقبل اللانهائى فى الدار الآخرة . ولا بد أن يتحقق ذلك تصديقا للقرآن كما تحقق كثير من أنبائه الغيبية المتعلقة بالحياة الدنيا .

[هذه السمات الثلاث دل عليها قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه)].

(٤) أنه يقر كثيرا من تفاصيل التوراة والإنجيل ، ويصحح كثيرا مما حرف منهما أو بدل . ويظهر كثيرا مما كتم وأخفى .

(٥) أنه الوحيد بين الكتب المنزلة الذى عنى بالفطرة التى فطر الله عليها الناس فبينها ، وبين أن الإسلام جاء موافقا ومطابقا لها فى أحكامه وتشريعه (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ـ الروم ٣٠) .

(٦) أنه الوحيد بين الكتب المنزلة الذى عنى بالفطرة التى فطر الله عليها الكون ، وحث على دراستها ، وذكر من آيات الله فيها وسننه ما أقام منه الدليل اليقينى بعد الدليل على وجوده سبحانه ووحدانيته وصفاته التى لا نهاية لجلالها وكمالها ، ثم على البعث بالأجساد .

[وهذه السمات الثلاث الأخيرة دل عليها قوله تعالى (وتفصيل الكتاب) على تعدد معنى (الكتاب) فى القرآن الكريم] .

فهذه إذن سمات القرآن الكريم الذاتية وخصائصه بقدر ما وفقنا الله إليه ، لخصها الله لعباده فى سبع كلمات ، فهل فى الإيجاز البلاغى أبلغ فى الإعجاز من هذا ؟ وكل من هذه السمات والصفات ليس فى كتب الأديان ولا فى فلسفات الإنسان ما يضارعه أو يمكن أن يرقى إليه ، فكيف بمجموعها ؟ وليس شىء من القرآن بخارج عن تلك السمات الست الأساسية . إن لم يكن هناك غيرها

لم نحط به من حيث المعنى . . فكيف إذا أضيف إليه النظم المعجز الذى شغل النظار إلى اليوم فلم يدركوا مداه ، على كثرة ما كتبوا فيه ، فهل لا يكفى هذا لبيان كيف أن القرآن كله وبعضه لا يمكن قط أن يفترى على الله ؟

إن العقل المدرك يقف أمام هذا الجلال والكمال القرآنى مبهورا ، فى حاجة إلى تثبيت يجعله لا يستكثر شيئا من ذلك على القرآن . فأكد الله ذلك له فى بقية الآية الكريمة مرتين أبلغ توكيد ، مرة بقوله (لا ريب فيه) ومرة بذلك الخاتم الإلهى العجيب الذى ختمت به الآية (من رب العالمين) . وفى كل من هذين مثل آخر من إعجاز القرآن فى جزء من آية . فقوله تعالى (لاريب فيه) نفى جنس الريب عن كل ما يمكن أن يرجع الضمير إليه فى الآية الكريمة كلها ، حسب قواعد العربية . فمن الممكن أن يرجع إلى القرآن الذى هو موضوع الآية ، وهذا هو المتبادر ، وهو أيضا يقرر وصفا ذاتيا للقرآن ليس كمثله فى الجلال وصف .

إنه كله حق لا يعلق به الباطل من قريب ولا من بعيد . وهى صفة أهملها النظار فى إعجاز القرآن فى القديم والحديث ، مع أن الله سبحانه قررها لكتابه فى آيات كثيرة مثل قوله (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ـ ١٠٥) فى أواخر سورة الإسراء وقوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين) فى أوائل سورة الزمر ، وقوله (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه) فى أوائل آل عمران ، ثم قوله عز وجل (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ـــ فصلت ٤١ و ٤٢) . وكان من شأن هذا التوكيد من الله عز وجل لهذه الصفة العليا فى القرآن ألا يغفلها النظار فى إعجازه ، بل يجعلوها إلى جانب إعجاز النظم أكبر وجوه الإعجاز على الإطلاق .

ومن الممكن أن يرجع الضمير إلى أقرب مذكور وهو (تفصيل الكتاب) ، ومنه إلى ما عطف عليه التفصيل ، أى إلى المصدر فى (ولكن تصديق الذى

بين يديه) . فيكون المعنى لا ريب فيه فى التفصيل ولا ريب فى التصديق . وهذا أحد معنيين فهمهما الزمخشرى على التخيير . وما يفهم على التخيير فى القرآن الكريم من مثل الزمخشرى فى العربية فحقه الجمع ، لأن الله سبحانه لو كان يريد معنى واحدا لأنزل العبارة تفيد ذلك المعنى وحده . ثم من الممكن أن يكون الضمير ضمير شأن فيرجع إلى كل ما سبق ذكره فى الآية الكريمة من استحالة افتراء القرآن على العباد . كله أو جزئه . لأن الله جعله (تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب) فمراجع الضمير هذه إذن منفى عنها الريب كلها .

ثم قوله تعالى (من رب العالمين) يزيل كل أثر من شك يمكن أن ينشأ عن استكثار تلك المعانى ، كلها أو بعضها ، على الآية أو بعض الآية . فالقرآن (من رب العالمين) جعله سبحانه (تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب) على وجه تفيده الكلمة ، والعبارة القرآنية ، فذلك كله فوق الريب لأنه من رب العالمين . وقد جمع (العالم) ليشمل عوالم البشرية فى قرون ما قبل القرآن وما أرسل فيها من رسول وما أنزل إليها من كتاب . فلا ريب قط فيما صدق القرآن وما صحح من أخبارها ، ولا فيما أخبر عن عوالم البشرية فى قرون ما بعد نزول القرآن إلى يوم القيامة ، وبعد يوم القيامة لأن ذلك كله جاء من رب العالمين .

وكذلك ما جاء فى القرآن عن الفطرة ، فطرة الانسان ومطابقة شرع الله لها ، وفطرة الكون وما فصل القرآن وما أجمل من سننها ، كل ذلك لا ريب فيه لأنه من رب عوالم الفطرة فى السماء وفى الأرض ، التى تطيعه سبحانه تمام الطاعة عن رغبة وفهم ، كما دل عليه جمع العوالم جمع المذكر السالم العاقل . وفى قوله تعالى (رب العالمين) إعجاز علمى وأدبى معا نمر به ونتلوه مرات فى اليوم أول كل صلاة .

والآن ، ما وقع قوله تعالى (أم يقولون افتراه) وقد جاء عقب كل هذا الذى انطوت عليه الآية الكريمة من حقيقة القرآن وخصائصه ؟ إنه ليس

أوضح من سخف من يزعم افتراء شيء من كتاب هذه سماته الذاتية متجلية فى جميع آياته . لذلك كان جواب هذا السؤال الإنكارى ، الذى يعجب من سخف هذا الزعم ، وجهل أهله بحقيقة القرآن ، أن أمر الله رسوله أن يتحداهم إلى المجىء بسورة مثل القرآن الذى لكل آية من آياته نصيب من تلك السمات يجعل افتراءها مستحيلا ، وإن كانت الاستحالة تتبين للناس فى أقل من أقصر سورة فى القرآن .

هذا هنا فى الآية الممهدة للتحدى بسورة ، فى سورة يونس . أما حين كانت الحجة فى رد الفرية قائمة على أن الرسول المكلف بالقرآن ، المأمور فيه بتبليغه للناس ، لا يجوز عقلا أن يكون هو افتراه ، فقد كان الجواب على نفس السؤال الإنكارى : أن افتروا أنتم عشر سور مثل القرآن ، إذ لم يكن أشير إلى القرآن فى الآية قبلها إلا بأنه وحى . ولم يكن ذكر من صفاته الذاتية شىء يحول دون إمكان افترائه .

فترى أن الترقى فى التحدى قد اقترن به ما يناسبه من الترقى فى التمهيد له ، حتى صار ما سبق آية التحدى فى سورة يونس من بيان لخصائص القرآن يقتضى ألا يكون التحدى إلا بسورة مثل القرآن ، على إطلاقها لتشمل أقصر سورة ، ولو زاد عن السورة مع تلك الخصائص وجلالها لكانت الزيادة إسرافا ولغوا لا يليق بجلال القرآن . ولا بحكمة الله الذى أنزله معجزاً للبشر مهما بلغوا من الأدب والعلم .

أما وقد بلغ التحدى ذروته هكذا فى العهد المكى ، فلم يبق هناك من داع لتكراره أو الذهاب وراء تلك الذروة فى الآيتين المكيتين اللتين نزلتا بعد آية يونس مصدرتين بنفس الكلمات الكريمة الثلاث (أم يقولون افتراه) .

من أجل ذلك كان الاكتفاء فى آية الأحقاف بتفويض الأمر إلى الله يحكم بين الرسول وبينهم (أم يقولون افتراه . قل إن افتريته فلا تملكون لى

من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيدا بينى وبينكم — ٨) وفى آية السجدة أخرى الآيات نزولا ، اكتفى بتقرير حقيقة القرآن وحقيقة الرسول والرسالة معا (أم يقولون افتراه ، بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون — ٣) بعد أن كان مهد ومكن لذلك فى الآية قبلها بقوله (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) فالحمد لله الذى أكرم البشرية ورحمها بأن خاطبها بالقرآن (تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين — النحل ٨٩) .

الفصل الخامس

دلالة ضمير الرسالة (أو الخطاب) فى القرآن

ليس للحق إلا مصدر واحد هو الله الحق سبحانه ، وليس لدى الإنسان اليوم من عند الله إلا هذا الكون وما فطر عليه من سنن ، وإلا هذا القرآن الكريم المجيد المحفوظ بحفظ الله ، فالكون خلقه الله بالحق (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق — الحجر ٨٥) والقرآن العزيز أنزله الله بالحق (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل — الإسراء ١٠٥) ، فلا ينبغى للإنسان أن يطلب الحق إلا فى هذين ، فإذا طلبه فى القرآن فعليه الاحتياط لصحة النظر احتياطاً ليس دون احتياط علماء الفطرة فى بحثهم عن أسرارها .

وقد آمن الغرب بأن الكون قد بنى على الحق الثابت الذى لا تغيير لسننه ولا تبديل ، وطلب تلك السنن وأحسن تطبيق ما عرف منها فبلغ ما بلغ من التقدم المادى الذى بهر الشرق اليوم ، لكن ساسة الغرب سخروا ثمرات العلوم الكونية لتحقيق مطامعهم من غير دين هاد ، فكادت نعمة الله عليهم فى العلم تنقلب بهم نقمة تهدد الغرب والعالم جميعا ، فالعالم كله يعيش اليوم فى خوف من أن ينفجر بالقوى التى يسرها العلم ويستعملها الساسة بغير هدى من دين الله .

ولو أن القرآن الكريم كان بأيدى علماء الغرب وحكامه ، ورأوا التطابق التام بين آياته وسنن الفطرة فى الكون وفى الناس لآمنوا به ، وإذن لحال بينهم وبين سوء استعمال ثمرات العلم ، فإن أكبر الظن أن العقول التى تحسن استنطاق الفطرة للكشف عن أسرارها ستحسن الاستمساك بدين الفطرة إذا تبين لها ، وإذن لحلت بركاته عليهم ، وعلى الناس ، ولساد الأمن بينهم لا الخوف الذى يسود اليوم .

والمسلمون يؤمنون بالقرآن ، ومع ذلك فقد حرموا بركاته أو كادوا ، لأنهم يؤمنون به ، قولا لا عملا — يقرأونه للتبرك ويتطلبون فى الاجتماعيات الحق فى سواه — فى الغرب وما عليه الغرب ، ذلك الذى بهرهم بعلومه الطبيعية فظنوا أنه فى اجتماعياته على حق كما هو فى طبيعياته .

إن أمر المسلمين اليوم عجب كله ، لقد تخلصوا أو تخلص أكثرهم من احتلال الغرب أراضيهم بجنوده لكنهم لم يتخلصوا من احتلال الغرب نفوسهم وقلوبهم وعقولهم بثقافاته وآدابه واجتماعياته . وهم فى آدابهم يقلدون آداب الغرب ، وفى تشريعاتهم يتبعون خطواته ، ولا يخطر لهم أن يزنوا آداب الغرب وتشريعاته واجتماعياته بميزان الحق الذى أنزل الله فى القرآن . فكأنهم يؤمنون بالقرآن فى العبادات ولا يؤمنون به — والعياذ بالله — فى الاجتماعيات ، وما أنزل الله القرآن إلا لإصلاح البشرية فى العبادات والاجتماعيات معاً ، بل ما أنزل الله القرآن إلا ليجعل حياة البشرية كلها عبادة ، حتى فى سعيها للرزق ، إذا أرادت بسعيها وجه الله .

فالمسلمون اليوم فى أشد الحاجة إلى تجديد إيمانهم بالقرآن تجديداً ينقل مثقفيهم من مجرد الإيمان تقليداً إلى الإيمان اليقينى الذى لا تنال منه الشبهات ، والذى يملأ منهم القلب ويملك عليهم النفس ، فلا يصدرون فى أعمالهم وآدابهم واجتماعياتهم إلا عن تعاليم الإسلام كما ساقها القرآن ، وبينها وطبقها النبى عليه الصلاة والسلام طاعة لله وقياما بأمره فى قوله (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون — النحل ٤٤) .

إن الشبهات تتكاثر على شباب المسلمين وافدة من الغرب فيما يؤلف وفيما يترجم ، بل وفيما يذاع . وفى دعاة الغرب فى الشرق من يدعو إلى اتباع الغرب جملة فى الطبيعيات والاجتماعيات جميعا . ولا يستثنون من اجتماعيات الغرب وتشريعاته ما هو مخالف للقرآن ، وخضوع الشرق طويلا لسلطان الغرب فى الماضى يسهل تصديقهم فيما يدعون إليه ، طبقا لقانون تقليد المغلوب

للغالب الذى كشف عنه ابن خلدون . فضلا عن أثر التقدم العلمى الغربى فى نفوس النشء فى الشرق ، فهم لا يكادون يصدقون أن الغرب مخطىء ، أو يمكن أن يخطىء ، فى اجتماعياته وهو قد بلغ هذا المبلغ المذهل فى طبيعياته .

وليس يدفع هذا الخطر المحدق بإيمان المثقفين من شباب الإسلام إلا أن يثبت لهم من جديد أن القرآن هو حقا كتاب الله ، ولا يمكن عقلا أن يكون من عند محمد ، كما يزعم لهم الغرب على لسان مستشرقيه أمثال (جلد تسيهر وردول ومرجليوث) . وإثبات أن القرآن هو حقا كتاب الله عن طريق الإعجاز البيانى والبلاغى لم يعد يكفى اليوم لاقناع المثقف المتشكك ، وليس ذاك فقط لأن مثقف اليوم لا يدرى من علم العربية وذوقها ما يدرك به هذا الإعجاز ، ولكن أيضاً لأن الشيطان أضل بالغرور بعض رجال الأدب فى القديم والحديث ، فقال مؤمنهم إن إعجاز القرآن هو بالصرفة [1] ، وقال ملحدهم بألا إعجاز .

ومن البلاء أن يستنزل الشيطان بعض كبار علماء الكلام فى القديم ، فيما نقل المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى (العقيدة النظامية) فقال بأن الإعجاز بالصرفه أقوى وأدل على نبوة الرسول من الإعجاز الذاتى البلاغى الذى اختلف الناس فيه وفى وجوهه ما هى . وفات ذلك الإمام القائل بهذا الرأى أن عليه بعد ذلك فى الدعوة إلى الله أن يثبت أن العرب المشركين ، وهم أهل اللغة وفصحاؤها ، لم يأت أحد منهم بما يقوم للقرآن فى أسلوبه اللغوى وبلاغته ، وهو ما لن يستطيع إثباته لغير السلم إذا دعاه للإسلام بعد أن ألقى ذلك الإمام سلاحه ، وسلم للخصم دعواه بأن القرآن فى ذاته غير معجز .

والإعجاز العلمى فى القرآن طريق حسن فى هذا العصر العلمى ، ولكن للأسف يوجد فى علماء المسلمين اليوم من يقول بعدم سلوك هذا الطريق خوفا

---

(١) أى أن الله صرفهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، وإن كانوا يستطيعونه .

على القرآن أن تعمم آياته على غير وجهها فيفسر القرآن بالرأى المنهى عنه فى التفسير ، أو بالنظريات العلمية التى هى عند أهلها لا تزال محل نظر وتمحيص .

وهذا الخوف منهم غيرة مشكورة ، ولكنها تتجاوز حقها حين تذهب إلى حد المنع من المطابقة السليمة الصحيحة بين بعض آى القرآن الكونية وبعض الحقائق اليقينية المتصلة بموضوع تلك الآيات مما أثبته العلم حديثا ، ولم يكن معروفا للبشرية فى عصر نزول القرآن ، إنما حق تلك الغيرة على القرآن أن يستوثق أهلها أولا من أن القضية العلمية موضوع المطابقة هى حقيقة ثابتة عند أهلها من العلماء ، وأن ينظروا ثانيا فى المطابقة نفسها هل جاءت على وجه صحيح فى اللغـــة ، وهل خلت من التكلف والتمحل المنهى عنه فى الدين ؟ وسنتناول الإعجاز العلمى بشىء من التفصيل فى الكتاب الرابع . وإنما نقتصر الآن على ذكر بعض أمثلة :

المثال الأول قوله تعالى (وأغطش ليلها — النازعات ٩) وهى آية من الآيات المتصلة أو المتعلقة بالسماء . إن المفسرين جميعا فسروا الليل بهذا الذى يعرفون فى الأرض ، مع أن الضمير فى (ليلها) راجع إلى السماء المذكورة فى قوله (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها) ، وجعلوا يلتمسون المبررات لصرف الضمير عن ظاهره ، حتى جاء العلم الحديث فاستنبط ، من كون الضوء فى ذاته لا يرى وإنما يظهر أثره منعكسا عن المرئيات (1) استنبط أن السماء ، إذا جاوزنا جو الأرض ، هى سوداء حالكة بالنهار والشمس طالعة ، إذ ليس فيها ما يعكس الضوء إلى عين راء لو علا جو الأرض .

ثم جاء رواد الفضاء فى السفينة الفضائية أبولو (١١) فشاهدوا السماء حالكة السواد فعلا ، وأرسلوا صورا التقطوها للقمر وهم يطوفون به ، وصوروا الأرض مرئية من القمر فإذا بالقمر والأرض منيران بأشعة الشمس المنعكسة

---

(١) ومنها الجسيمات الدقيقة العالقة بالجو من تراب ودخان وبخار الخ التى يظهر أثر الضوء فيها مشتتا كاضاءة عامة .

عنهما ولكن فى سواد حالك عم الصورة ، هو سواد السماء حول القمر وفوق جو الأرض ، فهل يجوز أن تحول الغيرة على القرآن دون إظهار الإعجاز العلمى لتلك الآية الكريمة بالمطابقة التامة بين ظاهر معنى الآية الحرفى وبين ما استنبطه العلم وأثبتته المشاهدة ؟

لكن ليست كل آيات القرآن الكونية بهذا الظهور فيما تدل عليه من الحقائق التى كشف عنها العلم فى عصره الحديث ، فقد تأتى الدلالة عن طريق إشارة واضحة كما فى قوله تعالى فى سورة فصلت : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن — ٣٧) بضمير الجمع المؤنث بدلا من خلقهما بضمير المثنى ، كما تقتضيه اللغة لو كان المعنى مقصورا على شمسنا هذه وقمرنا ، فأداة التعريف (أل) فى الآية الكريمة صادقة الدلالة بوجهيها: هى للعهد بدلالة (لا تسجدوا) ، وهى للجنس بقرينة ضمير الجمع . ومعروف الآن أن النجوم شموس وأن فى السماء أقمارا غير قمرنا ، فى المجموعة الشمسية على الأقل ، فالإعجاز فى الآية الكريمة مزدوج ، فهو علمى ولغوى معا ، فلن نجد فى كلام الناس تعبيرا عن معان جليلة كلها حق بمثل هذا الإيجاز .

ومثل آخر للإشارة الواضحة يتضاعف بها الإعجاز العلمى كلمة (يسبحون) فى (كل فلك يسبحون) من قوله تعالى فى سورة الأنبياء (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فلك يسبحون — ٣٣) . ففى ضمير الجمع من الدلالة ما فى ضمير الجمع فى (خلقهن) من آية سورة فصلت ، وفى الفعل (يسبح) من دلالة الحركة الذاتية ما يصحح نظرية فلاسفة اليونان فى أن حركة الشمس والقمر ليست ذاتية ، ولكن بواسطة فلك مادى كرى شفاف يحمل النير المثبت فيه ويتحرك من الشرق إلى الغرب .

والدلالة فى حركة القمر على ظاهرها ، لكن الإعجاز بالنسبة للشمس هو فى الدلالة على حركة ذاتية لها أثبتها العلم ، إذ أثبت لها انطلاقا فى الفضاء ودل على عظمه قوله تعالى (والشمس تجرى) فى آية سورة يس .

لكن القرآن الكريم ليس كله آيات كونية ، فدلالة إعجازها العلمى على أنها من عند الله — يجب أن تضم إلى دلالة تواتر كل آية من آياته على أنه هو نفس الكتاب الذى جاء به محمد بن عبد الله ، ليتكون من الدلالتين معا برهان كامل على أن القرآن كله من عند الله ، فما يثبت للبعض من هذا يثبت للكل حتما ، فما دام البعض قد ثبت أنه من عند الله فالكل من عند الله .

لكن هذه كلها براهين تحتاج إلى إعمال فكر ونظر ، والقرآن الكريم أنزله الله سبحانه هدى ورحمة ، وناط به السعادة الأبدية بالإيمان به ، والشقاء الأبدى بالكفر به ، فالرحمة الإلهية تقتضى أن يدل القرآن بنفسه على نفسه أنه من عند الله ، فى سهولة ويسر ، لكل من طلب الحق بالقدر المشترك بين الناس من العقل والإخلاص . فإعجاز القرآن الأدبى وإعجازه العلمى وصفاته الذاتية التى دل عليها قوله تعالى فى ثنائية التحدى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ـ يونس ٢٧) .

هذه كلها براهين ملزمة ، لكن لا يقدرها قدرها إلا الخواص الذين سلموا من دواعى العناد ، أما البشرية عامة التى أنزل القرآن لهدايتها إلى الله ، وكثرتها الكاثرة من غير العرب ، فلا بد لها من أن يكون فى القرآن الكريم خصائص ذاتية أخرى تقرب الخصائص الأولى للفهم من ناحية ، وتلزم من ناحية أخرى كل ذى عقل يطلب الحق أن يؤمن بالقرآن .

ولو أن أولئك المستشرقين ، الذين نظروا فى القرآن أو ترجموه ، كانوا مخلصين فى طلب الحق لما زعموا للناس أن القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يكن يخفى عليهم أن محمدا مخاطب فيه مأمور به . وخطابه عليه السلام فيه بجميع صور الخطاب هو أول خصائص القرآن الواضحة التى تنقض ذلك الزعم ، أو على الأقل توجب على زاعميه أن يوفقوا بينه وبين صور الخطاب الموجه إليه صلى الله عليه وسلم فى القرآن . لكن أصحاب ذلك الزعم

لم يفعلوا ولم يحاولوا وسكتوا عن تلك الظاهرة الأساسية أو الخاصة القرآنية التى من شأنها أن تلفتهم إلى بطلان زعمهم ، ذلك لو كانوا من أهل الإخلاص فى طلب الحق ، أو من أهل الطريقة العلمية فى البحث كما يزعمون للناس .

ولو كان خطاب الرسول مقصوراً على آية أو آيتين أو سورة أو سورتين لأمكن لزاعم أن يقول إن ما وراء ذلك فى القرآن هو من عند النبى ، لكن الخطاب على تنوع صوره وتعدد مقاصده منبث فى القرآن كله بضمائر الخطاب وأفعال الأمر والنهى والنداء ، ولم يناد عليه الصلاة والسلام فيه باسمه ولكن بالنبوة أو الرسالة . فإن نودى بغير (يا أيها النبى) و (يا أيها الرسول) كما فى (يا أيها المزمل) و (يا أيها المدثر) — وليس فى القرآن غيرهما — أتبع النداء بأمر يفيد النبوة أو الرسالة كما فى (قم الليل إلا قليلا) و (قم فأنذر) فضمير خطابه صلى الله عليه وسلم فى القرآن هو فى الواقع ضمير النبوة أو ضمير الرسالة ، وكذلك ينبغى أن يسمى .

وضمير الغائب يؤيد ضمير المخاطب فى دلالته ، فإذا ورد مراداً به النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو جاء على لسان الكفار ، كان معه ما يفيد النبوة أو الرسالة ، إما بالنص كما فى (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم - التوبة ٦١) و (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً — آل عمران ١٤٤)، وإما بالفحوى كما فى (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا — التوبة ٤٠)

وأكثر أفعال الأمر ورودا فى القرآن هو فعل (قل) — كلمة من حرفين لكن أثرها فى نفس القارىء وفى نقض زعم المستشرقين عجيب . ويكبر أثرها ويعظم حين تتكرر فى الآية الواحدة أو تتصدر فى آيات متتالية ، كما تكررت مثلا أربع مرات فى الآية (قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم ،

وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون — الأنعام ١٩) وخمس مرات فى الآية (قل من رب السموات والأرض ، قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار — الرعد ١٦) .

وكما تصدرت مثلا فى خمس آيات متتالية من سورة سبأ أولها الآية ٤٦ ، (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) وخامستها هى الآية ٥٠ (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب) . فاقرأ الآية التى تكررت فيها (قل) والآيات التى تصدرتها ، إقرأها كاملة ، وانظر أثرها فى نفسك وموقعها من الآية ومن الآيات ، وكيف أنها ضرورية للنظم واحتباكه ، فلو حذفت لانفرط النظم ولفقد الأسلوب إعجازه .

ثم تأمل أثرها فى درء الشبهة عن الآية التى تخللتها ، والآيات التى تصدرتها وبخاصة تلك التى يرجع ضمير المتكلم فيها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، كما فى آيات سورة سبأ المذكورة آنفا ، وكما فى المعوذتين (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) والكافرون (قل يا أيها الكافرون) ، فلولا تلك الكلمة ذات الحرفين فى تلك الآيات وهذه السور لجاز لملحد أو مستشرق أن يقول إنها من كلام النبى أدرجت فى القرآن ، لكنها تذكره ، إن كان يتذكر ، أن هذا القول غير جائز ، فلو كانت تلك الآيات وتلك السور وأمثالها من عند أحد من الناس لأسقطت كلمة (قل) عند التبليغ كما جرى عليه الناس فى أداء الرسائل .

حتى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه لم يذكرها فى كتابيه إلى هرقل (البخارى أوائل باب كيف بدأ الوحى جزء أول) وإلى المقوقس ، لما ضمنهما الآية (٦٤) من سورة آل عمران فقال (ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) ولم يقل (قل يا أهل الكتاب) .

فالخطاب الموجه إلى الرسول فى القرآن كله ، والتحدث عنه صلى الله عليه وسلم هو أول الخصائص الذاتية التى تثبت لكل ذى عقل أن القرآن ليس من عند الرسول ، وسنرى إن شاء الله خصائص أخرى تثبت بوضوح أنه من عند الله .

الفصل السادس

دلالة ضمير الجلالة (أو المتكلم) فى القرآن

ضمير الخطاب (أو ضمير الرسالة) الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم منبثا فى القرآن كله ، دلالته مطلقة على بطلان زعم المستشرقين ومن إليهم أن القرآن من عند محمد ، إذ لا يعقل أن يكون من عنده صلى الله عليه وسلم وهو مأمور به ومخاطب فيه ذلك الخطاب العام الشامل . على تعدد صوره وجلال مقاصده . لكن دلالة ذلك الخطاب على نبوته صلى الله عليه وسلم ورسالته تتوقف على أن يكون المخاطب للنبي فى القرآن هو الله عز وجل ، وهذا يدل عليه دلالة قاطعة ضمير المتكلم فى القرآن ، فإنه لا يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يرجع إلى غير الله عز وجل ، إلا متجليا فى القصص ، ولذا ينبغى أن يسمى ضمير الجلالة ، كما يسمى ضمير خطاب النبي ضمير الرسالة .

فالخاصة العظمى المميزة للقرآن ، الدالة دلالة قاطعة على أنه من عند الله هى ضمير الجلالة للمتكلم فى القرآن ، فإنه لا يمكن أن يكون راجعا إلا إلى الله عز وجل ، إذ الأفعال المسندة إليه لا يمكن ولا يعقل أن تصدر إلا من الله سبحانه . فى أى موطن من مواطن الإسناد على كثرتها الكاثرة فى القرآن الكريم . وتتبع تلك المواطن يحتاج إلى كتاب ، ولذا يكفى هنا ضرب الأمثال لها .

وأول موطن يلقاك فيه ضمير الجلالة للمتكلم هو الآية الثالثة من سورة البقرة (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) فهو

فى (رزقناهم) لا يمكن أن يكون إلا الله ، فإنه لا يرزق العباد إلا الله . وضمير المفعول فى (رزقناهم) راجع إلى المتقين من العباد المذكورين فى الآية الثانية (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) . فمن الواضح أن الكتاب الذى لا ريب فيه المنوه به فى الآية الثانية ، وهو القرآن ، هو من عند من له ضمير المتكلم فى الآية الثالثة فى (رزقناهم) ، وهو الله عز وجل .

ومن عجيب الاحتراس ونفى الشبه — أى شبهة أو احتمال أن يكون للفعل فى (رزقناهم) أى معنى خاص بأى تأويل بعيد يرده إلى النبى ليكون الكلام من عنده فى زعم مستشرق أو ملحد — من عجيب نفى مثل هذا الاحتمال مجىء (كاف) الخطاب ، ضمير النبوة أو الرسالة ، مرتين فى الآية التالية مباشرة (أى الرابعة) وهى قوله تعالى تماما لوصف المتقين (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) .

وفى الفعل (أنزل) فى الآية الكريمة بيان لفحوى ضمير الخطاب ، وفى تكراره توكيد لدلالته على نبوة النبى ، وتصريح بما استنبط من الآيتين قبلها من أن الكتاب ، أى القرآن ، هو من عند الله رازق العباد .

ثم يأتى ضمير الخطاب بالتاء فى الآية السادسة (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ليس فقط مؤكدا لضمير الخطاب (بالكاف) فى الآية الرابعة فى إبطال زعم من يزعم أن القرآن من عند النبى ، ولكن أيضاً مقترنا بما يدل صراحة على ما تدل عليه (الكاف) ضمنا ، فالكاف فى الآية الرابعة اقترنت بالفعل (أنزل) الذى يدل صراحة على النبوة حسب مفهومها فى علم الكلام ، ويدل بالفحوى على الرسالة . أما (التاء) ، ضمير الخطاب فى الآية السادسة (أأنذرتهم) ، والدالة عليه فى (تنذرهم) فسند إليه الإنذار — والإنذار من أخص أعمال الرسل .

ثم يأتى التصريح باسم الله عز وجل فى صدر الآية السابعة (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) ليتضح لكل متأمل أن المخاطب للنبى الذى يدل عليه

ضمير المتكلم فى (رزقناهم) هو الله عز وجل الذى بيده وحده الختم على السمع وعلى القلوب.

فهذه دلالات متتابعة لا تدع شكا عند كل متطلب للحق ، فى حسن نظر وإنصاف ، أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند غير الله . وليس من المنتظر أن تتضح كل هذه الدلالات لأعجمى مستشرق يدين باليهودية أو النصرانية ، ولا لملحد مفتون بالمستشرقين . لكن مهما أعمى الهوى هذا أو ذاك عن بعضها فلن يعمى العقل عند هذا أو ذاك عن دلالة ضمير المتكلم فى (رزقناهم) ، ولا عن دلالة ضميرى الخطاب فى موضعيهما من الآيتين الرابعة والسادسة فى مفتتح أول سورة من القرآن بعد أم الكتاب ، لو كان ذلك الناظر على ما يزعم لنفسه من علمية الطريقة والإخلاص للحق فى بحثه ، وإذن لتتبع فى القرآن ضمائر المتكلم الدالة على الله بمرجعها إلى اسم من أسمائه الحسنى أو بما أسند إليها من فعل لا يقدر عليه غير الله سبحانه ، وإذن لخرج من بحثه لا يجد مفراً من التسليم بأن القرآن حقا من عند الله وأن محمداً إذن رسول الله .

وإذا مضى الباحث يقرأ سورة البقرة التى ثانى مرة بضمير الجلالة للمتكلم فى قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين — ٢٣) ، والآية خطاب للعرب الفصحاء الذين نزل القرآن بينهم ، ثم للمرتابين فى القرآن فى أى عصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وهى آخر آيات التحدى وأجلها ، لأن التحدى فيها آت من الله مباشرة كما هو واضح من ضميرى الجلالة فى (مما نزلنا على عبدنا) ، لا منه سبحانه ، على لسان رسوله بالأمر (قل) فى آيتى التحدى فى سورة هود ويونس : (قل فأتوا بعشر سور مثله) و (قل فأتوا بسورة مثله) . ثم هى صريحة فى أن القرآن نزله الله على عبده رسول الله ، لأن قوله (وادعوا شهداءكم من دون الله) يدل بوضوح على أن ضمير المتكلم فى الآية هو ضمير الجلالة . ويزداد ذلك وضوحا بمجىء الآية عقب آيتين تأمران الناس بعبادة خالقهم

وتوحيده (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون - ٢١و٢٢).

فليس من شك فى أن المتكلم فى آية التحدى هو خالق الناس الذى يأمرهم بعبادته تعالى وتوحيده فى الآيتين قبلها ، وهو مثل من أمثلة الالتفات (١) العجيب الكثير الورود فى القرآن الكريم، مع قلته وندرته فى الأدب العربى كله.

وضمير المتكلم ، المقترن بأعمال مسندة إليه لا يمكن أن تكون لغير الله لتدل بداهة على أن المتكلم هو الله ، كثير الورود فى سورة البقرة مثل قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم - ٣٤) ، وما إليها فى قصص آدم ، ثم (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر — ٦٠) و (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس – ٨٧) ، وما إلى ذلك من قصص أهل الكتاب ، و (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين — ١٢٥) فى حديث إبراهيم عليه السلام ، و (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان — ١٨٦) فى خطاب النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى آيات منبثة فى القرآن كله لا يمكن أن ينصرف ضمير المتكلم فيها إلا إلى الله سبحانه ، لتقوم لدى العقل دليلا وشاهدا وحجة على الناس أن القرآن من عند الله .

لكن لعل أوضح الآيات القرآنية دلالة على أن المتكلم فى القرآن هو الله سبحانه هى تلك الآيات الكونية التى فيها التفات أحد طرفيه ضمير الجلالة للمتكلم . وقد ذكر صاحب (الاتقان) الالتفات - ص ٨٥ الجزء الثانى طبعة الحلبى - فى كلامه على بدائع القرآن وروى ما قد قيل فيه وفى فوائده ، وضرب

---

(١) هو الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ومنها إلى التكلم وهكذا بقصد جذب الانتباه .

لأنواعه الأمثال فكان من بينها مثلان من الآيات الكونية هما (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور — فاطر ٩) ، وقوله (فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم — فصلت ١٢) .

ولم يذكر السيوطى الآيتين بتمامهما ولكن اقتصر من الآيتين على ما ضرب به مثلا للالتفات من الغيبة إلى المتكلم ، فوقف من الآية الأولى على (فسقناه) ومن الآية الثانية على (وزينا) ، مبتدئا من (وأوحى) ، ثم لم يذكر من دلالة هذا الالتفات شيئاً على عظيم الدلالة وجلالها . إن شرط الإلتفات عنده وعند أكبر البلاغيين اتحاد المراد من طرفيه ، فالمراد واحد من لفظ الجلالة فى أول آية فاطر ومن ضمير المتكلم فى (فسقناه) و (فأحيينا) فى الآية الكريمة .

كذلك ضمير المتكلم فى (وزينا) ، هو والضمير المستتر فى (وأوحى) المراد منهما واحد ، هو الله سبحانه العزيز العليم الذى دل عليه الالتفات العجيب من التكلم إلى الغيبة فى (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) . والمصابيح هى النجوم التى ترى فى السماء ، دل العلم على أنها شموس متأججة ، وأنبأ القرآن بتأججها قبل أن يعرفه العلم إذ شبهها بالمصابيح ذلك التشبيه البليغ ، فإن وجه الشبه بينهما أن كلا مضىء بذاته لا بالانعكاس .

فمن الواضح الذى لايمارى فيه عاقل أن ضمير المتكلم فى الآيتين الكريمتين هو لله عز وجل ، الذى يسوق السحاب إلى حيث يغيث به الناس ويحيى لهم الأرض بالنبات ، والذى خلق السموات السبع وزين الدنيا منها — أى سماءنا — بالنجوم .

وفى القرآن آيات كونية أخرى متعددة جاء فيها الالتفات الذى أحد ركنيه ضمير الجلالة المتكلم ، مثل (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا — الأنعام ٩٩

آية الإنبات) بعد الآيات الأربع التى أولها (إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون — ٩٥) والتى آخرها (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون — ٩٨) والكلام على إعجاز الآيات الخمس من حيث المعنى والأسلوب يطول .

حتى الترتيب الذى هو جزء من الأسلوب فيه إعجاز لمن يتأمله . مثل آية (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم — ٩٦) بعد آية (إن الله فالق الحب والنوى) وآية (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون — ٩٧) بعد قوله (والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) فى خاتمة آية (فالق الإصباح) ، وآية الإنبات بماء السماء حتى ينتهى بإخراج الحب المتراكب بعد آية إنشاء الناس من نفس واحدة .

لكن الآيات قد ذكرت هنا لبيان كيف أن الالتفات الذى لم ير فيه علماء البلاغة إلا وسيلة للتطرية وما إليها ، قياسا عليه فى كلام الناس ، قد جعله الله فى كلامه طريقا للدلالة الواضحة وإقامة الحجة البالغة على أن القرآن من عند الله ، وذلك بالمراوحة بين ضمير الجلالة للمتكلم وضمير الجلالة لغير المتكلم — ولا أقول للغائب كما يقتضى علم النحو ما دامت كلها تدل على الله الحق الذى لا يغيب — بمرجعها إلى لفظ الجلالة فى مفتتح أولى الآيات الخمس ، أو إلى اسمين من أسمائه الحسنى فى قوله (ذلك تقدير العزيز العليم) فى مختتم الآية الثانية .

وقد ورد ضمير الجلالة للمتكلم فى الآيات خمس مرات ، ثلاث منها فى الآية الخامسة ، آية الإنبات ، ومرتين فى الآيتين قبلها . والتراوح بين الضمائر فى الآيات الثلاث ينشأ بهمن الالتفات خمسة متراوحة من الغيبة إلى التكلم ، ثم من التكلم إلى الغيبة وهلم جرا كما يبدو لمتأمل الآيات الكريمة الثلاث (وهو

الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأ كم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنامنهخضرا نخرج منه حبا متراكبا ٩٧ — ٩٩). وهذا إعجاز بديعى ليس له ، حتى فى صورته ، نظير قط فى الأدب العربى جاهليه وإسلاميه .

وليس يستلزم مثل هذا الحكم الاطلاع على الأدب العربى كله ، لأن من المعروف أن الالتفات نفسه فى الأدب العربى قليل ، فكيف يتوالى خمسة منه على هذا النمط العجيب . لكن الأعجب والأبلغ فى الإعجاز — إن كان فى الإعجاز تفاوت — ما تحت تلك الالتفاتات المتراوحة من توكيد للحقيقة العظمى المذهلة من أن المتكلم فى القرآن هو الله سبحانه خالق الناس وفاطر الكون . فالذى جعل النجوم للناس ليهتدوا بها هو المتكلم فى (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) ، والمتكلم فى (قد فصلنا) هو الذى أنشأ الناس من نفس واحدة ، والذى أنشأ الناس هو المتكلم فى (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) ، والمتكلم فى (قد فصلنا) هذه هو الذى أنزل من السماء ماء ، والذى أنزل الماء من السماء هو المتكلم فى (فأخرجنا به نبات كل شىء) ، ثم لعظم وجلال هذه الحقيقة المميزة للقرآن من بين الكتب السماوية كلها ، يؤكدها الله مرتين فى النهاية بتكرار ضمير الجلالة للمتكلم فى (فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا) .

وليس يحتاج القول بتمييز القرآن من بين الكتب السماوية بضمير الجلالة للمتكلم منبثا فيه ، من لدن الآية الثالثة من سورة البقرة إلى الآية الأولى من سورة الكوثر ، ليس يستلزم القول بهذا التمييز استقراء الكتب السماوية كلها . إذ يكفى أن تتصفح كتب العهدين القديم والجديد ، باحثا عن ضمير الجلالة للمتكلم لاتجده إلا عن طريق الخبر على لسان ملك أو نبى ، كما يرد فى الأحاديث القدسية على لسان خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه .

تلك إذن هى ثانية الخواص المميزة للقرآن الدالة دلالة قاطعة على أنه من عند الله : أن الحق سبحانه هو المتكلم مباشرة فى القرآن ، يتجلى ذلك بضمائر

الجلالة التى لا يمكن أن تصرف إلى غير الله عز وجل ، وبخاصة ضمائر الجلالة للتكلم سواء أكانت فى خطاب للنبى كما فى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده — النساء ١٦٣) أم فى خطاب لبنى إسرائيل كما فى (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم - البقرة ٤٠و٤١) أم فى خبر عن النصارى كما فى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به — المائدة ١٤) أم فى خبر عن الأمم الماضية كما فى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين — القصص ٥٨) .

أم فى القصص كما فى (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة — الأعراف ١٣٨) و (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) فى مفتتح سورة نوح ، أم فى تشريع كما فى (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم — الأنعام ١٥١).

أم فى آية كونية كما فى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون — الحجر ١٦—١٩) .

أم فى ذكر ليوم القيامة وتذكير للناس (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين — النحل ٨٩) .

أم فى إعلان تمام نعمة الله على الناس بإكمال الدين فى قوله سبحانه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا — المائدة ٣) الذى نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم فى موقفه بعرفة فى حجة الوداع .

الفصل السابع

دلالة المعنى فى القرآن

بعد دلالة ضمير الرسالة ودلالة ضمير الجلالة تأتى دلالة المعنى فى القرآن ، فا أسند من معنى إلى ضمير من ضمائر الجلالة أو إلى اسم من أسماء الله الحسنى لا بد أن يكون من الجلال بحيث يليق بذلك الإسناد ، أى بحيث يتناسب مع جلال الاسم المسند إليه ، إذا كانت تلك المعانى حتما من عند الله . فهل هذا الشرط متحقق فعلا فى تلك المعانى حتى تكون دلالتها قاطعة فى إثبات أن القرآن من عند الله لفظاً ومعنى ؟ — لفظاً بدليل ضمير الجلالة للتكلم ، ومعنى بدليل تحقق ذلك الجلال فى تلك المعانى ، الملازمة لضمائر الجلالة وأسماء الله الحسنى أينما وردت فى القرآن الكريم ؟ وهى كما هو معروف تنتظمه كله من سورة الفاتحة إلى سورة الناس .

فمن يخالجه شك فى هذا ممن لم يكن قرأ القرآن . أو ممن قرأه ولم يلحظ هذه الخاصة الذاتية فيه ، فليحسن إلى نفسه بقراءة القرآن فى شهر مثلا ، جزءا منه فى كل يوم ، بقصد ملاحظة مبلغ ورود ضمائر الجلالة وأسماء الله الحسنى فى القرآن ، ثم ، وهو الأهم ، بقصد التأكد من أن المعانى المسندة إلى تلك الضمائر والأسماء الجليلة تليق بها وتناسبها فى الجلال فليس الخبر كالعيان .

والأمر فى هذا التناسب بين جلال ركنى الإسناد واضح فى كونيات القرآن ، وهو أوضح فى الآيات المتعلقة بظواهر كونية ليس للإنسان فيها يد ، منه فى الآيات المتعلقة بظواهر للإنسان فيها يد . ثم هو فى بعض هذه أوضح منه فى بعض . فمثلا فى قوله تعالى (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم

من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين — النحل ٨٠) تجد فى أولها ذكر نعمة الله على عباده فى البيوت التى يد الإنسان أظهر فيها ، إذ هو الذى بناها فاقتضت حكمة الله أن يمن عليـــه بالبيوت مبنية يتخذها للسكنى والسكون والاحتماء من الأجواء والأعداء (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) وهذا يتضمن المن عليه بما قل أن يتذكره الإنسان من أن الله هو الذى أوجدله مواد البناء وعلمه علمه ، ولو تذكره لتبين له ما قد يخفى عليه من التناسب بين جلال المسند وجلال المسند إليه فى صدر الآية الكريمة ، وكذلك الشأن فى أمثالها .

أما بقية الآية فالتناسب بين الجلالين فيها أظهر ، لأن يد الإنسان فيما من الله عليه فيها أخفى حتى عند الإنسان . فليست جلود الأنعام وأصوافها وأوبارها وأشعارها كمواد البناء يخفى على الإنسان ، أو قل أن يتذكر ، أن الله أوجدها وهيأها لينتفع الناس بكل منها على الوجه الذى ذكر الله ، بعد علم أو فن لا بد أن يتعلموه ، فآيات الله فى ذلك ونعمته على عباده هى من الوضوح بحيث اقتضت حكمة الله أن يقررها لعباده صراحة لا ضمنا فى الآية (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) .

والمتاع يدخل فيه ما قد يتخذ من الأصواف ، والأوبار والأشعار للزينة ، أما الثياب التى يتخذ منها لاتقاء الجو وتقلباته فقد من الله على عباده بها عن طريق ما يسمى فى علم البلاغة بالاكتفاء ، وذلك ضمن نعم أخرى ذكرها سبحانه فى الآية التى تلت الآية السابقة وهى قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ـ ٨١) .

ولا بد هنا من ملاحظتين إحداهما عرضية لكن لها أهميتها . والأخرى أصلية تتصل بالبحث . فالعرضية هى عن حكمة التعبير (بسرابيل) بدلا من

(ثياب) أو (لباس) ، وفى هذه الآية لا فى سابقتها . فالسرابيل أعم من الثياب التى هى أعم من اللباس فيما يبدو ، لأن الأصل فى اللباس ما يلابس الجسم كما يشعر به قوله تعالى (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا — الأعراف ٢٦) ولذا استعير لما يلابس الروح أوالنفس من التقوى فى قوله تعالى فى نفس الآية عقب ما ذكرنا منها (ولباس التقوى ذلك خير) واستعير لما عم القرية التى كفرت بأنعم الله من عذاب الخوف والجوع بعدنعمة الأمن ورغد العيش ، وذلك فى قوله (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون — النحل ١١٢) .

واللباس هنا ليس ما يلبس فيكون من قبيل تجريد الاستعارة ، ولكن ما يلابس النفوس والأجساد من شعور الخوف وآلام الجوع التى أكدها الله بقوله (فأذاقها) ، والذوق فى حقيقته يكون من داخل ولا يكون من الخارج قط ، والثياب تشمل اللباس من غير شك ، لكنها قد لاتشمل ماتشمله السرابيل من نحو المعاطف وما يصنع من الفراء لاتقاء البرد ، الذى لم يذكر فى الآية الكريمة اكتفاء بذكر مقابله وهو الحر .

لكن الذى لا شك فيه أن الذى يقى من البأس كالدروع لا يدخل فى الثياب ، فهو دليل على أن السرابيل أعم وأشمل ، ولو ذكرت فى الآية قبلها لما دلت إلا على ما يتخذ من الصوف والوبر والشعر الحيوانى ، لكن ذكرت السرابيل الواقية من الجو وتقلبه فى آية مستقلة أيضا ، ليس فقط ما يتخذ من الألياف النباتية المعروفة من قديم كالكتان والقطن ، ولكن أيضا الألياف الاصطناعية التى عرفها الإنسان بعد أن أتاه الله ما آتاه من العلم الحديث .

أما الملاحظة الثانية الأصلية فيما كتب له هذا البحث ، فهى أن التوافق بين جلال المعنى وجلال الإسناد فى صدر الآية ، أى فى قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا) ، هو من الظهور والوضوح بحيث لا يجوز لأحد أن يخالجه فيه شك ، إذ ليس للإنسان فيه قط من يد ،

بخلاف ما للإنسان من يد ظاهرة فى ابتناء البيوت التى من الله بها على عباده فى صدر الآية التى قبلها ، فهذا من لطيف المقابلة بين صدرى الآيتين الكريمتين .

أما تقدير الجلال بين ركنى الإسناد فى بقية الآية الثانية فحكمه وشرطه كالذى ذكر فى نظيره من أولى الآيتين ، أى أن على الإنسان فيه وفى مثله أن يتذكر أن الله هو الذى أوجد المادة التى ينتفع الإنسان بخواصها ، وأنه سبحانه هو الذى علمه علم ذلك الانتفاع .

وقد يحتاج الإنسان إلى الإلمام بشىء من سنن الله فى الفطرة قبل أن يدرك ذلك الجلال فى آية قرآنية من الله فيها على عباده بنعمة للإنسان فيها يد ، وإن خفيت ، فمن لم يلمم مثلا بسنة الله المتعلقة بطفو الأجسام لم يدرك تمام النعمة فيها عليه وعلى الناس ، ولا مبلغ الجلال فى الآيات التى من الله فيها على عباده بتسخير الفلك لهم ، على تعدد جوانب ذلك التسخير ، سواء ذكر الفعل سخر ، كما فى قوله (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره — إبراهيم ٣٢) أم لم يذكر كما فى قوله (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون — يس ٤١) .

ففى وصف الفلك بالمشحون فى هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الفلك المثقل بحمولته كان من شأنه أن يغوص فى الماء ويغرق ، لولا سنة لله تقضى بألا يغوص من السفينة إلا القدر الذى يكفى لإزاحة قدر من الماء وزنه مثل وزن السفينة . وعندئذ يكون دفع الماء السفينة إلى أعلى مساويا بالضبط ضغط السفينة على الماء أسفل ، فإذا زيد فى حمولة السفينة غاص من السفينة جزء جديد يكفى لإزاحة قدر جديد من الماء وزنه يساوى بالضبط وزن الزيادة فى الحمولة ، وطبعا إذا انتقص من حمولة السفينة بالتفريغ نقص غاطسها بما يناسب ذلك . فالغاطس منها يزيد أو ينقص بحيث يتحقق دائما التساوى بين وزن السفينة بحمولتها ووزن الماء الذى يزيحه غاطسها ودفع الماء السفينة إلى أعلى ، فمهما تحقق هذا التساوى بين هذه الثلاثة تحقق الطفو على الماء للجسم أو السفينة ، وإلا غاص الجسم كله وغرقت السفينة .

والمهم طبعاً ألا يغوص من ارتفاع السفينة إلا الأقل ، وذلك يكون بالتوسع فى العرض والطول ، إذ وزن الماء المزاح متناسب مع حجمه أى مع أبعاد جزء السفينة الذى تحت الماء مضروبا بعضها فى بعض . وهندسة السفن وصناعتها يقرران فيما بينهما خير تناسب بين أبعاد كل سفينة لتحقيق الغرض منها ، على اختلاف أصناف السفن ، لكن لولا سنة الله تلك فى طفو الأجسام ما كان هناك للسفن هندسة ولا صناعة . فمن لم يدرك تلك السنة لم يدرك آية الله فى قوله تعالى (وآية لهم) ولا نعمة الله على عباده . ولاجلال المعنى وتناسبه مع ضمير الجلالة للمتكلم فى قوله تعالى (أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) .

وفى الآية الكريمة ما يزيد فى جلال المعنى وتناسبه لمن يغوص عليه ، فالحمل فى (حملنا) مثلا ليس عند الشاطىء طبعا ولكن فى ثبج البحر ـ أى وسطه ـ حيث تجرى الفلك بهم ، كما يتضح من ثانية الآيتين بعدها (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ـ ٤٣ و ٤٤) . وفى كون المحمول فى الفلك المشحون (ذريتهم) لا هم إشارة إلى ماسيتطور إليه الفلك فى مستقبل الذرية . سواء أكان ذلك فى عهد الشراع الذى امتد إلى نحو أواسط القرن التاسع عشر ، ونبه الله عباده إلى آياته فيه فى قوله (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعفوعن كثير ـ الشورى ٣٢ ـ ٣٤) ، أم كان ذلك فيما أعقبه من عهد البخار والكهربية ، ذرية أو غير ذرية . الذى شمله وشمل غيره عموم قوله تعالى (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ـ الرحمن ٢٤ و ٢٥) .

وتشبيه السفن الجارية فى البحر شراعية أو غير شراعية بالجبال (أو الأعلام) ذات الطول إشارة واضحة ليس فقط إلى ما سيكون من تقدم فى علم هندسة السفن وصناعتها على مر العصور ، ولكن أيضا إلى ما سيكون من تقدم فى علوم القوى التى لابد منها لدفع تلك السفن التى كالجبال ، حتى تشق طريقها جريا

فى البحار ، فضلا عن وسائل التحكم فيها وتوجيهها أثناء جريها ، ومع ذلك فلا يزال قوله تعالى (أو يوبقهن ويعفو عن كثير) سنة لله فى السفن الجارية كالأعلام فى عصر العلم هذا : إن شاء سبحانه عفا عما كسب أهلها — إلى حد ـ وهو الغالب الكثير ، وإن شاء أهلك السفن وما حملت بالرياح العاصفة، أو بالصواعق الملحة التى لا تغنى فى دفعها الموانع ، أو ببعض هذه القوى الخارقة التى أطلع الله الإنسان عليها ليبلوه أيستعملها فيما ينفع الناس أم يهلك نفسه بها عدوانا وظلما .

على أن الإلمام ببعض السنن الكونية المتعلقة بموضوع الآية القرآنية قد يكون ضروريا لإدراك تمام جلال المعنى ، حين لا يد للإنسان فى النعمة الممنون عليه بها فى الآية الكريمة ، فالله سبحانه كما من مثلا على عباده بتسخير الفلك فى بعض الآيات ، من عليهم فى آيات أخرى بتسخير البحر لتجرى الفلك فيه ، مثل قوله (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ـ الجاثية ١٢) ، أو نعمة أخرى تضاف إلى جريان الفلك كما فى قوله (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ـ النحل ١٤) .

وواضح أن ليس يقدر على تسخير البحر إلا الله ، وأن ليس للإنسان يد قط فى هذا التسخير ، وهذا كاف إجمالا لإظهار التناسب فى الجلال بين ركنى الإسناد فى كل من الآيتين . أما الذهاب وراء هذا فى تقدير ذلك التناسب فى الجلال فلا بد فيه من إدراك شىء من سر ذلك التسخير . وأول ذلك أن ندرك لماذا لا يتجمد من الأنهار والبحار فى الشتاء القارس إلا سطحها مما يلى الشواطىء ولا يمتد التجمد إلى قاعها ، ولو فعل لهلكت الحيوانات المائية فلا يجد الإنسان فيها ما يأكله ، ولاستحال أن يعود ماء البحر سائلا مرة أخرى إذا انقضى الشتاء لتستطيع الفلك جريا فيه .

أما الاستحالة فلسوء توصيل الماء للحرارة : فلا تسرى فيه حرارة الشمس من سطحه إلى عمقه ولو استمرت دهورا ، لو أن البحر تجمد كله . لكن حكمة الله حالت دون ذلك التجمد بخاصة عجيبة منحها الله الماء استثناء من سنة له سبحانه فى الأجسام ، هى أن تتمدد و يزداد حجمها بالحرارة و تتقلص و ينقص حجمها بالبرودة . والكثافة تنقص بالتمدد و تزداد بالانقباض كما هو معروف .

والخاصة العجيبة فى الماء التى اقتضتها حكمة الله . ليتحقق تسخيره البحر للإنسان. هى أن الماء يتبع السنة العامة فى الانقباض بالبرودة حتى درجة أربعة مئوية ، فإذا برد وراء ذلك تمدد فخف فعلا إلى السطح. ولذا كان الجمد ،الذى يسميه الناس ثلجا والذى يتكون عند درجة الصفر ، أخف من الماء كما هو معروف مشاهد ، فانظر إلى عجيب حكمة الله وبديع صنعه لخلقه كيف أن ماء النهر أو البحر إذا تجمد بالبرد الشديد فى شتاء الأصقاع الباردة تجمد جزئيا عنـــد السطح ، وظل البحر سائره سائلا درجة حرارته بين الصفر المئوى والأربعة المئوية من تحت القاع ليحفظ على حيوان البحر حياته مهما اشتدت برودة الشتاء ، وليبقى البحر صالحا لجرى الفلك ، تحقيقا لذلك التسخير الذى من الله به على عباده فى أكثر من آية فى القرآن .

وليست الآيات الكونية فى القرآن سواء ، فى تيسر الإلمام بسنن الله التى تعين على إحسان تفهم الجلال فيها . كما فى المثلين المذكورين آنفا ، فإن سنة الله فى طفو الأجسام وسنته فى تمدد الماء بعد درجة أربعة مئوية يعرفها كل مثقف ، إذ هما من بسائط علم الطبيعة الداخلة فى المقررات الأولية . وليس الأمر كذلك فى الآيات المتعلقة بإرسال الرياح مثلا ، أو بخلق الإنسان ، أو بكثير من الظواهر الفلكية ، فهى تحتاج إلى نصيب أكبر من العلم كلما زاد زادت مقدرة الإنسان على تقدير الجلال فيها .

والإنسان أحوج ما يكون إلى زيادة هذه المقدرة عندما ينظر فى الآيات التى أقسم الله فيها ببعض ما خلق ليلفت عباده إلى ما فى المقسم به من آية له

سبحانه فى الخلق ، ليطلبوها عن طريق البحث العلمى القرآنى إذا تهيأ لهم ذلك فى عصور علم الله أن ستكون ، إذ القرآن مخاطب به من بلغ فى كل العصور .

وآيات القسم كثيرة فى الآيات الكونية القرانية ، ومن لا يدرك شيئا من أسرار الخلق فيها يدرك لاشك بعض ما فيها من نعم الله على الناس ، كما فى قوله تعالى (كلا والقمر ، والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر المدثر-٣٢-٣٤) و(والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها — الشمس ١-٣) و (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - الواقعة ٧٥ و٧٦) إلى آيات كثيرة لا محل للنظر فيها هنا إلا من ناحية درء شبهة تتعلق بما نحن بصدده من بحث دلالات هذه الآيات . فقد يلقى الشيطان فى صدر من لا يعلم شيئاً من أسرار الخلق فى الآيات الكريمة مثلا بسؤال يسأله : من أدراك أن المقسم هو الله لا محمد ؟ وهو سؤال لا يجوز إلا على متشكك ينتزع الآية من السياق فيفوته ما فى السياق من دلالة قاطعة على أن القسم من عند الله .

فالآيات المذكورة آنفا من سورة المدثر يكفى فى درء الشبهة عن القسم فيها ضمير الجلالة فى صــدر الآية قبلها (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا — ٣١) وضمير الخطاب فى آخرها مع جلال المعنى الذى لا يمكن أن يخطر ابتداء فى بال مخلوق (وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر — آخر ٣١) .

ويدرأ الشبهة عن آيتى القسم من سورة الواقعة ضمائر الجلالة للمتكلم فى الآيات السابقة عليها وآخرها (أفرأيتم النار التى تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم ٧١ — ٧٤) ويزيد درء الشبهة ضمير الخطاب وجلال المعنى الإلهى فى الآية الأخيرة (فسبح باسم ربك العظيم) .ذلك عن دلالة المقسم عليه فى الآيات التى جاءت عقب آيتى القسم فى وصف القرآن الكريم وأنه (تنزيل من رب العالمين — ٨٠) .

أما آيات القسم من سورة الشمس التى خلت كلها من ضمير الجلالة المتكلم فيكفى فى درء الشبهة عن دلالة القسم فيها جلال المعنى الذى لا يمكن فى السورة كلها أن يكون من عند بشر ، وإن كان هذا أظهر فى القصص فى آخرها منه فى القسم فى أولها . فإن كان لا بد من ضمير الجلالة للمتكلم يستند إلى دلالته فهو موجود متكرر فى سورة (البلد) قبلها وسور القرآن ترتيبها توقيفى كما هو معروف .

وقد يأتى ضمير الجلالة للمتكلم عقب المقسم عليه مباشرة كما فى سورة (الصافات) للدلالة على أن القسم (والصافات صفا) والمقسم عليه (إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ٤ و ٥) هما كلاهما من عند المتكلم فى الآية عقبها (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب — ٦) وهو الله سبحانه إذ لا يعقل أن يزين السماء بالكواكب إلا الله (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) .

وفى هاتين الآيتين الكريمتين مثل لذلك الالتفات الذى يأتى على الندرة فى الأدب العربى للتطرية والتحسين فى كلام الناس ، ويكثر وروده فى كلام الله سبحانه ليكون فيه حجة بالغة ، ودلالة قاطعة ، على أن المتكلم فى القرآن هو الله . وأن القرآن إذن هو لا شك من عند الله .

الفصل الثامن

دلالة المعنى مع دلالة ضميرى الجلالة والرسالة في القرآن

رأينا فى الفصل السابق كيف أن الآيات الكونية فى القرآن الكريم يظهر فيها بوضوح ذلك التناسب فى الجلال بين ركنى الإسناد إذا كان المسند إليه اسما من أسماء الله الحسنى أو ضميرا من ضمائر الجلالة ، وهو الشرط الذى ينبغى تحققه فى المعانى القرآنية المسندة على الأخص إلى ضمير الجلالة للتكلم ، كيما تدل دلالة قاطعة على أنها من عند الله ، وأن المتكلم فى القرآن هو الله .

لكن إذا كان هذا هو الشأن فى الآيات الكونية لوضوح استحالة أن يقدر على الكونيات أحد إلا الله كما فى قوله تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم — لقمان ١٠) فما هو الشأن فى غير الكونيات كالقصص مثلا ؟

إن القصص عند الناس أبعد ما يكون بطبيعته من أن يتحقق فيه ذلك الشرط ، لأنه نتيجة العقل البشرى وخياله ، ونتاج البيئة فى كل عصر وقطر . فإذا ما تحقق فى آيات القصص فى القرآن ما تحقق فى الآيات الكونية من الدلالة . أفلا يكون ذلك من عجائب إقامة البرهان القاطع على أن القرآن من عند الله ؟ !

إن آيات قصص الأنبياء فى القرآن لا تقل عن خمسين ومائتين وألف آية ، أى نحو خمس آيات القرآن . وما من قصة من قصص نبى فيه إلا وضمير الجلالة

للمتكلم يحرسها ويحميها من مظنة أن تكون من كلام أحد غير الله سبحانه ، إن لم يكن ذلك فى صلب القصة . كما هو الكثير الغالب ، فقبلها كما فى قوله تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل — المائدة ١٩) قبل قصة موسى مع قومه فى نفس السورة (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين . ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم — المائدة ٢٠ و ٢١) ، أو قد يأتى ضمير الجلالة للمتكلم بعد القصة كما فى قوله تعالى (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً — المائدة ٣٢) بعد قصة ابنى آدم (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر - الآيات من ٢٧ إلى ٣١) .

وقد صدرت القصة كما ترى بضمير الرسالة فى قوله (واتل عليهم) وجاء لفظ الجلالة فى آخرها فى قوله (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه — ٣١) ليكون الالتفات منه إلى ضمير المتكلم فى الآية بعده (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) دليلا آخر على أن المتكلم فى الآية هو الله سبحانه وتعالى .

فلننظر الآن فيما يتسع له المجال من قصص الأنبياء فى القرآن الكريم لنتبين كيف أن ضمير المتكلم الصادر عنه القصص هو حقا ضمير الجلالة ، لأن الأفعال المسندة إليه لا يمكن أن تصدر عن غير الله .

قصص آدم

قصة آدم عليه السلام وردت على تنوع فى التفصيل فى سبع سور : واحدة مدنية هى البقرة والست الباقية مكية هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : (ص) والأعراف وطه والإسراء والحجر والكهف ، وكلها صدرت فيها القصة عن

ضمير الجلالة للمتكلم ابتداء إلا سورة (ص) ، فقد افتتحت القصة بما يدل على الجلالة والرسالة معا فى قوله تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ـ الآيات من ٧١ إلى ٨٥) وقد تعدد فيها ضمير الجلالة للمتكلم تسع مرات على تنوع فى مقول القول.

ثم يأتى ضمير الجلالة للمتكلم ثلاث مرات فى الافتتاح النادر العجيب للقصة فى سورة الأعراف (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين — ١١) والخلق هنا هو التقدير بدليل (ثم صورناكم) ، فلو كان الخلق تم لشمل التصوير ، وبإتمام التصوير يتم إنفاذ التقدير . أى يتم التكوين على وجه الإبداع ، وهو المعنى الثانى للخلق المتجلى فى الآية ١٤ من سورة المؤمنين (ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) ، وهى أطوار أشير إليها فى آية الأعراف بالحرف (ثم) فى قوله (ثم صورناكم) بعد قوله (ولقد خلقناكم) على التراخى فى الترتيب كما يتطلبه تعدد الأطوار .

لكن الإشارة الأدق الألطف هى فى ضمير الخطاب للجمع فى (خلقناكم ثم صورناكم) مع أن ذرية آدم لم تكن وجدت بعد بدليل قوله (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) ، فهذه ألطف إشارة إلى أن الذرية ستتبع والديها فى الصورة وما تحت الصورة من صفات تورث ، سنة الله فى الخلق ، خلق الإنسان وغير الإنسان من الأحياء . ولقد جاء ضمير الجلالة للمتكلم ثلاث مرات أثناء القصة فى مقول القول . وجاء مرتين فى الآيتين بعدها نداء لبنى آدم (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءآتكم وريشا — ٢٦) و (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون — ٢٧) وفى قوله تعالى (ينزع عنهما

لباسهما ليريهما سوءاتهما) تصحيح لما يقول أهل الكتاب فى سفر التكوين من أن آدم وحواء لم يكونا يرتديان شيئا فى الأول ، مع جهل بما يستلزمه ذلك من بدو السوأة حين أكلا من شجرة « المعرفة » فعريا فسارعا الى الاستتار بورق التين .

ثم القصة فى سورة طه ، جاء ضمير الجلالة للمتكلم فى صدر كل من الآيات الثلاث الأولى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ١١٥ - ١١٧) ، ثم جاء الضمير خمس مرات فى مقول القول فى الآيات ١٢٣ — ١٢٦ (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) إلى قوله (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) . ثم يأتى مباشرة فى الآيتين ١٢٧ و ١٢٨ (وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) توكيدا لدلالة ضمير الجلالة فى القصة ، وإظهارا للعبرة فيها .

ثم تأتى القصة فى سورة الإسراء مفتتحة بضمير الجلالة للمتكلم ومختتمة به فى قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) إلى قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا - الآيات ٦١ إلى ٦٥) .

ثم القصة فى سورة الحجر : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قلنا للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين) إلى آخر القصة فى الآيات ٢٦ - ٤٤ . فترى القصة مصدرة بضمير الجلالة للمتكلم فى الفعل (خلقنا) مرتين ، ثم منه التفت إلى الاسم الظاهر

مضافا إلى ضمير الرسالة فى (ربك) من قوله (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً) ليعلم أن المخاطب لمحمد هو ربه المتكلم فى (خلقنا) الآمر للملائكة بالسجود للإنسان ، الذى هو آدم ، إذا تم خلقه وتسويته والنفخ فيه من روح الله ، إذ لا خالق ولا آمر للملائكة بالسجود إلا الله .

ثم تأتى القصة فى سورة الكهف فى آية واحدة هى إجمال للأهم مما سبق فى قصص آدم فى السورة المكية كلها (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا - ٥٠) .

فضمير المتكلم فى صدر الآية يشهد له بالجلالة أنه الآمر بالسجود لآدم وهو الأمر المنصوص عليه فى قصص آدم كله ، مكية ومدنية ، فهو تكريم لآدم والإنسانية كلها لم يأبه إلا إبليس نصا أيضاً فى القصص كله ، فهو إذن أهم ما فى ذلك القصص ، ليشكر بنو آدم ربهم على ذلك التكريم بتوحيده سبحانه والإخلاص فى عبادته ، وهى العظة الكبرى فى ذلك القصص ، لم يفهمها أكثر الناس فلم يشكروا ولم يحذروا . فخوطبوا فى الاية الكريمة بالسؤال الإنكارى العجيب (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟) وجل وجه الله وعز أن تكون به حاجة إلى ولايتهم ، وإنما هم الفقراء إلى ولايته سبحانه ورحمته ، فقد ظلموا أنفسهم أكبر الظلم بكفرانهم ربهم وموالاتهم عدوهم (بئس للظالمين بدلا) .

ولو اقتصر الأمر فى آخر آية فى قصص آدم على هذا التلخيص العجيب للقصص وحكمته لكان إعجازا أيما إعجاز ، فما بالك والآية فيها ما لم يسبق ذكره فى القصص كله ! فيها النص على أن إبليس كان من الجن لا من الملائكة ، أى كان ذا اختيار كالإنسان ، فاختار أن يعصى ، ولو كان ملكا لسجد مع الملائكة إذ هم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون — التحريم ٦) . وفيها النص على أن الأمر بالسجود كان شاملا إبليس

من باب أولى ، وأن إبليس كان يعلمه بدليل قوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) وفيها التصريح بما كان مفهوما ضمنا فى قصص آدم قبلها وبعدها من أن المتكلم فى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) والآمر لإبليس معهم بالسجود هو رب إبليس ، كما يدل عليه الالتفات من الضمير فى (قلنا) إلى الاسم الظاهر فى (ربه) من قوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) ، وفى الفعل (فسق) تنفير من مطاوعة ذلك الفاسق (عن أمر ربه) لو كان أكثر الناس يعقلون .

أما القصة فى سورة البقرة التى لم يشركها فيها غيرها من السور المدنية فقد امتازت بأمرين لم يردا فى قصة لآدم غيرها : أمر استخلاف آدم ، وبنيه ، طبعا فى الأرض فى الآية المصدرة بضمير الرسالة (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة — ٣٠) وأمر إعداد آدم وبنيه لعلم ما فى الكون كله المشار إليه بقوله (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة — ٣١) أما بقية القصة فتلخيص لطيف موجز للأهم فى القصص السابق يتصدره ضمير الجلالة للتكلم فى قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين — ٣٤ وما بعدها) .

وينبغى هنا التنبيه الى أن قصص آدم فى القرآن قد امتاز بأمرين عظيمين هما : أمر الملائكة بالسجود لآدم مع إباء الشيطان السجود معهم ، فهذا أمر لم يرد له ذكر فى التوراة التى بأيدى الناس . وأمر اختداع الشيطان آدم حتى أكل من الشجرة التى كان منهيا عنها ، وأخرج من أجل ذلك من الجنة إلى الأرض ، فإن سفر التكوين يقول إن الحية هى التى خدعت حواء حتى أكلت وأطعمت زوجها ، وحتى لم يقل إن الشيطان حملته الحية بصورة ما إلى داخل الجنة ليستزل آدم وزوجه فى أمر الشجرة ، كما يحاول بعض الناس أن يقرب حديث الحية إلى الأفهام . فهذان أمران خطيران فارق فيهما القصص القرآنى قصة سفر التكوين ، ومع ذلك يزعم المستشرقون ومن تابعهم أن القصص القرآنى مأخوذ من قصص أهل الكتاب ! ! .

قصص الأنبياء والرسل بعد آدم

ولحكمة كبرى كان تسليط الشيطان على ذرية آدم ، يحاول أن يغويها وعليها أن تقاومه لتقوى روحيا بمقاومته ، كما تقوى جسديا بمقاومة القوى المتعددة فى الرياضة الجسمانية ، ومن هنا اقتضت حكمة الله ورحمته أن يرسل الرسل يهدون بنى آدم إلى الله ويحذرونهم كيد الشيطان وإغواءه (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ـ النساء ١٦٥) ، هذا مع فتح باب التوبة والاستغفار حتى ساعة الاحتضار، لينجو به بنو آدم من عواقب عصيانهم ربهم بكيد إبليس عدوهم ، فإذا جاء ضمير المتكلم فى قصص الرسل مسندا إليه الإرسال ، أو إهلاك المكذبين من أقوام الرسل فذلك ضمير الجلالة لاشك فيه .

فلنستعرض الآن قصص نوح أقدم الرسل المعروفين بعد آدم لننظر كيف هو أيضا يحميه ويحرسه ضمير الجلالة من أن يكون ذلك القصص من عند غير الله .

قصص نوح عليه السلام

وقصة نوح وردت فى عشر سور كلها مكية ، وهى حسب ترتيب نزول الوحى بها : القمر والأعراف والشعراء ويونس وهود والصافات ونوح والأنبياء والمؤمنون والعنكبوت ، وسنجد فى كل قصة فائدة ليست فى غيرها، مع اشتراك بالطبع فى الأساسيات من الدعوة إلى الله وإهلاك للمكذبين وتنجية المؤمنين مما لانجد له نظيرا قط فى قصص سفر التكوين .

أما سورة القمر فالقصة فيها مسوقة تحذيراً وإنذاراً لقوم النبى صلى الله عليه وسلم أن يدركهم من العذاب ، إن استمروا على تكذيب رسولهم ، مثل الذى أدرك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط المذكور قصصهم فى سورة القمر (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض

عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا ٩ - ١٧) فهذا وصف باهر معجز لبدء الطوفان وروعته ، ودلالة إعجازه أن كل جملة فيه حق ، قد كان ، فليس للخيال الباطل فيه مكان . وإنما يتجلى الجلال الإلهى فى آياته ، فكل آية منه أسند فيها إلى ضمير الجلالة للمتكلم مثل للإعجاز القرآنى فى المعنى والأسلوب ، وما ليس فيه ضمير المتكلم معجز أيضا ، لكن إعجازه لا يتبين لكل الناس كما يتبين إعجاز مثل : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) .

وقابل وصف بدء الطوفان فى الروعة والجلال وصف نهايته فى سورة هود (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين — ٤٤) آية واحدة كل جزء منها معجز وإن خلا من ضمير الجلالة للمتكلم ، وإلا فمن ذا الذى يأمر الأرض والسماء فتطيع إلا الله ؟ ومع ذلك فقد جاء الضمير فى أول القصة (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين - ٢٥) وفى وسطها (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون - ٣٧) و (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل - ٤٠) ثم فى خاتمة القصة (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين - ٤٩) .

وفى هذه الآية الكريمة جاء ضمير الرسالة ست مرات فى ظل ضمير للجلالة واحد فى قوله (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك) ، ثم فيها إبطال لزعم من يزعم أن مصدر القصص القرآنى ما كان يعرفه العرب أو كان شائعا بينهم من الأخبار والمعتقدات . فالنص واضح لا يقبل التأويل (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وصدق الله .

ولقد شارك القصة فى هود غيرها فى مفتتحها (ولقد أرسلنا) بإثبات حرف العطف فى سورة المؤمنون والعنكبوت ، وبدونه (لقد أرسلنا) فى الأعراف لأن الجملة الكريمة مسبوقة بآية كونية بقوله تعالى (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون — ٥٨) . فضمير الجلالة فى القصة وفى الآية الكونيه واحد ، وبمثله افتتحت القصة (قصة نوح) فى قوله (فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين — الأعراف ٦٤) .

وقد خص نوح عليه السلام من بين الأنبياء والرسل بسورة قصرت كلها عليه هى سورة (نوح) . وقد جاء ضمير الجلالة مكرراً مؤكدا فى أولها (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ، أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) . أما بقيـــة السورة فهى بيان للنذارة كيف قام بها نوح ، وكيف أباها عليه قومه وأصروا على عبادة أوثانهم فاستحقوا الهلاك ، (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ـ ٢٥) ، ومن الطريف أن تسبق هذه الآية آية دعاء نوح على قومه بالهلاك (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ـ ٢٦) ، وما كان إهلاكهم غرقا إلا استجابة لهذا الدعاء ، ففى هذا حجة قرآنية واضحة لصحة ما قرره النحويون من أن الواو العاطفة هى للجمع لا للترتيب ، وإن كان هذا لايمنع أن يأتى الكلام على ترتيب يقصده المتكلم تدل عليه قرينة ما وإن لم تدل عليه الواو .

وفى سورة الصافات أيضا افتتحت القصة بضمير الجلالة للمتكلم فى قوله تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ـ ٧٥) وتكرر الضمير فى الآيات بعدها (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين) إلى أن اختتمت به فى الآية ٨٢ (ثم أغرقنا الآخرين) .

وفى سورة الأنبياء تكرر الضمير فى القصة على قصرها (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ـ ٧٦ و ٧٧) .

أما القصة فى سورة يونس فقد افتتحت بضمير الرسالة (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ـ ٧١) واختتمت أيضا به فى قوله تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) فى آخر الآية ٧٣ (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) فانظر إلى عجيب الإعجاز فى افتتاح القصة واختتامها بضمير الرسالة يؤيده توالى ضمير الجلالة للمتكلم مسندة إليه أفعال لا يقدر عليها إلا الله وحده ، ليعلم من يكن يعقل أن المتكلم بالقصص القرآنى هو الله سبحانه . وهذا من أقوى الأدلة الذاتية وأعجبها على أن القرآن من عند الله (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ـ الأحزاب ٤) .

ومن بين القصص فى السور العشر تفردت القصة فى سورة الشعراء بالحديث فى أولها عن قوم نوح بما يفيد أن التكذيب برسول هو تكذيب بالرسل أجمعين(كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين ـ١٠٥ ١٠٧) ثم اختتمت بما يفيد أن الله كتب النجاة للمؤمنين والهلاك للمكذبين إذ يقول سبحانه : (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ١١٩ — ١٢٢) .

وكذلك كان المفتتح والمختتم فى بقية قصص الأنبياء فى هذه الصورة الكريمة فى نمط واحد، قال عنه الشاعر الفيلسوف(محمد إقبال) فى المحاضرة التى ألقاها فى جمعية الشبان المسلمين [١] حين نزل بها فى طريقه الى المؤتمر الإسلامى فى بيت المقدس — قال إن اتحاد النمط فى المفتتح (كذبت قوم نوح المرسلين) و (كذبت قوم لوط المرسلين) و(كذب أصحاب الأيكة المرسلين) ، وفى اختتام كل قصة بقوله تعالى(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين،وإن

---

(١) ألقاها بالإنكليزية وقمت بتلخيص بعضها بعد فراغه منها . المؤلف

بك لهو العزيز الرحيم) هو تقرير للسنة الإلهية التى لا تتبدل فى إرسال
رسل بالتوحيد ، وإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين .

وكما اختتم قصص آدم بتلخيصه آية واحدة فى آخر قصة له فى سورة
كهف ، اختتم قصص نوح بتلخيصه فى آيتين فى آخر قصـــة له فى سورة
عنكبوت (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ،
أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين
- ١٤ و ١٥) فهذا مثل آخر الإعجاز فى الإيجاز لم يقتصر فيه على ذكر أهم
حداث القصص كله وما فيه من عبرة ، ولكن زيد فيه ما لم يسبق ذكره من
لنص على مدة رسالة نوح وهى نفس المدة التى ذكر سفر التكوين أنها مدة
مره عليه السلام .

والقرآن الكريم مهيمن على الكتب المنزلة قبله ، يصدقها فيما وافقه
يصححها فيما خالفه ، مصداقا لقوله تعالى فى الآية ٤٨ من سورة المائدة
وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا
ليه) ، وضمير الجلالة المتكلم فى هذه الآية هو الذى تكرر ثلاث مرات فى
بتى قصة نوح فى سورة العنكبوت ، ليعلم من لم يكن يعلم أن جلال آى
قرآن بعضه من بعض ، وأن التناسب تام بين جلال المعنى وجلال ضمير
جلالة للمتكلم فى قصص القرآن .

[كتب رحمه الله عقب الانتهاء من هذا البحث بخط يده «تقبل الله منى وأبعد
السوء عنى ونالنى برضاه وكان فى البحث عونى » . الكردانى]

الفصل التاسع

دلالة الأسلوب والمعنى فى قصص القرآن

أما الأسلوب فأساس دلالته أن القصص مسند ابتداء إما إلى اسم من أسماء الله الحسنى ، وإما إلى ضمير الجلالة للمتكلم ، أى صادر عن ضمير المتكلم الذى لا يمكن أن يدل إلا على الله الحق سبحانه . وأما المعنى فأساس الدلالة فيه أنه معنى يليق بما أسند إليه من أسماء الله الحسنى أو الضمير الدال على الله ، وبخاصة ضمير الجلالة للمتكلم . وقد تبين ذلك كله فى الفصل السابق من قصص آدم ونوح عليهما السلام فى مواطنه المتعددة فى القرآن الكريم .

ونريد الآن فى غير تطويل أن نستكمل دلالة القصص لمن بقى من الأنبياء . الأهم منهم ، درءا لشك قد يعرض لقارىء أن ما توافر من الدلالة فى قصص آدم ونوح قد لا يكون يتوافر فى قصص من عداهم ، وفيهم نزل معظم آيات قصص الأنبياء التى بلغت حوالى خمس آيات القرآن فيما أحصينا .

قصص هود وعاد (قومه)

استخلف الله فى الأرض عاداً بعد قوم نوح بدليل قوله على لسان هود يعظ قومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ـ الأعراف ٦٩) ، وقد جاء القصص فى تسع سور هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : القمر والأعراف والشعراء وهود وفصلت والأحقاف والذاريات والحاقة والعنكبوت. وقد ذكرت عاد فى السور كلها ، وخصت بالذكر دون نبيها فى القمر وفصلت والذاريات والحاقة والعنكبوت . لأنها كانت الطرف الذى دعى إلى الله فكذب الداعى فحق عليها الهلاك ، سنة الله فى المكذبين .

وقد غر بعض المحدثين ذكر عاد دون نبيها فى قصتها فى سـورة القمر والذاريات والحاقة فضرب السور الثلاث مثلا لمرحلة أولى زعمها فى فن بناء القصة فى القرآن ، سمتها أن الشخصيات القصصية لا وجود لها فيها تقريبا ، مع أن هذه الصفة لا تنطبق من قصص القمر إلا على قصة عاد . ولو أن صاحب هـذا الزعم رجع إلى مصدر يذكر سور القرآن بترتيب نزول الوحى بها ، (كالاتقان، أو تاريخ القرآن للزنجانى) لوجد البون شاسعا بين تواريخ نزول الوحى بالسور التى ضربها مثلا للمرحلة الأولى التى زعم .

فسورة القمر ترتيبها بين السور المكية (٣٦) والذاريات (٦٦) والحاقة (٧٧) مما يستحيل معه أن تقع السور الثلاث فى مرحلة واحدة تليها ثانية ، تليها ثالثة ، يتم فيها كما زعم بناء القصة فى القرآن ، وقد مثل للمرحلة الثانية بسورتى الأعراف والشعراء وترتيبهما (٣٨) و (٤٦) ، وللمرحلة الثالثة بسورة يوسف (٥٢) أى أن المرحلتين الثانيـة والثالثة وقعتا أثناء المرحلة الأولى . وهذا التداخل بين المراحل الثلاث ، التى زعم أن فن بناء القصـة القرآنية قد مر فيها حتى تكامل وأخذ شكله النهائى ، يبطلها جميعا . فهذا مثل للبحث العصرى فى القرآن تعوزه الدقة والاحتياط اللازمين فى كل بحث . وهما فيما يتعلق بالقرآن ألزم .

وأول السور التى اقتصر فيها على ذكر عاد دون ذكر هود هى سورة القمر، تتكون القصة فيها من خمس آيات ورد ضمير الجلالة للمتكلم فى أربع منها : فى أولاها(كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ـ ١٨)، وفى آخرها (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ؟ ـ ٤٠) وفيما بين ذلك (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر ١٩ـ ٢١) فأغنى ذلك عن كثرة ورود الضمير فى القصة فى بقية السور . وقد ورد فيها جميعا إلا فى سورة الحاقة إذ جاء الفعل ، الذى كان من شأنه أن يسند إلى الضمـــير ، مبنيا فيها للمفعول أو للمجهول (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ـ ٦) فإنه لا يقدر على الإهلاك بالريح إلا الله . ومع

ذلك فقد جاء الفعل بعدها مسندا إلى ضمير الجلالة وإن لغير المتكلم (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ـ ٧) إذ تسخير الريح لايكون إلا من الله. ويلاحظ فى قصة الحاقة أن الإهلاك كان للتكذيب بالقيامة (كذبت ثمود وعاد بالقارعة ـ ٤) وهى الحاقة التى لا بد أن تكون والتى من كذب بها هلك .

قصص صالح وثمود (قومه)

هذا أيضا ورد فى تسع سور هى بترتيب نزول الوحى بها : القمر والأعراف والشعراء والنمل وهود والحجر وفصلت والذاريات والحاقة . وقد خصت ثمود بالذكر دون ذكر نبيها فى نفس السور التى خصت بها عاد إلا سورة القمر فقد حلت سورة الحجر محلها من هذه الناحية . ولم يذكر صالح فى قصة سورة القمر بالإسم ولكن بالحديث عنه، وعن استكبار قومه عليه (فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر ، أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر ـ ٢٤ و ٢٥) ، فتعرضوا بذلك لغضب الله ووعيده فى قوله (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ، إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ـ ٢٦ و ٢٧) .

وقد حملت كلمة (فتنة) بعض المفسرين المحدثين على إنكار أن تكون ناقة صالح معجزة أرسل بها لقومه ، ونسوا قوله تعالى على لسان صالح يخاطب قومه فى سورة الأعراف (قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ـ ٧٣) . وفى الآية بعدها دليل استخلاف الله ثمود فى الأرض بعد عاد كما استخلف عادا من بعد قوم نوح (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ـ ٧٤) .

وقد ورد ضمير الجلالة للمتكلم فى القصة أينما وردت إلا فى الحاقة ، وإلا

فى الشعراء ، فقد ورد الضمير قبل بدء القصة بآية فى آخر قصة عاد (فكذبوه فأهلكناهم ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ١٣٩) وإلا فى الذاريات فقدورد بعد القصة بآيةفىقوله تعالى(والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون - ٤٧) .

قصص إبراهيم عليه السلام

إن بين ابراهيم ونوح قبله فجوة من الزمن واسعة ، لم يذكر الله ممن بعث فيها من الرسل إلا هودا وصالحا ، واستأثر بعلم ماوراء ذلك كما يتبين من قوله فى سورة إبراهيم على لسان موسى يذكر قومه (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، لا يعلمهم إلا الله - ٩) . وقوله (لا يعلمهم إلا الله) لا يشمل كل الفترة بين صالح وموسى ، إذ كان موسى عليه السـلام يعلم طبعا نبأ ابراهيم ومن نبىء من ذريته ، وأخبره الله خبرهم فى التوراة .

وقد جاء قصص ابراهيم عليه السلام فى سبع عشرة سورة . منها خمس مدنية هى : البقرة وآل عمران والممتحنة والنساء والحج ، وربما أضيف إليها أيضا التوبة . وبقيتها مكية وهى : مريم والشعراء وهود والحجر والأنعام والصافات والزخرف والذاريات والنحل وإبراهيم والأنبياء والعنكبوت .

وقد ورد ضمير الجلالة للمتكلم ، على تفاوت فى عدده ، فى عشر سور ، منها اثنتان مدنيتان هما البقرة والحج ، وثمان مكية هى : مريم وهود والحجر والأنعام والصافات والنحل والأنبياء والعنكبوت ، وما عدا ذلك ، فقد ورد الضمير إما قبل القصة أو بعدها ، على تفاوت فى عدد الآيات الفاصلة بينهما ، فالفاصل مثلا آيتان فى سورة الشعراء (وأنجينا موسى ومن معـه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، إن ربك لهو العزيز الرحيم) ثم (واتل عليهم نبأ إبراهيم) الآيات من ٦٥ إلى ٦٨ . وقد لا يكون هناك فاصل ما . قبل أو بعد ، كما فى سورة الزخرف فى قوله تعالى

(فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين . وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فانه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ، بل متعت هؤلاء وآباؤهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ٢٥ — ٢٩) .

فترى الأفعال المسندة إلى الضمير لا يقدر عليها إلا الله . وترى القصة هنا يكتنفها ضمير الجلالة للمتكلم عن جانبيها ، ويغلب إذا كانت هناك آيات فاصلة أن يأتى فى القصة ضمير الرسالة دارئاً عنها مظنة أن يكون الكلام من عند غير الله ، فضلا عن دلالة المعنى الذى لا يقدر على تحقيقه إلا الله .

وحكمة الله وأحكامه الممكن استخراجها من القصص القرآنى يحتاج تبيان الممكن منها إلى كتاب ولا يتسع المجال هنا إلا إلى تأمل بعضها . لكن قبل التأمل لابد من تذكر أمور تجب مراعاتها فيه : (١) أن القرآن حق من الله الحق ، فقصصه حق ووقائعه حق ، فلا بد أن تكون قد وقعت ، ولا يقرر باطلا قط . وإذن فليس فيه قصص أسطورى كما يزعم بعض المحدثين . و (٢) أن القرآن حاكم يحكم ولا يحكم عليه ، فما خالفه يقيناً فهو باطل يقيناً . و(٣) أنه معجز أسلوبا ومعنى ، فكل خاطر ينال من إعجازه فهو باطل ، وكل فهم فيه أوفى آية منه لا يتفق مع ذلك الإعجاز فهو خاطىء . و(٤) أن التناقض والتعارض مستحيل عليه ، فالله سبحانه وتعالى مستحيل عليه الخطأ والتعارض . فالتعارض .إن بدا لناظر فيه ، دليل سوء فهم أو نقص فى العلم أو ضعف فى البحث . و(٥) أن الكون والقرآن هما من عند الله ، فالتناقض بين سنن الكون وآى القرآن غير ممكن . و (٦) أن لابد من مراعاة قواعد العربية فى فهم القرآن خصوصاً قاعدة عدم حمل الكلام على المجاز إلا بقرينة كافية فيه . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ — فى تفسير النسفى لقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فى أول سورة الأعراف(١١) ، قال فى (خلقناكم) «أى

خلقنا أباكم آدم عليه السلام طينا غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك ، ودليله (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) . والاستدلال فى ظاهره صحيح لكن قوله (طينا غير مصور) ليس معنى يليق بالقرآن ، والخلق من الطين ليس له معنى إلا التصوير أولا ، وإذن فالخلق هنا معناه التقدير ولابد من التماس معنى يليق بالقرآن دل عليه ضمير الجمع من غير تأويل .

٢ — استشكل فى تفسير قوله تعالى فى قصة ذى القرنين (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ـ الكهف ٨٦) بأن الشمس مستحيل أن تغرب فى عين فى الأرض ، وهى أعظم كثيرا من الأرض . وهذه القرينة الواضحة الداعية إلى نبذ هذا الفهم جعلوها أساس الاستشكال ، بدلا من أن ينتبهوا إلى أن الخبر هو عن ذى القرنين ، وأنه هو الذى وجد الشمس تغرب كما تبدو لكل إنسان أنها تغرب فى البحر أو وراء جبل حسب موقع الرائى .

٣ — فى كتاب « الفن القصصى فى القرآن الكريم » أن قصة يوسف أجود قصص القرآن من الناحية الفنية ، وهذا معناه أن غيرها من قصص القرآن أقل جودة وأضعف فنا . وهو نقد وحكم على القصص لا يتفق مع إعجازه الذى يعتز صاحب الكتاب به فى بحث حديث منشور له ، إذ يقول فيه « إن القصص القرآنى يقع فى دائرة التحدى كما تقع الآيات القرآنية الأخرى ، ويحكم له بالإعجاز كما يحكم لها ، لأن القرآن حين تحدى العرب أن يأتوا بمثله لم يقف من مسائل التحدى عند حدود غير القصص .

لقد تحدى بالقرآن كله قصصاً وغير قصص ، فقد أبطل هذا القول ذلك النقد حتما ، وإلا لجاء أحد كتاب القصص المحدثين المجيدين وعمد إلى قصة قرآنية غير قصة يوسف وجعلها أكثر فنية حسب المصطلح عليه بين المحدثين من كتاب القصة ، ويكون بذلك قد كسر التحـــدى بالقصص القرآنى وبالقرآن الذى أنزل للبشرية فى كل عصر ، فإعجازه وتحديه لا يقتصر على العرب ولكن يمتد إلى البشرية فى كل العصور .

والخطأ ومنشؤه كامن فى الحكم على القرآن بمعيار اصطلاحى لجـــودة القصص يشترط وحدة الموضوع وإحكام التصميم وجودة الحبكة والانتفاع بالحوادث الاستطرادية ، والقرآن هو المرجع وهو الحكم فى كل ما تعرض له القرآن قصصاً أو غير قصص ، فنا أو غير فن .

والحق أن القرآن شرع للناس فى كل ما قرر عن طريق النص أو الاستنتاج الصحيح. هو هدى للناس فى كل ما يتصل بحياة الناس ، والناس غارقون لآذانهم الآن فى كل ما أغرقهم به الغرب وشغلهم به . عن التأدب بأدب القرآن فى الحياة ، من أدب مكشوف وقصص خليع أو غير خليع . مقروء أو منظور ، يبلبلهم شيئا فشيئا عن دين الله . ويستنزف من أوقاتهم فى اللهو والتسلى ماهم أحوج إلى إنفاقه فى جد الحياة وما سيحاسبهم الله على الإسراف فيه .

* * *

[كان المتوقع أن يمضى عالمنا الراحل تغمده الله برحمته فى تأمل البعض من حكمة الله وأحكامه التى يمكن استخراجها من القصص القرآنى بعد أن ذكر تلك الأمور الستة التى رأى وجوب مراعاتها فى ذلك . ولكنه للأسف رأى لزاما عليه أن يرجىء ذلك حتى يرد على مقال حمل فيه كاتبه حملة شعواء على من حاول أو يحاول إظهار ما استكن فى كونيات القرآن من آيات لله فى الخلق وسنن فى الفطرة ، سبق إليها القرآن قبل أن يكشف عنها أو عن بعضها علماء الفطرة فى العصر الحديث . وبعد كتابة مقالين فى هذا الصدد الأخير عاجلته المنية وحرمت العالم الإسلامى من تلك التأملات التى توقعها . وإنا لنرجو أن يقيض الله للاسلام عالما يقتفى أثر الفقيد الراحل ويقوم بما حال الموت دون قيام المرحوم الغمراوى به . السكردانى]

الكتاب الرابع

الإعجاز العلمى للقرآن

الفصل الأول — القرآن والعـــلم

الفصل الثانى — فى تفسير الآيات الـكونية فى القرآن

الفصل الثالث — الجبال فى القرآن

الفصل الرابع — السماء فى القرآن

الفصل الخامس — الظواهر الجوية فى القرآن

الفصل السادس — مخترعات العصر والقرآن



الفصل الأول

القرآن والعلم

— ١ —

القرآن الكريم حجة الله البالغة على عباده ، وموضع الحجة القاهرة فيه إعجاز الخلق وينبغى ألا يكون إدراك إعجازه موقوفا على فصحاء العرب ومن لف لفهم ، فإن الإنسانية كلها مخاطبة به ، مطالبة بالتسليم له أنه كلام الله ، ليس لآدمى فيه كلمة ولا حرف . والإنسانية أعجميها أكثر من عربيها ، ومع ذلك فلا بد أن يتضح إعجاز القرآن لكل إنسان ، ولو كان أعجمى اللسان ، لتلزمه حجة الله إن هو أبى الإسلام .

هذا النوع من النظر والتفكير يؤدى إلى نتيجة لازمة : أن لإعجاز القرآن نواحى غير الناحية البلاغية ، وغير ناحية التنبؤات التى كانت فى ضمير الغيب حين نزل القرآن ، ثم حققها الله فعلا فيما استقبل الناس من زمان .

الواقع أن موضوع إعجاز القرآن لا يزال بكرا برغم كل ما كتب فيه ، لكنى لست أريد أن أتناوله إلا من تلك الناحية التى لا يتوقف تقديرها والتسليم بها على معرفة لغة لا تتيسر معرفتها لكل أحد . هذه الناحية هى الناحية العلمية من الإعجاز .

وإذا فهمنا الناحية العلمية على أوسع معانيها شملت كل ما عدا الناحية البلاغية من النواحى : تشمل الناحية النفسية ، وكيف اقتاد القرآن النفس ويقودها طبق قوانين فطرتها . وتشمل الناحية التشريعية ، وكيف نزلت أحكام القرآن طبق قوانين الفطرة للأفراد والجماعات . وتشمل الناحية التاريخية التى لم يكن يعلمها

البشر عند نزول ما اتصل بها من آيات القرآن ، ثم كشف عنها التنقيب الأثرى فيما بعد . ثم تشمل الناحية الكونية . ناحية ما فطر الله عليه غير الإنسان من الكائنات فى الأرض ، وما فطر عليه الأرض وغير الأرض فى الكون .

هذه النواحى هى التى ينبغى أن يشمر المسلمون للكشف عنها . وإظهارها للناس فى هذا العصر الحديث ، ولن يستطيعوا ذلك على وجهه حتى يطلبوا العلوم كلها ليستعينوا بكل علم على تفهم ما اتصل به من آيات القرآن ، ويستعينوا بها جميعا على استظهار أسرار آيات القرآن التى اتصلت بالعلوم جميعا . ولا غرابة فى أن يتصل القرآن بالعلوم جميعا ، فما العلوم إلى نتاج تطلب الإنسانية أسرار الفطرة ، والقرآن ما هو إلا كتاب الله فاطر الفطرة ، فلا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة ، وتتجاوب كلماتها وكلماته ، وإن كانت كلماتها وقائع وسننا ، وكلماته عبارات وإشارات تتضح وتنبهم طبق ما تقتضيه حكمة الله فى مخاطبة خلقه ، ليأخذ منها كل عصر على قدر ما أوتى من العلم والفهم ، وكذلك دواليك على مر العصور .

هذا التدرج فى إدراك تمام التطابق بين القرآن والفطرة أمر لا مفر منه فى الواقع . ثم هو مطابق لحكمة الله سبحانه فى جعله الإسلام آخر الأديان ، وجعله القرآن معجزة الدهر ، أى معجزة خالدة متجددة : يتبين للناس منها على در الدهور وجه لم يكن تبين ، وناحية لم يكن أحد يعرفها أو يحلم بها من قبل ، فيكون هذا التجدد فى الإعجاز العلمى هو تجديد للرسالة الإسلامية ، كأنما رسول الإسلام قائم فى كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ، ويريهم دليلا على صدقه آية جديدة من آيات تطابق ما بين الفطرة وبين القرآن .

هذا النوع من الإعجاز يعجز الإلحاد أن يجد موضعا للتشكيك فيه إلا أن يتبرأ من العقل ، فإن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها الإنسانية إلا فى القرن التاسع عشر أو العشرين مثلا والتى ذكرها القرآن ، لا بد أن تقوم عند كل ذى عقل دليلا محسوسا على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن .

وقبل أن نورد بعض الأمثلة الإيضاحية ، يجب أن تنتبه الى أمرين مهمين : الأول أنه لا ينبغى فى فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ ، وتحمل على مجازه . إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة قد أدى الى كثير من الخطأ فى التفسير . وسنرى أن من أعجب عجائب القرآن أن المطابقة بين آياته وآيات الفطرة تكون أتم وأيسر كلما أخذنا بتلك القاعدة فى فهم كونيات القرآن .

هذا أمر، أما الأمر الثانى فهو أنه ينبغى ألا نفسر كونيات القرآن إلا باليقينى الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التى تزال موضع فحص وتمحيص إن الحقائق هى سبيل التفسير الحق ، هى كلمات الله الكونية ، ينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات فهى عرضة للتصحيح والتعديل ، إن لم يكن للإبطال فى أى وقت ، فسبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة السابقة ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه . وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون مقدار حظها من الصواب .

فلنأخذ الآن فى تبين طرف من إعجاز القرآن العلمى عن طريق ضرب الأمثال ، وستكون الأمثال فردية لأن الناحية العلمية العامة من الإعجاز قد سبق بيانها باثبات التطابق العام بين العلم الطبيعى الحديث والقرآن من ناحية الموضوع ومن ناحية الطريقة . وبينا أن العلم بموضوعه مأمور به فى القرآن على التحديد ، وأن العلم بطريقته يقره ويؤيده القرآن .

لنبدأ من الأمثلة بأول آية — بعد البسملة — فى أول سورة من القرآن — لنبدأ بالآية الكريمة فاتحة أم الكتاب (الحمد لله رب العالمين) ولندع إعجاز شطرها الأول ، ولنأخذ فى إعجاز شطرها الثانى ، ولنقتصر من ذلك على ما يتمثل فى الكلمة الأخيرة ، كلمة (العالمين) ، لا شك أنها كلمة فاجأت العرب من ناحيتين على الأقل : ناحية الجمع وناحية تذكير الجمع ، فالعرب لم يكونوا

يعرفون إلا عالما واحدا هو الذى كانوا يعيشون فيه . والناس الى اليوم لا يتحدثون إلا عن عالم واحد هو الذى نبصر ونحس ونعيش فيه . فقصر الحمد على رب العوالم شيء فاجأ الناس إذ ذاك ، ولم يألفه كل الناس إلى اليوم ،

والتمس الناس تلك العوالم المتعددة ، فقالوا : هى عوالم الإنس والجن والملائكة ، وقالوا هى عوالم الحيوان والنبات والجماد ، ولكن ليس كل ذلك هو معنى ذلك اللفظ لفظ (العالمين) . إنه جمع معرف لا جمع منكر ، وأنت إذا قلت (العالم) لم تفهم إلا عالماً واحدا هو هذا الشامل لكل ماترى من أرض وسماء . وإذا أخذنا بحرفية اللفظ فى الفهم طبق قاعدتنا الأولى ، كان عالمنا هذا فردا من أفراد، وعالما من عوالم مثله ، فأين هذا المعنى فى أى كتاب بأى لسان قبل القرآن ؟

ثم جاء علم الفلك الحديث بمراقبه ومراصده وتحليلاته الرياضية وغير الرياضية ، فبين أن المجموعة الشمسية ، التى نحن فيها ومنها ، ليست فى هذا العالم المجرى شيئا مذكورا ، وبين أن هناك عوالم مجرية أخرى مترامية المطارح تعد لا بالمئات ولا بالألوف ولكن بالملايين .

لكن العلم الحديث لم يهتد الى الآن فى العوالم المجرية الأخرى الى أرض كأرضنا ، وإن اهتدى إلى أن فى كل عالم مجرى آلافا مؤلفة وملايين من شموس . وستجد أكثر الناس يقنع من التطابق القرآنى العلمى فى هذا اللفظ الكريم بهذا القدر ، لكن حرفية المعنى القرآنى لا تقنع بهذا . وتؤدى الى أكثر كثيراً مما نعرف الآن عن إخوته ، فيه أرض تدور حول شمس وأمامها ، كل ما فى الأرض وما فى الشمس من أسرار : فحرفية اللفظ القرآنى ، وحقيقة الجمع القرآنى يقتضيان أن تكون هناك عوالم أخرى فيها أرض تدور حول شمس ، أى أنه لا بد ، حسب حرفية القرآن ، أن يكون فى ملايين العوالم المجرية الأخرى عوالم ولو قليلة . يتحقق فيها ما هو متحقق لنا فى هذا العالم الذى جمعه الله سبحانه فى أول آية من كتابه جمع تذكير، ليكون فى ذلك إشارة

وتنبيه للناس إلى ما فى الكلمة الكريمة من أسرار ليطلبوها ، فلا يصرفوا أنفسهم عنها بتعليلهم صيغة الجمع بمراعاة الفاصلة ، أو التغليب أو ما أشبه ذلك من تعليل .

فما مبلغ ما وصل إليه العلم الحديث فى شأن هذا السر العظيم الذى أشار اليه الخالق سبحانه بكلمة (رب العالمين) ، هو وسر وجود الحياة فى أرض غير أرضنا فى عالم كعالمنا ؟ كل ما وصل اليه العلم من هذا هو أن وجود الحياة على غير كوكبنا هذا أمر ممكن ، بل أمر راجح. ومن يرد الاستزادة من وجهة العلماء فى هذا الأمر فليقرأ فصل (الحياة فى العوالم الأخرى) من كتاب (عوالم لا نهاية لها) للفلكى الملكى الانجليزى هـ . سبنسر جونز .

وإذا لم يكن لدى العلم إلا ترجيح ما فهمنا من اللفظ الكريم فهل فى كتاب الله ما يؤيد هذا الفهم وهذا الترجيح ؟ هل فى القرآن ما يفصل هذا السر المجمل فى لفظ (العالمين) ؟ فإن أوثق ما يفسر به القرآن هو القرآن . نعم ، إن الله منزل القرآن ينبئنا فى كتابه العزيز أن هناك أرضين أخرى مثل أرضنا ، وفرق ما بين الأرض والكواكب الأخرى أن على الأرض حياة . وإلا فالأرض أيضا كوكب سيار كغيره من السيارات . وأول ما تطالعنا آيات فى سورة فصلت تتعلق بالموضوع هى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ٩ — ١٢) .

هذه الآيات الكريمة الأربع فيها فنون من الإعجاز العلمى ، نكتفى منها بما يتصل مباشرة بالنقطة التى نحن بصدد بحثها ، وأول ما نلاحظ من ذلك أن الآية الأولى نص فى صحة ما استنبطنا من أن العالم فى آية الفاتحة ليس هو مجرد عالم

الإنس والجن أو عالم الحيوان والنبات والجماد ، ولكن هو العالم الفلكى الذى يتبادر الى الذهن من اللفظ . ووجه كونه نصاً فى ذلك أن الآية والتى تليها تتناولان خلق الأرض على شطرين .

ولما كان الشطر الثانى فى الآية الثانية متعلقا بتطورات خلق الأرض ، تلك التطورات الضرورية للحياة فيها ، فان شطر خلقها فى الآية الأولى متعلق بتكوين أرضنا أول ما تكونت عند ميلادها ، وتكون خاتمة تلك الآية (ذلك رب العالمين) متعلقة على الأخص بالمعنى الفلكى الذى هو موضوع الآية . ومن لطيف ما ينبغى الانتباه إليه كمثل للإشارات القرآنية العلمية أن يومى الخلق المذكورين فى الآية الأولى داخلان — طبعا — فى الأربعة الأيام المذكورة فى الآية الثانية ، إشارة إلى أن طورى الخلق متداخلان ، كما هما فى الواقع ، وهو مثل رائع للإعجاز فى الإيجاز .

فاذا انتقلنا الى الآية الثالثة ، وجدناها تنبئنا أن السماء ، عند ما تم خلق الأرض كانت دخانا ، وأن السموات السبع لم يكن خلقهن بعد ، بل كن كاهن سماء واحدة ، بدليل قوله تعالى فى الآية الرابعة (فقضاهن سبع سموات فى يومين) . وإذن فقد كان هناك قبل خلق السموات السبع أرض واحدة تم خلقها . وسماء واحدة كانت دخانا ، وهذا عجيب من أسرار خلق السموات والأرض لا يعرف العلم منها إلا أن السماء كانت يوما دخانا ، ولا تزال كتل هائلة مما سماه الله دخانا يشاهدها الفلكيون بمراقبهم القوية اليوم فى السماء . وإن تكتل داخل أكثرها نجوما ، ويسمونها سدما ، ما تكتل منها وما لم يتكتل . وهذا مثل عجيب من الإعجاز العلمى للقرآن : هذه الدخانية التى كانت عليها السماء .

وواضح أن تخلق السماء إذ ذاك سموات سبعا ، المشار إليها فى الآية الرابعة كان طاعة من السماء لنصيبها من الأمر (إئتيا) . إذن فما هو نصيب الأرض

وقد قالتا (أتينا طائعين) ؟ هل الأرض فى قوله تعالى (فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها) هى نفس الأرض التى نحن عليها ؟ إن الجواب المتبادر هو نعم ، لكن القرائن تمنع من هذا المتبادر . وأول هذه القرائن وأهمها أن أرضنا هذه كان قد سبق تشكيلها ، وتم خلقها وخلق جبالها وخلق الحياة على ظهرها قبل أن يصدر الأمر ، بدليل (ثم) الترتيبية فى أول الآية الثالثة ، بعد تمام خبر خلق الأرض فى الآيتين الأوليين . والأمر أمر واحد (إئتيا) فإذا كان (أمر خلق) فيما يتعلق بالأرض المخاطبة . فهل يمكن أن تكون الأرض المخاطبة بهذا هى الأرض التى تم خلقها ؟ أليست هذه قرينة قوية جدا على أن الأرض فى الآية الثالثة غير الأرض فى الآية الأولى ، أى غير أرضنا هذه ؟ بلى ، وتكون (ال) للعهد فى الآية الأولى وللجنس فى الثالثة . فهل هناك قرائن أخرى على هذا الاستنتاج تؤيده وتزكيه ؟

إذا تذكرنا أن المقابلة تامة فى اللغة بين كلمتى أرض وسماء ، وكذلك هى تامة فى الآيات الثلاث الأولى ، حين لم يكن إلا أرض واحدة وسماء واحدة ، كان فى ذلك إشارة مغنية إلى أن السبع السموات المذكورات فى الآية الرابعة يقتضى وجودهن وجود سبع أرضين يقمن بإزائهن : أرض تقابل كل سماء . ولما كانت إحداهن موجودة تامة الخلق بالفعل حين صدر الأمر ، كان المخاطب المعنى بالأمر فى (ائتيا) هو الأرضين الست الأخرى المقابلة للسموات الست الجديدة ، خلقهن سبحانه كلهن من السماء الدخانية الأولى . وتكون (ال) فى لفظ الأرض فى الآية الثالثة هى للجنس كما استنتجنا .

ويزداد هذا المعنى والتخريج تأييدا فوق تأييد ، وتوضيحا فوق توضيح ، بالآية الأخيرة (١٢) من سورة الطلاق (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير . وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) .

إن (ال) فى الأرض هنا هى حتما للجنس لا للعهد ، بدليل قوله (مثلهن) والسموات السبع متعددة . ليس فى ذلك شك ، فلابد أن تكون الأرضون السبع متعددة أيضا على نفس النحو والنمط ، لتتحقق المثلية المنصوص عنها فى الآية ، لا أنهن سبع طبقات فى أرضنا هذه كما فهم الناس ويفهمون . فأرضنا واحدة ، وليس يفهم العلم ولا الناس من لفظ الأرض إذا أطلق إلا أرضنا هذه جملة بجذافيرها وطبقاتها كلها . فتفسير الأرضين السبع بطبقات سبع فى هذه الأرض تفسير لا يتفق مع اللغة ، ولا مع العلم ، ولا مع القرآن ، ولا مع الحديث الكريم : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن » لمن يدقق فى فهم الحديث وتوجيهه على المعنى المألوف .

هذه النتيجة التى تتفق مع حرفية القرآن ، وحمله على الحقيقة اللغوية لا على المجاز ، تحل لنا وللانسانية مشكلة السموات السبع حلا حاسما ، فقد عجز الناس إلى الآن عن الوصول إلى فهم للسماوات السبع ليس عليه اعتراض . قالوا إنها السيارات السبع ، فظهر من السيارات عشرة ليس من بينها القمر كما يقول اليونان . وقالوا إنها سبعة عوالم فى السماء ، فكانوا كأن لم يقولوا شيئا ، إذ ليس هناك ما يحدد معنى عوالمهم هذه . والعوالم والأكوان أكثر من سبعة بكثير .

لكن تعال الآن إلى المعنى القرآنى المتبين آنفا ، وتذكر الارتباط والمقابلة بين أرض وسماء فى اللغة ، لفظا ومعنى ، وطبق ما تفهم من السماء بالنسبة لهذه الأرض على كل أرض من الأرضين الست الأخرى ، يتحدد معنى السماء وعددها بتحدد معنى الأرض وعددها . أو إذا جئت المسألة من الطرف الآخر ، يتحدد معنى الأرض وعددها بتحدد معنى السماء وعددها (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) . سبع سموات وسبع أرضين . كل أرض تحدد سماءها ، وأكبر الظن أن مرقب المائتى بوصة الجديد سيكشف

مع الزمن عن بعض هذه الأرضين الست فتتجدد بذلك آيات أخرى من آيات إعجاز القرآن .

بقيت نقطة واحدة لعل من الخير استيفاؤها : أخبرنا الحق سبحانه أن السموات السبع كن قبل سماء دخانية واحدة ، وهذه الأرض مخلوقة . فهل أخبرنا سبحانه فى القرآن شيئا عن هذه الأرض ، أين كانت قبل أن تخلق ؟ نعم ، فى سورة الأنبياء (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما؟ - ٣٠) وإذا تركنا المجاز ، ولزمنا الحقيقة اللغوية طبقا لقاعدتنا نتج حتما من هذه الآية الكريمة أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا متصل الأجزاء . وهذه عجيبة كبرى من عجائب إعجاز القرآن العلمى يؤيد القرآن بها العلم الحديث فى قوله بأن الكون كله كان شيئا منبثا واحدا قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم .

وتأمل إن شئت ، واعجب ما شئت ، من إعجاز القرآن فى التعبير عن هذا السر الحق الهائل فى الآية الكريمة ، آية الأنبياء . تأمل كيف لم يسم ذلك الكون الرتق سماء إذ لم تكن أرض ، وإذ كانت السموات والأرضون شيئا واحدا منبثا لعله كان دون الدخان . لدينا إذن على الأقل ثلاث معجزات يقينية يستيقنها العلم الآن (١) تعدد العوالم فلكيا ، (٢) دخانية السماء فى البدء ، (٣) انفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها اتصالا فى الأول . وتبارك الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن .

القرآن والعلم — ٢ —

لننظر فى الآية ٣٨ من سورة يس (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) فالفعل (تجرى) ينطبق فى أعين الناس على حركة الشمس من المشرق إلى المغرب . وهو فى حرفيته يعبر عن حركة حقيقية أثبتها العلم للشمس بسرعة مخصوصة قدروها بنحو اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه مخصوص

فى فضاء الله ، هى الجهة التى فيها النجم المسمى (فيجا) فى الأفرنجية و (النسر الواقع) فى العربية . والفعل يدل ، ليس فقط على حركة انتقالية ذاتية للشمس، ولكن يدل أيضا على عظم تلك الحركة ، إذ الجرى طبعا أدل على السرعة من المشى أو السير . ولو كانت الشمس غير ذات حركة فى الواقع وكان الفعل (تجرى) معبرا فقط عن حركتها الظاهرية بالنسبة إلى الأرض لانفتح للملحد أو مستشرق يكفر بالقرآن أن يقول إن جملة (والشمس تجرى) هى من عند إنسان يصف ما يرى ، أما وقد ثبت للشمس جرى حقيق فى الفضاء متعين المقدار والإتجاه بعد نحو اثنى عشر قرنا من عصر القرآن ، فالجملة القرآنية هى من عند خالق الشمس آية للناس على أن القرآن من عند الله .

أما الشطر الثانى من الآية الكريمة وهو (لمستقر لها) فن الواضح أن هذا المستقر الذى ينتهى إليه جرى الشمس أمر من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله العزيز العليم ، الذى قدر ذلك الجرى على هيئته ينتهى إلى غايته فى الوقت الذى استأثر سبحانه بعلمه ، إذ هو فيما يبدو متعلق بالأشراط الفلكية لقيام الساعة ، إن لم يكن هو وقت قيامها .

وتنكير المستقر فى قوله (لمستقر لها) يشير إلى عظم شأنه ، وهول آثاره التى ستكون ، كالذى نبه إليه الإمام عبد القاهر من دلالة التنكير فى قوله تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا ـ الأعراف ٨٤) فى قصص قوم لوط . والقرينة على هذه الدلالة فى إحدى الآيتين تختلف عنها فى الأخرى لاختلاف المقام فى كل ، كما يدل عليه السياق . فالمقام فى آية قصة قوم لوط مقام تحذير من عاقبة الإصرار على الغواية وتكذيب الرسل ، فكانت القرينة قوله تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ـ الأعراف٨٤) ، وقوله (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ـ الشعراء ١٧٣ والنمل ٥٨) .

أما المقام فى آية يس فهو مقام تحذير إجمالى من تكذيب الرسل ، وتنبيه تفصيلى إلى بعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وعلى كمال قدرته وحكمته

وجلال فضله ونعمته على عباده ، فكانت القرينة اللغوية قوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم - يس ٣٨) ، والإشارة فى (ذلك) هى طبعا لكون الشمس تجرى لمستقر ، أى للجرى وغايته معا ، لا لأحدهما وحده ، وغريب أن يكون غاب عن الفخر الرازى شمول التقدير للأمرين جميعا ، إذ جعل اسم الإشارة راجعا إلى الجرى أو إلى المستقر على الاحتمال ، كما تراه فى موضعه من تفسيره (الجزء ٧) .

وكما دل التنكير على عظم شأن المستقر الذى تنتهى إليه الشمس فى جريها الحقيق فإنه أيضا قد سمح لأكثر المفسرين أن يذهبوا فى معنى المستقر إلى ما يتفق وجرى الشمس الظاهرى ، وتغير مواقعها فى الشروق والغروب طوال العام ، وترددها فى ذلك كل عام بين أقصى موقعين تبلغهما فى الشتاء والصيف لا تتعداهما بحال . فكل موقع من هذين الأقصيين هو لها مستقر . فى الشتاء مرة وفى الصيف مرة أخرى ، هذا هو خير ما قاله الأكثرون ، ولولا تنكير (مستقر) ما استقام لهم هـــذا ، لأنهم يقررون أن الشمس إذ تبلغ أحد الموقعين ، تبدأ ترجع أدراجها حتى تبلغ الموقع الآخر فى ستة أشهر . وليس هذا باستقرار إلا على وجه مجازى يبيحه التنكير .

وفى المفسرين القدامى من قال إنه لا استقرار للشمس فى حركتها حتى يجىء يوم القيامة ، فتبطل حركتها وتستقر . وهذا أقرب تفسير إلى الصواب لولا أن أهله قصدوا بحركة الشمس هذه الحركة اليومية الظاهرة الراجعة فى الحقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ، والراجع اختلاف المشارق والمغارب فيها الى اختلاف مواقع الأرض من الشمس فى حركة الأرض السنوية ، ودورانها حول الشمس مرة فى العام ، فهم طبعا لم يقصدوا الحركة الحقيقية العظيمة السرعة التى أثبتها العلم للشمس وأنبأ بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحديث ، فكان ذلك للقرآن معجزة علمية كبرى ينبغى أن يتذكرها دائما كل مسلم مثقف ، ويجعلها نصب عينيه ليزداد بها يقينا أن القرآن

من عند الله حقا . وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولا تكلف فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم وكونيات القرآن .

فهذه المطابقة بالصورة التى رأيت هنا ، قد بينت صنوفا من الإعجاز فى آية سورة (يس) لايكاد الإنسان يقضى حقها عجبا : آية من أربع كلمات تحوى فى كلمتين (والشمس تجرى) معجزة كبرى علمية ، وتحوى فى كلمتين أخريين (لمستقر لها) نبوءة مذهلة ستتحقق من غير شك لأنها قرينة المعجزة العلمية الصادرة عن فاطر الشمس سبحانه ، ثم تحوى فى الكلمات الأربع إعجازا بلاغيا فى مراعاة مقتضى الحال ، إذ تحمل فى كل من شطريها تأويلا يتفق مع الظاهر للناس من حركة الشمس ، حتى يهتدى بها الناس جميعا ، من عرف سر هذه الحركة النسبية ومن لم يعرف ـ من عرف هذا السر اهتدى به وبالمعجزة العلمية التى حوتها الآية ، ومن لم يعرف اهتدى بموافقة الآية للحركة التى يرى .

ودوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس ، ماموقف القرآن منهما ؟ وهل فيه دلالة عليهما ؟ . إن هذا التساؤل ليس فيه افتئات ،كما قد يظن بعض من يخشى أن تحمل آى القرآن مالا تحتمل ، بل هو تساؤل ينبغى أن يكون . إن الله قد أنبأ بالحركة الذاتية للشمس ليكون فيها وفى الإنباء بها آية للناس ، فمن المعقول أن يدل الله فى كتابه على الحركة الذاتية للأرض التى يخلق بها سبحانه هذه الحركة الظاهرة للشمس ، ليكون فى الدلالة على حركة الأرض فى القرآن آية أخرى للناس تهدى الى الله ، وتشهد للقرآن مرة أخرى أنه حقا من عند الله . فقد لبث الناس عامتهم وخاصتهم قرونا بعد نزول القرآن وهم يعتقدون أن الأرض ثابتة لاحراك بها ، إذ ليس للأرض حركة محسوسة فى الظاهر كحركة الشمس النسبية من المشرق إلى المغرب ، التى فسرها فلاسفة اليونان تفسيرهم الذى خطأه علم الفلك الحديث من جميع الوجوه .

وفى الحق أن هذا المعقول أن يكون قد كان فعلا فى القرآن ، ففيه دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيها جاءت عن طريق الإشارة لا صريح العبارة ، مراعاة لمقتضى الحال فى خفائها وعدم إحساس الناس بها .

فلو أن القرآن صارحهم بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه ، وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة البالغة ومن الإعجاز البلاغى فى الأسلوب أن ينبه الناس فى كتاب الله إلى آيته سبحانه فى حركة الأرض حول محورها ، وفى حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات إلى نتائج كل من الحركتين ، مناً عليهم بها ، وحثا لهم على اكتناه أسبابها .

ومن أعجب مظاهر المن والحث مجتمعين القسم : قسم الخالق سبحانه بمخلوقاته حين غفل الناس عن آياته فيها ، لما تعودوا وألفوا منها حتى غطت العادة والألفة على مواقع النعمة ، ومواطن الحكمة ، ومواضع العبرة ، فيما خلق لعباده ، فإذا أقسم الله فى كتابه العزيز بالليل وبالصبح وبالضحى وبالنهار ، أفلا يكون فى هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها ويتساءلوا : ماذا أودع الله فيها من مجالى حكمته ومظاهر عظمته وقدرته ، حتى استحقت أن يقسم لعباده بها وهو خالقهم وخالقها ؟ فإذا بحثوا وعرفوا أنها ناشئة عن حركة للأرض فى كل يوم أمام الشمس ، أفلا يكون فى ذلك القسم دليل إلى تلك الحركة .

على أن الله سبحانه لم يجرد القسم من إشارة تدل على طبيعة السر الذى أودع فى المقسم به : فقد وصف الليل عند القسم به بالإدبار تارة (والليل إذ أدبر — المدثر ٣٣) ووصفه بالإقبال والإدبار كليهما فى قوله (والليل إذا عسعس — التكوير ١٧) . لأن الفعل معناه أقبل ظلامه أو أدبر . ووصفه بالسرى فى سورة الفجر (والليل إذا يسر — ٤) . وكلها أوصاف تقتضى الحركة ، وهى كناية عجيبة عن حركة الأرض اليومية لا تفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هى الأصل فى جو الأرض فى النصف غير المقابل (أى المدابر) للشمس ، وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة فى اليوم من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ليتعاقب فيها الليل والنهار على كل مكان فى الأرض على جانبى خط الاستواء إلى قريب من القطبين .

ومن عجيب أمر القسم بالصبح وبالنهار فى القرآن أنهما لم يوصفا بإقبال ولا إدبار ، لأن ذلك لو كان لما جاء بمعنى جديد إذ هو لازم حتما من إدبار الليل وإقباله ، ولكنهما وصفا بالوصف الخاص بهما ، الناشىء عن سلوك الضوء ، ضوء الشمس ، فى الغلاف الهوائى المحيط بالأرض ، وولوجه فيه تدريجا عن طريق الانكسار فى طبقات الهواء العليا الأخف ، إلى طبقات الهواء السفلى الأكثف ، من الفجر إلى الإسفار ، ثم انتشاره بعد طلوع الشمس تدريجا أيضا بالانعكاس على الأخص وبالانكسار أيضاً حتى يعم النهار . ولولا الغلاف الهوائى ما كان هناك فجر ولا صبح ولا إسفار فى أول النهار قبل طلوع الشمس ، ولا شفق فى آخر النهار بعد غروبها . فليس شىء من ذلك بكائن على القمر مثلا بعد أن فقد هواءه لضعف جاذبيته الناشىء عن صغر كتلته مع سرعة حركة الجزيئات فى أى غاز .

من أجل ذلك جاء القسم بالصبح إذا أسفر فى سورة المدثر (٣٤) ، بعد القسم بالليل إذ أدبر ، وجاء القسم بالنهار إذا جلى الشمس فى (والنهار إذا جلاها ـ ٣ من سورة الشمس) وليس على القمر نهار كالذى نعرفه على الأرض تتجلى فيه الشمس ، فسماء القمر تظل مظلمة فى نهاره الطويل طول نصف شهر عندنا ، كما هو الحال فى نهارنا أيضاً إذا علونا الغلاف الجوى بهوائه وسحبه كما استنتجه العلماء من أن الضوء لا يرى بذاته ولكن بالانعكاس عن المرئيات ، وكما شاهده طيارو الفضاء ، حين دارت بهم القميرات الصناعية حول الأرض أعلى من غلافها الجوى .

ومن عجب أن هذا الذى يستنتجه العلماء وشاهده طيارو الفضاء من ظلمة السماء قاطبة بالنهار إذا علونا الأرض ، وتجاوزنا غلافها الهوائى ، هذه الحقيقة التى لم يكن ليصدق بها أحد من قبل ، قد دل عليها القرآن المجيد صراحة فى كلمتين هما (وأغطش ليلها) فى قوله تعالى : (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ـ النازعات ٢٧ ـ ٢٩) .

فالضمير فى (ليلها) راجع إلى السماء التى تتكلم الآيات الكريمة عنها وحدها ، فالله سبحانه ينبئنا أنه أظلم ليل السماء ، لا ليل الأرض ، ومع ذلك فقد فات المفسرين دلالة هذه الإضافة ، وهم معذورون إذ صرفوها إلى ما يعرفون من هذا الليل وجعلوها من المجاز . ولو لزموا النص ودلالته لاهتدوا إلى حقيقة عجيبة غريبة أنبأ بها القرآن ، ولم يحققها الإنسان إلا منذ سنوات لما بدأ عصر الفضاء هذا ، فأثبت بذلك من حيث لا يدرى معجزة علمية أخرى للقرآن ليس إلى جحودها سبيل .

فإذا ما تجاوزنا القسم وإشارته ، واستزدنا من الدلالة على الحركة اليومية فى القرآن وجدناها فى قوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ـ الأعراف ٥٤) فالمغشى يصح أن يكون الليل أو النهار لأن التعبير يحتملهما كما يقول الزمخشرى وإذن فهو يشملهما إذ لو كان أحدهما هو وحده المغشى لا الآخر ، لجاء التعبير القرآنى نصا فى ذلك لا يحتمل غيره ، لأنه كلام الخالق سبحانه الذى لا يجوز أن يأتى لفظه أضيق أو أوسع من المعنى الذى قصد ، وإذن فكل من الليل والنهار يطلب الآخر طلبا حثيثا بإذن الله كى يغشاه ، ثم يكون ذلك على وجه التجدد المستمر كما تفيده صيغة المضارعة فى الفعلين مع الحالية فى الفعل الثانى .

فتأمل معى جلال هذه الكلمات القرآنية الخمس كيف صورت أدق تصوير تلك الظاهرة الكونية العجيبة ، ظاهرة زحف النهار إثر الليل حالا محله من طرف ، وزحف الليل إثر النهار حالا محله من الطرف الآخر ، فى كل بقعة من بقاع الأرض أثناء دورتها اليومية حول نفسها ، أو حول محورها أمام الشمس ، نتيجة لذلك الدوران الذى يدل على عظم جلاله وجماله مرجع الضمير فى قوله تعالى : (يغشى الليل النهار) فانه راجع إلى لفظ الجلالة فى أول الآية الكريمة فى سورة الأعراف .

ثم هذا الدوران نفسه قد دل القرآن عليه بما يكاد يكون نصا صريحا فى قوله : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ـ الزمر ٥) «والتكوير

اللف واللى ، يقال كار العمامة على رأسه وكورها ، كما يقول الزمخشرى فى تفسيره . إلا أنه جعل يلتمس لذلك معنى مجازيا ، لما غاب عنه ما ظل مجهولا للناس أجمعين لقرون بعده ، من أن الله سبحانه يلف الليل على النهار بلف محورى حقيق للأرض ، التى هى محل الليل ، ويلف النهار على الليل بلى حقيق لأشعة ضوء الشمس فى غلاف الأرض الهوائى الذى تملؤه الظلمة وهى تدور . وفى الفعل (تكور) المكرر مرتين فى الآية معجزة علمية أخرى ، إذ قد دل بوضوح على كروية الأرض بكروية جوها الذى يشغله ، ويتعاوره الليل والنهار على التجدد على كل بقعة من بقاع الأرض . وفى هذا غناء عن الاستشهاد على كروية الأرض بكلمة (دحاها) فى (والأرض بعد ذلك دحاها ـ النازعات ٣٠).

فإن احتجت إلى مزيد من الدلالة فى القرآن على الحركة اليومية للأرض فأنت واجد حاجتك بإذن الله فى قوله (ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ـ يس ٤٠) ومعنى الكلمات الأربع الأول ظاهر مما تقدم ، فلا محل للإشكال الذى ذكره الفخر الرازى . أما الشاهد فهو فى الكلمات الأربع الأخرى (وكل فى فلك يسبحون) وقد جاءت فى إثر الأربع الأولى كما ترى ، فهل تشمل الليل والنهار المذكورين فيها ، كما تشمل الشمس والقمر المذكورين فى مفتتح الآية الكريمة (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ـ يس ٤٠) فالليل والنهار يسبحان فى فلك ، لكل فلك يدور فيه ، ألا وهو فلك الأرض أو بالأحرى فلك جوها الذى يدور بدورانها مرة حول محورها أمام الشمس كل يوم .

أما حركة الأرض السنوية حول الشمس فى القرآن الكريم دلالتان عليها على الأقل ، إحداهما عن طريق الإشارة إلى أثرها فى الليل والنهار من حيث تداخل أحدهما فى الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة من تلك الحركة ، وذلك فى مثل قوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ـ فاطر ١٣) وقوله (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج

النهار فى الليل ـ لقمان ٢٩) وقوله (ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ـ الحج٦١) . وتكرار المعنى هكذا فى آيات متعددة توكيد له من ناحية ، وتنبيه من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التى يحسونها من ناحية أخرى . والسر هو فى تلك الحركة كما عرفها الفلكيون والجغرافيون خاضعة للسنن الكونية الثلاث المعروفة بقوانين (كيلر) لدوران السيارات حول الشمس ، ولقانون الجاذبية العامة التى كشفها وكشف قانونها (نيوتن) . أما الدلالة الثانية فهى أهم ، لأنها إشارة تكاد تكون فى صراحة ، عبارة تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية ، وتلك هى دلالة قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ـ النمل ٨٨) .

والسحاب كما هو معروف لايتحرك بذاته ولكن ينتقل محمولا على الرياح، فكذلك الجبال يراها الرائى فيظنها جامدة فى مكانها وهى تمر مسرعة محمولة أيضا ، وليس لها حامل إلا الأرض ، فالأرض إذن هى المسرعة بها كما تسرع الرياح بالسحاب ، وكلا الأمرين من صنع الله الذى أتقن كل شىء . فالاستنتاج فى الواقع قريب غير بعيد . يسره الله لأهله بذلك التشبيه العجيب الذى دل ، أو ينبغى أن يدل ، الناظر إلى أن فى حركة الأرض الحاملة للجبال من آيات الله ومن المنافع لعباده ما يشبه الآيات والمنافع التى أودعها الله فى حركة الرياح الحاملة للسحاب ، والتى نوه الله بها فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم .

وليس عجيبا أن يفوت المفسرين جميعا هذا المعنى على قربه لمن يعرف ما أثبته العلم للأرض من حركة حول الشمس ، لأنهم لم يكونوا يعرفون أن للأرض حركة ما ، لا يومية ولا سنوية . ومن هنا صرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق فى الآية الكريمة وما يستلزمه قوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شىء ـ النمل ٨٨) من أن الظاهرة التى لفت الله إليهـــا الإنسان فى قوله (وترى الجبال . .) هى ظاهرة كونية فيها من إتقان الصنع ما يدل على جلال حكمته

وقدرته سبحانه وما ينافى ما سماه قدامى المفسرين نقضا لسنن الله فى الكون يوم القيامة ، أو بين يدى يوم القيامة ، من نسف الجبال نسفا ، إلى آخر ما نطقت به الآيات القرآنية المتعلقة بالساعة وأشراطها .

والزمخشرى وحده هو الذى أدرك بذوقه البيانى عدم التلاؤم بين قوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شىء) وبين ما سيحل بالجبال بين يدى الساعة، فقدر محذوفا يليق فى رأيه بذلك الصنع المتقن إذ قال « والمعنى يوم ينفخ فى الصور ، وكان كيت وكيت ، أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين ، ثم قال «(صنع الله) يريد به الإثابة والمعاقبة ، وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، إلى آخر ما قال مما رفضه غيره مثل أبى حيان فى تفسيره ونسبه إلى مذهب الزمخشرى فى الاعتزال .

ولو عرف الزمخشرى وأبو حيان ما نعرفه اليوم من دوران الأرض حول الشمس بتلك الكيفية الباهرة ، وما يحكمها من تلك السنن الإلهية الدقيقة القاهرة وما يترتب عليها من المنافع للناس ، إذن لكبروا الله وتسارعوا إلى المعنى المتبادر من الآية ومن تشبيهها التمثيلى ومن القرائن الحسية والبلاغية فيها ، ولفهموا الخطاب فى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ـ ٨٨) على أنه خطاب للانسان ، الآن وفى كل عصر آت ، يدله على آية من آيات الله الكبرى عله يهتدى بها إلى الله ، كما دله فى الآية التى قبلها بآيتين على مثيلة أو مثيلات لها تهدى إلى الله ، أو من شأنها أن تهدى إليه سبحانه ، وهى قوله (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ـ ٨٦). والسياق ودلالته ينبغى على الأقل أن يشمل هذه الآية ودلالتها فيما يشمل ، وإذن تسقط حجة المحتج بأن آية (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين ـ ٨٧) فى موضعها بين الآيتين تشهد لمن يجعل آية الجبال خاصة بما يتعلق بالجبال من أحداث يوم القيامة .

وبعد فإن من لطيف المناسبة أن تشير آية (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) إلى ظاهرة تنشأ من إحدى حركتى الأرض وأن تشير آية (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) إلى الحركة الأخرى ، تلك الإشارة الواضحة العجيبة . ومن حكمة الله البالغة أن جعل بين الآيتين آية تتعلق بيوم البعث ، لتصرف الأذهان بها عن المعنى الذى لم تكن لتعقله قبل أن يأذن الله بالكشف عن سنة الله فى حركة الأرض حول الشمس كسيار من السيارات التى أقسم الله بها تنبيها إلى آياته فيها ، إذ يقول سبحانه (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ـ التكوير ١٥ و ١٦) .

وللقرآن الكريم فى كل من ميدانى الخاص والعام أسلوبه الحكيم للدلالة على ما يريد أن يدل عليه من أسرار الفطرة ليكون كل سر منها ، إذا أذن الله بالكشف عنه ، هاديا إلى الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن . ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل بأسلوب لا يصدم البديهى المسلم به عند الناس فيكذبوه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذا يسر الله سبيل الكشف لأولى العلم فى مستقبل العصور . وهذا من أعجب عجائب القرآن التى لا تنقضى . ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما ، أو يدل عليها أولى العلم ، ثم لا يصدم الناس فيما يعتقدون ولو كان ما يعتقدونه مخالفا تلك الحقيقة ـ هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية ، أوفى دلالة أولى العلم عليها أمر يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذى أنزل القرآن بالحق هدى للناس.

ولعل أوضح مثل لهذه الظاهرة القرآنية العجيبة قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ـ يس ٣٨) وهى مسبوقة بقوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) فكلمة (الشمس) فى الآية إما أن تكون معطوفة على (الليل) فى الآية قبلها ويكون المعنى « وآية لهم

الشمس تجرى لمستقر لها » ، وتكون جملة (تجرى لمستقر لها) كجملة (نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) فى الآية قبلها تبيانا لوجه آية الله فى الليل وفى الشمس . وإما أن تكون كلمة الشمس مبتدأ فى جملة مستأنفة خبره (تجرى لمستقر لها) . وفى هذه الحالة يكون كونها آية الله من حيث إنها تجرى مفهوما من السياق ، ويدل عليه فى الآية القرآنية نفسها قوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم) ، وعلى أى الوجهين أعربنا الآية الكريمة فالقضية فيها هى أن الشمس تجرى . وقضية أخرى أنها تجرى لمستقر لها . وقد سيقت القضيتان ليكون فى كل منهما ، أو فى مجموعهما ، هاد إلى الله ، ودليل على أن الذى أجرى الشمس وقدر مجراها هو الإله الحق الذى لا تجب العبادة إلا له ، فضلال أى ضلال أن يعبد الإنسان سواه .

فانظر إلى القضية الأولى ، قضية أن الشمس تجرى ، كيف انطبقت على البديهى المشاهد من حركة الشمس فى السماء من المشرق إلى المغرب فى كل مكان يعيش فيه الإنسان ، فى نصف الكرة الشمالى وفى نصفها الجنوبى ، من قطب الى قطب ، لكن هذه الحركة إنما هى فى الظاهر ، وقد فسرتها الفلسفة اليونانية أو العلم القديم ، بما فسرت أو فسر ، مما خطأه علم الفلك الحديث ، إذ أثبت أن حركة الشمس فى الظاهر حول الأرض – كما هو معروف – هى حركة نسبية راجعة فى الحقيقة الى حركة الأرض حول محور لها أمام الشمس من المغرب الى المشرق مرة فى اليوم . ينشأ عنها النهار والليل ، كما أثبت للأرض حركة سنوية حول الشمس تنشأ عنها الفصول .

فهل فقدت الآية الكريمة شيئا من دلالتها بهذا الذى أثبته العلم ؟ إن الذى جد بما أثبته العلم هو انتقال الحركة عن الشمس إلى الأرض فصار للأرض حركتان تفسران الليل والنهار واختلاف الفصول ، بدلا من حركة الشمس وحدها . والدلالة هى فى حركة الجرم العظيم حركة دائبة مقدرة تقديرا تنشأ عنه ظواهر كونيه متكررة فى اليوم وفى العام ، تنطق بذاتها وبعظمها

وبانتظام تكررها وتكرر آثارها البالغة ، يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، ألا بد لها من موجد قدير حكيم قدر ودبر ولا يزال يرعاها بتدبيره وحكمته ، وهو الإله الحق سبحانه ، ولا ينتقص من هذه الدلالة شيئا أن يصبح الجرم العظيم الذى له تلك الحركة العجيبة هو الأرض فى حكم العلم الحديث بعد أن كان هو الشمس فى رأى العين ورأى الفلسفة اليونانية أو العلم القديم .

لكن هناك سؤال آخر لا يقل أهمية عن السؤال السابق . لأنه يتعلق بالصدق كما تعلق ذلك بالدلالة ، فهل فقدت الآية شيئا من صدقها وإن لم تفقد شيئا من دلالتها بذلك الذى أثبته العلم من التفسير الصحيح لظاهرة حركة الشمس من المشرق الى المغرب ؟ إن الله سبحانه يقول فى كتابه (وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ فصلت ٤١و٤٢) فمستحيل أن يكون فى القرآن شىء من الباطل قط ، لا فى كونياته ولا فيما عدا ذلك مما تعرض له القرآن بعبارة أو إشارة . بهذا تقضى هذه الآية الكريمة ، والمؤمن بها ، الذى يحاذر أن يقفو ما ليس له به علم ، ليس أمامه فى الإجابة على السؤال إلا الجزم بأن آية سورة يس لا يمكن أن تفقد من صدقها شيئا بما كشف أو يكشف عنه العلم .

وليس له فى تفهمها الا طريقان : طريق الحقيقة وطريق المجاز . والعدول عن الحقيقة الى المجاز لا بد له فى الكلام من قرينة تبرره وتدل على أن المعنى المجازى هو المراد ، وليس فى الآية الكريمة ولا فيما قبلها أو بعدها فى موضعها من سورة يس ما يدل على أن كلمة (تجرى) فى قوله (والشمس تجرى) مستعملة فى غير ما وضعت له . أو أن من الممكن صرفها الى حركة سريعة للأرض بدلا من حركة سريعة للشمس من باب إطلاق المسبب على السبب ، فلم يبق إلا أن تكون كلمة (تجرى) فى الآية على حقيقتها مسندة إلى الشمس حقيقة لا مجازا .

وهنا تتبين عجيبة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن ، فقد جاء علم الفلك الحديث بعد نحو ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن فأثبت للشمس حركة غير هذه الحركة الظاهرة من المشرق إلى المغرب ، فقد أثبت أن هذه الحركة ذاتية للشمس . وقدر سرعتها بركبها ، أى من حيث المقدار والاتجاه ، فأما المقدار فهو إثنى عشر ميلا فى الثانية تقريبا ، وأما الإتجاه فهو نحو النجم المسمى (فيجا) فى الإنجليزية والنسر الواقع فى العربية ، أى أن علم الفلك الحديث أثبت أن الشمس ، على عظم كتلتها الهائلة ، تجرى فى الفضاء بسرعة إثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه النسر الواقع .

(والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم)

فأنت ترى الآن أن فى قوله سبحانه (والشمس تجرى) معجزة علمية عظمى لم تكن تخطر لأحد على بال ، حتى كشف عنها علم الفلك الحديث ، لم يكشف عنها إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن تهيأ له من آلات الرصد وأدوات التحليل الضوئى ومن المقدرة على تفسير النتائج التى توصل اليها عن طريقها ، ما أدى به الى الكشف عن ذلك السر العظيم ، كتلة من النار قدر كتلة الأرض ٣٣٣ ألف مرة تقريبا تجرى فى ملكوت الله بسرعة تزيد على ضعف سرعة ما يسمونه بالقمر الصناعى فى دورته حول الأرض ! !

لقد فتن الناس أو كادوا ، بهذه الأقمار أو القميرات الصناعية ، التى ليس للانسان فيها إلا صنعها وإحكام إطلاقها مستعملا فى ذلك ما وهبه الله من علم ومقدرة ، أما دورانها حول الأرض فليس له فيه من فضل . إذ هى إنما تدور طوعا لسنن الله فى الحركة من ناحية ، وفى الجاذبية بينها وبين الأرض من ناحية أخرى . فكيف يمكن أن يكون فى هذه القميرات دليل على وجود الإنسان وما بلغ من رقى فى الصناعة والعلم . ولا يكون فى الشمس وجريها فى الفضاء على ذلك الوجه العظيم الهائل دليل على وجود الله العزيز العليم سبحانه الذى خلق الشمس وأجراها وقدر لها مجراها فى الفضاء ؟

ثم كيف لا يكون فى إخبار القرآن بجرى الشمس هذا ، قبل أن يؤتى الإنسان من العلم والمقدرة ما يكشفه له ، بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها فى غفلة عن جريها وجهل به ؟ كيف لا يكون فى هذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على أن القرآن إنما أنزله رب الشمس سبحانه الذى فطرها وأجراها وقدر لها ذلك المجرى (إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) .

فانظر الآن كيف أثبت العلم الحديث صدق ما ينتجه الإيمان بالقرآن من قوله تعالى : (والشمس تجرى) إذا اتبعت الدقة فى تطبيق القاعدة البلاغية القاضية بألا يعدل فى تفهم الآيات القرآنية الكونية عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية فى نفس الكلام . صحيح أن الاستنتاج قد وقع ونحن نعلم أن العلم قد أثبت صدق الآية حرفيا ، لكن هذا لا ينقص شيئا من العبرة التى ينبغى استخلاصها ، ألا وهى وجوب الاستمساك بما ينتجه التطبيق الدقيق لقواعد اللغة فى تفهم آى الذكر الحكيم فى ضوء المعروف من الحق، والمعروف من الحق فى هذه الحالة هو أن الحركة الظاهرة للشمس من المشرق إلى المغرب راجعة فى حقيقتها إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق .

ثم تأمل بالغ حكمة الله فى أن جعل جرى الشمس حقيقة فى الفضاء يتفق خبره إذا ذكر فى القرآن مع ما علم سبحانه أن ستبدو به الشمس لعباده نتيجة لما قدره للأرض من حركة يومية حول محورها وحركة سنوية حول الشمس ، ليكون التطابق بين الخبر والجرى الظاهرى فيه عبرة وهدى للناس أثناء الحقبة المتطاولة التى علم الله سبحانه أن سوف تمر قبل أن يستطيع أولو العلم الكشف عن جرى الشمس الحقيق ، حتى إذا كشفوه وحققوا صدق الخبر الكونى القرآنى حرفيا ، كان ذلك معجزة علمية كبرى فى القرآن تقنع كل ذى عقل لم يغلبه الهوى والعناد ، أن القرآن حقاً من عند الله .

والمعجزة العلمية الكبرى المتمثلة فى قوله تعالى : (والشمس تجرى) ينطوى تحتها فى الواقع معجزة أخرى . إذ قد خطأت علم الفلك القديم حين قال فى تفسير الشروق والغروب إن الشمس معلقة أو مركوزة فى فلك مادى كرى هو الذى يدور بالشمس حول الأرض ، فجعل حركة الشمس غير ذاتية . والآية الكريمة تقرر أن لها حركة ذاتية سريعة ، فإن الجرى لا يمكن إلا أن يكون ذاتيا . وقد وجد التفسير الفلسفى أو الفلكى القديم طريقه إلى كتب التفسير ليس فقط فيما يتعلق بالشمس ولكن أيضاً فيما يتعلق بالقمر ، وقد اعتبرهما فلاسفة اليونان خطأ من السيارات . التى فسروا حركتها عبر السماء بما فسروا به حركة الشمس ، فافترضوها أى السيارات . مركوزة فى أفلاك كرية شفافة مجوفة بعضها داخل بعض ومركزها جميعا الأرض فهى تدور كلها بحركات مختلفة من المشرق إلى المغرب حول الأرض التى جعلوها ساكنة لا حركة لها وتبعهم فى ذلك فلاسفة المسلمين والمفسرون .

وقد يكون من تكليف ما ليس فى الوسع أن ينتظر منهم استنباط جرى للشمس غير هذا الذى يرونه بأعينهم كل يوم ، لكن كان من المنتظر على الأقل أن يخطئوا الفلسفة اليونانية فى قولها إن الشمس والقمر وبقية الكواكب أو السيارات تجرى بالواسطة لا بالذات ، استنادا منهم إلى قوله تعالى : (والشمس تجرى) وقوله : (وكل فى فلك يسبحون) إذ لا قرينة فى الآى على أن الجرى والسبح معدول بهما عن الحقيقة إلى المجاز .

الفصل الثانى

فى تفسير الآيات الكونية فى القرآن

– ١ –

الآيات القرآنيـــة الكونية هى لا شك مدار إثبات وجود الله سبحانه ووحدانيته، ومظهر كثير من صفاته العلية التى لا نهاية لكمالها. كالقدرة والعظمة والرحمة والحكمة. ودلالتها على ذلك كله قطعية برهانية.

ويقصد بالآيات الكونية الآيات القرآنيـة المتعلقة بالكون المشهود عدا الإنسان من حيث هو روح وعقل واختيار، أما البدن من حيث خلقه وسنن الله فيه فداخل فى الكون. والنفس أيضاً خلقها الله، وله سبحانه فى خلقها وفى سلوكها سنن. بل ولم ينزل الله كتابه بما فيه من آيات كونية وغير كونية إلا من أجل هداية النفس الإنسانية إلى بارئها سبحانه. لكن العرف جرى فى فهم الآيات الكونية القرآنية أنها الآيات المتعلقة بغير نفس الإنسان.

والآيات الكونية لها مكانة خاصة فى الدعوة إلى الله فى هذا العصر، عصر العلوم الكونية التى كشف الإنسان بها ما كشف من أسرار الفطرة، فطرة الكون، فبلغ من القوة المادية ما بلغ، وإن لم يرع فى استثمارها واستغلالها ما شرع الله له، والقوة إذا انطلقت من قيود الشرع الإلهى أنصبت مكارهها وويلاتها على الإنسان نفسه، كما رأينا فى الحربين العالميتين اللتين كانت أخراهما شراً من أولاهما أضعافا مضاعفة، والتى لم يخرج العالم منها إلى سلم، ولكن الى هدنة استمرت ربع قرن زادت فيه القوى التى أطلقها العلم زيادة مخيفة ليقف العالم بها اليوم على حافة الهاوية.

وقد كفر الغرب بدينه وكتبه المقدسة لما رآها لا تتفق مع ما وصل اليه العلم من حقائق الكون ، فرآها مثلا توزع أطوار خلق الكون على أيام الأسبوع قبل أن يكون لتلك الأيام وجود ، ثم تزعم أن الخالق سبحانه وتعالى تعب فاستراح فى سابع يوم . لكن الآيات الكونية فى القرآن ليس فيها شىء مما أضل الغرب عن دينه . صحيح أن فيها أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وهو التعبير القرآنى الوحيد الذى قد يشتبه على القارىء العادى فى الغرب وفى الشرق فيظن هذه الأيام الستة هى الأيام التى يعرف ، كما هى عند أهل الكتاب . وهذا مثل من المزالق التى على الناظر فى آيات القرآن الكونية أن يحذر الانزلاق فيها فيفهم من الآى أول من يتبادر الى ذهنه بحكم الفكر السائد فى البيئة ، أو حكم النقص فى العلم ، أو حكم الجهل باللغة التى نزل بها القرآن .

فاليوم عند الناس هو يوم الأسبوع ، لكن هذا ليس إلا أحد معانى اليوم فى اللغة العربية . فأيام العرب فى حروبها مثلا كان بعضها يطول إلى أيام ومع ذلك كان يطلق عليه لفظ اليوم بالإفراد ، مثل يوم (فيف الريح) الذى يقول ابن الأثير فى تاريخه إنه كان بين بنى عامر وبنى الحرث بن كعب ، وأنهم التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا ثلاثة أيام فى مكان يقال له فيف الريح .

على أن اليوم وإن كان أطلق فى القرآن الكريم على اليوم العادى مثل يوم الجمعة ، وبمعنى اليوم عند العرب فى حروبها مثل يومى بدر وحنين ، فقد أطلق فيه على الحقبة من الزمن يتجاوز طولها كل ما كان يمكن أن يخطر ببال إنسان أن يطلق عليه لفظ يوم ، كما فى قوله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـ المعارج ٤) . فعلى الناظر إذن فى آيات الخلق فى القرآن أن يتذكر أن أيام خلق الكون ليست كالأيام عند الناس ، وأن يختار لكل منها عند تخصيصها ، كما فى آيات سورة فصلت ، معنى يتناسب مع الحقيقة التى قام عليها البرهان عند أهلها من العلماء .

والتعبير القرآنى بستة أيام عن الأحقاب الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض فى أطوار ستة فصلتها الآيات ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ من سورة فصلت هى كما قدمنا مثل من إعجاز الآية القرآنية فى الأسلوب والمعنى معا . أما المعنى فالكلام عنه يطول ولا يقدر مداه إلا المتخصصون فى الفلك من ناحيـــة والجيولوجيون علماء طبقات الأرض والجغرافيون من ناحية أخرى . لكن نكتفى منه بما يبين الأطوار الستة التى عبر عن أحقابها بالأيام الستة بقوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ـ فصلت ٩) ، إشارة إلى طورى الانفصال من الشمس ثم الانطفاء حتى التكاثف وتجمد القشرة بالبرودة ، وقوله تعالى فى آية (١٠) (وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدرفيها أقواتها فى أربعة أيام) إشارة الى طور خلق الجبال بنوعيها الأساسين: ما يتكون منها بتقبض القشرة فى أواخر التجمد واستمرار البرودة بالتشعع ، وهذا بدلالة جمع الطورين الأولين والطورين الأخيرين معا فى قوله تعالى (فى أربعة أيام) إشارة إلى الاتصال والتدخل بين آخر الطور الثانى وأول الطور الثالث طور خلق النوع الأول النارى من الجبال .

ثم تشير الآية الكريمة إلى خلق النوع الثانى الرسوبى على شواطىء البحار بقوله (من فوقها) ، وهذا يستتبع خلق الأنهار ، والتغيرات التى تمكنها من حمل ما ترسبه على شواطىء البحار . وهذا الاستنباط تفسيرا لقوله (من فوقها) ضرورى ، وإلا لصارت الكلمتان لغوا يتنزه كلام الله عنه ، يؤيده بعد ذلك قوله تعالى (وبارك فيها) إذ لا بركة بلا ماء ولا أنهار . فهذا طور أو يوم طويل المدى الله أعلم بطوله ، متداخل فى الطور الذى بعده ، طور إعداد الأرض للحياة الذى دلت عليه الآية الكريمة بقوله تعالى (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) فأطوار الخلق أو أيامه متداخل بعضها فى بعض ، بعد أن انفصلت قطعة الشمس التى صارت الأرض بعد ذلك .

ومن إعجاز المعنى والأسلوب معا الدلالة على تداخل الطورين الأولين بقوله(فى يومين) ، وعلى تداخل الثانى والثالث والرابع ـ أواخر الثانى فى أوائل

الثالث ، وأواخر الثالث فى أوائل الرابع - كل هذا دل عليـــه قوله تعالى (فى أربعة أيام) بضم اليومين أو الطورين الأولين إلى اليومين أو الطورين الأخيرين ، فهذا إعجاز علمى وبلاغى معا . إذ ليس هناك أعجب من هذه الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الأرض قد عبر عنها بأوجز أسلوب فى تيسير للفهم على من يتذكر ، فى منطق تفكيره وتفسيره . أن ليس فى القرآن حركة ولا حرف إلا لمغزى ، كما سبق إلى ذلك الفخر الرازى حين قال : « ما من حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائدة . ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا » .

لكن هناك فى التعبير عن الأطوار وأحقابها بالأيام ، إعجاز آخر نفسانى ، له أهميته فى تحقيق الهداية التى أنزل من أجلها القرآن ، ألا وهو صلاحية التعبير لأن يفهمه أهل الكتاب على الوجه الذى لا يعرفون غيره ، فلا يكذبوا القرآن فيقف تكذيبهم حائلا دون دخول أحد منهم فى الدعوة ، وعائقا لغيرهم من مشركى العرب الذين يثقون بعلم أهل الكتاب . والله وحده هو القادر على أن يخاطب عباده فى أسلوب يعبر عن الحقيقة الكونية لمن علمها ولا يصدم معتقد من جهلها .

وهذا تشريع عملى من الله أن تكون الدعوة إلى الله على وجه لا يكون فيه ما يصد الناس عن الدخول فى دين الله . وهو المبدأ الذى عبر عنه الرسول عليه السلام بقوله ما معناه (خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله) ومن هنا كان قبوله صلى الله عليه وسلم جواب الجارية حين سألها : (أين الله يا جارية) قالت فى السماء ، فقال لوليها : (هى مؤمنة) . ومن هنا أيضا تبسمه صلى الله عليه وسلم لقول الحبر الذى جاءه وقال ، فيما روى البخارى (الجزء السادس ، كتاب التفسير ، سورة الزمر) عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه : (إنا نجد يا محمد أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ،

والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك) يقول ابن مسعود: فضحك النبي حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموٰت مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون — الزمر ٦٧) .

والخطأ فى كلام الحبر واضح . فإن الأرضين تشمل طبعاً كل ما عليها من شجر وماء وثرى وخلائق ، لكن الرسول لم يبين للحبر خطأه فينفر وينفر من وراءه ، وإنما تلطف بعد أن تبسم فتلا عليه الآية الكريمة التى يدل صدرها (وما قدروا الله حق قدره) على أن ما قال الحبر هو دون ما يليق بجلال الله ، وصحح سائرها قول الحبر فلم يذكر ثرى ولا شجرا ولا ماء ولا شيئا مما يغنى عنه ذكر الأرض . وواضح أن أداة التعريف فى (والأرض) للجنس بدلالة (جميعا) لتشمل الأرضين السبع التى نصت عليها آخر آية فى سورة الطلاق .

والله أعلم بمراده بقوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) فإن أحداث يوم القيامة غيب لايعلمه إلا الله سبحانه . لكن شتان بين التعبير عن القهر والسلطان فى الآية الكريمة وفى كلام الحبر الذى ذكر فيه ماعند أهل الكتاب . أما ضحك النبي صلى الله عليه وسلم فهو تأديب للمسلمين فى مثل هذا حتى لا يجادلوا أهل الكتاب فى موضوعه . وإقرار لما تضمنه خبر الحبر من دلالة على قدرة الله وجلاله ، لا لما فيه من تفصيل .

وللحقيقة الكونية ، يخاف على الناس منها الفتنة لو صورحوا بها فيكنى عنها فى القرآن الكريم أمثلة أخرى ، غير مثل خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، نذكر بعضها توكيدا وتوضيحا ، فقوله تعالى فى سورة نوح (وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ـ ١٦) بعد قوله (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ـ ١٥) يدل فى ظاهره على أن فى السموات أقمارا غير قمرنا ، ولا يحتاج فى فهم هذا من الآية الكريمة إلا إلى اعتبار (ال) فى (القمر) للجنس ، واحتمال ذلك موجود يدل عليه أو يشير إليه ضمير الجمع فى (فيهن) .

وليس هذا يبعيد فالكلام كلام الله ، ولعله سبحانه يلفت عباده بهذه القرينة إلى آية من آياته فى الخلق بلفظة تحتمل وجهين : وجها معهودا يدل على قمر الأرض حين تكون (أل) للعهد ، ووجها غير معهود ولا معروف ينبىء بحقيقة كونية مجهولة ، لو أن المفسرين انتبهوا إليه حين تكون (أل) للجنس لسبقوا العلم إلى تلك الحقيقة ، ولو على سبيل الجواز .

لكنهم شغلوا بالوجه الدال على القمر المعهود ، وفاتهم التنبؤ عن طريق القرآن بالحقيقة المجهولة ، حتى جاء جاليليو فى القرن السابع عشر واخترع منظاره المقرب واكتشف به أربعة أقمار للمشترى ، وتحسنت المراقب بعده ، فاكتشفوا خمسة أقمار أخرى للمشترى ، وتسعة أوعشرة لزحل ، واثنين للمريخ وأربعة لأورانوس ، وواحدا لنبتون . أما عطارد والزهرة وبلوتو فلا قمرلها. لكن هذه الأقمار إنما هى فى مجموعتنا الشمسية ، ولا شك أن الأرضين الست الأخرى التى نصت عليها آية سورة الطلاق ، هى فى مجموعات شمسية أخرى يرجح ، طبق ظاهر آية سورة نوح ، أن يكون فى كل منها قمر على الأقل ، قمر لكل أرض . والترجيح هو فقط للاحتياط فى الاستنباط ، وإلا فقد عودتنا الآيات الكونية القرآنية أن يكون ظاهرها مطابقا للواقع حرفيا .

وعلى أى حال فقد ثبت بالكشف عن أقمار مجموعتنا الشمسية بطلان تفسير الآية الكريمة فى سورة نوح على أساس أن ليس هناك إلا قمر واحد هو قمرنا والتخلص من دلالة ضمير الجمع فى (فيهن) بالقول بأن السموات بعضهن داخل بعض تبعا لنظرية فلاسفة اليونان ، وإذن فوجود القمر فى إحداها يصدق على وجوده فى مجموعها ، كالدرة الواحدة تكون فى علبة داخل علبة داخل أخرى فيصدق عليها أنها فى العلب الثلاث .

ومثل آخر : قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ـ الرحمن ٢٢) تشير (منهما)إلى البحرين المذكورين فى الآية ١٩ (مرج البحرين يلتقيان) أولوه نفس التأويل إلى ما يعرفون من وجود صدف اللؤلؤ فى أحد البحرين فى الخليج

العربى ، فقالوا إن ما يصدق على أحدهما يصدق على مجموعهما . وأهملوا احتمال أن يوجد اللؤلؤ أيضا فى النهر عند ملتقى البحرين فى بعض الأقطار . فيكون إخبارا عن حقيقة اللؤلؤ النهرى الذى تذكره بعض دوائر المعارف فى مثل دائرة معارف هتشنسن المصورة Hutchinson,s Pictorial Encyclopedia والذى لم يكن يعرفه العرب حول الخليج . ولا يزال هناك احتمال ثالث يجيزه التعبير القرآنى ، وعلى علماء المسلمين المشتغلين بعلوم البحار أن يبحثوه ، وهو أن يكون فى بقاع الأرض ما يتكون اللؤلؤ عندها فى كل من البحرين .

أما المعنى الرابع الذى يفيده التعبير القرآنى عند الاستقصاء فهو أن يكون اللؤلؤ فى تكونه محتاجا ، ولو إلى أثارات ، من بعض الأملاح التى يحملها ماء النهر إلى البحر . فيتكون اللؤلؤ إذن من أملاح البحرين جميعاً . فهذا مثل أخص من المثل الذى قبله ، إذ يبدو أن العبارة فيه قد جاءت بما يتفق مع ما كان العرب يعرفونه عن اللؤلؤ فى محيطهم . ولو حدثتهم عن لؤلؤ الماء العذب فى بعض الأنهار لاستبعدوه واستنكروه . أما الاحتمالان الأخيران فحتاجان للتحقق منهما إلى بحث واستقراء فيما يبدو .

لكن هناك من هذا القبيل مثل يتعلق بسؤال كثر ترديده فى عصر الفضاء هذا وهو : هل هناك خارج هذه الأرض حياة ؟ ذلك المثل هو قوله تعالى فى سورة الشورى (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير - ٢٩). فقوله (وما بث فيهما من دابة) أوله المفسرون نفس التأويل ، (فيهما) أى فى مجموعهما ، إذ هم لا يعرفون دواب إلا فى هذه الأرض . وفاتهم أن يتذكروا أن هناك ست أرضين أخرى أخبرهم الله بها فى السبع المذكورة فى آية آخر سورة الطلاق ، فيمكن إذن أن يكون فى بعضها حياة ودواب ، وتصدق آية (الشورى) إذن على الطرفين كليهما المتحدث عنهما.

لكن علم الله سبحانه أن احتمال أن يكون فى السماء حياة ودواب سيكشف عنه العلم بإذن الله فى عصر آت . وسيلهج به الناس كما يلهجون الآن بحياة

فى بعض الكواكب يظنونها أرقى فى العلم حتى من الحياة على الأرض فى عصر العلم هذا . فأنزل فى سورة النحل — وسورة النحل نزل بها الوحى بعد سورة الشورى — ماحقه أن يذهب بتأويل المفسرين الذى يقف بمعنى آيات الله عند حد ما يعلمون ، لا عند ما يحتوى الآى من معنى . ولو كان إنباءاً بما لا يعرف الإنسان . ففصل سبحانه فى آية النحل ما أجمل فى آية الشورى ، وذلك فى قوله (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة — ٤٩) . فهنا ذكر الاسم الموصول مرتين ، لا مرة واحدة كما فى آية الشورى ، مرة متعلقة بالسماء ومرة متعلقة بالأرض ، ليذهب سبحانه بكل شك فى أن قوله (من دابة) بيان لما فى السماء ولما فى الأرض ، ويكون ذكر الملائكة بعد ذلك فيمن يسجد ، مانعا من تأويل دواب السماء بالملائكة ، عند من لا يدركون أن الملائكة لا يليق بهم أن يعبر عنهم بالدواب . فالآية الكريمة إذن تنبىء البشرية بما تجهله إلى الآن وإن حدثت نفسها به فى عصر علوم الفضاء .

فمهما يكشف العلم فى عصر الفضاء من حياة فى الكواكب فهو إنما يحقق معجزة علمية للقرآن ، تتجدد بها الحجة وتزداد الأدلة بها دليلا على أن القرآن من عند الله ، فلا يحتاج العالم إلى الإيمان بالقرآن بعد توفيق الله إلا إلى نفر من المسلمين يحسنون عرض معنى مثل هذه الآيات القرآنية على العلماء والمثقفين فى أقطار المسلمين وغير المسلمين .

وفى القرآن الكريم أمثلة أخرى للحقيقة الكونية يجهلها الناس فينبئهم القرآن بها فى أسلوب حكيم معجز ظاهره صالح لهدايتهم الى الله ، وباطنه يهتدى به أهل العلم ، إذا أذن الله فانكشفت تلك الحقائق لهم . مثل ذلك قوله كناية عن حركة الأرض اليومية (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ـ الأعراف ٥٤) وقوله كناية عن نفس الحركة ، مع كناية كتصريح عن شكل الأرض (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ـ الزمر ٥) وقوله كناية عن حركة الأرض السنوية (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) فى آيات متعددة من القرآن .

لكننا نكتفى بما ذكرنا من الأمثال من قبل ، وننتقل إلى بعض الأمثال نذكرها للحقيقة الكونية يصرح بها القرآن الكريم ، حين يؤمن على الناس أن يفتتنوا بها إذ يمكنهم صرف عباراتها إلى ظاهرة كونية أخرى يعرفونها : المثل الأول هو الآية ٢٨ من سورة يس التى سبق أن تناولناها بالتفصيل فى مفتتح الجزء - ٢ - من الفصل الأول (القرآن والعلم) من هذا الكتاب الرابع.

والمثل الثانى لهذا النوع الصريح المأمون قوله تعالى (وأغطش ليلها — النازعات ٢٩) يقيم الله فيها الحجة على منكرى البعث بالأجساد . والمفسرون جميعاً ، القدامى منهم والمحدثون ، أغفلوا دلالة مرجع الضمير المضاف إليه الليل ، وصرفوه إلى ليل الأرض ، مع رجوعه صراحة إلى السماء ، فلو أنهم أخذوا بظاهر الآية كما كان ينبغى ، لقالوا إن للسماء ليلا غير ليل الأرض وإن لم يعرفوه . وهذا وحده سبق إجمالى إلى حقيقة لم يعرف العلم تفصيلها إلا حديثا ، عرفها نظريا استنباطا من أن الضوء لا يرى كما ذكر من قبل فى الفصل الخامس ، وأن ليس فوق جو الأرض ما يعكسه لخلوه من الهواء وما يحمل ، فلابد أن أن تكون السماء فى جو الأرض مظلمة حالكة ، والأرض فى إشراق وضياء بالنهار ، ومن باب أولى تكون السماء فى ليل حالك ، والأرض مليلة ، أى أن السماء فى ليل متصل . ونهار القمر إنما يكون على سطحه ويكون الظل على القمر كقطع الليل المظلم ، وسماؤه تكون أشد ظلاما لخلو جوه من الهواء .

ثم جاء عصر سفن الفضاء ، وصعود الإنسان إلى القمر . وتصوير الفضاء من سطح القمر فرأى الإنسان ذلك بعينيه ، وقد نشرت الصحف صورا للأرض من القمر أرسلتها السفن الفضائية الأمريكية والروسية ، وظهر آخرها فى مجلة العربى الصادرة فى يناير سنة ١٩٧١ وفيها الأرض كوكب مضىء فى سماء سوداء حالكة هى سماء القمر . وظلمة ليل السماء يكفى فى الدلالة عليها كلمة (ليل) . أما شدة تلك الظلمة فقد دل عليها الفعل (أغطش) . فلو كان يغنى عنه الفعل (أظلم) الذى فسره به المفسرون لنزل القرآن به لأنه آنس وأوضح .

ومن هذه الأمثلة بنوعيها — ولا يزال لها نظائر فى القرآن الكريم — يتبين أمران مهمان متعلقان بتفسير الآيات الكونية القرآنية :أولهما ألا يقصر تفسير التعبير القرآنى على وجه واحد إذا تحمل التعبير أكثر من وجه حسب قواعد اللغة التى نزل بها القرآن ، فكل معنى يفيده اللفظ أو التعبير من غير خروج على قواعد اللغة هو معنى مراد لله وإن لم يك معلوما للبشرية قبل ، وإفادة الآية القرآنية إياه إرهاص بأن الله سيكشف للبشر عنه ليكون معجزة علمية جديدة للقرآن تثبت من جديد أنه من عند الله .

والثانى أن للقرآن أسلوبه الحكيم فى مخاطبة الناس على قدر عقولهم من غير مخالفة للحقيقة الكونية فى شىء . بل إذا آن الأوان وأظهر الله عباده على هذه الحقيقة كان التعبير القرآنى دالا عليها إما تصريحا وإما إشارة وكناية فى اللغة التى أعدها الله لتحمل معانيه . وهذا إعجاز فى الأسلوب فضلا عن المعنى لايقدر عليه إلا الله ، ولعل من المهم توكيد أن ليس فى هذا الأسلوب إقرار لباطل معتقد الناس فى الظاهرة الكونية التى تكنى عنها الآية أو الآيات القرآنية. فالقرآن الحكيم لايقر باطلا قط . ولكنه يمهله حتى يزيله ويحل الحقيقة محله .

وليس الأمر فى الكونيات كالأمر فى الشرعيات ، فالشرعيات من حيث الاعتقاد والأحكام لابد من أن يتضح الحق فيها ويتم قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا فاتت فرصة التصحيح والتوضيح ، أما الكونيات فتصحيح خطأ معتقد الناس فيها يمكن أن ينتظر حتى يستعد الناس لتلقيها ، ويحين حين اظهار الحق فيها على أيدى أهلها من علماء الفطرة ، بل إن آيات الله فى الكون هى من الجلال والعظم بحيث لا يحول تصورها على غير حقيقتها دون الاهتداء بها الى الله ، ومن هنا كان تفسير الآيات القرآنية الكونية فى كل عصر بعد عصر الرسول على قدر علم أهله ، وكان فى كل تفسير من تعظيم قدرة الله وحكمته ما يكفى لحمل السامع على تسبيح الله وتمجيده ، على ما كان أو ما قد يكون فى التفسير من بعد عن الحقيقة يجهله القائل والمستمع . مع القصد الى تلمس الصواب من المفسر على الأقل .

ولعل هذا هو السر فى إباحة النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين التحديث عن أهل الكتاب . فهذا لاشك خاص بما لا يتصل بالعقيدة والأحكام ـ فالحق فى هذه واضح فى أساسياته لعامة المسلمين وفى فرعياته لعلمائه . وقد أمر النبى صلى الله عليــــه وسلم المسلمين فى نفس الوقت ألا يصدقوا أهل الكتاب ولا يكذبوهم ، وهذا طبعا فيما سكت عنه القرآن والحديث الصحيح .

ومن هنا استباح قدامى المفسرين النقل عن كعب الأحبار ومن إليه ما كان الأولى تجنبه ، من مثل قول كعب الأحبار فيما نقل القرطبى : أن الأرض محمولة على ظهر حوت . وما نقله بعض الصحابة من هذا ، ومن خلق السموات والأرض فى أيام الأسبوع من الأحد الى الجمعة ، وما الى ذلك مما لم يرفعوه الى النبى صلى الله عليه وسلم إنما أخذوه عن أهل الكتاب . كما يدل عليه على الأقل السكوت عن يوم السبت ، إذ لم يكن كعب يستطيع أن يقول للمسلمين إن الله استراح فيه . والله سبحانه يقول (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ـ ق ٣٨) .

وأكبر الظن أنه لم يكن من الممكن اجتناب الأخذ من أهل الكتاب ما عندهم فى الكونيات والقصص مما لم يرد فى القرآن أو حديث الرسول ، فالنفس فى تطلعها الى معرفة المجهول . واستتمام المعلوم ، تأخذ ممن يزعم العلم ، فإن لم تجد من يعطى تخيلت ، فلما دخلت الفلسفة اليونانية البيئة الإسلامية، فى عهد المأمون على الأخص . وقبلها المسلمون على أنها الحكمة ، جعل المفسرون المشتغلون بالفلسفة ، كالفخر الرازى ، يفسرون الآيات الكونية القرآنية بما يطابق آراء اليونان فى الفلك ، مع إعمال الفخر الرازى رأيه فى بعض المواقف.

فالسموات السبع مثلا عند الرازى هى أفلاك السيارات السبعة التى قررها اليونان . ولما كان هناك عندهم فلك ثامن للنجوم الثوابت ، وفلك تاسع محيط هو مصدر حركة الأفلاك السبعة ، رجح الفخر الرازى أن تحديد القرآن الكريم عدد السموات بأنها سبع لا يستلزم ألا تكون أكثر من سبع .

وهذا من عجيب مسلك المفسرين والتفسير ، أن يخضعوا الآيات الصريحة المحكمة لما يظنونه أو يعتقدونه حكمة لا يجوز أن يكون بينها وبين الشريعة خلاف ، فبدلا من أن يصححوا الفلسفة بصريح الكتاب أولوه الى ما يوافق ما وقر عندهم أنه الحكمة . وليس أصرح ولا أحكم من أن يصف الحق سبحانه السموات التى خلقها بأنها سبع ، ويكرر ذلك فى كتابه الكريم مرات عدة وكان مقتضى هذا أن يستمسكوا بالنص ولو خالف العدد عند اليونان . لكنهم لم يفعلوا ، بل تجرأوا ، وقالوا إن العدد ليس له مفهوم ، قاله القدامى وقاله المحدثون لأنهم لم يجدوا توجيها ولا تفسيرا لهذا العدد الذى وصف الله به السموات مرارا .

والعلم لا يعرف إلى الآن ما هى السموات السبع . ومن قبل لم يعرف أن السماء فوق هواء الأرض سوداء حالكة والشمس طالعة بالنهار إلا بعد قرون تزيد على العشرة من نزول الآية القرآنية الكريمة التى تنص على هذه الحقيقة العجيبة . وكان الواجب إذ لم يجدوا فى العلم تفسيرا لعدد السموات أن يلتمسوا لعدد السبع تفسيراً فى القرآن كتاب الله . فهذا من صميم تفسير القرآن بالقرآن ولو أنهم اتجهوا هذا الاتجاه لكان من المؤكد أن يصلوا إلى تفسير صحيح ، فالتفسير غير بعيد ممن يلتمسه مستعينا باللغة من ناحية وبالآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع من ناحية أخرى .

أما اللغة فتقول إن السماء ما علا الأرض . وعلم البديع يقول إن بين السماء والأرض مقابلة حتى عدوا هذه المقابلة من بديعيات قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى - هود ٤٤) فإذا ضممنا إلى هذا قوله تعالى فى آخر سورة الطلاق (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى سبعا ، كما هو المتبادر وكما اتفق عليه جمهور المفسرين ، تبين المقصود من السموات السبع فى القرآن .

إنه ما دام هناك ست أرضين غير أرضنا ، وكل أرض يقابلها سماء ، فهناك إذن غير السماء المقابلة لأرضنا ست سموات أخرى ، لكل أرض سماؤها . فهل هذا معنى بعيد ؟ أم هل فى هذا التفسير تكلف ما ، أو تحميل للآى ما لا تتحمل

كما يخشى على القرآن من يقول بمنع المطابقة بين الآيات الكونية فى القرآن وبين ما يتصل بمعناها من يقينيات العلم الحديث ؟ إذا كان القرآن قد سبق العلم الحديث بتقرير حقائق كونية لم يكشفها العلم إلا بعد عصر القرآن بقرون ، مثل جرى الشمس جريا ليس هو ما بين الشروق والغروب فى رأى العين ، ومثل ليل للسماء غير الليل المعروف فى الأرض ، فلا غرابة فى أن يخبرنا ويخبر الإنسانية التى أنزل لهدايتها بحقائق لم يكشف عنها علماء الفطرة إلى اليوم ، مثل وجود حياة فى السماء تشبه الحياة على الأرض ، ومثل أن هناك أرضين سبعاً وسموات سبعاً كما نصت عليه آية سورة الطلاق لتعلم الإنسانية إذا آن الأوان ، ومكن الله العلم من الكشف عنها ، (أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما — ١٢) .

إن على علماء الفطرة من المسلمين من بين علماء البشر أن يهتدوا فى بحوثهم الكونية بما أنزل الله فى كتابه من آيات كونية ، وما يكشف عنه البحث من حقيقة معنى تلك الآيات ، وينشروه وينشروا معه أو قبله ما قد كشف عنه العلم بالفعل . ودلت عليه الآيات قبل أن يكشف عنه العلم ، لعل الإيمان يتجدد فى نفوس المفتونين بالغرب من شباب الإسلام ونشئه . ومن يدرى ؟ لعل الغرب إذا أحسن نشر ذلك بين أهله أن يهتدى منهم حائرون تركوا دينهم الذى رأوا فيه ما يخالف حقائق العلم الحديث .

لكن النظر فى الآيات الكونية فى القرآن ، ابتغاء الاهتداء إلى ما أودع الله فيها من أسرار الفطرة أو الطبيعة كما يسمونها ، يحتاج من الاحتياط فى البحث ومن الدقة فى المطابقة والاستنباط ، ما هو دأب علماء الفطرة فى البحث عن أسرار الفطرة . بل يحتاج إلى دقة واحتياط أكبر ليتجنب مثل ما وقع علماء الفطرة فيــه من أخطاء جرها عليهم أن غفلوا مع الزمن عن حدود التجارب التى قام عليها البرهان عندهم ، فقالوا مثلا إن الذرة لا تنقسم ، وغفلوا

عن أن ذلك فى تجاربهم كان خاصاً بالتفاعلات الكيماوية ، فنبههم الله إلى خطئهم بتمكينهم أو بالأخرى بتوفيقهم إلى الكشف عن العناصر الشعاعة .

وقالوا إن المادة لا تفنى ولا تتجدد ، ونسوا أن ذلك لا يصدق إلا على التفاعلات الكيماوية كذلك ، فهداهم الله من تركيب الذرة وتحولاتها إلى ما استيقنوا معه أن المادة تفنى بتحولها إلى طاقة موجية تنطلق فى كون الله بسرعة الضوء ، سرعة ثلثمائة ألف كيلومتر فى الثانية ، فلا يكون للإنسانية سبيل إلى استرداد ما انطلق منها . هذا المبدأ العام ، مبدأ الوقوف من القرآن موقف علماء الفطرة من الفطرة . إذ الفطرة والقرآن كلاهما من عند الله ، يحتاج فى العمل به إلى قواعد لا بد منها فى فهم الآى القرآنى ، وفى تحرى الاحتياط والدقة عند التطبيق .

وأول تلك القواعد بديهية استحالة التعارض والتناقض على القرآن لأن ذلك مستحيل على الله الذى أنزل القرآن . فكل ما يبدو للناظر من تعارض بين بعض الآى وبعض إنما يرجع إلى سوء فهم ، أو تقصير فى البحث ، أو نقص فى العلم . وثانية تلك القواعد بديهية أن التعارض والتناقض مستحيل بين القرآن فى آياته وبين الفطرة فى حقائقها . فكل حق من عند الله ، والحق لا يتعارض ولا يتناقض . فإحكام المطابقة لا يمكن أن ينتج الا التطابق التام بين حقائق الفطرة وما يتصل بها من آيات القرآن .

وثالثة القواعد أن لا بد من التزام المنطق الصارم فى المطابقة بين الآى القرآنى وما يتصل بموضوعه من الحقائق الكونية ، وطبعا لا بد منه فى الاستنباط من آى القرآن . وهذا يقتضى اذا لزم الأمر أن تكون المطابقة بين الحقيقة الكونية وبين جملة ما يتصل بها أو بموضوعها من الآيات القرآنية ، لا بينها وبين آية واحدة قد يخفى معناها على الناظر ولا يتبين الا فى ضوء آية أو آيات أخرى فى نفس موضوعها .

والقاعدة الرابعة ظاهرة مما سبق اذ لم يذكر فى القواعد الثلاث الا الحقائق الكونية عند المطابقة . فلا يطابق بين الآى القرآنى والنظريات التى لا تزال محل فحص وتمحيص عند أهلها ، اللهم الا للحكم عليها بالصحة أو البطلان بموافقتها أو مخالفتها للقرآن . ويضم الى هذه القواعد تذكر الأمرين المهمين اللذين سبق التنبيه اليهما فى صفحة ٢٥٤

وهناك طبعاً قواعد لا بد منها فى فهم الآيات القرآنية تتلخص فى (١) أن تراعى معانى المفردات كما كانت فى اللغة إبان نزول الوحى بالقرآن ، أى ينبغى الاحتراس مما طرأ على معانى المفردات من التطور بالاستعمال . و(٢) أن تراعى القواعد النحوية ودلالاتها . و (٣) أن تراعى القواعد البلاغية ودلالاتها ، خصوصاً قاعدة ألا يخرج اللفظ من الحقيقه إلى المجاز الا بقرينة كافية فى نفس الكلام .

وبعد فإن الآيات القرآنية التى سبق ضرب المثل بها فى هذا البحث المجمل تعلقت بظواهر أو حقائق كونية محددة ، وغيرها فى القرآن كثير . لكن بعض الآيات الكونية القرآنية هى من العموم بحيث لا يفى بتفسيرها الا علوم الفطرة جميعاً ، لا فى حالتها الحاضرة فقط ، ولكن فى كل امتداد لها فى المستقبل ، مثل قوله تعالى (إنا كل شىء خلقناه بقدر — القمر ٤٩) ، (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون — الذاريات ٤٩) ، (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون — يس ٣٦) .

وبعضها أخص فى عمومه مثل قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شىء موزون — الحجر ١٩) ، فهذا إجمال بعضه أعم أو أخص من بعض لا يقوم بتفصيله إلا تضافر وتعاون المختصين ، فى كل ميدان من ميادين العلم ، المطلعين على القرآن المتشربين بروحه . وهذا أمر يحتاج الى جهد كبير وإعداد كثير . وأول من مهد لذلك وأسس له ورعاه مجمع البحوث الإسلامية من ناحية والجامعة الأزهرية فى كلياتها العلمية من ناحية أخرى .

فى تفسير الآيات الكونية فى القرآن

— ٢ —

التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن ليس بدعة ابتدعها أصحابه فى هذا العصر، بل تجد بين قدامى المفسرين من ينتهجه مطبقين فى عصرهم ما يقابل العلم فى عصرنا كالزمخشرى والفخر الرازى . فالزمخشرى مثلا فى تفسير قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس — التكوير ١٥ و ١٦) يقول : « الخنس الرواجع ، بينما ترى النجم فى آخر البرج إذ كر راجعاً الى أوله ، و(الجوارى) السيارة ، و (الكنس) الغيب من كنس الوحش إذا دخل كناسه ، قيل هى الدرارى الخمسة : بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشترى، تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس ، فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس ، وقيل هى جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل أى تطلع فى أماكنها كالوحش فى كنسها » . وقول الزمخشرى (قيل ... وقيل) يدل على أن تفسير الآية بعلم ذلك العصر أقدم من عهد الزمخشرى .

أما الفخر الرازى فتفسيره ممتلىء بالتفسير العلمى فى عصره ، مثل قوله فى تفسير (والذى قدر فهدى — الأعلى ٣) « إن قوله (قدر) يتناول المخلوقات فى ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه . فقدر السموات والكواكب ، والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان ، بمقدار مخصوص من الجثة (الكتلة فى اصطلاحنا) والعظم (الحجم فى اصطلاحنا) . وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ، ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة ، مقدارا معلوما على ما قال (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ـ الحجر ٢١) ، وتفصيل هذه الجملة مما لا يفى بشرحه المجلدات ، بل العالم كله من

أعلى عليين إلى أسفل السافلين هو تفسير هذه الآية ، وتفصيل هذه الجملة ، ،
فهذا نهج قدامى المفسرين لما صار إليهم علم قدماء اليونان وتصرفوا فيه .

أما نهج محدثيهم فيتبين من استعانة كبيرهم وإمامهم الشيخ محمد عبده بسنة الجاذبية العامة على تفسير قوله تعالى : (والسماء وما بناها) فى سورة الشمس إذ يقول رحمه الله (السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك ، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون الذى فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها وتتحرك فى مداراتها ، هذا هو السماء ، وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك ، وشد هذه الكواكب بعضها إلى بعض بر باط الجاذبية العامة ، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تماسك به) .

والجاذبية العامة لم يكشفها ويكشف قانونها إلا « نيوتن » فى القرن السابع عشر بعد نزول القرآن بنحو عشرة قرون ، فلم يمنع ذلك مفتى الديار المصرية فى أوائل القرن العشرين من أن يجعلها أساس تفسيره لآية من كتاب الله حين فسر جزء (عم) ليكون مرجعا لأساتذة مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية (فى تفهيم التلامذة معانى ما يحفظون من ذلك الجزء) كما ذكر فى مقدمة ذلك التفسير ، أى أن أهم قانون طبيعى معروف فى عهد الشيخ رحمه الله - قبل نظرية النسبية فى عهدنا - لم يتردد الشيخ فى جعله أساسا لتفسير آية قرآنية كونية .

فلو أن أحدا(١) كان معاصرا للشيخ محمد عبده وقرأ تفسيره (والسماء وما بناها) فى جزء (عم) أفكان يا ترى يرميه بالإساءة إلى الإسلام والقرآن

---

(١) المقصود أحد الذين يعارضون محاولة إظهار ما استكن فى كونيات القرآن من آيات الله فى الخلق أو سنن فى الفطرة سبق إليها القرآن قبل أن يكشف العلم الحديث عنها أو عن بعضها .

أبلغ إساءة لأنه أدخل الجاذبية العامة فى تفسير آية من كونيات القرآن ؟ أم كان يخطئه فى تفسيره الآية الكريمة لأن القرآن حينما يتحدث عن السماء أو عن السموات يقصد بها شيئاً آخر متميزاً عن الشمس والكواكب، كما يقول بعض الناس من مخطئى «المتعصبين لهذه التفسيرات العلمية» كما يسمونهم ، فيعيبون عليهم مثلا أخذهم بظاهر قوله تعالى فى سورة الأنبياء (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ـ ٣٠) من أن السماء والأرض كانتا ملتحمتين أى كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت كلتاهما عن الأخرى .

إن الآية الكريمة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن لأنها سبقت علماء الفلك المحدثين إلى ما قرروه من أن الكون كله ، قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه ، كان كيانا سديميا غير متميز بعضه عن بعض ، ثم أخذ يتميز ويتطور ، لايدرون بالضبط كيف ، وإن نسبوه إلى فعل الجاذبية العامة حتى صار إلى ما هو عليه مما يشاهدون ويدرسون ، ولا تزال السدم الهائلة منتشرة فيه على أبعاد فلكية مذهلة . وواضح أن السموات — بالجمع لا بإفراد — هى والأرض تشمل الكون كله ، وحالته السديمية الأولى ، قبل أن يتخلق سموات وأرضين ، كما أخبر الله فى آية الطلاق ١٢ (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن . يتنزل الأمر بينهن) هى المراد بقوله (كانتا) أى السموات والأرض (رتقا) ، وتميزه وتطوره إلى سموات وأرضين بأمر الله هى المرادة بقوله سبحانه (ففتقناهما) . لكنهم يجعلون السموات سماء واحدة ويقصرون الرتق والفتق على المجموعة الشمسية وحدها .

وكأن هؤلاء المعارضين يريدون ألا يفهم من الآيات الكونية فى القرآن إلا ما كان يفهمه العرب الذين نزل القرآن بينهم ، فيلجأ بعضهم إلى تفسير ابن كثير ليخرج منه بتفسير ابن عباس لآية سورة الأنبياء من أن « السموات كانت رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق الله للأرض أهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات » ، وغاب عنهم أن القرآن ليس

مرادا به العرب وحدهم بل البشرية كلها ، يفهم من آياته أهل كل عصر بقدر ما آتاهم الله من العلم ، فتتجدد حجة الله على الناس بتجدد إعجاز القرآن العلمى من غير تكلف ولا تعسف ، فالمعنى العلمى الفلكى الحديث ألبس للآية الكريمة وأمكن من معنى ابن عباس كما هو ظاهر من نسبة عدم الإمطار إلى السموات بالجمع مع أن الذى ارتضوه لا ينطبق إلا على سماء السحاب فى أرضنا هذه ، فى حين أن السموات بالجمع أساسية فى فهم الآية على المعنى العلمى طبق ما قرره الفلكيون المحدثون .

أما الاستشهاد لمعنى ابن عباس بقوله تعالى فى سورة القمر (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر – ١١) فمن الواضح أنه استشهاد فى غير موضعه لأن الآية وصف لبدء الطوفان فى قصة نوح لا لغياث أهل الأرض بماء السماء .

وقد ذهب بعضهم إلى أن هناك طائفة كبيرة من العلماء تقول بأن الأرض خلقت مستقلة لا انفصالا من الشمس ، وأرادوا أن ينصروا هؤلاء على (جينز) ومن معه الذين أسسوا نظرية نشوء السيارات ومن بينها الأرض ، انفصالا من الشمس فقالوا : « إن القرآن الكريم نفسه قد بين لنا فى آيات أخرى الطريقة التى خلق الله تعالى بها الأرض والسماء ، فبين ذلك فى صورة تدل دلالة واضحة على أن خلق كليهما كان مستقلا عن خلق الأخرى ، بل كان له زمن غير زمن الآخر » وذكروا آيات سورة فصلت (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين) إلى قوله (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم – من ٩ إلى ١٢) معقبين عليها بقولهم إنها « تدل صراحة على أن كل واحدة منهما كان خلقها مستقلا عن الأخرى ، ومنفصلا عنه » .

مع أن هـــذه الآيات الكريمة تفصيل لما أجملته آية سورة الأنبياء : (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) لكن لا على ما فهموا منها من خلق السماء والأرض فى زمنين مختلفين ، فالفتق بالمعنى

الفلكي يقتضى اتحاد الزمن ، إذ انفصال الأرض يقتضى حتما وجود السماء وإن كانت سديمية دخانية على ما وصف الله سبحانه فى ثالث آيات سورة فصلت (ثم استوى إلى السماء وهى دخانا) ولا تمنع (ثم) الدالة على التراخى عن اتحاد زمن الخلق ، فالسماء كانت سديمية حين انفصلت الأرض عن شمسها فى اليوم الأول أو الطور الأول من خلق الأرض ، ودلت (ثم) على أن الأيام الثلاثة أو الأحقاب الثلاثة التى تحققت فيها الأطوار الثلاثة الباقية من خلق الأرض ، وكان آخرها تقدير أقواتها فيها كنص الآية (١٠) لم تكن تلك الأحقاب كافية لخروج السماء من السديمية الأولى إلا إلى الدخانية.

وفى قوله تعالى (وهى دخان) معجزة علمية أخرى إذ دلت على ما لم يكن يعرفه البشر حتى عصر العلم الحديث من الحالة السديمية التى كانت عليها السماء قبل أن تتخلق بأمر الله إلى سبع سموات يقابلها سبع أرضين كما نصت عليه الآية الأخيرة من سورة الطلاق ، كل أرض تقابلها وتعلوها سماؤها ، كما يقتضيه معنى السماء فى اللغة — لا توجد أرض فلكية من الأرضين الست غير أرضنا التى كان قد تم خلقها بنص الآية العاشرة من سوره فصلت إلا وكان ما حولها وعلاها سماء لها . وهذا يحل الإشكال الذى اضطرب فيه المفسرون فى أمر الأرض والسماء أيتهما خلقت قبل الأخرى . إذ لا قبل ولا بعد ، بل خلقتا معا . (راجع ما ذكرناه فى هذا الصدد بالصفحات ٢٢٥ إلى ٢٢٩) .

وإشكال آخر تحله آيات سورة فصلت مع آية سورة الطلاق وهو إشكال السموات السبع ما هى ، وهل هناك أكثر من سبع ؟ لا أكثر ولا أقل من سبع . ما دام فاطر السموات قد أخبر أنه خلق سبع سموات وسبع أرضين (ومن الأرض مثلهن) : كل سماء يقابلها أرضها ، وكل أرض تعلوها سماؤها بمقتضى الآى القرآنى مع المعنى اللغوى لكلمة سماء .

وبعد فإن بعض المعترضين على أهل التفسير العلمى لكونيات القرآن يتهمونهم بأنهم يبنون تفسيراتهم على نظريات علمية لم تثبت ؛ وهذا إذا صدق

على بعضهم فليس يصدق على جميعهم ، وأغلبيتهم لايفسرون النص القرآنى ، وهو الحق ، إلا بالحقيقة الثابتة فى العلم ، مدركين أن الدقة والاحتياط لازمان فى كل بحث ، وأنهما فى البحوث القرآنية ألزم منهما حتى فى العلوم التجريبية ، لأن أهل هذه العلوم بعضهم رقيب على بعض ، وهى رقابة تكاد تكون معدومة بين الباحثين فى القرآن والحديث .

ثم إن أهل العلوم التجريبية عندهم الحكم بينهم الذى لايخطىء ، عند الاختلاف ، ألا وهو التجربة العلمية . والتحاكم إليها هو فى الواقع تحاكم إلى الله سبحانه لأنه تحاكم إلى سنن لا تتبدل ولا تتخلف ، وحكمها ظاهر العيان لايتمارى فيه المختلفون ، وليس الحال كذلك إذا اختلف النظار فى القرآن أو الحديث ، كل يرى وكل يقول وكل يدفع عن رأيه ونظره ولاحكم بينهم يحسم الخلاف. فياحبذا لو أنشئت هيئة من أهل البصر والإخلاص والاختصاص فى القرآن وفى الحديث تشرف من بعيد على كل بحث قرآنى أو متعلق بالسنة المطهرة ، فتحفظ على القرآن وعلى السنة حرمتهما ، فلا يكون البحث فيهما خوضا يخوضه من يشاء بلا رقيب ولا حسيب .

— ٣ —

نسب إلينا البعض أننا نرى « تفسير الآيات الكونية تفسيرا يجعلها مطابقة لنظريات علمية حديثة » وهذا مالم نذهب إليه قط وما لايمكن أن يفهم من شىء كتبناه ، بل لقد اشترطنا فى التفسير العلمى للقرآن أن تكون المطابقة بين الآى القرآنى وبين الحقائق الكونية « فلا يطابق بين الآى القرآنى والنظريات التى لاتزال محل فحص وتمحيص عند أهلها ، اللهم إلا للحكم عليها بالصحة أو بالبطلان بموافقتها أو مخالفتها للقرآن » كما جاء نصاً فى البحث الذى ألقيناه فى الجلسة العاشرة من الفترة الثانية للمؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية .

وليس من النظريات المشكوك فيها أن الكون مر بطور سديمى قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه وكوكباته ، إنما الخلاف هو كيف نشأت تلك الحالة السديمية من ناحية ، ثم كيف تشكلت إلى ما تشكلت إليه من ناحية أخرى . والطور السديمى الذى مر به الكون دل عليه القرآن كما قدمنا فى آيتين على الأقل، آية سورة الأنبياء ، وآية سورة فصلت ، وكانت أرضنا هذه قد بلغت فى خلقها طورها الرابع ، طور مباركتها وتقدير الأقوات فيها . فالنص على أن السماء كانت عندئذ دخانا نص لا يقبل الشك فى أن الكون كله ما عدا الأرض كان سديما بالمعنى الفلكى لا اللغوى ، لأن السديم فى اللغة هو الضباب الرقيق، والضباب كما هو معروف بخار ماء تكثف على ما علق بالهواء من هباء ونحوه، فلا ينطبق معناه على معنى كلمة Nebula المترجم عنها فى علم الفلك الحديث إلا فى خاصة الإعتام وحجب الرؤية .

لكن الكلمة القرآنية (وهى دخان) تدل أيضا على خاصتين أخريين : الحرارة المتوافرة فى السديم بالمعنى الفلكى ، وعلى احتمال أو رجحان وجود نوع من السديم أسود ، وهو ما قد أثبت علم الفلك الحديث وجوده فعلا . ففى التعبير القرآنى بإحدى الكلمتين العربيتين بدلا من الأخرى إعجاز قرآنى من الناحية العلمية لا شك فيه . وتحققه على أيدى علماء الفلك المحدثين ليس فيه ما يخرجه من دائرة المعجزات لأنهم بتحقيقه قد جاءوا بمثل ما جاء به القرآن ، بل هو فى الواقع قد أضاف إلى الإعجاز من الناحية العلمية إعجازا من الناحية التاريخية أعظم وأعجب من الإعجاز التاريخى فى التنبؤ بغلبة الروم على الفرس فى وقت كانت الدلائل كلها تدل على أن انتصار الفرس كان نهائيا حتى فى رأى مؤلف كتاب تاريخ العالم للمؤرخين (Historian's History of the World) فاستحالة الإصابة فى التنبؤ عن طريق التخمين واضحة فى الحالين ، لكنها أوضح وأظهر فى حالة ظهور التطابق التام بين الحقيقة الكونية التى لم يكن يعلمها إلا خالق الكون وقت نزول القرآن ، وبين الكلم القرآنى الذى دل على تلك الحقيقة قبل أن يكشف الله عنها على أيدى أهل علم الفلك الحديث بعدة قرون.

فأنباء الغيب التي ينزلها الله فى كتابه أو يجريها على لسان رسوله ، ثم يحققها سبحانه بعد ذلك حين يشاء على يد من يشاء من عباده ، هى قطعا من معجزات نبيه ومن أوجه إعجاز كتابه . وتحققها بالوقوع فعلا هو قوام إعجازها ودليله ، لا العكس ، وسواء فى ذلك أكان النبأ متعلقا بغيب كونى كما فى آية سورة الأنبياء أم بغيب تاريخى كما فى آيات سورة الروم . أم بغير هذين الصنفين من أنباء الغيب . وعلى أى حال فالمتعرض لتفسير شىء من الكتاب العزيز عرضة للخطأ ، وتبعة خطئه واقعة عليه هو لا على الكتاب الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فصلت -٤٢) وإلا لاشترطنا فى المفسر أن يكون معصوما من الخطأ وهو شرط مستحيل تحققه فى غير نبى ، وتكون النتيجة تحريم تفسير آيات القرآن على كل إنسان بعد عهد النبي عليه السلام ، يستوى فى ذلك التفسير الكونى وغير الكونى من آيات القرآن.

وبعد فبالقرآن الكريم من الآيات الكونية مالا يقل عن ثمانمائة ، ويتوقف على فقهها تيسير الدعوة الى دين الله فى هذا العصر . عصر العلم الحديث الذى سبقه القرآن الى حقائق كونية بعضها صحح لفلاسفة اليونان من أخطائهم الفلكية ، وبعضها لم يكشف عنه العلم إلا حديثا جدا ، وبعضها من القضايا الكلية التى ينطوى تحتها قضايا جزئية ثبت بعضها فعلا ، ولا تزال صالحة لتشمل ما يمكن أن يكشف عنه العلم فى مجالها ، ومعروف أن القضايا الكلية هى أرقى ما يمكن أن يصل اليه العلم فى ميادينه المتعددة ، بحيث لو استطاع العلم أن تشمل الحقائق الكونية جميعها قضية واحدة لفعل .

فمن القضايا التى اشتهرت حديثا بين الناس ودل عليها القرآن من قبل ، اختصاص كل إنسان ببصمة دل عليها قوله تعالى (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه ـ القيامة ٣ و ٤) تقريرا لبعث الأجساد بحيث يحتفظ كل جسد بشخصيته . فالإعجاز العلمى هو فى قوله (نسوى بنانه) وقد سمعت هذا المعنى تفسيرا للكلمتين الكريمتين من الشيخ الأحمدى الظواهرى.

ومنها أن المركز العصبي للإحساس هو فى الجلد لا فى اللحم تحته ، دل عليه قوله تعالى (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ـ النساء ٥٦) ومنها أن البويضة الملقحة تعلق بجدار رحم الأنثى تتغذى من دمها وتتكاثر ، دل عليه قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق — العلق ١ و٢) . ومنها ما لم يكشف عنه إلا حديثا فى أواخر القرن الماضى مثل قوله (والشمس تجرى لمستقر لها — يس ٣٨) . ومنها ما لم يكشف عنه العلم إلا استنباطا فى أوائل هذا القرن ، ومشاهدة فى عصر الأقمار الاصطناعية والسفن الفضائية ، مثل قوله (وأغطش ليلها) أى ليل السماء ، إذ الضمير فى (ليلها) راجع الى السماء كما بينا من قبل .

ومن القضايا الكلية التى تحوى قضايا جزئية ثبتت حديثا قوله فى سورة يس (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون — ٣٦) ففى قوله (من أنفسهم) بيان لنوع الزوجية . فالبويضة بعد التلقيح تكسب خواص أخرى مغايرة بالمرة لخواصها قبل التلقيح ، من التكاثر أولا والتنوع ثانيا . ومن هنا نتبين معنى صدر الآية الذى لم يكن معروفا للناس عصر نزول القرآن ، اللهم إلا فى النخل . ثم يأتى قوله (ومما لا يعلمون) ليشمل كل ما يمكن أن يكشف عنه العلم من أزواج إذا التقت تغيرت الى ما يغاير خواصها تماما قبل .

وقد كشف العلم بعد سنة ١٩٣٧ أو حولها (الكهيرب الإلكترونى) الموجب نقيض الكهيرب السالب ، بحيث إذا التقيا تحولت مادتهما إلى طاقة صرفة تسير فى الكون بسرعة الضوء أى بسرعة ثلثمائة ألف كيلومتر فى الثانية . وكذلك كشفه عن نقيض البروتون (الأبيب) الموجب ، أى عن أبيب سالب ، إذا التقى بعكسه الموجب ، الذى عبارة عن نواة ذرة الإيدروجين ، تحول إلى طاقة صرفة تسير فى الكون بسرعة الضوء ، أى فنيت مادة الإيدروجين بتحولها إلى طاقة خرجت عن سلطان الإنسان ، وانحلت بذلك شبهة قدم المادة التى قامت عليها شبهة قدم العالم عند فلاسفة اليونان .

الفصل الثالث

الجبال فى القرآن

١ – الجبال والقيامية

جاء ذكر الجبال فى القرآن بلفظها فى نحو تسع وعشرين آية ، وبوصفها أنها رواسى فى نحو تسع آيات . ومن الآيات التسع والعشرين إحدى عشر آية تتعلق بالقيامة وأشراطها ، هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : المزمل والتكوير والقارعة والمرسلات وطه والواقعة والكهف والطور والحاقة والمعارج والنبأ . ومن بين هذه الإحدى عشر سورة أربع أنبأت أن الجبال تسير فتسير ، ألا وهى : التكوير والكهف والطور والنبأ – فى أربع آيات هى حسب ترتيب النزول (وإذا الجبال سيرت ـ التكوير ٣) ، و (يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ـ الكهف ٤٧) و (يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا ـ الطور ١٠) و (سيرت الجبال فكانت سرابا ـ النبأ ٢٠) .

وآية سورة التكوير جاءت تتلوها آية (وإذا العشار عطلت ـ ٤) فدل ذلك على أن تسيير الجبال علامة من علامات الساعة أو هو بدء قيامها إذ العشار كانت لا تزال موجودة فى الدنيا ، وإنما أصابها التعطيل . وهاتان الآيتان وما قبلهما وما بعدهما أحداث يتلو بعضها بعضا ، والله أعلم بفترات ما بينهما . وهى فى العد إثنا عشر حدثا عظيما ، وتأملها يدل على أن نصفها الأول من الأشراط ، ونصفها الثانى من الوقائع التى تكون بعد قيام الساعة فى يوم البعث . فتسيير الجبال حدث من أحداث ستة عظمى تقع بين يدى يوم البعث . ولذا جاء الفعل فيها مبنيا للمجهول (وإذا الجبال سيرت) ، كما جاءت أفعال الآيات العشر الأخرى فى أوائل سورة التكوير .

وتجيء آية سورة الكهف (ويوم نسير الجبال) بضمير المتكلم ، ضمير الجلالة ، فتدل على أن الجبال حين سيرت إنما سيرها الله سبحانه ، فبأمره قامت وبأمره سارت سيرا فعليا ، كما تدل عليه آية الطور (وتسير الجبال سيرا) .

ثم تجيء آية النبأ ، فيها الفعل مبنى للمجهول مرة أخرى ، بعد أن سبق النص بضمير الجلالة فى آية الكهف على أن المسير هو الله سبحانه . لكن ليس فى هذه الآيات الثلاث بترتيب نزولها هذا ما يدل على مصير الجبال بعد مسيرها . حتى تأتى رابعة آيات التسيير آية سورة النبأ (وسيرت الجبال فكانت سرابا ـ ٢٠) فتنبيء بأن الجبال حين تسير فتسير إنما ينتهى بها سيرها إلى الفناء فلا يبقى لها من الوجود الذى كان إلا كالوجود الذى يكون فى السراب .

هذه أربع آيات كريمة يجمع بينها اشتراكها فى ذكر ظاهرة تقع بالجبال عند الرجفة الأولى بين يدى يوم البعث ، يوم القيامة الكبرى . وهناك أربع آيات أخرى تتعلق بظاهرة أخرى تقع أيضا بالجبال هى ظاهرة النسف . هذه الآيات الأربع هى بترتيب النزول (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ـ المزمل ١٤) و (وإذا الجبال نسفت ـ المرسلات ١٠) و (يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ـ طه ١٠٥ - ١٠٧) و (إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا ـ الواقعة ٤ ـ ٦) .

والآيات الأربع المقصودة هى طبعا التى ذكرت الجبال فيها بلفظها ، وقد ذكر معها من الآى ما يزيد موضوعها وضوحا . وقد ذكر النسف صراحة فى الآيتين الثانية والثالثة ، وذكر بمعناه فى الآية الرابعة . أما الآية الأولى ، آية المزمل ، فهى تمهد للنسف بذكرها مقدمة من صيرورة الجبال كثيبا مهيلا . إذ من الواضح أن الجبال إذا صارت كثيبا مهيلا فقد أعدت لأن تنسف نسفا وتكون هباء منبثا . ومن هنا ألحقت آية المزمل بالآيات الثلاث الأخرى وإن لم يذكر فيها النسف لا باللفظ ولا بالمعنى .

هاتان إذن مجموعتان كل من أربع آيات تتحدث عن ظاهرة تقع بالجبال ظاهرة تسيير وسير (وتسير الجبال سيرا) وظاهرة نسف (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) فهل هما يا ترى ظاهرة واحدة فيكون تسيير الجبال هو عين نسفها أو هما ظاهرتان مختلفتان؟ إن التسيير الذى تطيعه الجبال فتسير سيرا حقيقيا غير النسف الذى تبس فيه الجبال بسا فتكون هباء منبثا . واتحادهما يقتضى حمل أحدهما على المجاز ، والمجاز يقتضى قرينة تدل عليه فى نفس الكلام . وهذه القرينة مفقودة فى أى الآيات الثمان . فالتسيير والنسف إذن على حقيقتهما — هما ظاهرتان مختلفتان تنزلان بالجبال ، إما على التعاقب فيسير الجبل ثم ينسف وأما على التقسيم : فيسير بعض الجبال وينسف البعض الآخر ، ولا ثالث لهذين الاحتمالين .

لكن الاحتمال الأول تمنع منه آية سورة النبأ (وسيرت الجبال فكانت سرابا) إذ الجبال بعد أن انتهى بها التسيير إلى أن تفنى وتكون سرابا لا يمكن أن يلحق بها نسف وقد انعدمت بالفعل . فلم يبق إلا الاحتمال الثانى ويتعين أن يكون الفناء عن طريق التسيير خاصا ببعض الجبال ، والفناء عن طريق النسف خاصا بالبعض الآخر ، وهذا يقتضى أن تكون الجبال صنفين : أحدهما يقبل بفطرته التى فطره الله عليها أن ينسف بعد أن يصير بالرجفة كثيبا مهيلا ، والآخر يقبل بفطرته أن يسير حتى يصير سرابا . ولا بد من تغيير فى هذا الصنف يمهد للتسيير كما مهد للنسف فى الصنف الأول بالانهيال . إذ كل من الصنفين فى حالته الدنيوية راس راسخ ، لا بد فى حكمة الله من إعداده للنسف والتسيير .

وفى آيتى المعارج والقارعة مايؤيد هذا الاستنباط من أن الجبال صنفان ، لأنهما تذكران تحولا تصير إليه الجبال يخالف ويقابل ماتصير إليه من كثيب مهيل كما فى آية المزمل . فإن الآيتين كلتيهما تذكران أن الجبال تكون كالعهن (وتكون الجبال كالعهن — المعارج ٩) وتزيد آية القارعة وصفا للعهن (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش — القارعة ٥) .

والعهن هو الصوف المصبوغ . فالآية الكريمة تقول إن الجبال يوم القارعة تكون كالصوف المصبوغ المنفوش ، ولكل من هذه الكلمات الثلاث دلالتها، فالصوف فيه من التماسك ماليس فى الرمل الذى يكون فى الكثيب المهيل . وإذن فالجبال التى تصير بالرجفة كثيبا مهيلا غير الجبال التى تصير كالصوف فى طبيعتها وتكوينها ، وفيما تصير إليه يوم الرجفة . وإذا كان انهيال الأولى يهيؤها للنسف ، فتفكك الثانيه حتى تكون كالصوف يهيؤها للسير بالتسيير الذى تصير به بعد سرابا .

والجبال التىقال الله عنها فى الآية (٢٧) من سورة فاطر (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) هى التى تصير بالقارعة كالصوف المصبوغ . و (من) التبعيضية فى هذه الآية الكريمة تدل على أن الملون من الجبال هو الذى يصير كالعهن ، وأن ليس كل الجبال كذلك ، ففيها مثلاالأبيض كله مثل جبال الطباشير والحجر الجيرى المتبلور أو غير المتبلور . وهذه لايمكن أن تكون هى المشبهة بالعهن والصوف المصبوغ .

فالجبال فى الآيتين الكريمتين (وتكون الجبال كالعهن) و (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) مقصود بها الملون من الجبال لا مطلق الجبال ، وهذا يحل لنا الإشكال الناشىء عن المعنى المتبادر من فهم الجبال على إطلاقها فى هذا النص وغيره من نصوص الآيات الثمان السابقة . فالجبال كلها مصيرها الى الزوال والفناء بين يدى الساعة ، أو حين تقوم ، لكن لا بطريقة واحدة . فليس كلها يصير كثيبا مهيلا ، وليس كلها يصير كالعهن قبل أن يذهب ويزول ، إذ ليس كلها ذا تكوين واحد ولا خواص واحدة ، وعلماء طبقات الأرض الذى تعددت أقسام الجبال عندهم هم الذين يستطيعون زيادة هذه الناحية من الموضوع بيانا .

ووصف العهن بالمنفوش فى آية سورة القارعة له أهميته ودلالته ، لا من حيث تيسير تسيير الجبال بعد أن تصير الى هذه الحال فيما يبدو ، ولكن من

حيث توكيد تقسيم الجبال إلى ذينك الصنفين اللذين يصير أحدهما بالرجفة كثيبا مهيلا ، ويصير الآخر كالعهن المنفوش . فلولا وصف العهن بالمنفوش فى الآية لجاز أن يكون تشبيه الجبال بالعهن راجعاً إلى التشابه فى اللون والصبغة فحسب ، لا الى التشابه فى شىء من صفات الصوف الأخرى كالتماسك الذى يكون بين أليافه وفيها ، والذى استندنا اليه فى التفرقة بين الجبال التى تنهال كثيبا والجبال التى تنفش كالصوف .

تبقى من الإحدى عشرة آية المتعلقة بالجبال وأحداث القيامة آية واحدة هى آية الحاقة (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة — ١٤) والله أعلم بكيفية ذلك الحمل ثم بكيفية ذلك الدك . لكنهما على أى حال يستتبعان تلك الأحداث التى تقدمت بها تلك الآيات الكريمة العشر . فالدك يحول الجبال إما الى كثبان مهيلة ينسفها الله بما يشاء كيف يشاء ، وإما إلى حالة من التحلل والتفكك تصير بها بنية الجبال كالصوف المصبوغ المنفوش ، ثم يسيرها الله بعد ذلك بما يشاء كيف يشاء حتى تصير سراباً وأثرا بعد عين .

بقيت آية عن الجبال هى معجزة قرآنية علمية ، لأنها تقرر حركة انتقالية للأرض قبل أن يعرفها العلم بقرون ، ويلحقها قدامى المفسرين بالآيات السابق ذكرها ، إذ لم يكن يخطر ببالهم أن للأرض حركة . وينكر بعض المحدثين أن تكون الآية عن الجبال فى الدنيا ، فى حياتنا هذه ، صونا للآيات القرآنية أن تقحم عليها النظريات العلمية ، بل أن تقحم عليها الحقائق العلمية ، ناسين أن الطريق الصحيح لصون القرآن عن مثل هذا ليس هو إيصاد الباب دون إثبات الإعجاز العلمى للقرآن . ولكن هو النقد الدقيق لدليل ذلك الإعجاز . تلك الآية العجيبة هى آية أواخر سورة النمل (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء . إنه خبير بما تفعلون — ٨٨). وكل حجتهم فيما أنكروا أن آية الجبال مسبوقة بآية النفخ فى الصور (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل

أتوه داخرين — ٨٧) ، فالسياق فى رأيهم يقتضى أن تكون آية الجبال متعلقة بيوم النفخ فى الصور .

وقد سبق أن تناولنا هذه المسألة فى غير إفاضة اكتفاء بما سيق معها من دليل على أن الآية تنبىء بحركة للجبال تشبه حركة السحاب الذى يتحرك لا بالذات ولكن بواسطة الرياح التى تحمله ، وإذن فللجبال حركة ، لا بالذات (لأنها فى مرآى العين جامدة) ، ولكن بواسطة الأرض التى تحملها ، أى أن الآية تثبت للأرض حركة إنتقالية عن طريق إثبات حركة للجبال تشبه حركة السحاب ، وهى معجزة علمية قرآنية لا شك فيها ، والسياق الذى استند اليه منكروا هذا المعنى لا ينبغى أن يقتصر فيه على الآية قبلها فحسب . وإذا توسعنا فيه ليشمل أربع آيات أخر قبلها وجدنا مثالا كالذى احتجوا به ، إلا أن الحجة فيه عليهم لا لهم . وحسبنا ثلاث آيات فى يوم البعث أو الحشر تليها آية كونية لا يمكن أن ترجع الى يوم الحشر . والآيات الأربع هى (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ، أم ماذا كنتم تعملون ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ، ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ٨٣ — ٨٦) . . فلو صحت حجة من يزعم أن آية (وترى الجبال تحسبها جامدة) متعلقة بيوم النفخ فى الصور لمجرد أنها مسبوقة بآية (ويوم ينفخ فى الصور) لصحت حجة زاعم أن آية (ألم يروا أنا جعلنا الليل . . .) متعلقة بيوم الحشر لمجرد أنها مسبوقة بآيات عنه .

فالسياق فى هذه الآيات الأربع دلالته على عكس ما يظنون : يذكر بيوم القيامة إنذارا ووعيدا وزجرا لغير المؤمنين ، ثم يأتى ببعض آيات الله فى الكون الدالة عليه سبحانه لعلهم يؤمنون . وكذلك الحال فى الآيتين التاليتين للآيات الأربع ، يذكر وينذر بيوم القيامة فى آية (ويوم ينفخ فى الصور — ٨٧) ثم يذكر آية أخرى لله فى الكون تدل عليه سبحانه (وترى الجبال تحسبها

جامدة — ٨٨) ثم يتابع حديث يوم القيامة فى الآيتين بعدها (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون — ٨٩ و ٩٠) ثم يعود إلى الدعوة إلى الله على لسان رسوله وهى المقصود الأول فى هـــذا وفى القرآن كله (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين — ٩١) . وهكذا حتى آخر السورة : (وأن أتلوا القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون — ٩٢ و ٩٣) .

٢ — آيات الجبال فى القصص القرآنى

بقى من الآيات التى ذكرت الجبال فيها بلفظها سبع عشرة آية تتعلق بالجبال فيما دون القيامة ، أى فى دنيا الأرض هذه التى استخلف فيها الإنسان ، قد وردت فى ست عشرة سورة هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : (ص) والأعراف والشعراء وهود والحجر وسبأ والغاشية والنحل - آيتان - وإبراهيم والأنبياء والنبأ والنازعات والأحزاب والرعد والنور والحج . وآيات الجبال فى الست السور الأولى آيات قصص يلتحق بها آية سورة الأنبياء . فهذه سبع آيات ، ثلاث منها وردت فى قصص داود عليه السلام فى (ص) وسبأ والأنبياء ، وثلاث فى قصص ثمود فى الأعراف والشعراء والحجر ، وواحدة فى قصة نوح عليه السلام فى سورة هود .

وأول تلك الآيات آية سورة (ص) يذكر الله فيها معجزة كبرى آتاها نبيه داود . أو هما معجزتان فى آيتين كريمتين هما : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة ، كل له أواب - ١٨ و ١٩) . ولعظم دلالة هاتين المعجزتين على قدرته سبحانه من ناحية ، وفضل داود عليه السلام من ناحية أخرى ، أعاد الله ذكرهما فى إجمال معجز فى بعض آية ، إذ يقول فى سورة سبأ (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير ،

وألنا له الحديد ـ ١٠) . وإذ يقول فى سورة الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ـ ٧٩) .

ومتأمل الآيات الكريمة الثلاث يجد بينها اشتراكا واختصاصا فى التعبير ، ولكل دلالته العجيبة . فالحرف (مع) مشترك بينها وكذلك ضمير الجلالة المتكلم . ودلالة الحرف أن داود كان يبدأ التسبيح فتشاركه الجبال . ولو كان التعبير باللام (بدلا من مع) لما ثبت التسبيح إلا للجبال . أما دلالة الضمير فهى أعجب وأعظم . فهو أولا لا يمكن أن يرجع إلا إلى الله عز وجل . إذ لا يقدر على تسخير الجبال غيره سبحانه ، وهو ثانيا ضمير الجلالة المتكلم ، فدل بوضوح على أن الآيات القرآنية الثلاث إنما هى من عند الله سبحانه ، لا من عند محمد أو غيره ، كما يزعم المستشرقون ومقلدوهم ، وكما غفل عن ذلك أو أغفله المشركون الذين قالوا إن محمدا افتراه . وضمير الجلالة مبثوث فى القرآن كله لتكون له هذه الدلالة القاطعة بأن القرآن كله إنما هو من عند الله .

أما عن الاختصاص فى الآيات الكريمة الثلاث : فقد اختصت الآية الأولى وأختها معها بتفصيل ما أجمل فى الآيتين الأخريين ، ومن بين ذلك تبيين الوقت ، وقت التسبيح . واختصت الآية الثانية ، آية سبأ ، بنداء الجبال ، وأمرها أن ترجع التسبيح مع داود ، (يا جبال أوبى معه والطير) . ونداء الجبال وأمرها أمر تسخير لا يمكن أن يكون إلا من خالق الجبال سبحانه . واختصت الآية الثالثة آية الأنبياء بقوله تعالى (وكنا فاعلين) بعد قوله عز وجل (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) ، وفى ذلك تنبيه إلى عظم المعجزتين ونفى لما قد يرد على الخاطر من استبعاد أن يكون التسبيح بلسان المقال ، ومن حمله على التسبيح بلسان الحال المذكور فى آية الاسراء (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ـ ٤٤) فدلالة الأشياء على الله بما أودع سبحانه فيها من أسرار وخواص أمر عام للناس أجمعين . أما تسبيح الجبال مع داود عليه السلام فأمر خاص به ، ومعجزة آتاه الله إياها .

الجبال فى قصص ثمود

وآيات الجبال فى قصص ثمود تدل على أن ثمود كانوا قوما أولى عمارة وتشييد ونحت مثل قدماء المصريين ، وأولى تلك الآيات الثلاث آية الأعراف التى هى أولى آيات الجبال فى القرآن حسب ترتيب المصحف وثانيتها حسب نزول الوحى ، وقد وردت ، هى وأختها آية سورة الشعراء ، على لسان نبى الله صالح إذ يدعوهم إلى الله ويذكرهم بنعم الله عليهم ويحذرهم الكفران (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين-٧٤)

وآية الشعراء (أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون — ١٤٦ — ١٥٠) والشاهد هو طبعا فى رابعة هذه الآيات الخمس . ويبدو أن ثمود كانوا يقتطعون الصخور من الجبال يبنونها قصورا فى السهول ، كما تشهد له آية الفجر ٩ (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) ، كما كانوا يتخذون البيوت ينحتونها فى الجبال نفسها ، كما تدل عليه آية سورة الأعراف . ويشهد للأمرين جميعا آية سورة الشعراء . وتحقيق هذا ميسور بدراسة مساكن ثمود فى الحجر ، فانهم هم أصحاب الحجر الذين يقول الله فيهم فى سورة الحجر (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ـ ٨٠ و٨١) . وما أظن أحدا من الأثريين الإفرنج قام بهذه الدراسة . وأجدر الجامعات أن تقوم بها الجامعة الأزهرية ، لنتعرف مبلغ التشابه بين ثمود وقدماء المصريين فى نحت الجبال ، ذلك التشابه المتوقع من قوله تعالى (وفرعون ذى الأوتاد ـ ١٠) بعد قوله (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ـ ٩) فى سورة الفجر .

ومتأمل الآيات الثلاث وسياقها يدرك أولا أن التكرار فى القصص القرآنى ليس مجرد تكرار المعنى والتعبير ، بل هو صور من الإعجاز فى المعنى والأسلوب ـ وفى آيتى الجبال فى سورتى الشعراء والحجر مثال من زيادة الفائدة

فى المعنى مع الاشتراك فى أكثر الألفاظ (وينحتون من الجبال بيوتا فارهين ـ الشعراء ١٤٩) و (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ـ الحجر ٨٢). ولكل من الآيتين فى سياقهما إعجازها ، ففى التعبير مثلا باسم الفاعل (فارهين) إعجاز معنوى عجيب ، لأن الفعل يختلف معناه باختلاف بابه : فره من باب كرم معناه حذق ، ومن باب فرح معناه أشر وبطر ، كما فى القاموس ، واسم الفاعل يدل على المعنيين معا .

فنبى الله صالح كان يذكر قومه بنعمة الله عليهم فيما آتاهم من الحذق فى اتخاذ البيوت ينحتونها من الجبال ، وينعى عليهم كفرانهم بتلك النعمة ، إذ يسيئون استعمالها بالتعالى فى تلك البيوت أشرا وبطرا ، فجمع الله ذلك المعنى كله فى لفظة واحدة (فارهين) اسم الفاعل من الفعلين جميعا . وما أظن كلمة واحدة فى غير العربية كانت تحتمل كل هذا . فمثل هذا سر من أسرار العربية التى أعدها الله فى سابق علمه لتكون لغة كتابه العزيز الذى أنزله معجزة خالدة للناس .

أما آية الحجر (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ٨٢) فإعجازها فيما يبدو هو فى الجو الذى يضفيه عليها ضمير الجلالة للمتكلم فى الآية قبلها (وآتيناهم آياتنا كانوا فكانوا عنها معرضين) ، وتضفيه عليها الآية بعدها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) ، بعد الأمن الذى كانوا فيه ودل على استقراره فيهم صيغة الحال فى كلمة آمنين .

وقد يظن أن سياق كل من آيتى الأعراف والشعراء قد خلا من دلالة ضمير الجلالة الظاهر فى سياق آية الحجر ، وليس الأمر كذلك ، فآية الجبال فى الأعراف جاءت عقب قوله (وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ـ ٧٣) عطفا على قوله (وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ـ ٦٥) فى مفتتح قصة عاد . وهذه جاءت عطفا على قوله (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فى مفتتح قصة نوح فى الآية (٥٩) وهى أول قصص الأنبياء فى سورة

الأعراف ، فن الواضح أن التقدير هو (وإلى عاد ـ أرسلنا ـ أخاهم هودا) و (وإلى ثمود ـ أرسلنا ـ أخاهم صالحا) فى الآيتين الكريمتين ٥٩ و ٦٥ ، وحذف كلمة (أرسلنا) اعتمادا على ورودها فى الأول وإبقاء مفعولها منصوبا دليلا فى كل من الآيتين هو مثل من الإعجاز القرآنى فى الإيجاز اللفظى .

أما آية سورة الشعراء (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ـ ١٤٩) فقد ناب عن ورود ضمير الجلالة فيها وروده فى ختام قصة عاد قبلها مباشرة فى الآية ١٣٩ (فكذبوه فأهلكناهم ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ـ ١٣٩ و ١٤٠) مع اشتراك القصتين فى المبدأ من حيث الصيغة : (كذبت عاد المرسلين) ، (كذبت ثمود المرسلين) وفى النهاية بالذات (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . وفى ضمير الخطاب ضمير الرسالة ، فى قوله تعالى (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) دليل آخر يقطع بأن هذا القصص ليس من عند محمد ولكن من عند ربه عز وجل الذى أرسله رحمة للناس .

بقيت من آيات الجبال فى القصص القرآنى آية سورة هود (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ـ ٤٢) ، وفيها تشبيه رهيب لموج الطوفان الذى أغرق الله به قوم نوح . استدل به الفخر الرازى على أن الطوفان كان مصحوبا برياح شديدة العصف ، وهو استنتاج صحيح ، فقد ذكر العالم الرياضى الطبيعى إدنجتن عن تولد الأمواج بالريح أن الريح لا تحدث أى تغضن فى سطح الماء إلا إذا بلغت سرعتها ميلا فى الساعة . وهو ما يسميه بالأمواج الشعرية . أما الموج كما نعرفه فلا يبدأ ظهوره إلا إذا بلغت سرعة الريح فى الساعة ميلين . فما ظنك بسرعتها إذا بلغ الموج من العظم أن صار كالجبال ؟ . والقصة التى وردت فيها الآية الكريمة تكرر فيها ضمير الجلالة للمتكلم فى الأول وأثنائها وفى الآخر ، كما تكرر فيها ضمير الرسالة إذ جاء فى الوسط مرة (أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فعلى إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون — ٣٥) ، وفى

الآخر مرات فى الآية ٤٩ (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين) . فكان فى ذلك برهان مضاعف أن القصة كأخواتها إنما هى من عند الله .

٣ — اقتران ذكر الجبال بذكر الأرض والسماء

بقيت بعد آيات الجبال والقيامة ، وآيات الجبال فى القصص القرآنى ، آيات إحدى عشرة جاءت الجبال فيها بلفظها فى عشر سور هى : مريم والغاشية والنحل وابراهيم والنبأ والنازعات والأحزاب والرعد والنور والحج مرتبة هكذا حسب ترتيبها فى نزول الوحى بها .

وآية سورة مريم هى ثالثة الآيات الكريمة (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ٨٨ — ٩٠) . وهى آيات قد تؤخذ على أنها من باب المبالغة عند من لا يفقه كيف يكون قول من ينسب الولد الى الله سبحانه سببا يدنى السموات من الانفطار ، والأرض من الإنشقاق ، والجبال من الإنهداد . لكن المبالغة لا تكون إلا فى كلام محدودى القدرة ، ما يعجزون عنه (ويعلمون أنه لا يمكن أن يتحقق) يقولون عند المبالغة إنه تحقق أو كاد ، فى ظرف من الظروف لأمر من الأمور . أما الحق سبحانه الذى لا يعجزه شىء والذى بيده أمر السموات والأرض ، فلا يمكن أن تكون هناك مبالغة فيما يخاطب به عباده ، إلا أن ترد على لسان من يحكى عنهم القرآن من الإنس أو الجن أو الملائكة .

وإذن فالآيات الكريمة الثلاث ليست من المبالغة فى شىء ، وإنما تقرر حقيقة. من الحق أن نسبة الولد إلى الله سبحانه هى من الشناعة ومن الإجرام فى جنب الله بحيث تغضبه الغضب الذى لولا حلم الله سبحانه ولولا حكمته لعجل الله من أجله بالقيامة ، ليحاسبهم على ما يفترون ، إذ الأحداث الهائلة المذكورة فى الآية الكريمة لن تقع إلا عند القيامة .

ونسبة تلك الأحداث إلى السماء والأرض والجبال فى الآية الكريمة هى من الإعجاز البلاغى . ومن أدلة أن القرآن من عند الله ، إذ ليس يخطر على بال مخلوق أن يحكى عن السماء أنها تنفطر ، وعن الأرض أنها تهوى منهدة لقول يقوله فريق من عباد الله ينسبون به الولد إلى الله سبحانه . ولعل هذه الصيغة الإعجازية وخلوها من التصريح بأن الله هو فاعل ذلك كله لو كان ، لعل ذلك هو الذى ييسر حمل الآية على المبالغة عند بعض الناس .

لكن الآيه لم تخل من الإشارة إلى أن تلك الأجرام الهائلة ، من سماء وأرض وجبال ، لا تنفطر ولا تنشق ولا تنهد من نفسها . والإشارة هى : أولا فى المصدر المنصوب على التمييز فى ختام الآية الكريمة (وتخر الجبال هدا) والهد هو الهدم الشديد ، كما فى القاموس ، والهدم لا بد له من فاعل ، ولا يقدر على هدم الجبال وهدها إلا الله سبحانه ، وإذ قد ظهر أن أحد الأحداث الثلاثة المذكورة فى الآية هو من فعل الله ، فالحدثان الآخران هما من فعله أيضا . وثانيا يؤيد ذلك ويشير إليه الفعل المطاوع المسند إلى السماء وإلى الأرض لأن المطاوعة فى الفعل تقتضى فعلا متعديا يناسبه ، وليس يقدر على شق الأرض وتفطير السماء إلا الله . فانظر إلى هذا الاعجاز فى الإيجاز وفى المعنى .

وعجيبة عن الجبال فى الآية الكريمة ينبغى ألا تغيب عن تاليها المفكر فيها ، تلك هى أن الجبال قد ذكرت مع السموات والأرض على سواء ، فلا بد أن يكون فى الجبال من أسرار الخلق ومن الخصائص ما يجعل انهدادها جديراً أن يسلك مع تفطر السماء وانشقاق الأرض فى سلك ، خصوصا من حيث أثره فى حياة الناس .

وأسرار الخلق ، خلق الجبال ، قد أمرنا فى آية سورة الغاشية أن نتعرفها وننظر فيها نظرة تأمل واعتبار . والآية هى ثالثة الآيات الكريمة الآتية (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ١٧ - ٢٠) . وهنا نلتقى بتلك

العجيبة مرة أخرى ، عجيبة ذكر الجبال مع السماء والأرض على سواء : وإن جاء ذكرها بعد ذكر السماء وقبل ذكر الأرض لما بين رفعة السماء وارتفاع الجبال من تناسب ، وما بين نصب الجبال وبسط الأرض من تقابل . والجبال جزء من الأرض ، فأى سر ذاك وأية حكمه فى رفعها عن سطح الأرض ؟ أو ـ إذا نظرنا إليها من الناحية المقابلة ـ أى سر ذلك وأية حكمة فى خفض سطح الأرض عن سطح الجبال ، وفى خفض سطح الجبال بعضها عن بعض ، إن علوم الفلك وطبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية وما إليها من فروع العلم هى الكفيلة بالإجابة على ذلك وتبيانه لمن أراد التعمق ، وإلا ففيما يعرفه الناس، كل بقدر علمه وعقله. ما يكفى للهداية إلى رب السماءوالأرض والجبال.

ونستقرىء بقية الآيات لنرى هل من بينها ما تحققت فيه أيضا تلك العجيبة، عجيبة ذكر الجبال مع الأرض والسماء على سواء . فنجدها تحققت فى أربع آيات من التسع الباقية فى سور النبأ والنازعات المكيتين ، والأحزاب والحج المدنيتين . فالأولى هى (والجبال أوتادا) من قوله فى سورة النبأ (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا ٦ - ١٢) والثانية هى (والجبال أرساها) من قوله فى النازعات (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ٢٧ - ٣٢) .

وأما المدنيتان فهما آخر سورة الأحزاب (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا — ٧٢) . ثم الآية ١٨ من سورة الحج (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب) . وفى هذه الآية الأخيرة ذكرت الشمس والقمر والنجوم بدلا من السماء ، وذكرت الجبال والشجر والدواب بدلا من الأرض : مادام المقام مقام تعديد كل ما يسجد لله فى الكون أى كل

مايطيعه سبحانه تمام الطاعة وينقاد لحكمه أتم انقياد . لم يستثن من هذا الشمول إلا الناس . فكثير منهم يسجد ويطيع . ويلزم من هذا أن باقيهم لا يفعل . فهو داخل فى الكثير الذى حق عليه العذاب .

لكن هذا الكثير ليس مقصورا على الكافرين والعاصين من الناس ، بل يشمل الشياطين وعصاة الجن أيضاً ، وإلا لدخل هؤلاء فى الساجدين المنقادين الذين دل عليهم الاسم الموصول للعاقل فى قوله (ومن فى الأرض) ، وهذا غير معقول ولا مقبول ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء مسكوتا عنهم مادام قوله تعالى (وكثير حق عليهم العذاب) يمكن أن يشملهم ويشمل العاصين والكافرين من الناس ، فتكون الآية الكريمة شاملة حكم الله فى كل مخلوق خلقه .

وآية سورة الحج هذه تبين النتيجة العملية لما أخبرت به آية آخر سورة الأحزاب (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال — ٧٢) ، فإن الأمانة عند جمهور المفسرين فيما حكاه أبو حيان هى « كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دين ودنيا . والشرع كله أمانة — فهى فيما يبدو أمانة العقل والاختيار ومايتبعها فى الدين من التكاليف والجزاء » . فالسموات والأرض والجبال هابت أن توهب نعمة العقل والاختيار مقرونين بشرط التكليف والجزاء بالمثوبة إن أطاعت والعقوبة إن عصت ، وآثرت السلامة والعافية فى تمام الطاعة والانقياد لسنن الله فيها ، خوفا وإشفاقا أن يضلها النظر والاختيار فتزيغ عن أمر الله فتتعرض لعذابه .

أما الإنسان فقد قبل أن يحمل ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله ، راجيا أن يقوى على أداء ما يكلفه الله به ، عازما أن يطيع ولا يعصى ، حتى إذا ما ابتلى بإبليس الذى لا يملك من فتنته إلا أن يوسوس إليه ويقترح عليه الكفر والمعصية مجرد اقتراح ووسوسة ، لا يملك معها أن يجبره ، وهو مع ذلك قد حذر أنه له عدو مبين . حتى إذا كان ذلك نسى العهد وأهمل وأساء الاختيار . فكان ذلك منه سفها وجهلا وظلما لنفسه ولمن معه من الناس ، اللهم إلا من أعطى الأمانة حقها فى الكثير الغالب واستغفر الله وتاب

إليه كلما خدعه الشيطان عن شيء من دينه ، فكان ممن قال الله فيهم (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات : وكان الله غفورا رحيما — الفرقان ٧٠) ، ولم يكن من الكثير الذين حق عليهم العذاب .

وواضح أن موضوع هاتين الآيتين المدنيتين غير موضوع بقية الآيات الأربع ، آيات مريم والغاشية والنبأ والنازعات ، وإن اتفقت كلها فى ذكر الجبال مع السموات والأرض أو السماء والأرض ، على سواء . والاختلاف بينهما فى البيئة التى نزلت فيها . فالبيئة المدنية غلب فيها الإسلام ، فلم تحتج إلى ما احتاجت إليه البيئة المشركة المكية من إقامة الدليل على الله من آيات الله الواضحة الظاهرة فى الكون ، ومنها آياته فى السماء والأرض والجبال على النحو المتجلى فى آيات الغاشية والنبأ والنازعات ، أما آية مريم فالمخاطب بها فيما يبدو من كان يغشى البيئة المكية من النصارى ، والزجر الشديد الذى فيها وفى الآيات التى تليها ، يذهب بما يوسوس به المستشرقون من النصارى من أن محمداً أخذ عن نصارى مكة أو بعض رهبان الشام شيئاً مما جاء به من الدين .

لكن المهم فيما نحن بصدده أمران : أن ذكر الجبال على الخصوص ، وهى جزء من الأرض ، فى آيات ست ذكرت فيها السموات والأرض ، أو السماء والأرض ، دليل ليس بعـــده دليل على الأهمية القصوى للجبال من ناحية ما أودع الله فيها من أسرار الخلق الدالة على عظمة الله وقدرته وحكمته سبحانه ، ومن ناحية عظم أثرها فى حياة الناس وحياة غيرهم مما على الأرض من أحياء . وعلينا نحن معشر أهل القرآن أن نحيط بما عرفه العلم من ذلك ، ونكشف عما لم يعرفه وأشار إليه القرآن . هذا أمر . والأمر الثانى هو التنوع العجيب فيما ذكر عن السموات والأرض والجبال فى تلك الآيات . فآية مريم لم تزد على ذكر السموات والأرض والجبال شيئاً من صفاتها أو خواصها ، لأن ما لها من الروعة فى النفوس يكفى فى الزجر الذى سيقت الآية من أجله . وآيات الغاشية لفتت الناس من السماء إلى رفعتها كيف كانت ، ومن الجبال إلى ارتفاعها عن الأرض وتماسكها كيف كان ، ومن الأرض إلى كيف سطحها الله حول الجبال .

وآيات النبأ لفت الله فيها الناس من الأرض إلى أنه قد سطحها على وجه يجعلها صالحة للعيش عليها والراحة فيها كأنها مهاد للإنسان ، ولفته من الجبال إلى سر فيها لم يكشف الإنسان عن كنهه إلى الآن ، وأشار الله إلى مفتاح كشفه فشبهها بالأوتاد . ثم لفتهم من السموات إلى عددها ، وإلى أنه سبحانه قد خلقها تشد بعضها بعضاً شد البنيان بعضه بعضاً ، بحيث لا تسقط علينا وهى فوقنا . وآيات النازعات لفتت منكرى البعث من الناس إلى أن الله بناها — وفى الفعل (بنى) مفتاح سر إنشائها ، ولفتهم إلى عظم البعد بينها وبين الأرض ، وبين بعضها وبعض ، وإلى أن لها ليلا مظلما غير ليل الأرض . وإلى أن الله أخرج ضوءها أى ضوء ما فيها من شمس ونجم ، لا مجرد ضوء شمسها كما يقول الزمخشرى وغيره ، والعلم قد أثبت أن نجومها شموس ينفجر الضوء منها بتفجر ذراتها كالذى يحدث فى التفجر النووى فى القنابل الإيدروجينية وما إليها بل أشد.

أما الأرض فقد لفتنا الله فى الآيات الثلاث المتعلقة بها إلى أنه سبحانه بسطها وأخرج منها الماء والمرعى ، بعد أن كان قد خلق السماء والأرض ، إذ خلق إحداهما يستلزم خلق الأخرى لما بينهما فى اللغة من تقابل . فهما خلقتا معاً لا قبل ولا بعد ، كما تدل عليه آيات سورة فصلت . ثم لفتنا سبحانه إلى إرساء الجبال فى الأرض ، ويكفى أن ننبه إلى ما فى الآيات الأربع ،حسب ترتيب نزول الوحى بها ، من مثل رائع للترقى بالناس فى معارج النظر إلى آيات الله فى السماء والأرض والجبال عسى أن يهتدوا إلى خالقها سبحانه .

٤ — والجبال أوتادا

نبدأ بحث هذه الآية الكريمة مستعينين بالله فى محاولة لالتماس حكمته سبحانه فى أن ذكر الجبال مع السموات والأرض على سواء فى مواطن عدة من القرآن الكريم ، أحدها فى سورة النبأ فى آيات هذه إحداها (والجبال أوتادا — ٧) . والجبال فى هذه الآية منصوبة بالفعل (نجعل) فى الآية التى قبلها (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا — ٦ و ٧) ، وهى واردة فى معرض من الله على

عباده بآيات له فى الخلق هى من مظاهر قدرته ومجالى حكمته ، ففى منافعها للناس بعض تجليات حكمته ، وفى أسرار خلقها وتصييرها إلى صورتها التى يشهدها الناس بعض دلائل قدرته التى ليس يعجزها شىء .

وينبغى أن يتحقق الأمران جميعا فى معنى الكلمتين الكريمتين (والجبال أوتادا) ، ينبغى أن يكون فى تشبيه الجبال بالأوتاد ، هذا التشبيه المحذوف منه أداة التشبيه والذى يسميه علماء البيان من أجل ذلك بالتشبيه البليغ ، لأنه يجعل المشبه عين المشبه به توكيداً للشبه الشديد بينهما — ينبغى أن يكون فى ذلك هاديا إلى أطراف المعنى من ناحيتيه ، من ناحية الدلالة على القدرة وكمالها ، ومن ناحية الهداية إلى الحكمة وجلالها . وأطراف المعنى إنما تتبين من تعدد أوجه الشبه بين الجبال والأوتاد ، تعدداً يدل على مجاوزته المألوف فى كلام الناس إذا بالغوا فى التشبيه . إن التشبيه البليغ هنا هو من قبل الحق سبحانه ، ثم هو تشبيه للأعلى بالأدنى . وللفخم الرائع بالضئيل الممتهن عند الناس ، فليس هو فى شىء من تهويل الناس ومبالغاتهم فى تشبيهاتهم البليغة . ولكنه دليل إلى أمور فى الجبال هى من آيات الله فى الخلق ، تناظرها أمور يعرفها الناس فى الأوتاد ، على عظم الفرق بين الجانبين فى النسبة والمقدار .

فكأن ذلك التشبيه العجيب مفتاح أو مصباح يستكشف به المجهول من أمر الجبال ، عن طريق المعروف من نظائر لها فى الأوتاد . والجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض ، وناحية الرسوخ فيها ، لكن التشابه والتناظر بينهما أشمل وأدق من هذا ، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز فى مداه وفى درجات الميل ، والجبال تختلف فى الإرتفاعات وفى درجات الميل كذلك . والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلابتها وشكلها ومدى ذهابها فى الأرض وطبيعة تلك الأرض ، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ فى ذلك كله ، وإذا كان تفسير هذا فى الأوتاد هينا فتفسيره فى الجبال يحتاج إلى علم واختصاص ، فالأوتاد إلى هنا لم تزد على أن تشير إلى نواح ينبغى أن يتجه اليها الباحث ليقف على مظاهر من آيات الله فى الجبال .

لكن هناك عوامل فى إتخاذ الأوتاد تدل بذلك التشبيه البليغ على نظائر لها فى نشأة الجبال لم تكن تخطر ببال إنسان عند نزول القرآن ، فالأوتاد لابد فى إنشائها من تشكيلها ثم من تثبيتها فى الأرض بقوة ما . وإذن فجعل الجبال أوتادا ، فيما أنبأ الله فى كتابه ، من شأنه أن يقتضى أن تكون الجبال قد أنشئت بفعل قوة أو قوى . وهذا وحده حقيقة علمية حديثة دل عليها القرآن عن طريق ذلك التشبيه البليغ . فما بالك إذا كان بين القوى فى الحالتين تناظر وتشابه من أكثر من وجه ؟

إن أهم أنواع الجبال وأعظمها من غير شك سلاسلها ، وسلاسل الجبال عند علماء طبقات الأرض قد نشأت نتيجة لقوى عظيمة عملت جانبيا فى القشرة الأرضية لما هبطت بثقلها ، حين خلا ما تحتها بإنقباض باطن الأرض وانكماشه لما برد بالتدريج فى الأحقاب الطويلة ، وشبهوا ذلك بتغضن جلد التفاحة لما ينقبض باطنها وينكمش تدريجيا بالجفاف البطىء . تلك القوى الهائلة لها نظائر ، على قدر ، عند دق الأوتاد ، فالدق من أعلى لأسفل يناظر فعل التثاقل عند هبوط قشرة الأرض ، والضغوط الجانبية على التربة من حوالى الوتد عند دقه تناظر تلك القوى الجانبية العاملة فى القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها حتى تتموج إلى نجاد هى الجبال والهضاب ، ووهاد منها الوديان ، أليس هذا التشابه والتناظر بين القوى بعجيب ؟

وفى علم طبقات الأرض أن ما يسمى بعوامل التعرية — من نحو الرياح والأمطار والتمدد بحرارة الشمس والتقبض بالبرودات المختلفة حتى تتفتت بتعاقبها المستمر طبقات الصخر طبقة بعد طبقة ، وتأتى الرياح السافية والأمطار الجارفة فتزيل ما تفتت . ويتجدد ذلك هكذا دواليك حتى قد يتضاءل به نسبيا فى النهاية الجبل الأشم ، فيدل تضاؤله على أنه فى العمر أسن وأقدم من مثله المحتفظ بشموخه — هذه العوامل تعمل فى انتقاص الجبال فى الوقت الذى تنشأ فيه أخرى بفعل تلك القوى ، وما نراه اليوم من الجبال هو حاصل تنافس قوى

هذين النوعين ، فحتى تناقص الجبال بفعل قوى التعرية هذه له نظير فى تآكل الأوتاد بنفس العوامل وغيرها فى الزمن المتطاول ، إذ المقارنة والمشابهة ينبغى أن تكون بين الجبال وبين ما يترك من الأوتاد قائما غير منزوع .

فالتناظر والتشابه ، كما ترى ، تام أو يكاد يكون تاما بين الجبال والأوتاد فى النشأة ، وفى طوارىء الحدثان عليها ، حتى ليكاد تاريخ حياة الثابت من الأوتاد يدل بذلك التشبيه البليغ القرآنى على تاريخ حياة الجبال ، ولا يزال فى أوجه الشبه بقية ، فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين اثنتين من كتابه العزيز . هما الآية السابعة من سورة النبأ (والجبال أوتادا) .

* * *

على أننا لم نتناول من الآية الكريمة إلا ناحية ما أودع الله فيها من دلالة على قدرته ، وبقيت الناحية الأخرى ناحية الدلالة على حكمته سبحانه متمثلة فى وظيفة الجبال المناظرة لوظيفة الأوتاد عند الناس .

والمفسرون جميعا قالوا فى تفسير آية النبأ إن الله سبحانه ثبت الأرض بالجبال كى لا تميد ، كما تثبت بيوت الأعراب والخيام بالأوتاد ، ولكنهم فى قياسهم هذا لم يكونوا منطقيين دقيقين ، لأن الأوتاد حين تدق فى الأرض لا يقصد بها تثبيت الأرض ولكن تثبيت شىء فوق الأرض هو الخيمة ، أو بيت الجلد الذى من الله علينا به سبحانه ، إذ يقول (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا . وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ـ النحل ٨٠) ، فالدقة فى قياس الجبال على الأوتاد فى المنفعة والوظيفة تقتضى شيئاً فوق الأرض يعلو سطحها فى جملته ، ويمسه فى أطرافه كما تفعل الخيمة ، وتكون الجبال معينة على الاحتفاظ به على الأرض ، نقول معينة لأن الأوتاد وحدها لا تكفى للاحتفاظ بالخيام ، إذ لا بد لكل خيمة مع الأوتاد من عماد ، فما هو الشىء الذى فوق سطح الأرض يعلوها كالخيمة ، وتساعد الجبال على حفظه على الأرض ؟ ثم ما هو العامل الآخر الذى يتم عمل الجبال فى الاحتفاظ بذلك الشىء كما يتم العماد عمل الأوتاد ؟

أظن الجواب صار قريبا أو ينبغى أن يكون ، فالشىء الذى فوق الأرض يعلو الناس ويعمل عمله فى وقايتهم كما تعلو الخيمة أهلها وتقيهم أشعة الشمس والمطر ، هو الغلاف الهوائى الذى يحيط بالأرض من جميع الجهات ويرتفع فوق سطح الأرض مئات الكيلو مترات ، ويكفى الناس على الأقل شر الشهب وشر القدر المؤذى من أشعة الشمس البنفسجية وفوق البنفسجية ، وهذا كاف فى تحقيق الشبه الكبير فى الوضع والمنفعة بينه وبين خيام لا عداد لها تغطى وجه الأرض ، فالله سبحانه يلفتنا بآية النبأ إلى أن الجبال تعمل فى الاحتفاظ بتلك الخيمة الجوية الهائلة عمل الأوتاد ، أما الذى يعمل عمل العماد متمما عمل الجبال ، أو الجبال متممة عمله ، فهو قوة الجاذبية بين الأرض وجملة الهواء . والعماد لم يرد لها ذكر فى الآية ولكن الآية تفيدها عن طريق اللزوم ، إذ لا تقوم الخيام بالأوتاد إلا مع العماد . وهذا مثل عجيب للاكتفاء البلاغى فى القرآن ، ثم هو مثل أعجب للإشارة إلى حقيقة كونية كبرى حقيقة التجاذب بين الأرض والقبة الهوائية ذات الكتلة الهائلة ، ذلك التجاذب العمودى الاتجاه على سطح الأرض بالضبط كاتجاه العماد .

وقوة الجاذبية الأرضية هذه ينسب العلماء إليها سر احتفاظ الأرض بهوائها الجوى ولا يزيدون ، لكن خالق الأرض والهواء يشير إلى القوة التى عرفها العلماء تلك الإشارة اللزومية العجيبة فى آية النبأ . ويزيد عباده علما بعامل ثان يجهلونه يتمم عمل الجاذبية التى يعرفونها ، وهذا معناه ، أو هذا مقتضاه ، حقيقة أخرى غير معروفة . أن جاذبية الأرض وحدها غير كافية لاحتفاظ الأرض بهوائها ، فهاتان حقيقتان قرآنيتان لم يكشفهما علماء الفلك والطبيعة إلى اليوم ، وعلى مسلميهم المؤمنين بالقرآن البحث عنهما علميا حتى ينكشفا ويثبتا ، فينكشف بهما ويثبت للعالم الإسلامى وغير الإسلامى معجزتان كونيتان جديدتان للقرآن .

وسيكون البحث عنهما صعبا وربما كان عويصا ، وسيحتاج فيه إلى الرياضة العالية ، وربما إلى إجراء تجارب لتقدير كتل الجبال كتلك التجربة

البندولية التى أجراها (مسكلين) على جبل (شيهالين) لتقرير كتلته ، وليتوصل بها إلى تقدير كتلة الأرض عن طريق قانون الجاذبية العام لنيوتن. وأهل هذا البحث أخبر بما يلزم له وبالمسلك الذى يسلك فيه ، لكنى أرجو ألا يصدهم عنه ما يتوقعون من صعاب فيه ، لأن الحق سبحانه لا يشير فى كتابه إلى آية من آياته فى الخلق إلا وييسر فقهها لمن يصدقه الجهاد فى سبيل كشفها .

والبحث فى هذا الأمر الخطير ـ إذا كان لمثلى أن يشير فيه برأى ـ يمكن أن يؤخذ على خطوات أو يتخذ عدة اتجاهات : فمن الممكن مثلا التساؤل عن جاذبية الأرض أكانت تكون كافية للاحتفاظ بالطبقة الهوائية لو أن كتلتها (أى الأرض) نقصت بقدر كتلة جبالها ؟ وهذا طبعا يحتاج إلى تقدير كتلة مجموعة الجبال ولو بالتقريب ، فإذا ظهر أن الجبال هى من الكبر بحيث لو أنقصت من كتلة الأرض لعجزت الأرض عن الاحتفاظ بجوها ، كان هذا حقيقة جديدة أدت الآية الكريمة إلى كشفها .

لكن الجبال كما اختصت بثقلها اختصت أيضاً بارتفاعها ، فهل لارتفاعات الجبال دخل فى احتفاظ الأرض بجوها وباستمرار الحياة فيها بالتبع ؟ أى لو أن الجبال اندكت فى الأرض ، فلم تبرز ، وكان سطح الأرض لا نتوء فيه مع احتفاظ الأرض بكتلتها غير منقوصة ، أكانت جاذبيتها عندئذ تكفى للاحتفاظ بهوائها ؟ أم كان يتسرب منها إلى الفضاء الكونى بالتدرج حتى إذا مضت حقبة كافية فقدت الأرض جوها كما فقد القمر جوه ؟ هذا سؤال يبدو أصعب حلا ، لكنه أمس بجوهر معنى الآية الكريمة لأنه يتعلق بالجبلية نفسها متمثلة فى ارتفاعات الجبال .

ثم يبقى بحث أثر الجبال من حيث توزيعها على سطح الأرض ، فهى فيما يبدو تكون سورا هائلا فيه ثغراته ، لكنه على العموم يكون فى كل من جانبيه شبه حوض تعلو الكتل الهوائية وتنخفض فيه من غير أن تزايله ، فالرياح

تصطدم بالجبال وترتد عنها صاعدة أو هابطة أو راجعـــة . فماذا يا ترى كان يؤول إليه أمرها لو لم تجد هذا السور يحبسها على صورة ما فى شبه الحوض الذى تـكونه سلاسل الجبال فى توزيعها الحاضر على سطح الأرض ؟

إن وتدية الجبال — التى من الله بها على عباده ولفتهم بآية النبأ إلى سر جديد فيها من أسرار خلقه هو الذى عرضناه هنا — هى جديرة بتضافر الجامعات الإسلامية على بحثها مع الثقة مقدما بالنتيجة ، فقد أنبأ الله بها عن طريق تلك المشابهة العجيبة بين الجبال والأوتاد ، وهذا ينبغى أن يثبت أهل البحث من المؤمنين بالقرآن ، ويعينهم على تذليل صعوباته حتى يفوزوا بالإثبات العلمى لتلك الحقيقة الـكبرى المنطوية فى تلك الآية الـكريمة من كتاب الله العزيز .

إن الرجاء كبير فى أن تـكون جامعة الأزهر هى البادئة بالنظر فى أمر هذا البحث الخطير ، وسواء أطال أمد هذا الأمر أم قصر ، فإنا نرجو أن يكون قد تبين للآية الـكريمة بعض مظاهر أخرى لإعجازها العلمى عن طريق الفحوى وباللزوم والقياس التمثيلى الدقيق .

٥ — والجبال أرساها

هذه آية كريمة أخرى من كلمتين فى الجبال ، نزل الوحى بها بعد أخت لها تأملناها قبل هذه مباشرة . هذه من سورة النازعات وأختها من سورة النبأ . والسورتان ترتيبهما واحـــد فى المصحف ، وفى نزول الوحى بهما — فآية النازعات هى آخرة الآيات المـكية التى ذكرت فيها الجبال مطلقة ، وإن كانت آخرة الآيات حسب ترتيب المصحف هى آية سورة الغاشية (وإلى الجبال كيف نصبت - ١٩) وقد سبق لنا تأملها . وقد رأينا كيف جمع الله لعباده من الجبال فى آية سورة النبأ مالا يكاد المتأمل يقضى حقه عجبا من الحقائق الطبيعية التى كانت مجهولة للعالم أجمع فى عصر نزول القرآن ، وظلت كذلك حتى كشف عنها العلم الحديث . وفى الآية مزيد من أسرار خلق الجبال أودعها الله الفعل (أرسى) .

إن أول معنى لهذا الفعل ، هو ثبت بتشديد الباء ، وعلى هذا المعنى اقتصر أهل التفسير ، لكن الكلمة تستعمل مادتها أيضا مع السفن ، فى القاموس من استعمالاتها (رست السفينة وقفت على الأنجر) ، وفيه تحت مادة أنجر : والأنجر مرساة السفينة ، وهى خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة إذا رست رست السفينة . وإرساء الجبال أمر مجهول لقارىء الآية الكريمة ، وإرساء السفينة أمر معلوم له . فهل يستطيع أن يتوصل بهذا الذى يعرف إلى شىء عن ذلك الذى يجهل ، ويكون ما يتوصل إليـــه عن هذا الطريق موافقا للمعروف فى العلم عن الجبال ؟

إن أول ما يتجه إليه الذهن هو القوى المؤثرة فى السفينة فى مرساها . هناك ثقل المرساة وثقل السفينة إلى أسفل يقابله ثقل الجبال . وهناك رفع الماء السفينة إلى أعلى يقابله ضغط حرارة جوف الأرض بغازاته وأبخرته على الجبال . وهناك القوى الجانبية المؤثرة فى السفينة من نحو فعل الموج ، وقوى الشد المتغير بين السفينة والمرساة الواحدة أو المتعددة عن طريق ما يصل بين السفينة وبينها من حبل أو سلسلة ، ويقابلها فى حالة الجبال تلك القوى الجانبية الهائلة التى أنشأ الله الجبال بفعلها فى قشرة الأرض حتى تموجت على العموم جبالا ووديانا ، وأقام الله الميزان بينها وبين غيرها من القوى فاستقرت الجبال ورست فى الأرض ، كما رست السفينة واستقرت فى مرساها بتوازن القوى المؤثرة فيها . وإلى هنا تجد كلمة (أرساها) فى آية النازعات قد أدت إجمالا إلى نفس النتائج التى أدى إليها تأمل جعل الله الجبال أوتادا فيما يتعلق بالنشأة مما لفت الله إليه بآية النبأ .

لكن هناك العلاقة بين السفينة والبحر التى من أجلها احتاجت السفينة إلى المرساة ، فهل لهذه الناحية شىء يقابلها فى إرساء الجبال ؟ وبعبارة أخرى هل هناك سائل رست فيه الجبال كما رست السفينة فى ماء البحر ؟ — المقارنة تقتضى أن يكون جوف الأرض سائلا ، وأن الجبال تستقر عليه كما تستقر

السفينة على ماء البحر . وســـيولة جوف الأرض المستنبطة هكذا من كلمة (أرساها) فى الآية حقيقة واقعة ، ينم عنها ما نشاهده فى بعض البراكين عند ثورانها من قذفها بالحمم والصخر المنصهر . لكن الرسو على هذا الجوف السائل لا ينطبق فى العلم إلا على نوع من الجبال هو ما يسمى بالجبال النارية فى مقابل ما يسمى بالجبال الرسوبية ، وهما النوعان الأساسيان من أنواع الجبال .

وفى هذا الصدد يقول العالم الجيولوجى القس أ . فيشر « إن البحث من ناحيتيه الرياضية والجيولوجية يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقة سائلة تحوى غازات مذابة ، وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة فى منصهر سائل مادته أثقل من مادتها » . وقد دل البحث على يد غير فيشر على أن متوسط كثافة مادة الجبال هو نحو ٢,٦ ، ومتوسط كثافة الأرض هو نحو ٥,٥ ، فبطن الأرض السائل أكثف حتى من جبالها ، وهذه حقيقة علمية أخرى تقابل المعروف من أن متوسط كثافة السفينة أى وزنها مقسوما على حجمها هو أقل من كثافة ماء البحر أو النهر ، وإلا لما طفت عليه بل لغرقت فيه . فإلى هذا الحد من الدقة يتحقق الشبه بين إرساء الجبال فى أحد نوعيها الأساسيين وبين إرساء السفينة . وتبارك الله الذى أودع هذه الحقائق عن الأرض وجبالها آية واحدة من كلمتين فى كتابه (والجبال أرساها) .

لكن الآية الكريمة فيها بعد ذلك مزيد . إن سيولة جوف الأرض ورسو الجبال النارية فيها هدت إليها سيولة ماء البحر ، لكن ماذا عن البحر نفسه ومائه ورسو السفن فيه ؟ أليس لذلك مقابل فى الجبال ؟ إن العلم يحدثنا أن الجبال الرسوبية تنشأ طبقاتها أول ما تنشأ فى البحر قريبا من شواطئه ، بما تحمله الأنهار إلى البحار من طمى ورمل وما إليهما ترسب فيه طبقات بعضها فوق بعض ، حتى إذا تراكمت وعظم سمكها فى الحقب الطوال رفعها الله بقوى من تحتها وجانبها ، حتى تصير جبالا شاطئية ظاهرة الطبقات الرسوبية .

وإذن فالآية الكريمة تدل بالفعل (أرسى) ، المسند إلى ضمير الجلالة ، على أهم نوعين من الجبال . النارى منها والرسوبى . كل راس راسخ ، هذا على شاطىء البحر وذلك بجذور له فى طبقة سائلة من منصهر الصخر فى جوف الأرض . فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين تكونان آية من آيات كتابه العزيز .

وإذا تتبعنا مادة (رسا) متعلقة بالجبال فى الكتاب العزيز وجدناها وردت فى صيغة اسم الفاعل مجموعا فى تسع آيات ذكرت فيها الجبال لا بلفظها ولكن بوصف أنها رواسى ، وذلك فى تسع سور : واحدة مدنية هى الرعد ، وثمان مكية هى حسب نزول الوحى بها : المرسلات و (ق) والنمل والحجر ولقمان وفصلت والنحل والأنبياء .

وآية المرسلات هى قوله تعالى (وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا - ٢٧) ، «فيها» ، أى فى الأرض المذكورة فى الآيتين قبلها (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - ٢٥ و٢٦) وآية (ق) هى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج — ٧) .

وبالفعلين (جعل) و (ألقى) جاء التعبير عن خلق الجبال فى بقية الآيات الكريمة التسع ، بالفعل (جعل) فى آيات النمل وفصلت والأنبياء والرعد ، وبالفعل (ألقى) فى آيات الحجر ولقمان والنحل . والدلالة فى (جعل) عامة تشمل أنواع الجبال كلها ما ذكرنا منها وما لم نذكر . لكن الدلالة فى (ألقى) أخص منها فى (جعل) . وقد لاحظ ذلك ابن عطية فيما ذكر (أبو حيان) عند تفسير آية النحل إذ نقل عنه قوله « قال المتأولون (ألقى) بمعنى (خلق وجعل) ، وهى عندى أخص من خلق وجعل ، وذلك أن (ألقى) تقتضى أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض ولكن من قدرته واختراعه ، ويؤيد هذا النظر ما روى فى القصص ، وإلى آخر ما قال عن (الحسن) و (وهب بن منبه) .

وقد أحسن فى التنبيه إلى أن (ألقى) أخص من (جعل) ، لكنه لم يكن يعرف أن الجبال أنواع مختلفة النشأة ، وأن الفعل (ألقى) ينطبق تماما على نشأة الرسوبى منها ، فهى بالفعل يلقيها الحق سبحانه فى الأرض ، فمادتها تنقلها الأنهار وتلقيها قرب شواطىء البحار بأمره ، حتى إذا تراكمت إلى الحد الذى قدره سبحانه وتماسكت بالتضاغط وبغيره رفعتها تلك القوى جبالا شاطئية بأمره . فقد خلق الله الجبال من الأرض وخلق ثانى نوعيها الأساسيين من قدرته واختراعه ، لا فجأة مرة واحدة كما فهم (ابن عطية) من الفعل (ألقى) ومما روى فى القصص ، ولكن قدر الله سبحانه خلقها حين ألقاها خطوات ، كما قدر خلق الجنين فى بطن أمه فى أطوار ، لتكون كل خطوة ككل طور آية حقيقية يمكن إذا آن الأوان أن يكشف عنها عباده ، وليكون انطباق ما يكشفون عنه من حقائق الفطرة على حرفية ما أنزل فى كتابه العزيز كما رأيت فى (أرسى) و (ألقى) ، شاهد صدق على أن من أنزل القرآن هو فاطر الفطرة سبحانه .

٦ — والأرض مددناها

وخلق الجبال الرسوبية بهذه الصورة التى كشف عنها علم طبقات الأرض هو مثل يفسر معنى مد الأرض فى الآية (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى) هو مثل من أمثلة وصورة من صور ، إذ لا بد أن تكون هناك صور أخرى لمد الأرض كما يشير إليه تقديم مد الأرض على إلقاء الرواسى فى آية (ق) وفى أختها آية الحجر (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون — ١٩) . وفى آية الرعد (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا — ٣). صحيح أن الواو فى اللغة لا تفيد الترتيب حتما كما تفيد الفاء وثم ، لكن ترتيب الذكر عند العطف بالواو فى كتاب الله خصوصا إذا تكرر بذاته كما فى الآيات الثلاث ، لا بد أن تكون له حكمة ، كما هو واضح مثلا فى مجىء المحارم حسب درجات القرابة فى قوله (حرمت عليكم أمهاتكم

وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت — النساء ٢٣).

ولو لم يأت التعبير إلا بالفعل (ألقى) فى الآيات الثلاث التى ورد فيها ذكر الرواسى مقرونا بذكر مد الأرض لكان هذا كافيا فى قصر صور هذا المد على ما تلقيه الأنهار من رواسب فى المياه الضحلة ، كمياه شواطىء البحار فى العادة ، سواء أرفعت طبقات الرواسب المتراكمة جبالا بعد ذلك أم لم ترفع بل بقيت أرضا تزرع وتسكن كما فى دلتا الأنهار . لكن التعبير جاء أيضا بالفعل (جعل) حين ورد ذكر الرواسى مقرونا بمد الأرض فى آية الرعد ، ودلالة هذا الفعل عامة شاملة لأنواع الجبال ، وإذن فالجبال النارية على الأقل لا بد أن يكون فيها أيضا مثال لما ذكر الله فى الآيات الكريمة الثلاث من مده الأرض أى اليابسة، إذ على هذا ينبغى هنا أن يفهم معنى الأرض ما دام يابس الأرض هو الذى يزداد ويكثر بالجبال الرسوبية ودلتا الأنهار، وهذا طبعا لا يمنع أن يكون لمد الأرض معنى آخر قد يكون الفلكيون عرفوه فى تاريخ نشأة الأرض الكوكب السيار، لكن المد بمعنى الزيادة فى يابس الأرض هو الذى يوحى به الإنباء عنه مقترنا بالإنباء عن الرواسى (إلقاء) فى آيتين (وجعلا) فى آية ، أى على وجه الخصوص بالرواسى الرسوبية فى آيتين ، وعلى وجه العموم بها وبغيرها فى آية . وقد تحقق المد بالمعنى الخاص المتضمن فى الفعل (ألقى) فهل هو متحقق على وجه أوسع، كما يشير إليه الفعل ذو المعنى الأعم ؟

العجيب أن المد بالمعنى الأوسع المستفاد من هذه الإشارة القرآنية متحقق بالفعل ، متحقق أيضا فى الجبال النارية ، بل وفى جزر مادتها من الصخر المعروف فى العلم بالصخر النارى ، أو هى معروفة فيـــه بالجزر البركانية مثل جزائر (هاواى) وأكثر جزر المحيط الهادى . وفى دائرة معارف (هتشنسون) المصورة : إن الجزائر إما قارية تتصل بالقارات من تحت الماء كأنها كانت جزءا منها ، وإما محيطية أى فى المحيطات منقطعة عن القارات ،وهذه بركانية تكونت

بارتفاع قاع المحيط بالقوى البركانية بالتدريج ، أو بها فى غير تدرج ، كأنما ثار قاع المحيط بركانا وارتفع فجأة. فهى جميعاً أشبه بقمم بادية من جبال مغمورة فى المحيط . وفى بعضها مثل (جاوة) سلاسل جبال صخرها نارى وفيها براكين أكثرها خامد وأقلها يثور من حين لحين . فهذه الجزر وجبالها كانت يوما ما قاعا للمحيطات ، ثم رفعها الله للعيان زيادة فى اليابسة كما زادها بالرسوبى من الجبال وبدلتا الأنهار .

وفى الآيات الكريمة الثلاث لطيفة أخرى تستنتج من أن مد الأرض ورد فى آيتين مع الفعل (ألقى) وفى آية مع الفعل (جعل) إشارة فيما يبدو إلى أن المد فى اليابسة عن طريق رواسب الأنهار أكثر وأغلب ، إن لم تكن ضعف مدها عن طريق رفع القيعان الصخرية النارية جزرا وجبالا فى البحار . وهذا يحتاج فى تحقيقه إلى بحث جغرافى ، لكنه أجدر أن يكون واقعا بالفعل إن لم يكن بالنسبة إلى الرسوبى والنارى من الجبال ، فبالنسبة إلى النارى من الجزر والرسوبى من دلتا الأنهار .

فتأمل وانظر إلى تلك الحقائق العلمية التى دل عليها القرآن بتشبيه بليغ يأتى فى آية (والجبال أوتادا) ، أو بلفظ فعل يأتى التعبير به كما فى الفعل (أرسى) والفعل (القى) أو بتقديم ظاهرة فى الفطرة على ظاهرة فى الذكر كلما ذكرت الظاهرتان معا ، كما فى مد الأرض وخلق الرواسى ، أو حتى بنسبة التكرار فى الذكر بين فعل وفعل كما فى ألقى وجعل .

ثم تأمل مع هذا كيف جاء ضمير الجلالة فى كل آية حاملا على قبول ما يظهر من أسرارها باعثا على استنباطها فى دقة وحذر ، واحكم ماذا كان يكون أثرها ووقعها لو كان من المسلمين كالفخر الرازى مثلا من سبق إلى استنباطها هكذا من اللفظ والتعبير القرآنى فسبق بذلك عن طريق القرآن إلى الكشف عن تلك الحقائق المتعلقة بالجبال قبل أن يكشف عنها العلم الحديث .

فهذا جانب آخر من جوانب إعجاز القرآن من الناحية العلمية لا يمكن أن ينسب بحق إلى عبقرية بشر ، لأن العبقرى إنما تظهر عبقريته فى ميـــدان هو مشتغل به متفرغ له . ثم هو لا يكتفى فى ذكر نتاج عبقريته بالإشارة يودعها كلمة أو كلمتين أو كلمات معدودة كالألفاظ فى أى آية كونية من آيات القرآن ، على أن ضمير الجلالة فى الآية القرآنية يحول قطعا دون مثل هذا الاحتمال .

٦ ــ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم

من تسع آيات فى القرآن ذكرت الجبال فيها بالرواسى ، نظرنا فى ثلاث ذكرت الرواسى فيها متصلة بمن الله على عباده بمده الأرض ، وهى آيات (ق) والحجر والرعد ، ولهذه فى الآيات الست الباقية نظائر ، ثلاث ذكرت الرواسى فيها سببا لنعمة أخرى كبرى هى أن الله منع بها الأرض أن تميد وتضطرب بالناس . تلك الآيات الثلاث هى حسب ترتيب نزول الوحى بها آية سورة لقمان (خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ـ ١٠) وآية النحل (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا ـ ١٥) وآية سورة الأنبياء (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ـ ٣١) .

والخطاب فى آيتى لقمان والنحل للناس كافة ، أما ضمير الغائب فى آية الأنبياء فراجع إلى (الذين كفروا) فى الآية قبلها ، إذ يذكرهم بعجائب من آيات قدرته وحكمته عسى أن يؤمنوا به وحده (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) .

وأسرار الفطرة المنبه إليها فى الآيات الثلاث متعددة ، لكننا نقصر القول هنا على ما تعلق منها بالجبال ، ما كشف العلم الحديث عنه وما ينتظر الكشف، وأول ذلك ما فى قوله تعالى (أن تميد بكم) ـ وفى القاموس ماد يميد ميدا وميدانا تحرك وراغ ـ من إشارة واضحة إلى حركة الأرض ، فإن الذى يخشى منه أن يميد ويضطرب هو الجسم المتحرك لا الساكن .

وحركة الأرض لم تكن معروفة للمفسرين القدامى ، وإنما الأرض كانت عندهم ساكنة كما كانت عند الناس أجمعين حتى الفلاسفة ، ولذا ردوا احتمال اضطراب الأرض إلى ما يحيط باليابسة من البحار كأنما الأرض سفينة فوق ماء ، يخشى أن يضطرب بها لولا أن ثقلها الله بالجبال . وكذلك فسروا (وتدية) الجبال فى قوله تعالى (والجبال أوتادا) بأنها تثبت الأرض كما تثبت الأوتاد الخيمة ، وليست الأرض بخيمة كما بينا عند النظر فى هذه الآية الكريمة .

فلننظر الآن فيما يمكن أن يقال من الناحية العلمية فى الجبال ، كيف يمكن أن تكون سببا فى عدم اضطراب الأرض فى حركتها ليستقيم بعدم اضطرابها عيش الناس عليها ، فلو أنها اضطربت بهم فى حركتها اليومية لساء عيشهم فيها سوءا لا يقدره ، ولا يدرك أى نعمة لله على الناس فى امتناعه ، إلا من اضطربت به السفينة فى البحر ، أو الطيارة فى الهواء ، وطال ذلك عليه ثم ذهب ما كان به حين هدأ البحر أو سكن الهواء بدخول المرفأ أو النزول فى المطار . وليتصور الإنسان بعــــد ذلك ماذا كان يكون حاله لو أن ذلك الاضطراب استمر به طول الحياة ؟

إن الأرض كرة — أو كالكرة — تدور أمام الشمس ، من المغرب إلى المشرق دورة كاملة فى اليوم ، حول محور لها يصنع مع مستوى فلك دورانها حول الشمس زاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ونصف . هـذا الدوران المستمر حول محور ثابت يسمى فى اللغة درورا — فى القاموس در السهم درورا دار دورانا على الظفر ، وأدرت الغازلة المغزل فتلته فتلا شديدا حتى كأنه واقف من دورانه — والدرور فى الأرض ثابت المقدار والاتجاه طبقا لسنة كشف عنها (نيوتن) هى قانون من قوانين الحركة المنسوبة إليه يقول إن الجسم المتحرك لا تتغير حركته فى المقدار أو الاتجاه إلا بقوة تؤثر فيه من حيث المقـدار أو الاتجاه أو كليهما .

وقد صان الله الأرض منذ فطرها على تلك الحركة اليومية عن كل قوة عارضة كى تدوم حركتها تلك إلى ما شاء الله ، أى إلى أن يشاء الله طلوع الشمس

من مغربها كما جاء فى الحديث الصحيح ، إذ من الممكن فى العلم أن يحدث هذا ـ والشمس تجرى بمجموعتها فى الفضاء بسرعة ١٢ ميلا فى الثانية ـ بأن تقترب من نجم أكبر منها يغلبها على الأرض بالقدر الذى يتغير به اتجاه حركتها اليومية فيصبح من المشرق إلى المغرب بدلا من المغرب إلى المشرق ، فيصير المشرق مغربا والمغرب مشرقا ، وعندئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، كما فى الحديث الصحيح .

وسنة ثانية لله سبحانه يعرفها علماء حركة الأجسام : أن الجسم المتماثل فى الكتلة حول محور لا يضطرب ولا يميد إذا دار أو (در) حول ذلك المحور ، والأرض فى الواقع لا تميد ولا تضطرب فى درورها أو دورانها المستمر حول محور لها لا يتغير ولا يتبدل ، فلابد طبقا لسنة الله هذه أن تكون متماثلة فى الكتلة بالنسبة لهذا المحور . هذه نتيجة رياضية يقينية أظن العلماء اكتفوا بها فلم يحققوها عمليا لما يكتنف تحقيقها من الصعوبات ، خصوصا فيما يتعلق بتوزيع كتل الجبال . إذ معنى التماثل فى الكتلة أن أى مستوى يقطع الجسم مارا بمحور التماثل فإنه يقسم الجسم إلى قسمين متماثلين فى الكتلة : لكل جزء فى أحد القسمين نظير فى القسم الآخر يساويه فى الكتلة والوزن لا فى الهيئة والحجم .

لكن الله فاطر الأرض ومرسى جبالها ينبىء عباده فى كتابه العزيز أنه أرسى الجبال فيها بحيث يمتنع ميدان الأرض واضطرابها . فأول تفسير لهذا ، طبق سنته تعالى فى الجسم الدرار غير المضطرب ، أن الجبال موزعة فى الأرض بحيث تتماثل فى الكتلة بالنسبة لحركة الأرض اليومية ، وهى نتيجة عجيبة حقا ، فمن أعجب عجائب القدرة والإحكام أن تتماثل كل الجبال الواقعة فى شقى الأرض إذا انشقت فى أى اتجاه بمستوى يمر بمحور دورانها اليومى أمام الشمس .

فهذا مجال واسع أمام علماء الفطرة ، وخاصة من أهل القرآن ، ليثبتوا عمليا ولو فى اتجاه واحد أن الجبال ذات كتل متماثلة بالنسبة لمحور درور الأرض ،

وهو عمل عظيم لا بد من اشتراك الحكومات فيه لتكفل ما تقتضيه من نفقات ، ومن يقل إن هذا ناتج نظريا من قانون عدم اضطراب الجسم الدوار وإذن فلا داعى لتحقيقه عمليا إذا قامت دونه الصعوبات ، قلنا له كفى إعجازا علميا للقرآن ودليلا كونيا على أنه من فاطر الفطرة وخالق الأرض بحيث تدور ولا تميد ، أن القرآن نبه مرة بعد مرة إلى هذه الحقيقة النظرية الرياضية قبل أن يعرف العلم القانون الذى ينتجها .

وقد يكون الأمر أعظم سرا حتى من هذا ، قد تكون هناك عوامل ثانوية تعمل على اتزان الأرض فى حركتها اليومية حتى لا يشعر بها الناس ، مثل فعل حركة الجزء السائل فى جوف الأرض أثناء الدوران ، أو فعل حركة مياه البحار على الشاطىء ، وما أكثرها ، إن كان لها أثر فى مثل هذا ، فإن كان هذا له دخل فقد أشارت إليه الآيات بكلمة (رواسى) التى سميت بها الجبال ، إذا تذكرنا الحقائق العلمية التى ذكرناها عند النظر فى قوله تعالى (والجبال أرساها) .

وعلى أى حال فقد نبهت تلك الآيات إلى عجيبة من عجائب آيات الله فى الفطرة تتصل بعيش الناس فى الأرض ، وعليها يتوقف هناؤهم فيها ، وعلى علماء الفطرة أن يبحثوها وأولاهم بذلك علماء الفطرة من أهل القرآن ، فإن لم يفعلوا فسيقيض الله غيرهم لبحثه ، والكشف عنه ، وفاء بوعده سبحانه فى قوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ فصلت ٥٣) كما قد حدث فعلا على أيدى علماء الفلك الحديث بالكشف عن جريان الشمس فى الفضاء ، وعن الحركات الذاتية للنجوم ، تفسيراً لقوله (والشمس تجرى) من سورة يس ، و (كل فى فلك يسبحون) من سورة الأنبياء .

٧ — بقية الآيات الموصوفة فيها الجبال بالرواسى

من الآيات التسع التى وصفت فيها الجبال بالرواسى ثلاث اقترن فيها ذكر الرواسى بمد الأرض ، وثلاث بمنع ميدانها ، وثلاث أطلق الذكر فيها فلم يقترن بظاهرة خاصة فى الأرض كالتى ذكرت فى الآيات الست الأخرى . هذه

الآيات الثلاث الأخيرة هي حسب ترتيب نزول الوحي بسورها (وجعلنا فيها رواسي شامخات ـ المرسلات ٢٧) وبقيتها (وأسقيناكم ماء فراتا) والآية ٦١ من النمل (أم من جعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهارا، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا؟ أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون) والآية ١٠ من فصلت (وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، في أربعة أيام سواء للسائلين).

وقد جاء ذكر الأرض صريحا في آية النمل كما ترى، وبالضمير في آيتي المرسلات وفصلت، فان الضمير في (فيها) في كل منهما راجع إلى الأرض المصرح بها في أولى الآيتين ٢٥ و ٢٦ من سورة المرسلات (ألم نجعل الأرض كفاتا، أحياء وأمواتا)، وفي الآية ٩ من فصلت (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، وتجعلون له أندادا، ذلك رب العالمين).

وآية سورة المرسلات أول آية قرآنية ذكرت فيها الجبال بالوصف لا باللفظ، وقبلها نزل الوحي بثلاث آيات ذكرت فيها الجبال باللفظ هي آية المزمل (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ـ ١٤) وآية التكوير (وإذا الجبال سيرت ـ ٣)، وآية القارعة، ثانية الآيتين (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ـ ٤ و ٥) وكلها كما ترى تتعلق بأمور هائلة تقع بالجبال بين يدي الساعة أو عند قيامها. وإذن فآية المرسلات هي أول الآيات القرآنية التي ذكرت فيها الجبال من حيث علاقتها بهذه الحياة أي من حيث وجودها لا فنائها، ومن حيث دلالتها على الله الذي فطرها وحقق بها ما حقق من منافع للناس. ومن هنا نتبين حكمة ذكرها باسمها في آيات التذكير بهول يوم القيامة، وذكرها بوصفها في أول آية لفت الله بها عباده إلى مظهر من مظاهر قدرته في خلق الجبال.

وفي الآية الكريمة وصفان للجبال كما ترى: أنهن رواسي، وأنهن شامخات على التنكير لا على التعريف. تنبيها إلى قبيل خاص من الجبال. فلئن كانت

كلها رواسى (وفى فصل سابق دلالات أخرى لهذا الوصف) من حيث الثبوت والرسوخ فى الأرض ، وهو المعنى الذى يعرفه كل أحد ، فليست كلها شوامخ بالغة الارتفاع ، وإن كان تقدير الشموخ نسبيا عند الناس ، لكن مهما يكن اختلافهم فى التقدير فالكلمة فى اللغة تدل على امتياز فى الإرتفاع ، ففى القاموس (شمخ الجبل علا وطال) . ولعل فى العلم حدا لا يعتبر الجبل شامخا دونه عند علماء الجغرافيا الطبيعية أو الجيولوجيا أو الأرصاد الجوية ، فإن لم يكن فالآية تلفت إلى بحث هذه الناحية فيما تلفت إليه من بحث الكيفية التى رفع الله بها الجبال من ناحية ، وخالف بين ارتفاعاتها من ناحية أخرى ، حتى كان منها الشامخ الممتاز فى إرتفاعه عند أهل كل إقليم ، إذ الآية تتحدث عن الأرض عامة لا أرض العرب خاصة . والضمير فى (وأسقيناكم) من قوله (وأسقيناكم ماء فراتا) ضمير خطاب للناس فى عصر نزول القرآن أولا ، ثم فى كل عصر يأتى بعده . ولأن المـاء العذب ضرورى للحياة فى كل زمان ومكان .

وقد جاءت آية المـاء الفرات تتلو فى السورة الكريمة آية الرواسى الشامخات ليدل التتالى على أن بين الأمرين صلة ، وأن شموخ الجبال له دخل كبير فى نزول المـاء يسقاه الناس وما لهم من صنوف الزروع والحيوان ، ودخلها هذا حق يقرره علماء الجغرافيا الطبيعية والأرصاد ، ويعرف بعض وجوهه كل مثقف بين الناس . فمن المعلومات العامة بين المثقفين أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال . والمـاء الفرات ، أى العذب جدا كما يقول القاموس ، يدل أول ما يدل على ماء المطر ، لكن تنكيره فى الآيات الكريمة يفيد العموم فهو يشمل كل ماء عذب فى الأرض سواء أكان ماء نهر أو بئر أو مطر ، بل إلى الأمطار فى النهاية مرد مياه الأنهار والعيون والعذب من الآبار .

والمطر فى العلم يشمل كل ما ينزل من السماء من ماء أو ثلج أو برد ، وطبق سنة الله سبحانه فى دورة المـاء العذب بين البحار الملح والمحيطات وبين اليابسة ، فكل عذب على الأرض أصله المـاء الأجاج . ومنه سبحانه على الناس بالمـاء

الفرات فى آية المرسلات لايخلو بهذا الوصف من إشارة إلى هــــذه الحقيقة الـكبرى عند من يلحظ ضدير الجلالة فى الآية ، ويعلم أن البحار والمحيطات التى فى مجموعها تغطى نحو واحد وسبعين فى المـائة من مساحة الـكرة الأرضية، يتبخر ماؤها باستمرار طبق سنن الله فى تبخر المـاء فى مختلف الظروف ، حتى إذا حملت الرياح البخار إلى أعالى الجو تكاثف سحابا ، وتكاثف السحاب مطرا طبق سنن الله فى ذلك كله ، حتى إذا جرت الأنهار خلال الأرض منصبة نحو البحار عاد معظم المـاء إلى المصدر الذى منه جاء ، وهـكذا دواليك يإذن الله فى دورة تتوقف عليها الحياة فى الأرض من غير أن يضيع فيها من الماء العذب شيئاً . فإن ما يظن الإنسان ضياعه ذهابا فى جوف الأرض أو فى الجو، مصيره أن يختزن فى باطن الأرض ليتفجر حيث يشاء الله عيوناً طبيعية ، وآباراً ارتوازية ، أو أن يتـكثف إلى سحاب ليعود مطراً من جديد. (وستناول هذه الموضوعات بتفصيل واف فى الفصل الخامس من هذا الـكتاب الرابع) .

ويتضمن وصف الرواسى بالشامخات فى آية المرسلات حقيقة أخرى فى الفطرة ، وظاهرة معجبة . تلك هى ظاهرة الثلج الدائم يكلل هامات الجبال التى تـكون درجة الحرارة فى قممها دائما تحت الصفر إذا زاد إرتفاعها عن حد خاص يتوقف على موقعها من خط الإستواء ، حيث الحد الأعلى لارتفاع بدء منطقة الثلج ، أو خط الثلج الدائم كما يسمونه، فهو عند خط الاستواء بين ستة عشر وسبعة عشر ألف قدم . أى نحو خمسة آلاف متر فى المتوسط ، وهو يقل عن ذلك بالتدريج كلما بعد الموقع عن خط الاستواء ، أى كلما قلت درجة الحرارة الجوية فى المنطقة .

فى مدار السرطان مثلا ، أى شمال خط الاستواء بنحو ٢٣ درجة يـكون ارتفاع خط الثلج الدائم نحو ثلاثة عشر ألف قدم ، ويصغر ارتفاعه إلى نحو ستة آلاف قدم عند خط عرض ٥٠ شمال خط الاستواء، ونحو أربعة آلاف قدم عند خط عرض ٦٠° ، وهلم جراحتى ينمحى تماما عند خط عرض ٧٠°

إذ يكون الثلج دائما على مستوى سطح البحر ، كما يدل عليه الرسم البيانى لخط الثلج الدائم فى نصف الكرة الشمالى فى دائرة معارف هتشنسن المصورة. وانعدامه هذا يحول دون اتخاذه معيارا عاما لشموخ الجبال فى كل منطقة . لكن من الممكن اتخاذه معيارا للشموخ فى المنطقتين الحارة والمعتدلة ، فيكون الجبل شامخا فى المنطقة ما ابيضت هامته بالثلج على الدوام .

وكثير من الجبال يزيد ارتفاعه عن ارتفاع خط الثلج الدائم فى منطقته ، فإذا كان الفرق بين الارتفاعين كبيراً كان لتراكم الثلج فيما بينهما فضل فى تغذية الأنهار بالماء ، نتيجة لذوبان بعض الثلج باستمرار لضغط الطبقات العليا على السفلى ، ولانزلاق ما علا على ما ذاب من أسفل ليتعدى حد خط الثلج شيئا فشيئا ، ولا يكاد يتعداه حتى يسيل . ولن تنفد الثلوج على قمم الجبال باستمرار ذوبان أطرافها الدنيا لأنها كما تسيل هكذا باستمرار تتجدد أيضاً باستمرار . ولولا هذه الظاهرة العجيبة لجفت الأنهار التى تجرى فى وديان تحفها الصحراء إذا انقضت فصول الأمطار عند منابعها .

وينبغى أن نتذكر أن الرياح التى تضع حمولتها من الماء على شوامخ الجبال تهب على ما وراءها ولا ماء فيها . لكن الله سبحانه يرسل الغيث على ما وراءها عن طريق آية أخرى له فى الخلق ، هى الكهربائية الجوية التى يلفت الله عباده إلى ما أودعه فيها من مظاهر قدرته ورحمته فى الآيات التى تذكر الرعد والبرق فى كتابه العزيز . ويتبين طرف من هذا الموضوع عندما نتأمل الآية ٤٣ من سورة النور ، لكن لايفوتنا التنبيه هنا إلى أن العموم الذى أفاده تنكير الماء فى آية المرسلات يشمل ماء الطريقين جميعا ، طريق الكهربائية الجوية وطريق شوامخ الجبال .

وقد تكرر ضمير الجلالة للمتكلم ثلاث مرات فى آية المرسلات : عند ذكر الأرض ، وعند ذكر الرواسى الشامخات ، وعند ذكر الماء الفرات ، للدلالة

على جلال ما أودع الله فى كل من أسرار قدرته وحكمته ورحمته مما ذكرنا بعضه ومما لايستطيع استقصاءه أحد . ولكى لا يستكثر أحد على الآية منها أن تدل على ما علم الله أن سيهدى أهل العلم الحديث إليه من أسرارها ، وما كشف أو يكشفه العلم الحديث من تلك الأسرار إن هو إلا تفصيل لما أجملته كل آية من حجة الله على الناس ألا يعبدوا إلا إياه .

أما آية النمل ٦١ (أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا) فقد أقام الله حجته على عباده فيها بالأرض أيضا ، ولكن من حيث أنها قرار ، وبالماء ولكن من حيث أنه أنهار ، وبالرواسى من غير تخصيص بالشامخ منها ، وبآية رابعة له سبحانه فى الخلق تتصل اتصالا وثيقا بالأنهار ، وهى الحجز بينها وبين البحار الأجاج التى تصب فيها حتى لا تطغى البحار عليها ، لأن البحرين المذكورين فى غير وصف فى قوله (وجعل بين البحرين حاجزا) هما عين البحرين المذكورين فى قوله من سورة الفرقان (وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا - ٥٣) . وسورة الفرقان قد نزل بها الوحى قبل سورة النمل ، وهذا يفسر ذكر البحرين فى آية النمل من غير وصف بعد أن تبين وصفهما فى آية الفرقان .

وكذلك الأمر فى ذكر حاجز بين البحرين مجرداً فى آية النمل ، كأنه تلخيص للبرزخ والحجر المحجور ، وبيان لحكمة الله فيه . وليس هذا موضع بيان كيف أن سنة الله فى جذب الأرض لما عليها إلى أقرب نقطة من مركزها هو الحاجز بين البحر أن يطغى على النهر ، لأن سطح البحر أقرب إلى مركز الأرض من سطح اليابسة الذى يجرى عليه النهر . فبسنة الله العامة فى الجاذبية ينزل الله الأمطار ويجرى الأنهار ويحفظها من أن تطغى عليها البحار .

وللأنهار تاريخ طويل فى ماضيها وحاضرها يبحث عنها كيف نشأت وشقت مجاريها وتشقها فى الأرض . وعلماء طبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية

هم الذين يدركون جلال ما تدل عليه هذه الكلمة القرآنية الفذة . أما الرواسى فى الآية فينبغى تقدير آيات الله فيها من حيث علاقتها بجعله سبحانه الأرض قرارا لمن عليها ، وذلك ليس فقط لأن السياق يقتضى هذا . ولكن أيضاً بقرينة لفظة فى الآية قليلة الحروف كبيرة الدلالة هى قوله تعالى (لها) بدلا من (فيها) فى الآية الكريمة (وجعل لها رواسى) . وأول ذلك ما تبين هنا من صلتها بالأنهار أو صلة الشوامخ منها . وثانى ذلك حفظ الله الأرض بها أن تميد بالناس ، وهو الجانب الذى نبه الله إليه فى آيات كانت موضوع الفصل السابق . أما علاقة الرواسى بمد الله الأرض فقد تأملنا آياتها أيضا فيما مضى ، وهو فيما تبين هناك موضوع إنشاء الجبال فى أهم أنواعها .

وتبقى آية فصلت من الآيات الثلاث المذكورة فى صدر هذا الحديث،وواضح منها ومن الآية قبلها أن ذكر الرواسى فيها كان طورا من أطوار خلق الأرض تمهيداً للطور الرابع الذى بارك الله فيه الأرض وقدر فيه أقواتها . والدليل على الأمرين جميعا جمعه سبحانه يومى الطورين الأول والثانى مع يومى الطورين الثالث والرابع فى قوله (وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام - ١٠) بعد قوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين - ٩) وقوله فى ثانية آيتين بعدها (فقضاهن سبع سموات فى يومين - ١٢) .

فهذه ثمانية أيام فى مجموعها لو أخذت مستقلا بعضها عن بعض ، لكن الله سبحانه قد أخبر فى آيات متعددة أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام . فلا مناص من أن الأربعة الأيام فى ثانية آيتى فصلت تشمل حتما اليومين فى أولاهما . واليوم هنا ليس من أيام الدنيا ، ولكن من أيام الله ، والله سبحانه يقول (ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون - السجدة ٥) ويقول (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون - الحج ٤٧) ويقول سبحانه (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة - المعارج ٤). فالله أعلم بطول اليوم فى كل من أيام خلق الأرض والسموات .

وقد ثبت فى علم الفلك الحديث أن الأرض انفصلت عن الشمس استناداً على الأخص إلى ما ثبت فى علم الكيمياء من أن المشترك من العناصر بين الأرض والشمس لا يقل بل يزيد عن ستين والنيف ، وأن الارتفاع الهائل فى درجة حرارة باطن الشمس كاف فى تحليل ما زاد عن الستين والنيف من ثقيل عناصر الأرض ، وهى العناصر التى لم يكشفها التحليل الطيفى فى الشمس ، وإذن فاليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الحقبة التى تم فيها انفصال جزء من الشمس الذى صار فيما بعد أرضا ، واليوم الثانى هو الحقبة التى تم فيها تبريد نفس الجزء حتى جمعه ، واليوم الثالث هو الحقبة التى خلق الله فيها الجبال فى الأرض بما على قشرتها من القوى الهائلة التى لا يعرف قدرها إلا هو ، والتى عرف علماء طبقات الأرض كثيرا منها .

ومن عجائب الإعجاز العلمى البيانى فى آية فصلت أن دل الله سبحانه على التداخل بين آخر طور التبريد والتجميد . وأول طور خلق الجبال بجمعه يومى الطورين الأول والثانى إلى يومى الطورين الثالث والرابع، ودل عليها جميعاً بقوله فى أربعة أيام كما دل أيضا على أن خلق الجبال كان ضروريا لخلق الحياة وتقدير الأقوات فى الأرض ، فقد أخبر سبحانه فى سورة الأنبياء أنه جعل من الماء كل شىء حى ، ودل بذكر الأنهار أوالزروع فى أكثر آيات الجبال فى القرآن على أن الجبال ضرورية لسقيا الأرض وأهلها وزروعها وحيوانها بالماء الفرات . وهذا فيما يتعلق بالإنسان هو الحكمة الأولى الكبرى فى خلق الجبال الرواسى .

٨ — آية سورة النور

من أعجب الآيات الكونية فى القرآن آية فى سورة النور جاء فيها لفظ الجبال ، لا على التعريف ، كما فيما عداها من الآيات التى ذكرت فيها الجبال بلفظها ، ولكن على التنكير تعجيبا منها وتنبيها إلى دلالتها ، تلك هى قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحاباً ، ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج

من خلاله . وينزل من السماء من جبـــال فيها من برد . فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار - ٤٣) .

وأكثر المفسرين - فيما ذكر أبو حيان فى « البحر » - قد فهموا من قوله تعالى (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) أن فى السماء جبالا من برد كما فى الأرض جبال من حجر . وإلى هذا ذهب أبو حيان أيضاً ، كما يدل عليه قوله عند تفسير الآية : « والظاهر أن فى السماء جبالا من برد » و « أن المراد بالسماء الجسم الأزرق المخصوص ، وهو المتبادر للذهن » .

حتى الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هجرية أجاز هـذا التفسير إذ يقول فى تفسيره الكبير (روح المعانى) « وعن مجاهد والكلبى وأكثر المفسرين أن المراد بالسماء المظلة وبالجبال حقيقتها ـ قالوا إن الله تعالى خلق فى السماء جبالا من برد كما خلق فى الأرض جبالا من حجر . وليس فى العقل ما ينفيه من قاطع . فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل » مع أنه رحمه الله كان قبل ذلك قد قال فى تفسيره (من جبال) « أى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم على التشبيه البليغ » وفسر السماء بالسحاب ، وجاء بنكتة فى هذه التسمية إذ عللها بالإيماء إلى « أن للسمو - والارتفاع - مدخلا فيما ينزل » أى فى تكوين البرد وتنزيله . وهو تعليل صحيح وتفسير أقرب كثيراً إلى الصحة من ذلك التفسير الذى نقله هو وأبو حيان عن مجاهد وأكثر المفسرين . والذى يحول دون صحته ما ثبت فى العلم الحديث من أن السماء الزرقاء شىء وسماء الكواكب شىء آخر .

فالسماء الزرقاء معنا فى جو أرضنا ، إذ لولا غلاف الأرض الهوائى لبدت السماء سوداء ، كما بدت بالفعل لرجال الفضاء حين علت بهم سفنهم فوق الغلاف بغباره وبخار مائه . ودخلت بهم الطبقة الشديدة التخلخل من هوائه ، وهم لم يبلغوا فى أقصى ارتفاع لهم فى جو الأرض إلا بضع مئات من الكيلو مترات ، فى حين أن متوسط ارتفاع القمر - وهو أقرب كوكب سماوى إلى الأرض - أكبر من ذلك نحوا من ألف مرة ، ومتوسط ارتفاع

أقرب سيار إلى الأرض وهو الزهرة أكبر من ارتفاع القمر أكثر من مائة مرة . أما ارتفاع أقرب نجم ، المسمى بالأقرب القنطورى ،فهو أكبر من أن يقاس بملايين الكيلو مترات ، ولذا قاسوه بسرعة الضوء البالغة ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية ، فوجدوه على بعد يقطعه الضوء فى نحو أربع سنين . فشتان ثم شتان بين السماء الزرقاء والسماء ذات الكواكب والنجوم . وشتان أيضا بين أقصى ارتفاع يبلغه سحاب وأقصى ارتفاع لطبقات الهواء ، فهذا قدر ذاك على الأقل عشر مرات .

أما وقد تبين فى ضوء حقائق العلم الحديث أن السماء المعروفة ، سواء أكانت الزرقاء أم ذات الكواكب ،لا يمكن أن تكون من معانى السماء فى قوله تعالى (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) . فلنحاول أن نتبين المعانى التى يمكن أن تتحملها الآية الكريمة فى حدود ما تمليه اللغة من ناحية ، وماتمليه حقائق العلم من ناحية أخرى .

إن السماء فى اللغة من معانيها السحاب والمطر أو المطرة الجيدة ، كما ذكر القاموس ، والحرف (من) يكون لابتداء الغاية أو للتبعيض أو للبيان . والجبال من أظهر صفاتها العظم والرسوخ ، لكن السحاب مهما تراكم ليس شيء منه براسخ ولا باق . والبرد مهما تجمع قبل نزوله أقل بقاء من السحاب، وإذن فلفظ (جبال) فى الآية لا يحتمل إلا معنى العظم على وجه التشبيه البليغ للسحاب الركام ، أو البرد المتجمع فى السحاب قبل النزول ، أو كليهما ، فإذا كانت السماء فى الآية الكريمة معناها المطر أو المطرة الجيدة ، وكلاهما صالح واقع حسب الظروف ، كانت (من) الأولى للتبعيض و (من) الثانية لابتداء الغاية . ويكون معنى (من جبال) ، من سحاب كالجبال فى العظم ، ويكون (فيها من برد) ، وصفا للسحاب . وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) أنه سبحانه ينزل نوعا أو أنواعا من المطر من سحاب فيه السحابة كالجبل فى العظم ، فيها نوع أو أنواع من البرد . والتنوع دل عليه التنكير ، والبرد أنواع كما سيأتى .

هذا الوجه من تفسير الآية الكريمة لم يتناوله أحد من المفسرين ظنا منهم فيما يبدو أن المطر قد سبق ذكره فى قوله تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله)، لكن هناك فرق بين المطرين ، فالودق ، من خلال السحاب الركام ، ماء لا برد معه ، يكون فى ظروف لا تسمح بتكوين البرد . فهى من حيث درجة البرودة أخف ، ومن حيث عظم السحاب الركام أقل من أن يشبه سحابها بالجبال ذلك التشبيه البليغ الذى شبه به سحاب المطر الذى يكون معه البرد ، إلى فروق أخرى لا بد منها حتى يكون البرد فى ذلك السحاب ، والبرد الذى يكون مع المطر يعرف فى علم الأرصاد الجوية بالبرد المبتل ، أى بالبرد بله ماء المطر ، تمييزا له من البرد الجاف الذى ينزل لا مطر معه فى الأقطار الباردة على الأخص .

هذا البرد الجاف هو الذى تدل عليه الآية إذا كانت (السماء) فيها بمعنى السحاب المرتفع كما نبه الألوسى ، وإذن تكون (من) الأولى لابتداء الغاية و (من) الثانية للبيان ، بيان عظم السحاب - على البدل والتشبيه البليغ ، ويكون (فيها من برد) ، وصفا لجبال ، ويكون مفعول (وينزل) محذوفا ، دل عليه (من برد) ، ليذهب الفكر فى تصوره كل مذهب ، فيكون فى الآية على هذا إيجاز بالحذف ، ويكون معناها أن الله سبحانه ينزل من السحاب البالغ العظم حتى كأنه جبال ، والذى فيه من البرد أنواع ، برداً متنوع الشكل والوزن والتركيب .

لكن إذا أخذت (من) فى قوله تعالى (من جبال) على التبعيض كان الضمير فى (فيها) راجعا إلى السماء بمعنى السحاب المرتفع وكانت (من) فى (من برد) للبيان ، وكان مفعول (وينزل) هو (من جبال) أى وينزل بعض جبال من برد، فالمشبه بالجبال فى العظم هو مجموع البرد وما يتخلله فى السحاب قبل نزوله ، وكون النازل من البرد إلى الأرض بعض ذلك المجموع المشبه بالجبال يدل من ناحية على عظم مقدار البرد النازل ، ومن ناحية أخرى على

عظم مقدار ما يتبقى منه فى السحاب لأن حباته لم تبلغ إحداها فى النمو الحد الذى تـكون معه أثقل من أن تحمله التيارات الهوائية أو القوى الكهربائية، أو كلتاهما، فى السحاب. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) أنه سبحانه ينزل من السحاب مقادير عظيمة من برد متنوع فى شكله وثقله وتركيبه — ينزلها من مقادير أعظم منها تبلغ جملتها فى العظم مبلغ الجبال، فكيف بالسحاب التى تحتويها ؟.

هذه كلها معان كل منها آية من آيات القدرة الإلهية، وظاهرة من ظواهر الفطرة المتعلقة بالبرد فى السحاب، جمعها الله لعباده فى ثمان كلمات من آية واحدة من كتابه العزيز إذا تأملها المتأمل، بقدر من الدقة، فى حدود معانى كلمتين منها فى اللغة هما (السماء) و (من)، ودلالة التنكير فى كلمتين أخريين هما (جبال) و (برد). وما أظننا استنفدنا كل ما يمكن أن يستنبط من الكلمات الثمان من حقائق كشف عنها العلم الحديث، والكلمات الثمان تقع تقريبا فى وسط الآية ٤٣ من سورة النور المذكور نصها فى أوائل -٨- وفى طرفى الآية الكريمة تنبيه إلى مزيد من عجيب الحقائق التى كشف عنها العلم فى العصر الحديث، لكننا قبل أن ننتقل إلى الطرفين نتأملهما نرى توكيدا للمعانى السابقة أن نورد بعض أمثلة توضيحا لها، ولن يتسع المجال إلا لأقلها.

إن البرد آية فى تركيبه، وتنوع حباته وطريقة تكوينه. فحبته طبقات تتكون حول نواة جمدية أو ثلجية. (الجمد هو الماء المتجمد كتلا المسمى عند الناس ثلجا، والثلج بخار متجمد متجمع، والجليد الماء الرقيق المتجمد على سطح الأرض). والطبقات تتوالى بين جليدية وثلجية وتختلف فى سمكها حسب الظروف حين تتقاذفها التيارات الهوائية، والقوى الكهربائية، والجاذبية الأرضية، من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل، ومن جنب إلى جنب، حتى إذا نمت وكبرت إلى الثقل الكافى لتغليب قوى الجاذبية الأرضية تساقط الحب بردا، يكون فى الغالب نقمة، تختلف فى المقدار والمدى باختلاف حب البرد فى الحجم والوزن واتساع منطقة السقوط.

وقد أورد العالم الروسى ن. كوليكوف ، فى فصل البرد من كتابه الممتع (محيطنا الجوى) ثلاث عشرة صورة لمقاطع ثلاث عشرة حبة بردية كلها مختلفة فى الشكل والسعة والتركيب الطبقى . وقد ذكر أن الحبة فى العاصفة البردية فى الأيام الحارة من العام قد تبلغ حجم بيضة الحمامة أو بيضة الدجاجة أو قبضة اليد ، بل كان من بين برد عاصفة أصابت الهند فى مايو سنة ١٩٢٩ حبات وزن الواحدة كيلوجرام وقطرها ثلاثة عشر سنتيمترا ، وهى أكبر ما عرف فى علم الأرصاد الجوية . وذكر أن سرعة التيار الهوائى العمودى يجب أن تكون عشرة أمتار فى الثانية — أى ٣٦ كيلو مترا فى الساعة — كى يحمل التيار البرد الذى ثخانته سنتيمتر ، وثلاثة أمثال هذه السرعة كى يحمل ما ثخانته عشرة سنتيمترات ، وأن التيار لا يثبت طبعا على سرعة واحدة بل تتعاور سرعته الزيادة والنقصان ، فاذا زادت صعد التيار بالبرد ، وإذا نقصت نزل الثقل بالبرد ، فاذا زادت صعد وهكذا دواليك . وفى كل مرة يتكاثف على البرد ما يتكاثف حتى يبلغ من الحجم والثقل ما يبلغ .

وذكر أيضاً أن سحب البرد دائما ثقال جدا ، وأن الرصد قد سجل حتى فى المناطق المعتدلة سحابة برد بلغ سمكها عشرة كيلو مترات ، وأن منطقة البرد فى سحابته محدودة . فاذا حملت الريح السحابة ونزل البرد فإن منطقة نزوله قل أن تزيد سعتها عن خمسة عشر كيلو متر ، وإن عرف منها ما بلغ فى الطول ٤٠٠ كيلو مترا أو يزيد .

وقد ذكر أيضاً أن تاريخ الأرصاد قد سجل عاصفة بردية أصابت فرنسا فى ١٨ يوليو سنة ١٧٨٨ مرت عليهـــا بسرعة ٧٠ كيلو مترا فى الساعة ، وكان ممرها منقسما إلى ثلاث مناطق متوازية ، الوسطى منها لم يصبها البرد ولكن أصابها مطر شديد ، وكان عرضها نحو عشرين كيلو مترا . أما الأخريان اللتان مطرتا بردا ، فأولاهما كان طولها ٧٣٠ كيلو مترا ومتوسط عرضها خمسة عشر ، وأخراهما كان طولها ٨٤٠ كيلو مترا وعرضها نحو ثمانية

كيلومترات . وقد قدر البرد الذى نزل تقديرا تقريبيا بما يشغل أربعة ملايين مترا مكعبا . وقدرت الخسائر الناجمة عنه بعشرات الملايين من الفرنكات .

وهذا الوصف يوضح قوله تعالى (فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء — النور ٤٣) ، كما يوضح أيضا ذلك القدر الهائل للبرد الذى نزل ، وحجم تلك السحابة البردية التى سجلها الرصد قبل — وكان ارتفاعها عشرة كيلومترات — يوضح هذان معنى الجبلية فى قوله تعالى (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) . ويزيد المعنى توضيحا ، وعلى الأخص مغزى الجمع فى قوله تعالى : (من جبال) ، قول العالم الروسى فى وصف السحابة البردية « إنها تتميز بلون قاعدتها الرمادى ، وانقسامها إلى رقاع ، وأن قمتها تبدو كجبل له نتوءات كالتلال صفراء ، غير منتظمة — وجبال السحابة — تعد كلمة (جبال) هنا ترجمة حرفية — هذه الجبال تبدو إذا أشرف عليها من أعلى كأنها مغطاة بملاءات من سحب متشعثة ككتل الصوف » .

الفصل الرابع

السماء فى القرآن – ١ –

ما دام القرآن الكريم والفطرة كلاهما من عند الله ، فعلوم الفطرة المعروفة بين الناس بالعلوم الطبيعية التجريبية هى فى يقينياتها تفسير لما تعلق بها من آيات القرآن ، وفى نظرياتها غير اليقينية محاولات اجتهادية لتفسير تلك الآيات ، تقرب أو تبعد عن الحق بقدر قربها أو بعدها عما يمكن أن يفيده الكلم القرآنى من معنى ، فى فصيح اللغة التى نزله بها القرآن .

فالتفسير ينبغى أن يقوم على يقينيات علوم الفطرة ، وأهل القرآن من علماء الفطرة ينبغى أن يسترشدوا فى بحوثهم بما تعلق بها مما أنزل الله فى كتابه العزيز ، فهو نور بأيديهم لا بأيدى غير المؤمنين به ، ومن التضييع إغفاله وإهمال فرص الاهتداء به جريا وراء حقائق مجهولة لا يمكن لأهل العلم إثباتها بالطرق العلمية لأنها فى ميادين ليس لدى العلم فيها إلا الفروض والنظريات .

وقد كان من الممكن لفلاسفة المسلمين أن يصححوا من الفلسفة اليونانية الفلكية بعض ما صحح علم الفلك الحديث ، لو أنهم اختبروها وامتحنوها بما يفيده الكلام القرآنى فى نحو قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون ـ الأنبياء ٢٣) (راجع صفحة ١٧٥) ، وكيف كان من الممكن لمثل الزمخشرى أو الفخر الرازى من المفسرين أن يسبق علم الفلك الحديث إلى حقيقة فلكية استنبطها حتى أثبتها عن طريق المشاهدة رجال السفن الفضائية لما ارتفعت بهم عن جو الأرض ، ورأوا السماء سوداء حالكة والشمس طالعة . ولم يكن بين مفسرى القرآن والكشف عن هذه الحقيقة عن طريقه إلا الوقوف عند ظاهر قوله تعالى

وأغطش ليلها) ، فى موضعه من سياق آيات سورة النازعات ، وتجنب تأويل دلالة الليل مضافا إلى الضمير الراجع إلى السماء .

أما وقد تقدم علم الفلك الحديث ذلك التقدم فليس أمامنا الآن إلا الاستعانة بكشوفه الفلكية على تفسير ما لم نتأمله من تلك الآيات الكريمة ، إذ لا يزال فى (بناها) من قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها) مجال واسع للتأمل فى ضوء ما تعلق بالسماء من الآيات القرآنية ومن حقائق علم الفلك الحديث .

الإمام محمد عبده

إن الإمام محمد عبده فسر (بناها) فى آية سورة الشمس (راجع ص ٢٦١) بأن الله سبحانه « جعل كل كوكب من الكواكب منه — أى من الكون — بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك ، وشد هذه الكواكب بعضها الى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به » . فكان هذا التفسير منه رحمه الله فتحا ، ليس فقط لأنه فسر آية أو جملة قرآنية بسنة كونية ، كشف عنها العلم الحديث، ولكن أيضا لأنه عمليا وضع مبدأ الأخذ بيقينيات العلم وحدها فى التفسير ، لأنه لم يفسر الآية الكريمة على أساس فرض علمى أو نظرية ، ولكن على أساس قانون عام ثبت بالتجربة العملية ، وبالبحث الرياضى ، وبالأرصاد الفلكية .

ثم هو رحمه الله قد بين بمسلكه هذا أن المتعرض لتفسير الآيات القرآنية الكونية ينبغى عليه أن يلم ولو بجانب صالح من الحقائق العلمية المتصلة بموضوع الآية المراد تفسيرها ، مع مراعاة الدقة الواجبة فى التطبيق . والشيخ الإمام قام بذلك بمجهوده الخاص عن طريق لغة أوربية كان يعرفها . وليس كل عالم دينى مفسر كالأستاذ الإمام ، فالأولى والأنفع أن يؤسس للمجهود الخاص الذى لا غنى عنه فى تتبع النمو العلمى بتدريس مقرر مختار من الحقائق العلمية ، وعلى الأخص المتعلقة بالآيات القرآنية الكونية حسب ورودها فى مقررات علم التفسير فى الجامعات الإسلامية وأهمها جامعة الأزهر الشريف .

فلنتمم ما بدأه الإمام رحمه الله عن الجاذبية العامة وأثرها فى بناء السماء بما نبه الله عباده إليه ، فى آيات من كتابه ، كل منها يدل على جانب من مميزاتها . لله فيه آية تهدى إليه سبحانه. وأوضح ما يميز بناء السماء من البنيان الأرضى هو تماسك أجزاء السماء على البعد بالجاذبية العامة من غير تماس ، وهذا أمر عجيب يدركه الفلكيون المحدثون ولا يدرون سره ، إذ ليس هو بالتجاذب الكهربائى ، ولا المغناطيسى ، فهو جدير أن ينبه إليه فى كتاب الله بالأسلوب الذى يعقله الناس فى كل عصر ، حتى إذا جاء عصر الفلك الحديث وأثبت هذه الظاهرة العجيبة انطبق الكلم القرآنى عليها كأنه ما نزل إلا فيها .

تأمل قوله تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها — لقمان ١٠) ، وقوله عز وجل (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها — الرعد ٢) ، واعجب معى من إعجاز الأسلوب والمعنى معا فى قوله تعالى (بغير عمد ترونها) فى كل من خلق السماء ورفعها . فلو قيل (بغير عمد) لحسب لكان ذلك نفيا مطلقا للعمد ، مرئية وغير مرئية ، والنفى المطلق يخالف الواقع الذى علم الله أنه سيهدى إليه عباده بعد نحو ألف وخمسين عاما من اختتام القرآن ، فكان من الإعجاز المزدوج أن يقيد الله نفى العمد فى الخلق والرفع بقوله (ترونها) . والضمير المنصوب فى ترونها يرجع أولا إلى أقرب مذكور وهو (عمد) فيكون المعنى بغير عمد مرئية . أى بعمد من شأنها وفطرتها ألا ترى ، والفعل المضارع فى اللغة يشمل الحال والاستقبال أو هو حال مستمر ، لأن القرآن مخاطب به الناس فى كل عصر .

وإذا أعيد الضمير الى السماء كان المعنى أن السماء ترونها مخلوقة مرفوعة بغير عمد وتكون العمد هى ما يعهده الناس فى أبنية الأرض ، ونفيها بهذا المعنى عن السماء المرفوعة أيضاً أمر عجيب لا يقدر عليه إلا الله . وكلا الوجهين مفهوم من التعبير القرآنى طبق اللغة ، وإن كان الأولى فى اللغة هو الوجه الأول الذى

يحوى الإعجاز العلمى . وإذن فالوجهان كلاهما مرادان بالتعبير الكريم إذ لامانع من أحدهما . والزمخشرى فهم المعنيين على التخيير ، وإن أعطى الأولوية للمعنى المستفاد من جعل (ترونها) صفة للعمد ، أى بغير عمد مرئية ، يعنى أن عمدها لا ترى وهى إمساكها بقدرته » . أما الفخر الرازى فلم يرض إلا هذا المعنى الثانى إذ يقول « إنه رفع السماء بغير عمد ترونها ، أى لها عمد فى الحقيقة إلا أن تلك العمد ، هى قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها فى الحيز الحالى، وأنهم (أى الناس) لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك » .

وقد عرف علماء الفلك الحديث كيفية ذلك عن طريق تلك السنة الكونية العجيبة المذهلة سنة الجاذبية العامة التى قامت وتقوم بها السموات والأرض بأمر الله كما قال سبحانه (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره — الروم ٢٥) ، وقد بقى من صور التعبير صورة ، هى أن يقال (بعمد لاترونها) بدلا من (بغير عمد ترونها) فى الآيتين الكريمتين . وقد تجنبها القرآن لحكمة بالغة . فلو أنها جاءت فيه هكذا لاتجهت الأفكار بادىء ذى بدء إلى إثبات عمد فى السماء أو للسماء كالتى يعرفونها فيما يعلون من بنيان ، ولأثبت العلم بطلان ذلك وإن جاز على أهل العصور قبل — وجل وعز وجه الله أن يلم خطأ ما بكتابه من قريب أو بعيد .

ثم تأتى الناحية الكمية لقانون الجاذبية العامة . فحتى هذه أشار إليها القرآن الكريم بين أجرام السماء . وقد رأينا فيما سبق أن الجاذبية العامة لها من الناحية الكمية ركنان : حاصل ضرب كتلتى الجسمين المتجاذبين إذ تتناسب معه طردا ، والمسافة بينهما إذ تتناسب مع مربعها عكسا . فالركن الأول يزيد فى قوة التجاذب بين الجسمين ، والثانى ينقص ويضعف منها . وواضح أن أثر المسافة فى الأبعاد الفلكية أكبر وأعظم من أثر الكتلتين وإن ضربت إحداهما فى الأخرى . تعرف ذلك معرفة أولية من صغر النجم فى رأى العين وإن كان أكبر من الشمس، كالشعرى مثلا . وقد دل القرآن على الركنين جميعا ، وعلى هذا الفرق بينهما

فى قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم — الواقعة ٧٥). ودل على عظم السر المودع فى المقسم به فى الآية بعدها إذ يقول سبحانه (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم).

ومواقع النجوم فى معناها الأول المتبادر هى موضعها فى الفضاء ، أى مواضع بعضها بالنسبة لبعض . وإذا تحددت المواقع تحددت المسافات . فهذا قسم بالمسافات بين بعضها وبعض فى توزيع الله إياها فى الفضاء الكونى . أما كتلتها فقد دل عليها ذكر النجوم وكفى ، فإن من أهم خواص النجم كتلته وضوئيته . وللفلكيين المحدثين طرقهم فى تقدير كل . وهم يقدرون الكتل النجمية عن طريق قانون الجاذبية أيضا . وسواء عرفوا أم لم يعرفوا فالآية الكونية الأولى تدل على الكتل بذكر النجوم ، وعلى المسافات بذكر المواقع ، وعلى أن المواقع أكبر وأعظم أثرا بالإقسام بها هى . أما كبر الأثر وعظمة السر المودع فى القسم فقد نصت عليه الآية الثانية (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم — ٧٦). والعظمة إذا كانت وصفا من الله سبحانه وتعالى كان تقديرها فوق مقدور البشر . وقد نصت الآية الكريمة على أن البشر يجهلون عظمة القسم ، وبالتبع عظمة السر المودع فيه . حتى فى عصر الفلك الحديث هذا لا يدرك الفلكيون من عظمة ذلك القسم إلا القليل .

إن الأجرام السماوية لا يحصيها العد ولا الحساب — هناك مثلا ملايين السدم وملايين المجرات . وفى كل سديم أو مجرة ملايين النجوم ، إن لم يكن بالفعل فى السديم فبالمجرة . أى أن كتلة السديم صالحة أن يتكون منها ملايين النجوم . وكل سديم وكل مجرة وكل نجم فى سديم أو مجرة ، له حالته من الحركة فى فلك ، أو من السكون ، نتيجة لقوى الجاذبية الواقعة عليه طبقا لقانون الجاذبية العامة ، أى طبقا لتقدير الكتل والمسافات ، بحيث تكون نتيجة قوى الجاذبية الواقعة على الجرم السماوى ، نجما كان أو مجرة أو سديما ، أن يأخذ الجرم حالته من الحركة أو من السكون على اختلاف تلك الحالات التى لا يحصيها عد . فهل فى مقدور العقل البشرى مهما بلغ من القوة ومن العلم

أن يدرك عظمة ذلك التقدير ، وهو الظاهر للمتأمل فى سر ذلك القسم الذى وصفه الخالق المقدر ، سبحانه ، بأنه عظيم .

إن عظمة ذلك التقدير هى بعض عظمة ذلك السر ، لا كله ، وهما معا يبينان بوضوح لماذا كان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، كما أكد الحق سبحانه فى سورة غافر (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٥٧) على جلال آيات الله فى خلق الناس أو بالأحرى فى خلق الإنسان ، إذ خلق الناس أجمعين عند الله كخلق نفس واحدة (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة - لقمان ٢٨) .

فانظر الآن إلى حكمة الله سبحانه ورحمته إذ أورد فى القليل من آيات كتابه العزيز ما يدل عباده على جليل آياته فى خلق السماء ، بحيث لا ينكرها أهل عصر ، وتقوم الحجة بها لله على أهل كل عصر ، حتى إذا آن أن يطلع الله من شاء من عباده على ما شاء من أسرار ذلك الخلق ، كان التطابق تاما باهراً بين الحقائق التى ظهرت من جديد ، والنص القرآنى الذى نزل به الوحى من قديم (رفع سمكها فسواها - النازعات ٢٨) .

(وأخرج ضحاها - ٢٩) : إذا عرفنا أن الضحى هو النور كما قرر الزمخشرى مستشهداً بقوله تعالى (والشمس وضحاها) عجبنا كيف غاب عنه دلالة الضمير المضاف فى الآيتين ، فهو فى آية النازعات يرجع إلى السماء ، وفى آية سورة الشمس إلى الشمس . فكيف أمكن أن يغيب عن جميع المفسرين أن (ضحى) فى الآية الأولى ضوء كل نجم فى السماء ومنها شمسنا ، وأن ضحى فى الآية الثانية ضوء الشمس خاصة ؟ أم كيف فاتهم الفرق بين القسم ومعناه فى الآية الثانية ، وبين الخبر ومعناه فى الآية الأولى ؟ حتى الشيخ محمد عبده يقول فى تفسيره آية النازعات « وضحاها نورها وضوء شمسها ، قال تعالى (والشمس وضحاها) أى ضوءها » .

ولعل الفلسفة اليونانية هى التى عمت عليه المعنى إذ لم يكن فلاسفة اليونان يعرفون أن النجوم شموس ملتهبة لها ضوء يقول الله تعالى إنه هو الذى أخرجه. وإخبار الله سبحانه أنه أخرج ضوء السماء، شمسها ونجومها، من أعجب وأبهر الآيات الخبرية فى القرآن الكريم. فهو أولا قد دل على ما لم يكشفه إلا العلم الحديث من أن النجوم شموس، وهو ثانيا قد دل بالفعل (أخرج) على أن تكون الضوء فى النجم وخروجه منه لا يقدر على تحقيقه إلا الله، فليس هو مثل نار الإنسان فى الأرض وضوء مصابيحه. ليس هو نتيجة تفاعل كيماوى أو كهربائى يقدر عليه الإنسان، ولكن نتيجة تفاعلات ذرية نووية هائلة فى جوف النجم الشاب المضطرم، الذى لم يفقد كثيرا من مادته طاقة ضوئية وحرارية تفارقه باستمرار حتى يشيخ فى النهاية ويعجز عن مثل ما كان يشع فى الشباب. فسبحان الله الذى دل بكلمة أو كلمتين من كتابه على أحدث وأعجب ما كشف العلم الحديث من أن مادة الشمس والنجم تفنى بتحولها إلى طاقة تشع فى الكون، وليست بخالدة كما كان يقول فلاسفة اليونان، ومن ضل بهم من فلاسفة المسلمين.

السماء فى القرآن — ٢ —

للقرآن أسلوبه الحكيم فى الدلالة على آيات الله فى الكون، فإن الهداية التى جاء القرآن من أجلها تقتضى، كما ذكر من قبل، ألا يخاطب الناس عن الكون بما ينكرون، فيقوم ذلك حجابا بينهم وبين قبول دعوته، وحاملا على تكذيبه، وهى أيضاً تقتضى ألا يوافق الناس على باطل معتقداتهم الكونية فى عصر نزول الوحى به، فيقوم ذلك حائلا دون قبول دعوته فى عصور العلم الكونى التى علم الله الذى أنزل القرآن أنها ستكون. وتجنب هذين العائقين عن قبول هداية القرآن هو من بدائع إعجاز أسلوبه ومن أكبر الدلائل على أنه حقا من عند الله فاطر الناس وفاطر الكون.

سماء وسمـــاء

السماء فى العلم هى سماء الشمس والقمر والشهب والكواكب والنجوم والسدم . أما فى اللغة فالسماء متعددة المعانى : هى سماء العلم هذه وهى أيضاً السماء الزرقاء التى تبدو النجوم كأنها فيها وهى فوقها . ثم هى تطلق أيضاً على السحاب ، وعلى ما ينزل من السحاب من أمطار ، فالناظر فى موضوع السماء فى القرآن وفى العلم عليه أن يميز فى الآيات القرآنية بين ما هو خاص بالنجوم وما إليها ، وما هو خاص بسماء جو الأرض من سحاب وما إليه من زرقة الطبقات العليا من هوائه ، التى هى عادة أول ما يفهم الناس من لفظ السماء ومن وصفها . فالسماء فى قوله تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر - القمر ١١) ليست هى سماء الكواكب والنجوم ، ولكن هى سماء السحاب الذى ينزل الله منه الماء المصرح به فى قوله من سورة الواقعة (أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون - ٦٨ و ٦٩) وإذن فالسماء المذكورة فى الآية الكريمة من سورة القمر هى أبواب سماء السحاب على المجاز .

كذلك قوله تعالى فى سورة الملك : (فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير - ٣ و ٤) يدل أول ما يدل على ما يلقى البصر إذا نظر إلى السماء الزرقاء وما يبدو وراءها من قمر وكواكب ونجوم بالليل وشمس بالنهار ، إذا لم يكن فى الليل أو النهار بين الناظر وبينها حاجب من سحاب أو غبار . كذلك تصدق الآية على منظر السماء إذا تجاوزنا السماء الزرقاء بتجاوز الغلاف الهوائى ، فإن السماء عندئذ تبدو كما بدت لملاحى الفضاء سوداء حالكة ولو كانت الشمس طالعة ، فترامى الشمس والنجوم فيها أجساما مضيئة من غير أن يكون لأضوائها أثر فى تخفيف ذلك الظلام (راجع صفحة ١٧٥) .

فلولا ما يحمل الهواء فى جو الأرض من جسيمات ضئيلة لبدت السماء للناس حالكة السواد حين تكون الشمس طالعة ، ولكانت الظلال على سطحها

سوداء مثل ظلال القمر وسمائه ، إذ هو قد فقد هواءه منذ زمن بعيد . فشتان بين نهار الأرض ونهار القمر ، وشتان بين سماء الأرض تضيء جوها الشمس فلا يلقى العين منه إلا نور - كما نبه الله إليه (والنهار إذا جلاها - الشمس ٣) وبين السماء إذا تجاوزنا جو الأرض وغلافها الهوائى بالنهار ، فلا تقع العين منها إلا على ليل مظلم تبدو الشمس فيه قرصا فيه زرقة . وإلى ليل السماء هذا وآية الله فيه أشار القرآن بل صرح به فى قوله تعالى (وأغطش ليلها) . وهذا مثال للحقيقة الكونية تذكر فى القرآن قبل أن يهتدى إليها الناس من علم ، فيصرف الإنسان النص عن معناه الحرفى الذى يجهله إلى أقرب معنى يعرفه . ولو أنه لزم النص وكان منطقيا معه حسب القاعدة النحوية التى قعدها لسبق علم الفلك الحديث إلى حقيقة عن السماء لم يكشفها العلم إلا بعد قرون من نزول القرآن .

لكن لعل من الإسراف أن نتوقع من قدامى المفسرين ، أو من محدثيهم الذين لم يدرسوا جانبا كافيا من العلم الكونى أن يتصوروا سماء حالكة والشمس فيها طالعة لا حجاب دونها ، وقد كانوا يظنون نور النهار ممتدا إلى أقصى الكون ، وأقصاه عندهم كان السماء الزرقاء التى كانت تضيئها الشمس بالنهار وتنيرها الكواكب والقمر بالليل . حتى كبير المفسرين المحدثين الشيخ محمد عبده لم يخطر بباله أن المعنى الحرفى للآية الكريمة قد يكون صحيحا فيبحثه . ولو بحث لاهتدى إلى التفسير الصحيح الحديث ، كما اهتدى إليه - مختصراً طبعا - فى تفسير قوله تعالى (بناها) من قوله (والسماء وما بناها - الشمس ٥) فى تفسيره جزء (عم)[1] كما سنراه بعد إذا حان موعده ، لكنه عند تفسير (وأغطش ليلها) لجأ إلى التأويل فقال : « ونسبة الليل إلى السماء لأنه يكون بمغيب كواكبها » ونظنه أراد مغيب شمسها فالكواكب إنما تظهر بالليل . لكن هذا جاء بالنص فى تفسيره .

---

(١) طبعة مجلة المنار وطبعة كتاب الشعب .

وقد زاد الفخر الرازى علة أخرى لنسبة ليل الأرض إلى السماء ، هى حركة الفلك، فيقول « إنما أضاف (ولعلها أضيف) الليل والنهار إلى السماء لأن الليل والنهار إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها . ثم غروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك » . وهو تعليل لو صح لـكان وجيها . لـكنه مبنى على النظرية الفلـكية التى أشرنا إليهـــا من قبل والتى فسر بها فلاسفة اليونان ظواهر الشروق والغروب فى السماء ، والتى تقول بأن القمر والزهرة وعطارد والشمس والمريخ والمشترى وزحل مغروزة فى أفلاك كروية شفافة تدور بها من المشرق إلى المغرب حول الأرض الواقعة فى مركزها المشترك ، ومن ورائها فلك النجوم الثوابت . وهى نظرية ظلت سائدة إلى أن أبطلها علم الفلك الحديث حين أثبت أن القمر وحده هو الذى يدور حول الأرض بحركة ذاتيـــة لا بدوران فلك يحمله ، وأن الأرض سيار يدور والسيارات الأخرى حول الشمس بحركة ذاتية أيضاً . فى مسارات فى الفضاء هى أفلاكها ، كل منها على شكل قطع ناقص الشمس فى إحدى بؤرتيه أو مركزيه ، إلا أن فلك الأرض يكاد يكون دائرة لتقارب بؤرتيه ، وأن للأرض حركة أخرى حول نفسها ، إذ تدور حول محور لها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق دورة واحدة فى اليوم ، ينشأ عنها الليل والنهار ، فتبدو الشمس والسيارات الباقية كأنها تدور حول الأرض من المشرق إلى المغرب .

والقرآن الـكريم قد دل على كل هذا وعلى غيره من الحقائق الفلـكية تارة تصريحا وتارة تنبيها عن طريق الإشارة بأسلوبه الدقيق المعجز الذى يزداد الناظر فيه فوزا بأسراره كلما ازداد أخذا بالمنطق الصارم فى تفهم آياته والاستنباط منها ، طبق قواعد اللغة الـكريمة التى أعدها الله لتحمل معانيه .

آية الأنبياء

والآيات المتعلقة بالسماء وظواهرها كثيرة فى القرآن الـكريم . لـكن من أصرحها فى إبطال النظرية الفلـكية اليونانية وأملئها بالحقائق العلمية عن طريق

الإشارة اللغوية الدقيقة قوله تعالى فى سورة الأنبياء (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ـ ٣٣) فالفعل (يسبح) يستلزم الحركة الذاتية ، إذ لا سباحة ولا سبح بدونها . فهذه كلمة قرآنية دلت بحرفيتها على بطلان ما قال به فلاسفة اليونان من فلك مادى لكل من الشمس والقمر يتحرك النير بحركته ولتدليه منه ، أو لانغرازه فيه .

والفعل بعد ذلك يدل على صفات فى الحركة ، فمنها الإسراع ـ من وصف العرب الجواد بالسابح إذا كان عظيم السرعة فى سهولة ـ من قول الزمخشرى فى تفسير (والسابحات سبحاً ـ النازعات ٣) « التى تسبح فى مضيها أى تسرع ». ومنها الإبعاد فى السير كما فى القاموس من معانى (السبح) .

والمسافة التى يقطعها القمر فى مداره حول الأرض أعظم بكثير بداهة من محيط الأرض . أما الشمس فقد أثبت العلم لها حركة ذاتية فى فضاء الكون سرعتها نحو اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه النجم الذى يسميه الإفرنج (فيجا) ويسميه العرب النسر الواقع .

فسار الشمس فى حركتها العظيمة هذه هو فلكها . وإسراعها فى سيرها قد أشار إليه الفعل (يسبح) فى آية الأنبياء وصرح بها الفعل (يجرى) فى آية ٣٨ من سورة يس (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وليس يعلم إلا الله بعد ما بينها اليوم وبين ذلك (المستقر) ، ولا متى تصل إليه بعد الذى قطعته فى جريها نحوه منذ نزل الوحى بالآية الكريمة فى سورة يس .

هل الضمير للجمع ؟

وبقى ضمير الجمع فى الفعل (يسبحون) وما يدل عليه فى آية الأنبياء . وللوقوف على دلالة هذا الضمير طريقان حسب مرد الضمير فى الآية واحتمال أن تكون أداة التعريف (أل) فى (الشمس والقمر) للعهد أو للجنس . فإذا كان مرد الضمير إليهما وحدهما تحتم أن تكون (أل) للجنس، وإلا لجاء الضمير

على التثنية . وإذن فالنص الكريم يدل على أن فى السماء شموسا وأقمارا . وما كان ذلك ليخطر على بال أحد يرى بعينه شمسا واحدة وقمرا فردا إلى أن جاء علم الفلك الحديث فأثبت صحة هذا الوجه فى الآية ، إذ أثبت أن كل نجم فى السماء شمس وأن شمسنا إن هى إلا نجم متوسط بين النجوم .

فالشعرى مثلا التى يقول الله فيها (وأنه هو رب الشعرى ـ النجم ٤٩) أكثر ضوءا من الشمس ستا وعشرين مرة ، وأعظم منها كتلة ، ولولا أنها تبعد عنا بنحو خمسين بليون ميل لأحرقت الأرض وما عليها . وكذلك أثبت الرصد أن فى السماء أقماراً إلى قمرنا ، وإن اقتصر ثبوت ذلك اليوم على المجموعة الشمسية . فللمريخ قمران صغيران ، وللمشترى تسعة أقمار منها أربعة كبار ، ولزحل تسعة أقمار منها واحد صغير ، ولیورانوس أربعة أقمار كبار ، ولنبتون قمر صغير ، ولا قمر لعطارد ولا للزهرة ، ولم يعرف لبلوتو ـ أبعد السيارات عن الشمس ـ قمر ، وبلوتو أبعد من الأرض عن الشمس أربعين مرة .

هذا طريق . أما إذا كانت (أل) للعهد فيتحتم أن يرجع ضمير الجمع فى الآية لا إلى الشمس والقمر فقط وهما اثنان ، ولكن إليهما وإلى الليل والنهار معهما ، ويكون لكل من الليل والنهار إذن حركة فى فلك . والليل والنهار يتعاقبان على جو الأرض ففلكهما إذن هو جو الأرض وغلافها الهوائى . وتعاقبهما فى كل مكان ، حيث يتبع الضوء الظلمة ، وتخلف الظلمة الضوء إذا انسلخ عن جو مكان ما ، هو حركة فعلية يدل على كيفيتها قوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ـ الزمر ٥) ، وفى القاموس أن التكوير هو (لوى العمامة وإدارتها) وفى الكشاف عند تفسير الآية « والتكوير اللف واللى . يقال كار العمامة على رأسه وكورها » .

وقد جاء الزمخشرى فيه بأوجه ليس منها الحركة مع أنها أساس اللف واللى ، لكن العلم أثبت حرفية معنى التكوير حيث أثبت أن للأرض حركة لفاً ودوراناً حول محورها أمام الشمس ، ينشأ عنها الليل والنهار طبق الخواص

التى أودعها الله فى الضوء . فسبحان الذى بكلمة أو بكلمات قليلة فى كتابه يدل عباده على آية أو عددا من آياته فى الخلق ، كما دل بكلمة (يكور) على حركة الأرض حول محورها وحركة الضوء فى جوها ، وعلى شكلها أيضا ، وكما دل بقوله (كل فى فلك يسبحون) فى موضعها من سورة الأنبياء على آيات متعددة له فى الخلق تعدد الاحتمالات اللغوية التى فى الآية ، فكل احتمال منها يدل على آية فى الخلق أو آيات كانت تجهلها البشرية كلها حين نزل القرآن .

الضمير هنا بين الفلاسفة والمفسرين

هذا من ناحية كون الضمير للجمع فى قوله تعالى (يسبحون) وإن بقى للقول فيه بقية . أما كونه لجمع العاقل فقد ذهب المأخوذون بالفلسفة اليونانية إلى أنه دليل كون الكواكب أحياء ناطقة ، كما قال ابن سينا فيما ذكر الفخر الرازى فى الجزء السادس من تفسيره ، وهذا مثل للهوى يغلب حتى الفيلسوف فيسارع الى فهم ما يوافق هواه من الآى القرآنى ، من غير التدقيق الواجب عليه على أى حال . فلو أنه دقق لوجد أن ضمير العاقل قد ورد فى القرآن على المجاز لما لا يمكن أن يكون فيه عقل ، وذلك فى قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير — النور ٤٥) .

وإذن فضمير العاقل فى (يسبحون) كضمير العاقل فى (منهم) هو للدلالة على سر من أسرار الخلق وسنن الفطرة فيما استعمل الضمير له ، يشبه فيه أهل العقل . فأما آية النور فقد صرح الله سبحانه بسر ضمير العاقل فيها فى قوله (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء — الأنعام ٣٨) السابقة على سورة النور فى تاريخ النزول وفى ترتيب المصحف معا . فالضمير فى آية النور كأنه تذكير بما سبق التصريح به والتنبيه إليه فى آية الأنعام . أما ضمير العاقل فى (يسبحون) فالمجاز فيه أوضح وأظهر حتى من المجاز فى ضمير آية النور ، لأنه فى آية الأنبياء

راجع الى ما لاحياة فيه قط ، من ليل ونهار ، وشمس وصفها الله فى آية أخرى بأنها سراج وهاج ، وقمر يستمد نوره من الشمس .

وقد علل الفخر الرازى ضمير العاقل فى (يسبحون) بقوله ردا على ابن سينا « إنما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة » ، وهو تعليل قاله الفراء من قبل ، فيما ذكر أبو حيان فى تفسيره . لكن السباحة ليست خاصة بالإنسان ، فدواب البحر أمهر منه فيها ، بل وبعض حيوان البر فكان ينبغى لمثل الفخر أن يتوقف ويفوض إلى الله مادام لم يجد تعليلا يليق بجلال القرآن.

والتعليل فى مثل هذا ينبغى أن يتطلب فى القرآن نفسه ، والدليل إليه هو قوله تعالى (قالتا أتينا طائعين — فصلت ١١) ، ونصها (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين) وطاعة الله هى التى من شأن العقــــلاء . فنزول السماء والأرض على أمر الله ، طوعا لا كرها ، إشارة الى تمام نفوذ سنن الله فيهما ، هو الصلة التى تليق بجلال الآى القرآنى فى ذكرهما بضمير العاقل فى آية فصلت ، وذكر ما لهما من ظواهر وأجرام فى آية الأنبياء . وسورتا فصلت والأنبياء مكيتان كلتاهما ، لكن فصلت سابقة على الأنبياء فى تاريخ نزول الوحى بهما ، فكأن ضمير العاقل فى آية الأنبياء جاء ليذكر بأخيه فى آية فصلت الذى جاء ومعه تعليله الصريح ، كالذى كان من تذكير الضمير فى آية النور بالحكمة المصرح بها فى آية الأنعام .

السماء فى القرآن — ٣ —

آيات سورة النازعات هى آخر ما نزل الوحى به من الآيات المكية المتعلقة بخلق السماء . وسورة النازعات هى الواحدة والثمانون كما هو معروف . وقد ذكرت السماء فى السور الثلاث التى نزلت عقب النازعات وهى : الإنفطار فالإنشقاق فالروم . ولكن لم يتعلق بقيام السماء بعد خلقها إلا آية سورة الروم (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض

إذا أنتم تخرجون — ٢٥) . وكما تلخص آيات سورة النازعات كل ما سبق نزوله من الآيات المكية متعلقا بآيات الله فى خلق السماء ، تلخص آية سورة الروم ما نزل فى السماء فى السور الثلاث التى نزلت قبلها ، فهى فى شطرها الأول تذكر استمرار السماء على ما خلقها الله عليه فى آية سورة النازعات . وفى شطرها الثانى تذكر البعث الذى هو بدء الحياة الآخرة التى من أجل التمهيد لها أنهيت الحياة الدنيا ، بما طرأ على السماء من الأحداث الهائلة التى ذكرتها آيات سورتى الإنفطار والإنشقاق إعداداً لذلك اليوم العظيم (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار — ابراهيم ٤٨) برفع التاء فى السموات .

وآيات الله فى خلق السماء هى من العظم ومن الوضوح بحيث يكفى ظاهرها فى إقامة الحجة على من خوطب بها فيما سيقت له ، ولو لم يطابق مفهومها عنده حقيقة الخلق فى الواقع . فلو فهم (بناها) على أن السماء قبة مبنية متلاحمة الأجزاء قد علت الأرض كلها ذلك العلو ، أو فهم (بناها) على ما ثقفته به الفلسفة اليونانية حين وجدت طريقها إلى الفلسفة الإسلامية من أن السماء هى الأفلاك الكروية السبعة الحاملة للسيارات السبعة التى أولها القمر ورابعها الشمس ، وسابعها زحل ، ومن ورائها كرة النجم الثوابت ، أو فهم الليل فى (وأغطش ليلها) على أنه ليل الأرض لا ليل السماء عامة فوق جو الأرض وغلافها الهوائى ، وفهم الضحى فى (وأخرج ضحاها) على أنه ضحى الأرض لا ضحى السماء ، ونور الشمس وحدها لا نور نجوم السماء أيضاً - لو فهم قوله تعالى : (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ؟ رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ٢٧ - ٢٩) ذلك الفهم الخاطىء ، كان ما فهمه رغم مخالفته للواقع ولحقيقة معنى الآيات الكريمة كافيا لأن يقنعه ، إن كان يعقل أمر خلقه هو ، أن الله الذى أنشأ السماء ولو على هذه الصورة التى تصورها ، قادر على أن يخلقه هو مرة أخرى بعد موته ، ليحاسبه على ما فعل فى حياته الدنيا بعد ما حذره وأنذره فى كتابه العزيز .

وقبل أن نشرع فى تأمل ما لم يسبق لنا تأمله من آيات سورة النازعات ، يحسن أن ننبه إلى يقينية هى عند المسلم أشبه ببديهية ، ألا وهى أن فطرة الكون والقرآن الكريم كليهما من عند الله . وإذن فأقل ما ينبغى للقرآن عند متأمله من أهله أن يقف منه موقف علماء الفطرة من الفطرة . فلا يتراخى فى استنباط ، ولا يستكثر نتيجة يؤدى إليها المنطق الصارم وإن عظمت ، ولا يهمل إشارة من إشاراته وإن دقت ، متذكرا أن التناقض مستحيل فى الفطرة وفى القرآن وفيما بينهما ، ومستأنسا بقول للفخر الرازى رحمه الله أصاب فيه كل الإصابة « ما من حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ، ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا » .

بناء وبنيان

فلنستعن بالله ولننظر فيما بقى من آيات سورة النازعات فى ضوء الآيات القرآنية التى نزلت قبلها وبعدها ، وضوء الحقائق التى هدى الله بها علماء الفلك الحديث .

للفعل (بنى) فى قوله تعالى (بناها) خمسة مصادر ذكرها القاموس ، لم يرد منها فى القرآن الكريم إلا مصدران هما (بناء) و (بنيان) . لكن الذى يستلفت النظر أن (بناء) لم يرد إلا متعلقا بالسماء وذلك فى قوله تعالى : (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ـ غافر ٦٤) و (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ـ البقرة ٢٢) . أما (بنيان) فلم يرد إلا متعلقا بما يبنى الإنسان فى الأرض ، وذلك فى قوله : (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ـ الصافات ٩٧) ، وقوله (إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ـ الكهف ٢١) وقوله (فأتى الله بنيانهم من القواعد ـ النحل ٢٦) وقوله (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ـ الصف ٤) وقوله (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان

خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم - التوبة ١٠٩ و ١١٠) فى قصة مسجد الضرار .

فمادة (بنى) لم ترد على صيغة الاسم فى القرآن الكريم إلا فى سبع سور أربع مكية وثلاث مدنية ، وفى كل مجموعة ، أى فى كل من العهدين المكى والمدنى ، خصت السماء بالاسم (بناء) وخص ما يعهده الإنسان فى الأرض بالاسم (بنيان) .

واختصاص السماء فى كتاب الله بأحد الاسمين ، وما يبنى على الأرض بالاسم الآخر ، على تعدد المواطن ، أمر له دلالته ، وإشارة دقيقة إلى أن هناك فرقا بين طبيعة بناية السماء وطبيعة البنيان فى الأرض . والفرق فيما يبدو لأول وهلة أن البناية فى الأرض متلاحمة الأجزاء ، لبنة إلى جنب لبنة ، أما السماء فلبناتها الكواكب والنجوم وما إليها ، وليس فيها نجم يمس نجما ، ولا كوكب يمس كوكبا ، والمسافات بينها حتى فى رأى العين بعيدة مترامية ، وهى فيما عرفه العلم وقدره أبعد وأعظم من كل ما يخطر للإنسان على بال ، حتى النجوم المزدوجة المعروفة بالتوائم قد كشف العلم أن النجم منها هو فى الواقع نجمان يدور أحدهما حول الآخر دورة فى حقبة متطاولة من الزمن على بعد المسافة بينهما . فالأقرب القنطورى مثلا ، أقرب النجوم إلينا بعد الشمس ، يفصل بين نجميه نحو ألفى مليون ميل ، وتتم الدورة بينهما فى نحو ثمانين سنة ، كأنما هما جسم واحد يدور حول محور له يمر بمركز الثقل بينهما ، وكل منهما من حيث الكتلة مثل الشمس تقريبا .

القرآن والقوانين الفلكية

ولا يشك علماء الفلك فى أن الرابط بينهما وبين نجمى كل توأم مثلهما ، هو تجاذبهما طبق قانون الجاذبية العام ، الذى هدى الله « نيوتن » إلى الكشف عنه . من قبل ، بناء فى أول الأمر على قوانين « كبلر » الثلاثة المبنية على ما كان

تجمع على يد الفلكى «تيخو براهى» من الأرصاد الكثيرة الدقيقة لحركات السيارات حول الشمس. والأولان من القوانين الثلاثة بسيطان، سهل فهمهما وتصورهما. فالقانون الأول يقول «إن مسار كل سيار حول الشمس قطع ناقص، الشمس فى إحدى بؤرتيه». والقانون الثانى يقول «إن كل سيار يتحرك فى مساره بحيث إذا تصورنا خطاً واصلا من مركز السيار إلى مركز الشمس فإنه يكنس مساحات متساوية فى الأزمنة المتساوية»، وهذا من أعجب سنن الله سبحانه وتعالى فى حركة هذه الكواكب التسعة التى منها الأرض. وهى، ومثلها إن ظهر، المقصودة لا شك بقوله تعالى فى سورة التكوير (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس - ١٥ و ١٦) بتشديد النون فى الكلمتين الكريمتين. (وقد أشرنا إلى هاتين الآيتين من قبل).

والقسم يلفت الله به عباده إلى ما أودعه من أسرار قدرته وحكمته التى كشفت عن بعضها قوانين كبلر وتضمنتها الأوصاف العجيبة فى الآية الكريمة. فهى (الجوارى) . . والكلام يطول فى دلالة التعريف والاشتراك فى هذا الوصف بينها وبين الفلك فى قوله تعالى (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام - الشورى ٣٢) وقوله (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام - الرحمن ٢٤).

وهى (أى الخنس) كلما أشرقت، عادت فغربت، وكلما غربت عادت فأشرقت. وكلما اقتربت من الشمس فى دورة، أسرعت حتى تبتعد عنها، وكلما ابتعدت عادت حتى تقترب، وكلما مر أحدها بنقطة فى مساره أو فلكه، رجع إليها مرة أخرى، بعد أن يتم المدة الثابتة، التى قدرها الله له فى الدورة الواحدة، أى بعد أن يتم سنته التى يختلف طولها باختلاف بعد السيار عن الشمس. فمدة دورة الأرض حول الشمس من نقطة ما فى مدارها حتى تعود إليها هى عام من أعوامنا. لكن السيارين الأقرب إلى الشمس (عطارد والزهرة) عاماهما أقصر من عام الأرض لأن قربهما من الشمس يجعل حركتهما حولها أسرع. فعام عطارد ربع عام الأرض تقريبا (٠,٢٤) وعام الزهرة ٢٢٥ يوما

من أيامنا . أما السيارات الأبعد عن الشمس من الأرض فعامها أطول من عام الأرض بما يتناسب مع أثر البعد فى تبطىء الحركة وتطويل المدار . فالمريخ سنته عامان من أعوامنا تقريبا (١,٩) والمشترى سنته اثنا عشر عاما تقريبا (١١,٩) وزحل سنته ثلاثون عاما ، وأورانوس ٨٤ عاما ، ونبتون ١٦٥ عاما وبلوتو ، أبعد السيارات عن الشمس ، سنته ٢٥٠ عاما .

ثم هى كما وصفها الله (الكنس) . وقد اكتسبت الكلمة القرآنية معنى جديدا من قانون كبلر الثانى ، لأن خط ما بين كل منها وبين الشمس يكنس أو يمسح من قطعه الناقص مساحات متساوية فى الأزمان المتساوية . فمهما غيرت الزمن اعتباريا بالزيادة أو النقص فإن المساحة التى يكنسها أو يمسحها الخط تزيد تبعا لذلك أو تنقص ، ولكن دائماً بحيث إذا ثبت مقــدار الزمن الاعتبارى ، وإن صغر ، ثبت مقدار المساحة المكنوسة بالخط الاعتبارى الذى سيكون دائما فى تغير بالطول أو القصر ، حسب تغير وضع السيار فى فلكه حول الشمس . فسبحان الله الذى خلق تلك الكواكب ، وأودعها كل هذه الآيات الدالة على قدرته وحكمته ، ثم أودع آيات الخلق هذه كلها ثلاث كلمات من محكم كتابه .

قانون الجاذبية

جاء نيوتن فى القرن السابع عشر فوجد أمامه قوانين كبلر الثلاثة ، وقوانين الحركة التى كشفها جاليليو ، وأحكمها وأحسن صياغتها نيوتن نفسه فصارت تنسب إليه ومنها القانون القائل « إن كل فعل له رد فعل يساويه فى المقدار ويضاده فى الاتجاه » فبنى على ذلك وعلى بعض مشاهداته وحساباته قانون الجاذبية العام الذى يقول « إن كل جسم فى الكون وإن صغر يجذب كل جسم آخر بقوة تتناسب طرديا مع حاصل ضرب كتلتى الجسمين ، وعكسيا مع مربع المسافة بينهما » . وهو قانون يبدو أعم من اللازم . يبدو أعم كثيرا من الأساس الذى بنى عليه ، إذ لم يكن أمام نيوتن إلا التجاذب بين الشمس وكل

من السيارات الستة التى كانت معروفة حينذاك ، والتجاذب بين الأرض والأجسام التى عليها ، ثم التجاذب بين الأرض والقمر الذى طبق هو القانون عليه فانطبق ، أى وجد رياضيا من حركة القمر حول الأرض والمسافة بينهما وأبعادهما أن القوة ، التى تشد القمر إلى الأرض فلا يغادر مداره حولها ، هى نفس القوة التى تجذب الأجسام إلى الأرض ، وتسبب سقوطها عليها من علٍ. فأوحت إليه عبقريته ألا فرق بين مادة ومادة ، أى ليس لنوع المادة تأثير ، فهذا هو أساس تعامل الناس بالموازين ، وألا فرق بين صغير المادة وكبيرها ، فالكل يتجاذب وإن لم يظهر إلا أثر الكبير كالأرض فى الصغير كالأجسام التى عليها.

ولم يقبل العلماء من نيوتن القانون على عمومه ، من غير اختبار دقيق له ، فى ظروف تسمح بقياس أثر التجاذب بين كرة كبيرة ذات كتلة معروفة من الرصاص ، وكرة صغيرة ذات كتلة معروفة من الذهب ، مع كل احتياط لازم للحيلولة دون تأثر الكرتين أثناء التجربة بغير التجاذب بينهما إن كان ، وهى تجربة مشهورة فى عالم الطبيعة أجراها كافندش وصدقتها تجربة أبسط وأدق أجراها بويز ، فثبت بالتجربة الجزء المستغرب من القانون ، وهو تجاذب الأجسام الصغيرة نسبيا طبق نص القانون فى أثر الكتلة والمسافة .

أما فى الأجرام السماوية فقد ثبت القانون بصورة لعلها أعجب وأبهر ، إذ أدى الاهتداء به إلى الكشف عن السيار أورانوس سنة ١٧٨١ ثم عن نبتون سنة ١٨٤٦ ، وأخيرا عن بلوتو سنة ١٩٣٠ ، ولم يكن هذا ممكنا ، لولا الاهتداء بقانون الجاذبية من ناحية وتقدم وسائل الحسابات الفلكية من ناحية أخرى .

ولنعد الآن إلى ما كنا بسبيله من التماس أسرار بناء السماء فى قوله تعالى (والسماء بناها) من سورة النازعات ، بعد هذا الاستطراد الذى لم يكن منه بد على طول فيه ، من غير استيفاء ما كنا نرد أن يتسع المقام له . إن كلمة (بناء) بالنسبة للسماء من أعجب الاستعارات لأنها وإن خالفت البنيان فى الأرض للتباعد والعظيم بين الأجزاء فقد تحقق فيها أهم مميزات البنيان من ترابط ما بين

الأجزاء بالجاذبية بحيث يشد بعضها بعضا كما فى الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وهنا لعلك تعجب من استعمال النبى صلى الله عليه وسلم كلمة (بنيان) لا (بناء) للمعنى المعروف لأهل الأرض كما فى القرآن الكريم تماما ، ثم من دقة الشبه بعد ذلك بين قوى التشاد والتضاغط فى البنيان فى الأرض ، وقوى التجاذب بين الأجرام فى السماء من حيث التساوى فى المقدار والتضاد فى الاتجاه بين القوى المتبادلة . فكل شد وضغط فى بنيان الأرض ، يقابله شد وضغط مثله مقداراً وضده اتجاها ، بحيث لو زاد أحدهما زاد الآخر بنفس المقدار ، كأن يزيد ضغط السقف على الجدار بزيادة الحمل فيزيد دفع الجدار السقف إلى أعلى حتى التعادل ، فإن عجز تشقق الجدار أو انهار .

وكذلك قوى التجاذب بين أجرام المجموعة الشمسية مثلا تزيد وتنقص حسب تغيرات المسافة ، على الأخص بالاقتراب من الشمس أو الابتعاد عنها فاذا اقتربت زادت حركتها حتى لا تسقط فيها وإذا ابتعدت بطأت حركتها حتى لا تفلت منها . تلك هى سنته سبحانه التى يمسك بها السموات والأرض أن تزولا عن مواطنهما التى قدر الله لها . (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ـ فاطر ٤١) .

واللطيف البديع أن كبير المفسرين المحدثين الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فسر بناء السماء طبق قانون الجاذبية (راجع صفحة ٢٦١ وفصل السماء فى القرآن ـ ١ ـ) فكان ذلك منه فتحا فى التفسير ، وفتوى علمية تبيح تفسير الآيات الكونية فى القرآن طبق ما ثبت أو يثبت على أيدى علماء الفطرة من الحقائق الخاصة والسنن العامة ، لا كما يريده بعض من يخشى على القرآن ، أو يخشى منه ، يخشى عليه من سوء التطبيق والخطأ فيه ، أو يخشى منه إذا ثبت فى عصر العلوم هذا تمام التطابق بين الحقائق الكونية وما يتصل بها من آيات القرآن فيهزم الإلحاد ويدخل الناس مرة أخرى فى دين الله أفواجا .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسير (بناها) من آية سورة النازعات : البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يتكون

منها بنية واحدة ، وهكذا صنع الله بالكواكب وصنع كلا منها على نسبة من الآخر مع ما يمسك كلا فى مداره ، حتى كان منها عالم واحد فى النظر ، وسمى باسم واحد هو السماء التى تعاونا . فقوله « صنع كلا منها على نسبة من الآخر » إشارة إلى تقدير نسب المسافات ثم الكتل . وكنى عن الحركة والجاذبية بقوله « مع ما يمسك كلا فى مداره » لكنه صرح بها فى تفسير قوله تعالى (والسماء وما بناها ـ الشمس ٥) إذ يقول « وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون الذى فوقك ، فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها وتتحرك فى مداراتها . هذا هو السماء وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط به ، وتشد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به » .

وليس فى قول الإمام محمد عبده ما يلاحظ إلا كلمة (الكواكب) استعملها لتشمل النجوم والسدائم ، وفى القرآن الكريم إشارات تفرق بينها فى الدلالة. وإشارات القرآن لها أهميتها القصوى كالإشارات فى الفطرة تماما ، إذ كل من عند الله ، فلا يمكن أن تأتى إشارة أيهما (القرآن والفطرة) عبثا . وعلماء الفطرة يتتبعون إشاراتها ويوجهون بحوثهم حيث تشير . فينكشف لهم بها من أسرار الفطرة ما ينكشف . وعلى أهل القرآن أن يفعلوا مثلهم فى إشارات القرآن ، ليظفروا من أسراره بمثل ما ظفر ، أو يظفر به ، أولئك من أسرار الفطرة .

والمهم الضرورى فى تفهم القرآن الكريم ، وتطلب غرائبه كما أمر الرسول ، أن يحترز كل الاحتراز من فهم يؤدى إلى تعارض بين الآى ، أو بين شىء منها وبين اليقينى الثابت من حقائق الكون ، دون المحتمل والراجح من فروض العلم ونظرياته .

وليس من تعارض الآى أن تفهم (الكواكب) فى قوله تعالى : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ـ الصافات ٦) ، بغير ما تفهم به (مصابيح) فى

قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ـ الملك ٥) ، فكل منهما تنبه إلى آية أو آيات لله فى الخلق غير التى تنبه إليه الأخرى . ويكفى فى تبين الفرق بينهما الوجه الذى جاء عليه المفرد من كل فى قوله تعالى : (المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ـ النور ٣٥) فالمصباح سراج متقد فى العرف ، وبدلالة قوله تعالى : (يوقد من شجرة مباركة زيتونة) فى نفس الآية الكريمة ، والزجاجة لا تتقد ، ولكن عند صفائها تعكس وتشع بضوء المصباح ، وتتلألأ كأنها كوكب ، فالكوكب المشبه به زجاجة المصباح فى الآية لا يضىء بذاته ، ولكن بما يعكس ويشع به من ضوء ما هو متقد كالمصباح من أجرام السماء ، كالقمر والسيارات ، حيث تعكس ضوء الشمس التى هى نجم لا كبير ولا صغير بين النجوم . فالمصابيح إذن فى آية سورة الملك هى النجوم ، والكواكب فى آية سورة الصافات هى سيارات المجموعة الشمسية وأقمارها ، وما قد يكشف عنه الرصد من مثلها .

السديم

أما السديم فلم يرد باسمه فى القرآن الكريم ، ولكن بصفته من أنه كتل هائلة من أجسام دقيقة حارة ، بعضها غاز ، وبعضها بخار ، وبعضها مضىء ، وبعضها معتم ، وبعضها مظلم ، وكل ذلك دل عليه القرآن الكريم ببعض كلمات فى قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان ـ فصلت ١١) فقد جمع الله لعباده أهم صفات السديم فى كلمة واحدة هى (دخان) . والسديم فى اللغة (الضباب الرقيق) كما فى القاموس ، وقد ترجمت به كلمة Nebula فى العلم ، فلو جاءت كلمة سديم بدل دخان فى الآيات لما دلت إلا على المعنى اللغوى ، وهو الضباب ، والضباب أكثره بخار ماء ، وليس كذلك السديم الفلكى . ثم لما دلت على ما يدل عليه الدخان من حرارة ، وهى من أهم صفات السديم فى الفلك .

فانظر كيف جىء بلفظ بدل لفظ ، وكلاهما عربى ، فكان فى اللفظ المختار معجزة علمية ، ثم كان فى الإخبار بأن السماء كانت من قبل دخانا

كلها ، قبل أن تتطور إلى ما تطورت إليه . معجزة علمية أكبر ، تشهد لما يعتقده المحدثون من علماء الفلك ، من أن السدائم الهائلة المشاهدة اليوم على بعد مئات الألوف أو ملايين السنين الضوئية ، هى بقايا ما كان عليه الكون فى الأول ، قبل أن يمر فى الأطوار التى صار بها إلى ما هو عليه الآن. ويعتقد علماء الفلك أن القوة التى تحول بها سديم الكون إلى ما عليه الكون اليوم هى قوة الجاذبية العامة فى المادة السديمية .

ولو أنهم تتبعوا عقيدتهم هذه إلى نتيجتها المنطقية حسب قواعدهم التى قعدوها فى العلم ، لوصلوا حتما إلى الله خالق الكون ومدبره . إنه لا نهاية لاحتمالات التجاذب فى سديم الكون وما ينتهى إليه . فاحتمال أن يتخذ التجاذب الطريق المؤدى إلى الأطوار التى مر بها الكون السديمى إلى أن صار إلى ما نراه عليه ، هذا الاحتمال هو واحد أو أى عدد متناه محدود مقسوما على مالا نهاية ، وهذا هو الصفر الرياضى . فاتخاذ ذلك الطريق إذن من بين الطرق المحتملة التى لا نهاية لعددها قد كان لا بد بتوجيه وتدبير وأمر خالق حكيم قادر إلى آخر صفات الجلالة التى لله سبحانه وتعالى. وقد دل القرآن الكريم على هذا وأكثر بقوله تعالى فى سورة الذاريات (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ـ ٤٧) .

والأيد فى اللغة القوة ، والتنكير للتعظيم . وقد سمى علماء الفلك تلك القوة التى لايعرفون لها تفسيرا بالجاذبية العامة . وفى قوله تعالى (وإنا لموسعون) موضوع لكلام كثير فيما يسميه علماء الفلك « تمدد الكون » .

الفصل الخامس

الظواهر الجوية فى القرآن

إن الظواهر الجوية لقيت تنويهاً كثيراً فى القرآن الكريم ، ولم يكن بد من أن يكون ما ورد فيها من الآيات مجملا ، إذ التفصيل غير ممكن ، ولو أمكن لما فقه العقل حين نزل القرآن منه شيئاً ، بل لقام حائلا دون قبول العقل إذ ذاك رسالة القرآن . والعقل لا يزال فى حيرة من حقيقة كثير من تلك الظواهر ، فقد وجد الإنسان أن الجو من أعوص المشاكل وأن دراسته من أصعب الأمور ، وصعوبتها ليست راجعة فقط إلى تعقد مسائله ، ولكن إلى ضرورة توحيد جهود الأمم فى القيام بتلك الدراسة لأنها تتعلق بظواهر عامة تشمل الأرض بأسرها لا إقليما خاصا منها ، كالرياح ونشوئها وتصريفها ، والسحاب ونشوئه وتسخيره ، فإن الرياح التى تهب على بلد ، أو السحب التى تصب ماءها فيه ليست مناشئها فى ذلك البلد ، ولكن فى خارجه من الأقطار القريبة أو البعيدة . وإذا كان الإنسان قد عرف بصورة عامة العوامل التى تتسبب عنها الرياح فإن تحليل أى ريح معينة إلى عواملها الخاصة من الناحية الكيفية ، بله من الناحية الكمية ، من أصعب الأمور . وهذا التحليل حين يمكن لا يتحقق إلا بواسطة معلومات شتى يحصل عليها الإنسان بأرصاد شتى فى أقطار شتى . والأرصاد الجوية إذا أمكنت بانتظام قريبا من سطح الأرض ، فالقيام بها بانتظام بعيدا عن سطح الأرض فى المناطق العليا من الجو لما يصبح فى مقدور الإنسان ، وإن كان الإنسان الآن فى طريقه إلى التمكن منها .

والمناطق العليا من الجو هى مجال تلك الظواهر الجوية التى نوه بها القرآن وحث الإنسان على تفهمها . فكأن الإنسان لا يزال من دراسة تلك الظواهر فى أول الشوط ،

فهو يدرى قليلا أو كثيرا عما يجرى قريبا منه على وجه الأرض ، لكنه لا يكاد يدرى شيئا عما يجرى بعيدا عنه فى أعلى الجو ، وإن كان يرجو أن يكون ما يدريه سببا إلى ما لا يدريه ، وأن تكون الخبرة التى اكتسبها فى دراسة الجويات السفلية دليلا إلى الطريق التى يصل بها إلى دراسات الجويات العلوية . فإنسان اليوم كإنسان الأمس لا يزال يخاطبه القرآن ويستحثه إلى استكناه تلك الظواهر الجوية ، وهو يحاول استكناهها الآن بعدة طرق مستحدثة منها الأقمار أو القميرات الصناعية .

على أن الإنسان وإن كان فى أول الشوط من معرفة تلك الظواهر فقد وصل منها إلى شيء مذكور ، وهو إن لم يكن تفسيرا مفصلا للآيات الكونية الواردة فى الرياح والسحاب وغيرهما ، فهو تفسير مجمل يحوى إشارات إلى أمهات الحقائق الجوية التى كشف عنها العلم حديثا . ولنمهد لذلك بشرح مختصر لكيفية تكون السحاب والمطر والبرد والرعد والصواعق :

السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولا بد لتكون السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار ، والثانى أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه أن يبرد تبريدا كافيا ، لكن من الواضح أنه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر . فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الأساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد لأنه يتمدد أثناء صعوده ، ويزداد تمدده كلما صغر الضغط

بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ، فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معا حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحبا عظيمة قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو ، وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ، ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين ، دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة فى الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينهما عند محتكهما ، ويكون السحاب عندئذ متموجا لتموج الهواء عند ملتقى الريحين . وللرياح دخل عظيم فى تكوين السحاب وتوزيعه ، لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقين: طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ، لأن أعالى الجبال الشامخة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال ، هذا طريق ، والطريق الثانى طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود

إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال .

لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفى وحده فى تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغا عظيما ، بخلاف ما إذا كان فى الهواء مايتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلا عن درجة التشبع . أو درجة (الندى) كما يسمونها . وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هى كل ما يتكاثف عليه بخار الماء فى الهواء ، ولو كانت هى كل ما يمكن أن يصلح نوى لقطيرات الماء فى الهواء فوق المتشبع لعز تكون السحاب ، ولاقتصر على المناطق التى يكثر فى أجوائها العليا هذا الغبار ، لكن الذى قدر الأشياء وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء جعل مما يتكاثف عليه البخار فى أعالى الجو أشياء أخرى غير الهواء ، هى الذرات والجزيئات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات ، أوالأويلبات ، جمع الأويلب تصغير آلب من الفعل ألب بمعنى ساق وجمع واجتمع وأسرع كما فى القاموس .

وعوامل أولبة أو تأيين الهواء ، أى تكوين الأيونات أوالأويلبات فيه ، متعددة : منها النيران ، فإن النار فيها غازات محملة بالنوعين الموجب والسالب ، ومنها الضوء ، فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أينته أو أولبته ، فيتكون فى مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات . ومنها الأشعة النفاذة الجيمية التى تخرج من العناصر الشعاعة الموجودة فى القشرة الأرضية ، أوالأشعة النفاذة الكهربائية المصدر المعروفة بأشعة رنتجن . ومنها احتكاك الماء فى البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض ، وبالساحل أو بالصخور ، فقدعرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك . والبخار الذى يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء بعضها أو كلها إلى الطبقات العليا الجوية . وكل جزء من جزيئات هذا البخار المكهرب كغيره من الأيونات يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار .

فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود فى الطبقات العليا الجوية سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار إذا تجاوز الهواء درجة التشبع ولو قليلا بالتبريد .

المطر

لكن تكون السحاب لاينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبعا للجاذبية ، فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ماسقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية . وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

الرياح والجبال والكهربائية الجوية

والرياح كما لها أبعد الأثر فى تكوين السحاب لها أبعد الأثر فى تكثيفه مطرا بفعل الجبال أو بفعل الكهربائية الجوية . فأما الجبال فإنها مكثفات هائلة نصبها الله لتكثيف السحاب من الجو إذا حملته إليها الرياح . لكن السحاب إذا لامس أعالى الجبال الباردة ، سواء أكان متكونا عليها أو محمولا إليها تكاثف على سطحها ماء بالتجمع وبالتبريد ، ومن هنا كانت الأنهار منابعها كلها من الجبال . وإلى هذا كله تشير الآية الكريمة التى من الله فيها بالجبال من هذه الناحية على الإنسان إذ يقول سبحانه (ألم نجعل الأرض كفاتا ، أحياء وأمواتا ، وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ـ المرسلات ٢٥ ـ ٢٧) . وأظنك الآن تدرك بعض سر ترتيب سقيا الناس الماء على شموخ الجبال ، وإذا تذكرت أن هذا الماء كله مصدره البحار المالحة أدركت سر وصف الماء هنا بالفرات .

والكهربائية التى تتولد فى الهواء والتى ذكرنا لك بعض مصادرها يكتسبها السحاب عند تكونه على الأيونات أو الأويليات التى تحملها هذه فى الطبقات العليا الجوية ، وأنت تعرف أن نوعى الكهربائية يتجاذبان ، وأن الموجب والموجب أو السالب والسالب يتدافعان . أو يتنافران كما تشاء أن تقول ، هذا التدافع أو التنافر من شأنه تفريق السحاب ذى النوع الواحد . لكن الله سبحانه قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة وقد كانت قبل سحابتين أو أكثر ، وتكبر شحنتها الكهربائية ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قربا كافيا . فى اتجاه أفقى أو فى اتجاه رأسى أو فيما شاء الله من الاتجاهات ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد فى كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما بهدوء ، أو من اتحاد كهربائيتهما من بعد ، وعندئذ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية هى البرق الذى كثيرا ما يرى فى البلاد الكثيرة الأمطار .

والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائى، سواء حدث فى هدوء أو بالإبراق . فإذا حدث بهدوء حدث بين القطيرات المختلفة فى السحابتين ، فتجذب كل منهما قرينتها أو قريناتها حتى تتحد وتكون قطرة فيها ثقل فتنزل ، وتكبر أثناء نزولها بما تكتسب من كهربائية وما تجتذب من قطيرات أثناء اختراقها السحاب المكهرب الذى يكون بعضه فوق بعض فى السحاب الركام . أما إذا حدث الاتحاد الكهربائى فى شدة البرق وعنفه فإنه يحدث لا بين القطيرات ولكن بين الكتل من السحاب . ويسهل حدوثه عند تخلخل الهواء أى قلة ضغطه فى تلك الطبقات .

والبرق يمثل قوة كهربائية هائلة تستطيع أن تكون فكرة عنها إذا عرفت أن شرارته قد تبلغ ثلاثة أميال فى طولها أو تزيد ، وأن أكبر شرارة كهربائية أحدثها الإنسان لا تزيد عن بضعة أمتار . فالحرارة الناشئة عن البرق لا شك

هائلة : فهى تمدد الهواء بشدة وتحدث مناطق جوية عظيمة مخلخلة ، الضغط داخلها يعادل الضغط خارجها ما دام الهواء داخل المنطقة ساخنا ، حتى إذا تشععت حرارته وبردت تلك المناطق برودة كافية ، وما أسرع ماتبرد ، خف منها الضغط وصار أقل كثيرا من ضغط الطبقات الهوائية السحابية المحيطة بها فهجمت عليها فجأة بحكم الفرق العظيم بين الضغطين وتمددت فيها وحدث لذلك صوت شديد هو صوت الرعد وهزيمه أو هديره ، هذا الصوت قد يكون صدى الرعد بين كتل السحاب يتردد فنسميه قعقعة الرعد . أما صوت الشرارة الكهربائية البرقية فهو بدء الرعد ، ويكون ضعيفا بالنسبة لهزيمه وقعقعته . لذلك نسمع الرعد ضعيفا فى الأول ثم يزداد كأنما أوله إيذان بتضخمه ، كما قد تؤذن الطلقة المفردة بانطلاق بطاريات برمتها من المدافع الضخمة فى الحروب . فالرعد يحدث، لا عند اتحاد الكهربائيتين حين يحدث البرق فقط ، ولكن يحدث أكثره بعد ذلك عند تمدد الكتل الهوائية العظيمة الهاجمة فى المنطقة المفرغة . وهى إذا تمددت بردت برودة شديدة فيتكاثف ما فيها من البخار ومن كتل السحاب ، فينزل على الأرض إما مطرا وإما بردا ، حسب مقدار البرودة الحادثة فى تلك المناطق ، وهذا هو السبب فى أن الرعد والبرق يعقبهما فى الغالب مطرات شديدة ، سواء أكانت المطرة مائية أم بردية . وقطرات الماء أو حبات البرد تنمو بعد ذلك باختراقها كتل السحاب المتراكم تحت المنطقة التى حدث فيها التفريغ .

البرد

والبرد شأنه عجيب ، لا يدرى بالضبط كيف يتكون ، ولا كيف ينمو حبه حتى يبلغ أحيانا قدر بيض الحمام ، وقد امتحنوا حبته فوجدوها فى الغالب تتكون من غلافات متراوحة من الثلج ومن الجمد تنتهى إلى قلب من الثلج ، والثلج هو بخار قد تجمع وتجمد فجأة ، فكأن البرودة العظيمة التى تنشأ من تمدد السحاب داخل المنطقة المفرغة تحول بخار السحاب ثلجا فى الأول ، ثم يصير هذا

الثلج بطريقة ما بردا صغيرا أو كبيرا . وتعاقب الطبقات الجمدية والثلجية فى حبة البرد يدل على أن الحبة كانت إذا سقطت وتكاثف عليها الماء فى مرورها خلال بعض السحاب عادت فأرغمت على الصعود إلى المنطقةالثلجية مرة أخرى، فتتجمد عليها أولا الطبقة المائية التى كانت حولها ، وتتحول إلى طبقة من الجمد، ثم تلتصق بها طبقة من البخار المتجمد أى الثلج ، ثم تأخذ فى السقوط تارةوفى الصعود أخرى . فإذا سقطت تكونت عليها طبقة مائية وإذا صعدت تحولت هذه إلى طبقة جمدية وتكونت حولها طبقة ثلجية بعد ذلك ، وهلم جرا .

هذا ما يستنتج من تراوح الطبقات الجمدية والثلجية فى البرد . لكن ما هى القوى الهائلة التى تصعد بالحبة مرة بعد أخرى رغم الجاذبية حتى تبلغ حبة البرد ذلك الحجم الغريب ؟ هنا يختلفون وحق لهم أن يختلفوا . فبعضهم يرى أنها قوى آلية مرجعها إلى تيارات هوائية عنيفة تدفع بالبرد برغمه إلى الطبقة الثلجية ، حتى إذا نمت وضعف التيار بصعوده سقطت الحبة إلى الطبقة المائية فيلقاها التيار القوى فيصعد بها وهلم جرا ، حتى يعجز عن حملها التيار الهوائى الصاعد فتسقط هاوية إلى الأرض . وبعضهم يرى أن القوى ليست قوى آلية هوائية ولكن قوى كهربائية .

إن السحاب يكون ركاما بعضه فوق بعض إلى أعماق عظيمة . وقد تكون طبقاته مختلفة التكهرب ، طبقة موجبة أو سالبة تليها طبقة ضدها وهلم جرا ، أو على الأقل قد يؤول الأمر إلى أن تكون الطبقة الباردة الثلجية مخالفة فى كهربائيتها الطبقة المائية التى تحتها . فلنفرض أن الثلجية كانت سالبة التكهرب والمائية موجبته ، هناك إذا تساقطت بلورات الثلج حتى تبلغ المنطقة الموجبة زالت كهربائيتها وانقلبت موجبة فى طرفة عين ، فدفعتها الطبقة الموجبة وجذبتها السالبة إلى أعلى فتنقلب كهربائيتها إلى سالبة فتندفع إلى أسفل حتى إذا بلغت الطبقة المائية الموجبة انقلبت كهربائيتها مرة أخرى وانجذبت إلى أعلى ، ولا تزال هكذا تتذبذب فى الاتجاهين ساقطة صاعدة ، وفى كل مرة تتكون

حولها طبقة من جمد أو ثلج ، حتى تثقل إلى حد تعجز القوتان الكهربائيتان معه أن تتقاذفاها هكذا ، فتهوى إلى الأرض برداً كبيراً قد يهلك الزرع إن لم يهلك الناس .

وبعبارة أخرى يرى هذا الفريق أن الحالة الجوية الكهربائية السابقة على العواصف البردية تكون من التقلب والتعقد والشدة ، بحيث يصبح من السهل معها أن تتذبذب طبقة مائية بين طبقتين من السحاب المتراكب مختلفتى التكهرب والبرودة . فإذا صعدت أو هبطت تكونت عليها طبقة من الجمد أو الثلج حتى يؤذن لها بالسقوط .

والكهربائية الجوية على أى حال هى من أساس الرأيين لأن تلك التيارات الهوائية التى يتكلم عنها الرأى الأول لا بد أن يكون للكهربائية الجوية شأن فى تكوينها .

الصواعق

وقد يحدث التفريغ الكهربائى بين السحاب والأرض ، بدلا من بين السحاب والسحاب ، وهذا يكون عادة إذا كان السحاب عظيم الكهربائية قريبا من الأرض، فإذا حدث التفريغ ظهر له كالعادة ضوء وصوت يسمى مجموعهما بالصاعقة ، أى أن الصاعقة تفريغ كهربائى بين السحاب والأرض ، إذا أصاب حيوانا أو نباتا أحرقه ، وهو يحدث أكثر ما يحدث بين الأجسام المدببة على سطح الأرض من شجر أو نحوه وبين السحاب ، ولذا كان من الخطأ الاستظلال بالشجر أو المظلات فى العواصف ذات البرق .

على أن الإنسان قد استخدم سهولة حدوث التفريغ بين الأجسام المدببة والسحاب لوقاية الأبنية من الصواعق ، وذلك بإقامته على سطوحها قضبانا حديدية أو نحاسية مدببة الأطراف بحيث يكون طرف القضيب المدبب أعلى قليلا من أعلى نقطة فى البناء، والطرف الآخر متصلا بلوح فلزى مدفون فى أرض

رطبة . ومن شأن الأطراف المدببة أن يكون كل منها بابا تخرج منه الكهربائية المتجمعة على السطح تدريجيا إلى السحاب الذى يظله ، فيحدث التفريغ أى الاتحاد بين كهربائية الأرض وكهربائية السحاب تدريجا فيمتنع ذلك التفريغ الفجائى المعروف بالصاعقة .

على أنه إذا نزلت الصاعقة بالبناء رغم ذلك فالأرجح جدا أنها تصيب القضيب المدبب أول ما تصيب ، وتنصرف الكهربائية إلى الأرض بدلا من أن تدك البناء . ولذا يسمى مثل هذا القضيب المدبب الواصل إلى الأرض بصارفة الصواعق . وقد وجدوا أن السطح الخارجى للقضيب هو الطريق الذى تمر به الكهربائية إلى الأرض ، لذلك كلما كان هذا السطح أكبر كان الصرف أعظم والبناء أحسن ولذا كانت الصفائح أفعل فى حفظ الأبنية من مثل كتلتها من الأسلاك .

آية فاطر

ولننظر الآن فى ضوء هذا الشرح الذى كان لا بد منه إلى الآيات الكونية القرآنية الواردة فى هذا الصدد ـ ولنبدأ بالآية ٩ من سورة فاطر (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور) . إذا قصرنا نظرنا على ما يتعلق منها بالرياح والسحاب وجدنا فى كلمة (تثير) فى موضعها من الآية إشارة لطيفة إلى أثر الرياح فى تكوين السحاب . والإنسان إذا قرأ أمثال هذه الآية ينصرف ذهنه إلى حمل الرياح السحاب من بلد إلى بلد ، فهو يفرض أن السحاب دائما موجود ليس فى حاجة إلا إلى أن يحمل . وحمل الريح السحاب من مكان إلى مكان أمر فى غاية الأهمية طبعاً ، لكنه مشار إليه فى الآية بكلمة (فسقناه) ، إذ أينما كان السحاب فإن انتقاله ، أيا كان ، داخل كله فى معنى السوق ، وإذن فلا بد أن يكون المعنى المعبر عنه بكلمة (فتثير) غير المعنى المعبر عنه بكلمة (فسقناه) .

وإذا رجعنا إلى القاموس وجدنا من معانى مصدر (ثار) السطوع ، ونهوض القطا والجراد ، وظهور الدم . . . وأثاره واستثاره غيره . فمعانى الإثارة المقابلة لهذه المعانى الثلاثة بينها معنى واحد مشترك وهو الإظهار . فالريح إذن تظهر السحاب بعد خفائه ، ثم يسوقه الله حيث يشاء ، وهذا الإظهار ينبغى أن يكون غير الإظهار الناتج عن السوق من مكان بعيد خاف إلى مكان قريب ظاهر للعين ، وذلك أولا لما ذكرناه قبل من أن هذا داخل فى معنى السوق ، وثانيا لأن الإظهار بهذا المعنى نتيجة للسوق ينبغى ألا يتقدم ذكرها عليه إذ تقديمها يكون قلبا للوضع الصحيح ، وذكر للنتيجة قبل المقدمة ، بل يكون فى الآية ترتيبا للمقدمة على النتيجة ، وهذا غير معقول لأن الآية رتبت السوق على الإثارة ولم ترتب الإثارة على السوق .

فيجب إذن أن نستبعد الإظهار الناتج عن تغيير مكان السحاب من بين معانى إثارة الرياح السحاب ، وإذن لا يبقى هناك إلا إظهار واحد يجب أن تحمل عليه الإثارة هو إظهار التكوين أى تسبيب التكاثف ، وإذا تذكرت أن السحاب هو بخار كان قبل كامنا فى الهواء غير المشبع أو فى الهواء فوق المشبع الخالى من الأيونات أو الغبار . ثم ظهر بالتكاثف لما انقلبت حالة الهواء من حيث التشبع أو من حيث نسبة الأيونات فيه ، وتذكرت أن هذا الانقلاب لا يكون إلا بفعل الرياح سواء أكان ذلك بحملها البخار إلى المناطق الباردة العلوية ، أو بحملها الغبار والأيونات إلى تلك المناطق ، اتضح لك أن المراد بإثارة الرياح للسحاب هو أثر الرياح فى تكوين السحاب لا فى نقله .

وهذا الأثر شبيه كل الشبه بإثارة الصيد من قطا أو نحوه ، فإن القطا وما إليه مما يصاد من الطير كان خافيا عن العين قبل أن يثار ، فلما أثير ونهض فى الجو ظهر ، مع أنه كان فى الحالين بمكان قريب وبمرآى من الصائد لو استطاع أن يراه . وكل الفرق قبل النهوض وبعده ، أو قبل الإثارة وبعدها ، أن الطير أو الصيد كان كامنا لا يرى رغم قرب مكانه ، فلما أثير واضطر إلى النهوض فى

الهواء رؤى ، كالبخار كان كامنا فى الهواء قبل أن تحمله الرياح إلى مناطق التكاثف فى الجو العلوى . فلما حملته وتكاثف رؤى .

وهذا الشبه الشديد بين كمون القطا وكمون البخار ونهوض القطا بفعل أعوان الصائد وصعود البخار بفعل الرياح ، وظهور القطا بعد نهوضه وظهور السحاب بتكاثف البخار بعد صعوده — هذا الشبه الشديد قرينة قوية أخرى على صحة ما استنتجناه من أن ظهور السحاب بالإثارة غير ظهور السحاب بالسوق . فالسحاب لا يساق إلا بعد أن يوجد وإلى إيجاد السحاب بفعل الرياح وإلى جميع الحقائق المنطوية فى هذا الإيجاد أشار الله سبحانه حين عبر بكلمة (تثير) عن عمل الرياح فى تكوين السحاب .

وفى الآية الكريمة شيء آخر يستلفت النظر . ذلك هو نسبة الإثارة إلى الرياح ، ونسبة السوق إلى الله سبحانه (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت) . صحيح أن الرياح لم تثر السحاب حتى أرسلها الله ، لكنها أيضا كما تثير السحاب تحمله وتنقله . فذلك كله لا يقع إلا بإذن الله وبتقديره . ومع ذلك فقد نسب الله الإثارة إلى الرياح واستأثر سبحانه بالسوق فنسبه إلى نفسه . والإنسان يتبين طرفا من هذه الحكمة إذا تذكر الفرق الكبير فى التقدير بين تكوين السحاب وبين توزيعه وسوقه إلى مكان الحاجة إليه .

فالتكوين لا يحتاج إلا إلى تكثيف وهذا يكفى فيه أن يحمل البخار إلى حيث يمكن أن يتكاثف سحابا فى الجو ، والريح تفعل ذلك فيتكون السحاب فى أى مكان كان ، لكن سوقه بعد تكوينه إلى حيث الناس والأنعام والزرع فى حاجة إليه يحتاج إلى تقدير وتدبير فى توجيه الرياح لا يكاد الإنسان على ما بلغ من العلم يدرى الآن من سرهما شيئا . فمن طبيعة الرياح أن تحمل البخار حتى إذا بلغت به المناطق الباردة تكاثف ، لكن ليس من طبيعة الرياح أن تتجه بالسحاب

إلى حيث تشتد حاجة الأحياء إلى الماء . وإنما الله يوجهها بالسحاب إلى حيث يشاء سبحانه أن ينزل الماء . فهى تثير السحاب لا يهم أين تثيره ، والله يسوقه بها ، أو بها وبغيرها ، سوقا مقدراً لا يدرى الإنسان الآن من سره إن درى إلا قليلا ، وهو مهما درى لا يمكن أن يحيط بسره ، لأن وقوف السحاب بالبلاد بمطرها ليس من الأمور المطردة التى إذا عرفها الإنسان فقد عرفها إلى الأبد ، فكم من بلد يمطر ثم يحرم لا يدرى لم مطر ولم حرم . وإنما الذى من قبيل المطرد من الأمر هو علل تكون السحاب بالتكاثف فى جو السماء . من أجل ذلك نسب الله إثارة السحاب إلى الرياح ، ونسب إلى نفسه إرسال الرياح وسوق السحاب إلى حيث يشاء سبحانه من البلاد . ولا يزال هذان مظهران لإرادته سبحانه يدلان الإنسان مهما أوتى من العلم على أن من وراء هذا الكون إلهاً يدبره .

آية الحجر

ثم لننظر بعد ذلك فى الآية ٢٢ من سورة الحجر (وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين) . ومفتاح هذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال الماء لسقيا الناس على إرسال الرياح لواقح . والناس يحملون وصف الرياح باللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر ، وهذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية ، إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه ، لا إنزال الماء من السماء للناس يشربونه ، أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس . فقد تحتم أن يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك شبيها بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ، كما يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول أو السبب والمسبب .

وما عليك إلا أن تذكر ما قدمنا لك عن تكاثف السحاب مطرا ، وعن أثر كهربائيته فى ذلك التكاثف ، وأثر الرياح فى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية

وكهربائية فى سحاب وسحاب ، لتعلم أن المراد من وصف الرياح بأنها لواقح ليس هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين طلع أعضاء التذكير وبويضات أعضاء التأنيث فى النبات ، ولكن هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب . فالتلقيح (أو فالملاحقة) هنا هى بين قطيرات وقطيرات ، أو بين سحاب وسحاب ، لا بين زهر وزهر ، أو نبات ونبات . والشبه تام بين هذا التلقيح النباتى وذلك التلقيح الكهربائى ، أو بالأحرى ليس هناك تشبيه مطلقاً ، فإن اتحاد الكهربائيتين تلقيح إن كان اتحاد الخليتين تلقيح ، لأنه فى الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين يختفى به الشيئان ويظهر مكانهما شىء آخر غيرهما .

ففى حالة التلقيح النباتى ينشأ من بين الخليتين خلية واحدة لها خواص غير خواص أبيهما . وفى حالة التلقيح الكهربائى ينشأ من بين الكهربائيتين ضوء وحرارة لهما خواص غير خواص الكهربائيتين . فهذا شرط الشبه الشديد للقاح الأحياء قد توفر ، أما شرط ترتيب نزول الماء على تحقيق هذا الإلقاح فقد عرفت توفره من ترتب تكاثف السحاب مطرا على التفريغ الكهربائى للسحاب. فآية الحجر تلك هى مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن تلاقح السحاب وأثره فى نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث ، وهى طبعا مثل رائع من التطابق التام بين العلم والدين فى الإسلام .

آية النور

وآية أخرى أكثر تفصيلا من آية الحجر هى آية النور ٤٣ (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) . ومفتاح هذه الآية الكريمة هو فى قوله تعالى (ثم يؤلف بينه) فقد كان الناس يمرون بهذه الكلمات الكريمة يرونها مجازا من المجازات البلاغية ، وهى حقيقة من أمهات الحقائق الكونية . وهذه الكلمات مفتاح الآية الكريمة لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التى تقوم عليها

تلك الظواهر الجوية كلها ، فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبأ فى الجو تعبئة كتعبئة الجيوش تتفق مع ما يريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق أو صواعق ومن مطر أو من برد .

فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام ، وقد ذكرنا أن عمق الركام فى العواصف الرعدية يكون عظيما . فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض كما هو الغالب نزل المطر الناشىء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات ، وهو الودق . فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية فى ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ، ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ، ومطرية سفلية ، تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل فى أسر تلك القوى فيسقط على الأرض ، رحمة إن كان صغيرا هينا ، ونقمة إن كان كبيرا راجما (فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) .

وليس يدرى الإنسان كثيرا عن الظروف التى يتكون فيها البرد ، ولكنه يدرى أنها ظروف يسودها اضطراب جوى عظيم . هذا الاضطراب قد أشارت الآية إليه وإلى طبيعته إشارتين ، الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذى يتكون البرد داخله بالجبال ، والثانية حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة فى تكوينه بنصها على عظم برقه وشدته ، وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض ، أو ما فوق ذلك (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) .

وهناك آيات أخرى أشارت إلى الطبيعة الكهربائية لتلك الظواهر إشارة من نوع آخر هى آيات سورة الواقعة ٦٨ - ٧٠ (أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون)

وتستطيع بعد أن عرفت العوامل المتعددة التي لابد من تعاونها على تكوين المطر ، أن تدرك شيئا من سر الحجة فى هذا السؤال العجيب (أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) ؟ لكن الإشارة التي أردنا أن نلفت الأنظار إليها هى فى قوله تعالى (لو نشاء جعلناه أجاجا ، فلولا تشكرون) . والناس طبعاً يسلمون بالقدرة الإلهية على قلب العذب أجاجا ، ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ولا يتساءلون هل فى سنن الله ما يسمح بهذا ؟ ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب فى العلم لوجدوه قريباً : ولعرفوا أن عذوبة الماء الذى يسقيهم الله إياه من السحاب هى بمحض رحمة الله . إن الماء طبعاً عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ، ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن ينقلب أجاجا لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه أزوت ، والأزوت كما تعرف أيضاً لا يكاد يتحد فى العادة بشىء ولا بالأكسجين الذى يكاد يتحد بكل شىء ، لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلى أزوت فعال يتحد بأشياء كثيرة فى درجة الحرارة العادية ، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأكسجين بإمرار الشرر الكهربائى فى مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابل للذوبان فى الماء ، وإذا ذاب فيه اتحد به وكون حمضين أزوتيين أحدهما حمض الأزوتيك ، أو ماء النار كما كان يسميه القدماء ، وإليه يصير الحمض الثانى .

وقليل من حمض الأزوتيك فى الماء كاف لإفساد طعمه ، وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذى يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجا من غير خرق لأى سنة من سنن الله الكونية ، فهو نفس الطريق الكهربائى الذى يتكون به المطر ، وكل الذى يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائى ويتكرر فى الهواء . وما يتكون من الأكاسيد الأزوتية يذوب فى ماء السحاب ، ويحوله حمضيا لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضع المن من الله على الناس ، أنه يكيف التفريغ بالصورة التى ينزل بها المطر ولا يؤجج بها الماء . إن شيئا من ذينك الحمضين لا بد أن ينزل فى ماء العواصف ، وهذا ضرورى للحياة لأنه يتحول فى الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات . لكن الله برحمته وحكمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان .. ولو شاء الله لكثره فى ماء المطر فأفسده على الناس . وسواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها فان قوله تعالى (لو نشاء جعلناه أجاجاً) إشارة إلى تلك العوامل الكهربائية التى يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة . ومن يعرف أن الطريق الكهربائى هو أحد الطرق العملية التى يمكن بها تحويل الأزوت الجوى إلى حمض .

إن نعمة الله على الناس فى الماء العذب أكبر من أن يقوموا بشكرها ، لأن كل ماء عذب فى الأرض كان أجاجا فى الأصل إذ هو آت من ماء البحار . إنك تعرف أن الأرض ربعها يابس وثلاثة أرباعها ماء ، هذا الماء كله ماء مالح ومنه يقطر الله للإنسان والحيوان والنبات ما لا غنى لهم عنه من الماء العذب . أما جهاز التقطير فليس كمثله جهاز : البحار كلها فى ذلك الجهاز دست لا يسخن من تحت كما يفعل الإنسان فى تقطيراته التافهة ، ولكن يسخن من فوق بنار قدر نار الأرض آلاف المرات ، فاذا ما تبخر الماء بحرارة الشمس تكثف فى مكثف ناهيك من مكثف : الجو العلوى كله والجبال ، والرياح مسخرة تحمل البخار من الأرض إلى الجو ، وتحمل السحاب فى الجو إلى حيث يشاء الله أن تنزل الأمطار . فإذا سالت الأودية وفاضت الأنهار وحملت الخصب والنماء إلى الأقطار تبخر بعض الماء ، وامتصت الأرض منه بعضا ، وصار باقيه إلى البحر الذى كان منه مصدره .

لكن ليس شيء من هذا الماء بضائع . فما تمتصه الأرض تتفجر به بعد عيونا حيث يشاء الله ، وما يتبخر من الماء العذب أو يصير إلى البحر فهو

فى حرز حريز من الضياع ، إذ مآله أن يصير مرة أخرى ماء يحيا به الناس والأنعام ، وتحيا به الأرض الموات . وهذا فرق آخر بين صنع الله وصنع الإنسان . فما يفلت إلى الجو من الإنسان أثناء تقطيراته فهو ضائع لا يملك الإنسان له استردادا ، لكن ليس شىء من الماء أو غير الماء الصاعد إلى الجو ضائعاً فى ملك الله ، فالماء بين البحر والجو واليابسة فى دورة مقدرة متصلة لا انقطاع فيها ولا توقف ولا تعثر ، عليها مدار الحياة فى الأرض ، ولا تنتهى أبدا إلا أن يشاء الله الذى أذن لها بالابتداء .

نظرة فى حياة النبات

إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يأخذ الأكسجين وثانى أكسيد الكربون وأحيانا الأزوت ، ومن الأرض يأخذ الماء وبعض الأملاح ، خصوصاً الأزوتات ، والخلايا النبات كلها دخل طبعا فى كل هذا ، لكن محور هذا التغذى ، وهو تمثيل ثانى أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا فى الأجزاء الخضراء من النبات ، سواء كانت الخضرة فى الساق أو الفروع أو الأوراق . لكن ما يحدث فى غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث فى الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال إن حياة النبات ، وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثانى أكسيد الكربون فى الأوراق الخضراء .

إن النبات يبدأ حياته فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الأرض ، وتسقى بالماء فتنبت ، أى تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملا ورقتين صغيرتين خضراوين . هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بدور الإنبات : لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأكسجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء . وعلى الجذير والوريقتين

يتوقف تغذى النبات بعد ذلك . فالجذير يمتص المـاء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض ، والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ — تمتص الأكسجين من الهواء لإحراق الغـذاء داخل خلايا النبات حرقا بطيئا وتطرد أكثر فضلات التغـــذى من ثانى أكسيد الكربون وبخار المـاء . هذه العملية عملية تنفسية ، وتجرى ليلا ونهارا . وهى وإن كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها فى الورق أفعل وأكثر .

٢ — تمتص ثانى أكسيد الكربون من الهـواء فيتغير داخلها تغيراً كيماوياً باتحاده مع المـاء بواسطة الخضر إتحادا ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما فى العصارة النباتية على الخلايا لتمثلها مع ما يكون فى العصارة من أملاح ، وينشأ عنهـا من ناحية أخرى أكسجين بقـدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم إن النبات فى التمثيل الخضرى يحلل ثانى أكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأكسجين. والواقع أنه لايحلله ابتداء ولكن يركبه مع المـاء تركيباً تنتج عنه مواد عضوية وأكسجين بقدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون . وهذا هو التمثيل الخضرى .

فن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعـد دور الإنبات إنمـا يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير . فالجذير يمتص المـاء والأملاح ، والوريقات تمتص الأكسجين وثانى أكسيد الكربون وتهضم ذلك كله ، أى تحوله إلى مواد معقدة نسبيا إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها ، وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمـو الجذير إلى جذر . والسويق إلى ساق ، والوريقات إلى أوراق كثيرة ، ثم إذا جاء دور الإثمار إلى أزهار وحب وثمار .

لـكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لا بد لإتمامه من طاقة ، فن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان . ولـكن الله سبحانه وتعالى يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس : يقع الضوء على المـادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثانى أكسيد الكربون والمـاء ،

أى أنها تحول ما تمتصه إلى طاقة كماوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه . لذلك كان التمثيل الخضرى لايجرى إلا نهارا فى حين أن التنفس يجرى نهارا وليلا ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيراً فى الشمس منه فى الظل . على أن للتمثيل الخضرى فى الضوء حد أقصى يقف عنده قلما يبلغه النبات ولو فى الشمس ، لأنه متوقف أيضاً على مقدار ثانى أكسيد الكربون فى الهواء ، وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية وثانى أكسيد الكربون والماء من ناحية أخرى . أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه . لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعل أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل . أما أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر .

وأما ثانى أكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريبا من وجه الأرض مثلا تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ إلى ١٣ فى كل ١٠٠٠٠ ، وفى يوليو مثلا تبلغ نسبته من ٢ر٧ إلى ٢ر٩ ، وفى الشتاء من ٣ إلى ٣ر٦ فى كل ١٠٠٠٠ ، وتزداد النسبة طبعاً حيث يكثر الإحتراق أو التعفن أو التخمر ، لكن الرياح وانتشار الغازات كفيلان بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٣ر٣ إلى ٣ر٥ فى كل ١٠٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة ، لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدارا هائلا من ثانى أكسيد الكربون قدروه بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز فى الهواء .

على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاما . إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعاً باختلاف النباتات واختلاف

الظروف . لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر فى الظروف المسعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة فى الساعة . فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر فى أشجار الأرض وزروعها ، وساعات عملها فى فصول نشاطها فى العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التى يخلقها الله بالتمثيل الخضرى فى درجة الحرارة العادية كل عام . صحيح أن هذه المواد تداخل فى عناصرها الأكسجين والأيدروجين وما إليهما بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدروه بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ إلى ٨٠ بليون كيلو جرام من ثانى أكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثانى أكسيد الكربون فى الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات فى نحو ثلث قرن ، ووقفت بوقوفها كل حياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضروريا للحياة ، وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت . إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار فى الأرض ، يكفى أن يستنفد عنصر واحد منها فى جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض، فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلا بعد جيل فى النبات والحيوان ، لتتجدد بموت جيل المادة التى يخلق الله منها الجيل الذى بعده . فالأكسجين يستمده الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثانى أكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى بفعل التمثيل الخضرى ، والكربون يستمده النبات من ثانى أكسيده من الجو، ويتغذى الحيوان بالنبات ، ثم يموت النبات فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون ، فيما يتحول إليه ، ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون فيما يتحول إليه . ويصعد ثانى أكسيد الكربون فى الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض ، وأحيانا من أزوت الجو فيحوله إلى جزء منه ، ويتغذى الحيوان بالنبات ، وتتحلل فضلاتهما وأجسامهما فى الأرض بعد الموت ، وتتحول إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد فى الجو ، وفى الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى ، وهكذا دواليك . طبعا هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر ،كلما استنفد منه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء فى حلقة أخرى . وقد وازن الله سبحانه بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار ، وهذا هو سر خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الإنسان فلم ينتبه إليها، ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوتى حظا من العلم فى هذا العصر الحديث .

* * *

تلك أمثلة من دورة المادة فى حياة النبات والحيوان ، أو بين الحياة والموت ، وللتمثيل الخضرى أثر عظيم فيها . أما الطاقة التى تقوم عليها حياة الكائن الحى ، كما تقوم على المادة ، فليس لها دورة ، أو ليس يعرف الإنسان لها دورة . إنما الطاقة على سطح الأرض مستمدة كلها من الشمس ، وللتمثيل الخضرى فى ذلك أعظم الأثر . إن الإنسان والحيوان ينتفع طبعا بما يصله من حرارة الشمس وضوئها المباشر وكذلك النبات ينتفع باعتدال الجو حوله ، لكن هذا على عظمه لا يكاد يذكر بجانب انتفاع النبات بما يمثله ويختزنه من ضوء الشمس ، أو بجانب انتفاع الحيوان بالطاقة المخزونة فى النبات . فالطاقة التى يختزنها النبات من الشمس هى جزء من صميم كيانه كالمادة التى يأخذها من الهواء أو من الأرض . والإنسان والحيوان يستمد مادته وطاقته من النبات ، فهو حين يتغذى بالنبات ليس يأخذ مادة للنمو فقط ، ولكن يأخذ طاقة للعمل . وكل طاقة له خارجية مردها فى النهاية إلى النبات ، ومصدرها الأول هو الشمس . فالنار التى يستدفىء بها الإنسان ، أو التى يستوقدها فى قطاراته أو سفنه البخارية أو آلاته الصناعية ، كلها نباتى الأصل ، سواء أكانت نار خشب أم نار فحم

أو نار زيت أم نار كحول أو نار بنزين ، حتى نار البترول الذى يختلفون فى مصدره أحيوانى هو أم نباتى أو معدنى مردها أيضا إلى النبات فى النهاية .

فعلى النبات مدار حياة الحيوان وحياة الإنسان ، لا من حيث المادة فحسب ، ولكن من حيث الطاقة التى هى بالفعل وبالحرف أهم من المادة . ومدار النبات فى مادته وطاقته على التمثيل الخضرى المتوقف على الضوء من ناحية وعلى نواتج التحلل والتعفن والاحتراق من ناحية أخرى .

بعض الآيات القرآنية المتصلة بهذا الموضوع

أظنك قياسا على ما ذكرنا لك من الآيات القرآنية الواردة فى مواضيع أخرى تنتظر أن تكون الآيات الواردة فى هذا الموضوع كثيرة . وإنها لكذلك بالفعل ، بعضها مجمل ، وبعضها أكثر تفصيلا ، وكلها تتعلق بحياة النبات وحياة الحيوان ، والتدليل بعجائبهما على قدرة الله سبحانه وعظمته ووحدانيته . وإنك تستطيع فى نور ما قدمنا لك أن تفهم من معنى تلك الآيات ما لم تكن لتستطيع أن تفهمه من قبل . تستطيع فى نور ما ذكرناه لك عن الإنبات أن تكون أفهم لمعنى قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير ـ الحج ٦٣) ، وفى نور ما ذكرناه عن تعلق حياة الإنسان بحياة النبات أن تكون أفهم لمعنى قوله : (والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ـ نوح ١٧ و١٨) ، وفى نور ما ذكرنا لك عن حياة النبات وطاقة الحيوان أن تكون أفهم لمعنى قوله (أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم ـ الواقعة ٧١-٧٤) .

لكنا نريد مع ذلك ألا نترك هذا الفصل حتى ننظر معك فى آيتين اثنتين لن تجد صعوبة فى فهم إشاراتهما الواضحة إذا استحضرت ما قدمناه لك من الحقائق ، الأولى : آية الأنعام والثانية آية يس . كلتاهما تنبه إلى أثر التمثيل الخضرى فى الحياة ، إلا أن آية يس تؤكد فيه ناحية الطاقة وآية الأنعام تؤكد فيه

ناحية النمو. أما آية يس (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ـ ٨٠) . فمفتاح معناها وصف الشجر بالأخضر ، وترتيب النار على خضرة الشجر . ومن يعرف أثر الخضرة فى نمو الشجر ، وفى بناء كيانه الخشبى على الأخص ، وفى اختزانه ما فى ذلك الكيان من طاقة تبدو نارا عند الاستيقاد ، لا يجد صعوبة فى إدراك سر ترتيب النار على الخضرة ، أو فى تبين عظمة الآية وبلاغتها وإعجازها . ومن لم يعرف هذا تحير أمام هـذا الترتيب الغريب ، وراح يتلمس للآية توجيها يذهب بها فى غير وجهها ، كما فعل من تلمس تفسير الآية فى سهولة اتقاد المرخ والعفار .

على أن هناك قرينة قرآنية قوية تعين أن تفهم الآية الكريمة على هذا الوجه الذى ذكرناه ، ألا وهى قرينة السياق . إن تلك الآية الكريمة إنما سيقت رداً على منكرى البعث ، بعث الإنسان بعد أن يصير عظما رميما (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ٧٨ ـ ٨٠) . فلا بد أن يكون هناك صلة بين معناها وبين مسألة البعث، كما لا بد أن يكون هناك حجة فيها على منكرى البعث . أما الصلة فظاهرة من أن الآية متصل موضوعها إتصالا وثيقا بحياة النبات وإنشائه حيا ناميا قويا ، بعد أن كان بذرة أو نواة لا نماء بها ولا حياة ، وتزداد الصلة بأمر البعث وضوحا باتضاح الحجة التى فى الآية على منكر البعث ، والتى تقوم على أن جميع نماء الشجر ومادته وطاقته ، بعد خروج أول وريقتين خضراوين من البذرة أو النواة ، إنما هو آت من مواد أولية هى نواتج تعفن الشجر بعد موته أو احتراقه ، أى من مواد تشبه من كل الوجوه ذلك العظم الرميم الذى استبعد المنكر الجاحد أن يحييه الله مرة أخرى ، بل إن ذلك المنكر لم يشر إلا إلى جزء من نواتج التعفن ، تعفن الإنسان أو الحيوان ، ألا وهو العظم الرميم ، فى حين أن هناك كما عرفت نواتج أخرى للتعفن غير العظم ، مثل ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء ، جهلها ذلك المنكر فلم تخطر له على بال .

هذا وقد أشارت الآية الكريمة إشارة واضحة يفهمها العالمون إلى ظاهرة تشبه ظاهرة البعث تمام الشبه . لأنها بالفعل ظاهرة بعث للنبات بعد أن صار بالتعفن أو الإحراق بخار ماء وثانى أكسيد كربون ورمادا أو أملاحا . هى فى الحقيقة التى تقابل العظم الرميم الذى ذكره الجاحد . فكأن الآية تقول لذلك المنكر إن الذى يبعث الشجرة بعد أن فنيت ، ويخلقها مرة أخرى بواسطة المادة الخضراء من نواتج تعفنها أو احتراقها . قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته ويخلقه مرة أخرى من نواتج تعفنه ، وتحوله إلى عظم رميم وغير عظم رميم إلا أنه لما لم يكن مأمونا على العقل حين نزلت الآية التصريح بهذه المعانى اكتفى فى الآية بإيداعها مفاتيح إلى هذه المعانى ، لينتفع بها الإنسان إذا اتسع علمه ، ألا وهى وصف الشجر بالخضرة عند جعله أصلا للنار . مع السياق .

على أنه إذا كانت آية يس قد عبرت عن خلق الشجر من الخضرة بلازمة ، وهو خلق النار من الخضرة فإن ما أشارت إليه آيه يس قد صرحت به آية الأنعام ، (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ـ ٩٩) . هذه الآية إذا أخذت حرفيا فقد صرحت بما ألممنا به من حياة النبات فى التفسير السابق . فهناك دور الإنبات بالماء ينتهى بخروج الوريقات الخضراء . وكلمة نبات فى الآية يصح أن تكون أيضاً اسم مصدر بمعنى (الإنبات) . فالماء ينبت الله به كل بذر وكل نوى . ومن ناتج هذا الإنبات يخرج الله الخضر ، ومن هذا الخضر يخرج الله الحب المتراكب الذى هو ثمرة النبات . وإذن فالله يخرج أيضاً من الخضر ، ما بين الخضر والحب من ساق وفروع وأوراق وأزهار .

على أن بقية آية الأنعام صريحة أيضاً فى أن ما يخرجه الله سبحانه من الخضر ليس مقصورا على الزرع ذى الحب . ولكن يتناول الأعناب والزيتون والرمان ، وأشباهها من النباتات طبعا (ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ـ بقية ٩٩) .

الفصل السادس

مخترعات العصر والقرآن

حول القمير الصناعي — ١ —

إن إطلاق جسم يدور حول الأرض بسرعة ثمانيه عشر ألف ميل فى الساعة ، وتصدر عن أجهزته إشارات تفيد معلومات عن فلكه الذى يدور فيه ، هو حدث لا شك عجيب ، لكنه ليس بأعجب الأحداث التى حققها العلم على أيدى العلماء والمخترعين منذ بدء عصر العلم الحديث . فالطيران فى الهواء وتحكم الإنسان فيه تحكمه فى السير على الأرض حدث أعجب من غير شك ، لولا أن الناس ألفوه ، فلم يعودوا يعجبون منه أو يولونه إكبارا ، رغم تقدمه العظيم ، ذلك الإكبار الذى أولوه يوم طار الأخوان رايت أول مرة عام ١٩٠٣ ، أو يوم زار مصر الجديدة منطاد زبلن فى أوائل هذا القرن وهرعت لشهوده الحشود . ويتساءل بعض الناس ـ استنادا إلى قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شيء ـ الأنعام ٣٨) هل فى القرآن إشارة إلى القمر الصناعى ؟

كلمة (الكتاب) فى الآية الكريمة لها معنيان : اللوح المحفوظ والقرآن الكريم . وقد ذكر المعنى الأول الزمخشرى فى تفسيره ولم يذكر غيره ، وذكر المعنيين كليهما أبو حيان فى تفسيره واختار الثانى إذ يقول : « والكتاب اللوح المحفوظ ، والمعنى ما أغفلنا فيه من شيء لم نكتبه . ولم نثبت ما وجب أن يثبت ، قاله الزمخشرى ولم يذكر غيره ، أى القرآن ، وهو الذى يقتضيه سياق الآية ». فالمعنيان إذن كل منهما مراد ما دام إمام من أئمة التفسير يفهمه من الكلمة فى الآية الكريمة ، ولو شاء الله ألا يفهم من آية أو بعض آية فى كتابه إلا معنى واحداً

لأنزلها بحيث لاتفيد فى اللغة إلا ذلك المعنى . أما وقد أنزل الله الآية بحيث يفهمها أولو العلم على أكثر من وجه فلا بد أن يكون كل وجه مرادله سبحانه، ويكون هذا وأمثاله فى القرآن بابا من الإعجاز امتاز به كلام الله على غيره من فصيح الكلام ، إذ قد جرت عادة الإنسان فى تعبيراته ألا يقصد إلا إلى معنى واحد من كل تعبير .

فالذين تساءلوا : هل فى القرآن الكريم إشارة إلى القمير الصناعى استنادا إلى الآية الكريمة لهم بعض العذر إذن ، لكنهم يخطئون إن كانوا ينتظرون بناء على ذلك أن يشير القرآن إشارة خاصة إلى هذا القمير أو غيره من القميرات التى قد يطلقها الإنسان فى المستقبل ، فما القمير إلا اختراع من الاختراعات الكبيرة الكثيرة التى هدى الله إليها الإنسان بما منحه من العلم . ثم هو ، كما قلنا من قبل ، ليس بأعجب الاختراعات وإن بدا للناس أنه أعجبها لجدته وغرابته . والاختراعات الكبرى كلها كان كل منها فى بدئه غريبا عجيبا . وكلها صغيرها وكبيرها من آيات الله الدالة على ما أودع سبحانه فى خلقه من أسرار ، فليس بعضها إذن أولى بأن يشير إليه القرآن الكريم من بعض ، وليس ماعرف منها أجدر بالإشارة إليه فى كتاب الله ، مما سوف يهتدى إليه الإنسان فيما يستقبل من الزمان .

فمن التعسف إذن أن ينتظر إنسان إشارة فى القرآن إلى اختراع مخصوص دون غيره من الاختراعات ، ومن غير المعقول أن يشار إلى كل منها بالذات اختراعا اختراعا ، كما لم يكن من المعقول أن يذكر القرآن الكريم آيات الله فى الكون آية آية ، أو أن يشير إلى أسرار الفطرة سراً سراً ، فإن ما لله فى الكون من آيات وما أودعه فى الفطرة من أسرار هو من الكثرة بحيث لا يكفى البحر مداداً لكتابته كما قال تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ـ الكهف ١٠٩) . صحيح أن حكمة الله سبحانه قد اقتضت ذكر بعض آياته الكونية بالذات ، كالشمس والقمر

والنجم والشجر والجبال والماء والحياة ، ليلفت الناس إليها وإلى ما أودع فيها من أسرار عجيبة عساهم أن ينفضوا عنهم الغفلة التى ألقتها عليهم الألفة فيتدبروا ماظهر لهم ويبحثوا عما خفى عنهم ، لعلهم يشكرون نعم الله عليهم فيها ، ويهتدون إليه سبحانه بها . لكن ما ذكر بالذات من الآيات الكونية إنما هو المرئى المشاهد لكل الناس فى كل العصور .

أما ما استتر منها مستقلا عن هذا المشاهد أو منطويا فيه فلا يمكن أن يحيط به عد ولا حصر . ومع ذلك فقد أحاط به القرآن الكريم عن طريق التعميم لا التخصيص ، أى عن طريق الكلى الذى يحيط بكل ماينـدرج تحته من جزئى. والتعبير بالكلى عما يدخل تحته من الجزئيات الكثيرة هو أقصى ما يفعله العلماء إذا بلغوا من علم شىء غايته . والقوانين الكثيرة التى توصل إليها العلماء فى العلوم المختلفة هى من هذا القبيل ، يستغنى العالم بذكر أحدها عن ذكر كل ما انطوى تحته من الجزئيات .

فمن هذا الوجه وبمثل هذا الأسلوب البديع اللائق بكمال علم الله وبإعجاز كتابه ينبغى أن نتطلب تحقيق قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء - الأنعام ٣٨) لنعرف كيف أحاط القرآن بأمر من الأمور التى كشف أو يكشف عنها العلم والاختراع ، مما لم يكن معروفا حين أنزل الله القرآن (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان - البقرة ١٨٥) . والآية الكريمة - آية الأنعام - يعطينا أولها مثلا رائعاً ينير لنا الطريق عند تطبيق هذا المبدأ ، وتعرف أسلوب الكتاب العزيز فى التعبير بالكلى العام عما لا يكاد يدخل تحت حصر من الجزئيات (وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء) . فالإستغراق الذى شمل كل دابة وكل طائر ذى جناح أغنى عن ذكر الدواب دابة دابة ، وعن ذكر الطيور طائرا طائرا .

والحصر مع التعبير عن حياة دواب الأرض وطيورها بأنها أمم ، وأمم أمثالنا معاشر الأناس ، يؤكد ويشمل من الحقائق ما يمكن أن تكشفه علوم

الحيوان عن حياة كل نوع من الأنواع . وواضح من التعبير بكلمة (أمم) أن كل نوع أمة ، وأن كلمة (دابة) و (طائر) فى الآية الكريمة لا يقصد بها الفرد على إطلاقه ، لأن الفرد لا يمكن أن يكون أمة . ولكن يقصد بها الفرد من كل نوع . دلالة على النوع نفسه الذى يكون بمجموع أفراده أمة لها نظامها كما لكل أمة من البشر نظامها ، وبينها وبين غيرها من أمم الأنواع الأخرى من ضروب التعامل أو التنافس والتناحر ما بين أمم الأرض من الناس .

فلو سأل سائل أين تجد فى القرآن الإشارة إلى نوع يسميه لك من أنواع الدواب أو الطيور ، أو إلى نظام حياته ، لكان لك أن تجيب وتصيب أنك تجدها فى هذه الآية ، آية الأنعام . أما الأنواع نفسها . وأما نظامها نوعاً نوعاً ، وصلاتها فيما بينها ، وما فى ذلك من دلالة على الخالق سبحانه وحكمته وقدرته ووحدانيته فهذا ما ترك لنا لنطلبه بالبحث والدرس ، وهذا ما نبهنا الله إلى تطلبه بهذا الأسلوب المعجز البديع .

وبمثل هذا أحاط القرآن الكريم بما استكشف الإنسان وما يستكشف ، وبما حقق أو يحقق من علم أو اختراع . والآيات الدالة على ذلك بعمومها وشمولها ومامن الله به على البشر فيها كثيرة فى القرآن ، ولا سبيل إلى استقصائها فى مقال ولا رسالة . أما العلم فقد فتح الله بابه كله للإنسان حين علم أباه آدم الأسماء كلها . وأنت لا تسمى الشىء باسمه حتى تعرفه . وقابلية الإنسان لعلم كل شىء هى ميزته التى ميزه الله بها ، وهى مبرر استخلاف الله له فى الأرض ، كما تدل عليه آيات سورة البقرة ، ألا إن الإنسان يولد لا يعلم شيئاً ، وإنما يكتسب مايكتسب من علم باستعمال ماوهبه الله من حواس وعقل وقلب (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون — النحل ٧٨) .

ولا يزال الإنسان بحاجة إلى تذكيره بما ذكره الله به فى هذه الآية عسى أن يسلم من الغرور ومن كفرانه نعمة الله عليه فى العلم وثمراته ، فلا ينسب

ذلك إلى نفسه فيضل به بدلا من أن يهتدى ، كما قال الله فيه حين يضل ويغتر (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ـ الزمر ٤٩) وقل من لا يفتنه العلم فيقع فى الكفران والعياذ بالله . ومع ذلك فعمر الفرد لا يتسع إلا لأقل القليل من العلم ، يعلم ذلك كل متخصص فى علم من العلوم . فالإنسان القابل لعلم كل شىء هو الجنس لا الفرد ، ومع ذلك فمجموع علم الناس فى أى عصر ما هو بالنسبة للمجهول لهم إلا قليل ، (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ الإسراء ٨٥) والخطاب فى هذه الآية موجه إلى البشر فى أى عصر وفى كل عصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها . والبشر لو يدرون ما يدركون من العلم إلا ما يشاء الله أن يدركوه (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء — البقرة ٢٥٥) وعلم الله سبحانه لانهائى فى كماله ، أما علم جميع الناس فى جميع العصور فهو متناه محدود .

وأهل العلوم الرياضية يؤكدون لك أن المتناهى مهما عظم ليس إلا كالصفر بالنسبة إلى اللانهائى . فسبحان الله الذى وسع علمه عالم الشهادة المفتوح باب علمه للإنسان يدرك منه باجتهاده ما شاء الله ، وعالم الغيب الذى لا نهاية له ، والذى ليس للإنسان من سبيل إلى علم شىء منه فى هذه الدنيا إلا عن طريق ما أنزل الله على رسله من كتاب ، كما قال سبحانه عن نفسه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول ـ الجن ٢٦و٢٧). وهذا باب قد أوصده الله الآن دون البشرية كلها إلا عن طريق القرآن كتاب الله الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — فصلت ٤٢) ، وعن طريق سنة رسوله الذى اختتم به الرسل ، وجعل أفعاله وأقواله طبق وحيه سبحانه لتكون تفسيرا وتفصيلا لما أجمله الله للناس فى القرآن .

كأنى بسائل يقول : حدثتنى عن العلم وقد سألت عن الاختراع ، والجواب على ذلك قريب ، فإنه لا اختراع إلا بعلم ، فلولا العلم ما كان الاختراع ، وما الاختراع إلا ثمرة تطبيق العلم ، أو قل هو الناحية العملية التطبيقية للعلم

ومع ذلك فالآيات المتعلقة بهذه الناحية العملية كثيرة فى القرآن ، تلق أول ما تلق منها فى سورة البقرة قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ـ ٢٩) ، وأعم من هذه وآمن على الناس قوله تعالى فى سورة الجاثية (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ـ ١٣) ، ولولا هذا التسخير والتطويع لاقتصر علم الإنسان على الناحية النظرية ، ولما استطاع تطبيقا ولا اختراعا فى الناحية العملية .

إحاطة القرآن باختراعات الإنسان ـ ٢ ـ

قبل محاولة استتمام ما بدأنا من هذا البحث لا بد من تقديم ما يشهد لصواب المسلك الذى سلكناه فيه حتى لا يظن ظان أننا نتكلف فى فهم الكتاب ونتطلب من القرآن ما ليس فيه .

جاء فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الحمر ، أى عن صدقتها ، فيما ذكر الألوسى فقال «لم ينزل على فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، الزلزلة ٧و٨)» فهذا نص يشهد أن كل ما دخل تحت نص قرآنى عام فقد نص عليه القرآن ، إذ من الواضح أن الحمر الوحشية وصدقتها لم تذكرها الآية وإنما دخلت فيها عن طريق تمام الشمول والعموم .

وجاء فى الحديث الصحيح أيضاً أن صحابية مساة باسمها جاءت تحتج لدى سيدنا عبد الله بن مسعود فيما بلغها عنه من قوله « لعن الله الواشمة والمستوشمة والمتنمصة والمتفلجة للحسن ، المغيرة لخلق الله تعالى » . وكانت حجتها ـ وكانت قارئة ـ أنها قرأت القرآن كله فلم تجد ذلك فيه . فقال لها رضى الله عنه « إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه ، أما قرأت قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ـ الحشر ٧) ؟ قالت بلى ، قال : فإنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عنه . وهذا أيضا نص فى أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرون

أن كل ما أمر به أو نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فقد نص عليه القرآن بعموم تلك الآية الكريمة ، رغم السياق فى سورة الحشر ، مما يشهد للقاعدة الأصولية من أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، سبب الحادثة التى جاء من أجلها النص .

واختراعات الإنسان لايمكن أن يذكر القرآن شيئا منها بذاته لأنها كانت ، مثل مخترعات المستقبل ، فى عالم الغيب ليس لأحدها فى اللغة اسم يذكر به ، فلم يكن هناك طريق لإحاطة القرآن بها إلا طريق الإشارة الكافية أو العبارة العامة أو تفسير الرسول صلوات الله وسلامه عليه لنص قرآنى عام مصداقا لقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للنــــاس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ـ النحل ٤٤) .

والإشارات والنصوص العامة فى القرآن أنواع : منها القسم . نحو قوله تعالى (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ـ الحاقة ٣٨ و٣٩) فقد شمل هذا القسم كل مايمكن أن يبصره الإنسان بحواسه أو بآلاته ، كالمجاهر والمراقب ، فى حاضره أو فى مستقبله . فهذا نص شامل لكل ما يمكن أن يكشفه العلم أو يخترعه العلماء ، بل ولما يدق عن أن تدرك أفراده آلة مهما كانت حساسة ، كالذرة ، بل ولما لا أمل للإنسان أن يبصره فى دنياه قط ، مثل باطن النجوم فى عالم المادة ، ومثل الملائكة فى عالم الروح .

ومثل آخر للإشارة العامة عن طريق القسم قوله تعالى (والشفع والوتر ـ الفجر ٣) ، فإنه يشمل كل محسوب معدود ، إذ لا يمكن لمـا له عدد أن يخرج عن أن يكون شفعا أو وترا ، زوجيا أو فردياً . لكن القسم يشير إلى سر فى المقسم به ، فهو لا يدل على مجرد المعدود ، ولكن على أهمية كونه شفعاً أو وتراً . نضرب لذلك مثلا يتصل بموضوعنا ، مثل عناصر المـادة التى لا بد من بعضها أو بعض مركباتها فى كل اختراع . فإن كل عنصر منها تتوقف ذاته على عدد الشحنات الكهربائية الموجبة فى نواة ذرته ، أو عدد الكهيربات السالبة

الدائرة فى أفلاك لها حول النواة . وهل هى زوجية أو فردية ، أى هل عدد كل منها شفع أو وتر ، لأن العدد فى كل منها واحد ، إذ الذرة فى مجموعها متعادلة ، قد تعادل الموجب والسالب فيها . وقد سبق فى الفصل السادس (الإسلام وسنن العلم) من الباب الأول (الإسلام دين الفطرة) أن ذكرنا أن الله سبحانه خلق المادة كلها على اختلاف عناصرها من أصلين اثنين : من الكهيرب السالب والأبيب الموجب ، وهما مايسميهما الإفرنج بالإلكترون والبروتون . ويجمع الله سبحانه بين الكهيرب والأبيب ، بصورة لا يعلمها إلا هو ، فيتكون منهما وحدة متعادلة نسميها العويطب تصغير عوطب ، وهو المطمئن بين موجتين كما فى القاموس ، ويسميها الفرنجة نيوترون للدلالة على تعادلها .

والأبيب والعويطب هما اللبنتان اللتان بنى الله سبحانه منهما نوى الذرات كلها ما عدا ذرة الإيدروجين ، فان فى نواتها أبيب واحد صرف ، أما ذرات العناصر الأخرى فتتكون نواة كل منها من عدد من الأبيبات يساوى عدد الكهيربات الدائرة حول النواة ، ومن عدد من العويطبات متماسك معها ، بحيث يكون مجموع العددين فى النواة مساويا للوزن الذرى للعناصر . والأبيب قد اتخذه العلماء أساسا ، واتخذوا وزنه وحدة ، أى اعتبروا وزنه واحدا . ولما كان وزن الكهيرب قد وجد بالحساب أنه ١/١٨٣٧ ، أى جزء من ألفين تقريباً من وزن الأبيب ، وكان العويطب مكونا من كهيرب وأبيب متماسكين فإنهم يعتبرون وزن العويطب مساويا لوزن الأبيب . ومن هنا تلك القاعدة المشار إليها آنفا من اعتبار الوزن الذرى لعنصر مساويا لوزن نواته ، أى لعدد أبيباته زائدا عدد عويطباته . مهملين وزن الكهيربات الدائرة لخفتها وضآلة وزنها بالنسبة لوزن النواة . فإذا عرف الوزن الذرى ، وهو معروف مألوف فى الكيمياء ، وعرف عدد الكهيربات أو عدد الأبيبات فى الذرة ، أمكن بطرح هذا من ذاك معرفة عدد العويطبات فى نواة العنصر .

إلى هنا ولما نعرف أهمية الفردية والزوجية ، أو الشفع والوتر ، فى ماهية العناصر ، لكن الأمر بعد ذلك قريب ، ثم هو أيضا عجيب . تذكر أن ذرة الإيدروجين ، أبسط العناصر ، هى عبارة عن أبيب واحد يدور حوله كهيرب واحد فى مدار هو قطع ناقص الأبيب فى أحد بؤرتيه ، هذه هى ذرة الإيدروجين . تذكر بعد ذلك أن العنصر الأخف بعد الإيدروجين ، وهو الهليوم ، يدور كهيربان حول نواة ذرته ، وأن العنصر الذى يلى الهليوم واسمه الليثيوم فى ذرته ثلاثة كهيربات تدور حول نواة ذرته ، والذى يليه واسمه البورون فى ذرته أربعة كهيربات تدور ، وهلم جرا فى سلسلة العناصر كلها . أليس هذا عجيبا ؟ أليس من آيات الله البالغة أن يكون عدد الكهيربات فى ذرات العناصر كلها بين شفع ووتر حسب المتوالية العددية من واحد إلى ٩٢ ، أى من ذرة الأيدروجين أخف عنصر إلى ذرة اليورانيوم أثقل عنصر موجود فى الأرض .

وإذا عرفت ترتيب العنصر هكذا بين العناصر فقد عرفت عدد كهيربات ذرته أو العكس ، وعرفت طبعا عدد أبيبات نواة ذرته ، إذ هذه الأعداد الثلاثة كلها متساوية ، أى هى عدد واحد يسمونه لأهميته بالعدد الذرى ، وهو إما شفع أو وتر . فإذا عرفت إلى ذلك الوزن الذرى للعنصر من جدول الأوزان الذرية وكان عددا صحيحا تقريبا عرفت عدد العويطبات فى النواة ، أى عرفت تركيب الذرة من حيث العدد : عدد العويطبات المتعادلة ، وعدد الأبيبات الموجبة الشحنة فى نواة الذرة ، وعدد الكهيربات السالبة الشحنة التى هى فى الحقيقة شحنات سالبة صرفة تدور حول النواة فى الذرة ، كما تدور السيارات حول الشمس فى المجموعة الشمسية مع الاختلاف طبعا فى العدد .

لكن أثر الزوجية والفردية ، أو الشفعية والوترية ، لا يقف عند هذا . فالكهيربات فى دورانها حول النواة لها نظام مقدور موزون هو من أعجب ما كشف عنه العلم فى هذا القرن العشرين . أما ذرة الأيدروجين وذرة الهليوم

فأمرهما بسيط نسبيا ، ففي كل منهما طبقة واحدة كهربية ، إلا أن طبقة ذرة الإيدروجين ذات كهيرب واحد ، وطبقة ذرة الهليوم ذات كهيربين . لكن أتدرى أى فرق ينتج فى خواص هذين العنصرين من هذا الفرق البسيط فى الظاهر ، فرق الشفع من الوتر ، والاثنين عن الواحد ؟ إنه فرق هائل من الناحية الكيماوية ! فالإيدروجين عنصر فعال يتحد مثلا بالأكسجين مشتعلا ، وينتج عن اتحادهما الماء ، أما الهليوم فلا يتحد ولا يقبل الاتحاد بأى عنصر آخر ، بل ولا تقبل ذرته الاتحاد بأختها لتكون جزيئا من الهليوم ذا ذرتين كما يحدث فى العناصر الغازية الأخرى ، فلو كان هناك موت وحياة فى العناصر لقلنا إن الهليوم الشفع عنصر ميت ، والإيدروجين الوتر عنصر حى .

لكن الهليوم يتحول بقدرة الله إلى عنصر آخر فعال أو عنصر آخر حى بدخول الكهيرب الثالث فى ذرته ، ولكنه لا يدخل الطبقة الكهيربية الأولى طبقة الشفع ، بل يتخذ طبقة ثانية وحده . ولا يذهب بك الظن إلى أن هذا هو الفرق الوحيد فتكون قد نسيت ما قدمناه من العلاقة بين عدد الكهيربات وعدد الأبيبات من ناحية ، وعدد الأبيبات والعويطبات والوزن الذرى من ناحية أخرى . فالهليوم مثلا وزنه الذرى أربعة . وإذن فى نواته أبيبان وعويطبان ، ما دام فى ذرته كهيربان . والعنصر الوتر الذى يلى الهليوم ، أى الليثيوم ، وزنه الذرى سبعة ، فنواته إذن فيها أبيبات ثلاثة مثل كهيرباته ، وتكون العويطبات فى نواته عددها أربعة . وهو عنصر جامد غير غازى لكنه فعال جدا . وهو الأخ الأصغر لعنصر الصوديوم الداخل فى تركيب ملح الطعام.

وقد كشف البحث فى تركيب ذرات العناصر عن حقائق عجيبة لا سبيل إلى ذكرها هنا فهو باب واسع ومبحث عويص . لكن نكتفى منها بذكر حقيقتين : الأولى أن كل كهيرب جديد يدخل فإنه ينضم إلى سابقيه فى الطبقة الكهيربية الثانية ، حتى إذا صار عددها ثمانية كملت الطبقة وتكون عنصر غازى ثان هو أخ كبير لعنصر الهليوم ، أى منعدم الخواص الكيماوية مثله . وتتكون

بدخول الكهيرب الطارق بعد ذلك طبقة كهيربية ثالثة تظل تنمو حتى تصير هى أيضاً ذات ثمانية كهيربات ، فتنعدم عندئذ الخواص الكيماوية بنشوء ذرة عنصر هو أخ ثالث للهليوم . ولكن الطبقة الكهيربية الرابعة تنمو إلى أكثر من الثمانية بكثير . هذه هى الحقيقة الأولى .

والحقيقة الثانية هى أيضا ذات شعب ، وتتلخص فى أن الخواص الكيماوية للذرة تتوقف على الطبقة الكهيربية الأخيرة التكون أو العليا أو الخارجة ، كما تحب أن تقول ، بصرف النظر عما تحتها من الطبقات . فالعناصر المتحدة ذراتها فى عدد كهيربات هذه الطبقة الخارجية متشابهة فى خواصها الكيماوية ، وتكون فيما بينهما أسرة عنصرية . فكل العناصر الجامدة التى تحتوى ذراتها على كهيرب واحد فى الطبقة الخارجية تكون أسرة واحدة من عناصر فعالة جدا هى أسرة الصوديوم . وكل العناصر التى تحتوى ذراتها على ثمانية كهيربات فى طبقتها الخارجية تكون أسرة واحدة من عناصر ميتة كيماويا هى أسرة الهليوم . وبين هاتين أسر أخرى . وكلها تختلف فى خواصها الكيماوية حسب عدد الكهيربات فى الطبقة الخارجية أشفع هو أم وتر ، مع فروق بالطبع بين خواص أعضاء كل أسرة لاختلاف تركيبها الكلى .

لقد بدأنا بالعنوان (إحاطة القرآن باختراعات الإنسان) فإذا به يتحول فى صميمه إلى حديث فى بيان سر واحد ، أو بالأحرى بعض ذلك السر ، من أسرار قسمه تعالى بالشفع والوتر . لكن هذا البيان ذو صلة وثيقة بموضوع العنوان ، فإن العناصر من فلزية ولافلزية ، ومن شعّاعة وغير شعّاعة ، هى وبعض سبائكها ومركباتها قوام المخترعات ، أو هى معدن خاماتها . فالقرآن الكريم بذلك القسم الباهر ، الذى لا يصدر إلا من الإله الخالق العليم القادر ، قد أحاط من اختراعات الإنسان بركن من أركانها الأساسية العملية التى بدونها لا تقوم للإختراعات قائمة ، كما قد أحاط ، فى آياته المتعلقة بنعمة الله على الإنسان فى العلم ، بالناحية النظرية التى هى أيضاً أساس تلك الإختراعات . فالقرآن محيط بالإنسان واختراعاته من كل جانب

إحاطة القرآن بالإنسان واختراعاته — ٣ —

هذه دعوى عريضة مسلمة فى نصفها الأول ، أى فى إحاطة القرآن بالإنسان ، فإن القرآن إنما أنزل لهداية الإنسان فى دنياه بحيث يسعد فيها ، وفى أخراه إن هو عمل به (أى بالقرآن) فكل ما يتعلق بحياة الإنسان وهدايته فيها قد أحاط به القرآن الكريم مفسرا بالسنة المطهرة فى ضوء العقل استقراءا واستنباطا . والتسليم بهذا يقتضى التسليم بالشق الثانى من تلك الدعوى فى حدودها التى بيناها من قبل ، وذلك لا لبعد أثر الإختراعات فى حياة الناس المدنية والعملية فحسب ، ولكن لأن الاختراعات هى مظهر ما أودع الله فيما حول الإنسان من أسرار حكمة الله ودلائل قدرته الهادية إليه سبحانه . ومن السنة القرآنية فى هداية الإنسان إلى ربه أن يلفته إلى أسرار ما فطر الله عليه الخلق من ناحية ، وإلى نعم الله عليه فى ذلك كله من ناحية أخرى .

والاختراعات من غير شك هى من أجل نعم الله على الإنسان ، وهى من هذه الناحية قد أحاط بها كتاب الله الكريم عن طريق الآيات التى من الله فيها بنعمه على الناس مثل قوله (وما بكم من نعمة فمن الله ـ النحل ٥٣) . والصيغة كما ترى إستغراقية تستغرق كل نعمة كانت موجودة حين نزل القرآن ، وكل نعمة وجدت أو توجد بعد نزوله مهما تطاولت العصور ، إذ الخطاب فى هذه الآية وأمثالها ليس مقصورا على الناس فى عهد نزول القرآن على الرسول الكريم ، ولكنه موجه إلى الناس فى كل عصر بعد ذلك بحكم أمره تعالى رسوله أن يقول (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ــ الأنعام ١٩) ، فإن قوله (ومن بلغ) يجعل الخطاب موجها إلى كل جيل يبلغه القرآن .

والاختراعات طبعا مما يتفاضل به أهل العلم أو تتفاضل به الأمم ، وإذن فقد أحاط به من هذه الناحية قوله تعالى (ويؤت كل ذى فضل فضله ـ هود ٣) وقوله (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك . وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ـ الإسراء ٢٠ و ٢١) فالمؤمن والكافر سواء

فيما آتاهم الله من فضل ، وما أمدهم به من عطاء . والاختراعات وأسبابها وما تأتى به من خير هى من عطاء الله وفضله لا ريب .

فإذا نظرنا فى الاختراعات من حيث ذاتها ، أى من حيث هى أشياء ، وجدنا القرآن أحاط بها فى آياته التى تعرف الإنسان بربه عن طريق خلقه ، من نحو قوله تعالى (قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار — الرعد ١٦) و (الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل — الزمر ٦٢) . فأمثال هاتين الآيتين من ناحية شيئية الاختراعات ، وتلك الآيات من ناحية نعمة الله وفضله على الناس فيها ، هى فى العموم والإجمال سواء . لكن هناك آيات أقل عمومية وإجمالا من هذه لأنها أدل على خصائص الاختراعات .

وأول خصائص الاختراعات أنها تقوم على التقدير ، كل شىء فيها مقدر محسوب ، وإذن فالقرآن الكريم قد أحاط بها فى مثل قوله تعالى ، يعرف نفسه سبحانه وكتابه ورسوله إلى الناس (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا — الفرقان ١ و ٢) فالآية الأولى تشهد بما ذكرنا قبل من أن الخطاب فى القرآن هو للناس كافة فى كل العصور ، والآية الثانية تشهد أولا أن كل ما فى السموات والأرض هو ملك لله لا شريك له فيه . وإذن فما ملكه الإنسان أو يملكه ويستخدمه من ذلك فبإذن الله يملكه ويستخدمه . وهذا هو حكمة الأمر فى الحديث الصحيح بالبسملة كلما شرع الإنسان فى عمل . وتشهد الآية ثانياً أن كل شىء فى السماء أو الأرض قد خلقه الله ، لا اعتباطا ولا فوضى ، ولكن بسنن متسقة مطردة وبقدر محسوب موزون .

واختراعات الإنسان إن هى إلا أشياء تقوم على الحساب العلمى والتقدير الصناعى فى الكم والكيف ، وإن كان التقدير فى الآية الكريمة يشمل إلى ذلك التقدير الزمنى الذى هو أظهر وأوضح فى قوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر — القمر ٤٩) فالإنسان يحسب اختراعاته ويقدرها بما علمه الله ، ويصنعها

ويتقنها بما أقدره الله ، لكن ذلك لا يتحقق ولا يكون إلا فى الوقت الذى قدره وأراده الله ، فسبق إنسان إنساناً أو أمة أمة إلى علم أو اختراع — كسبق الأمريكان الروس فى الأول إلى سر تفجير الذرة ، ولحاق الروس بالأمريكان فى ذلك ، ثم سبقهم إياهم إلى القمر الصناعى والصاروخ البعيد المدى — ذلك كله ، كما قدر الله كمه وكيفه قدر زمنه ، لحكمة يعلمها ، تجلى منها ما تجلى ، وسيتجلى خافيها بعد للناس .

ولا يساورن أحدا شبهة فى أن الله سبحانه هو خالق الإختراعات ، وإن خلقها على يد الإنسان كما خلق المعجزات على أيدى الأنبياء ، مع الفرق الهائل بين الاختراعات والمعجزات من حيث إمكان الأولى على أيدى الناس بهدى الله وتعليمه ، واستحالة الثانية على الناس مهما علوا واجتهدوا فى الابتكار ، فإن ساورت أحدا شبهة فى ذلك فليقرأ قوله تعالى على لسان نبيه إبراهيم إقامة للحجة على قومه (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون — الصافات ٩٥ و ٩٦) فإن نحت التماثيل والأصنام كصب ما يصب ، وسبك ما يسبك ، وخرط ما يخرط ، من أجزاء الاختراعات ، ثم تركيبها بعد ذلك ، آلات أو طيارات أو مراكب أو قيرات أو صواريخ ، فإذا كان الله سبحانه هو خالق ما عمل قوم إبراهيم من أصنام ، فهو سبحانه أيضاً خالق ما عمل الإنسان ويعمل من اختراعات . ولنتذكر دائما القاعدة الأصولية ، قاعدة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . واللفظ فى قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) عام يشمل كل ما شكل أو يشكل الإنسان من مواد الأرض وعناصرها لغرض مخصوص .

ومواد الأرض وعناصرها قد خلقها الله على صفات وخواص تجعلها صالحة لكل ما يعمل الإنسان منها لتحقيق أغراضه ومنافعه ، وإلى هذا الإشارة فى قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً — البقرة ٢٩) . وتيسير ذلك للإنسان وتطويعه وتمكين الإنسان منه بالعلم والعمل هو من التسخير الذى من الله به على الناس فى قوله سبحانه (ألم تر أن الله سخر لكم

ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره — الحج ٦٥) وأمثالها من آيات الكتاب العزيز . ولولا هذا التسخير والتيسير ما استطاع الإنسان اختراعا ولا تصرفا فى الأرض ، ولعاش فيها كما يعيش الحيوان الأعجم ، يأكل من نباتها ويفترس من حيوانها ولا يزيد .

وذكر تسخير الفلك على الخصوص بعد العموم فى الآية الكريمة له دلالته الكبرى فيما نحن بصدد بحثه . فإن السفن هى من صنع الإنسان ، ومع ذلك فقد من الله على الناس بتسخيرها لهم . فهذا يشهد أولا أن ما يصنعه الإنسان فهو بهدى الله وتيسيره ، ولله على الإنسان المنة فيه . ويشهد ثانياً أن كل ما انتفع الإنسان به طبق بعض سنن الله فيه فلا فضل للإنسان فيه قط ، وإنما الفضل فيه لله . وعلى الإنسان فيه واجب الشكر . وسنة الله فى الطفو ، طفو الأجسام فى السوائل معروفة مشهورة فى علم الطبيعة كما قدمنا (انظر صفحتى ١٩٢ و١٩٣)ولولا اتباع الإنسان هذه السنة فى بناء السفن لغرقت كل سفينة فى بحر ، ولبطل اختراع الإنسان للسفن .

وجرى السفن فى البحر يحتاج مع الطفو إلى قوة دافعة ، ولقد من الله على الناس بالريح فى إجراء السفن حين كانت الريح هى القوة الدافعة الكبرى فقال (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور — الشورى ٣٢و٣٣) والريح لا يقدر على تحريكها وتوجيهها وإسكانها إلا الله . أما النار التى اتخذها الإنسان وسيلة لدفع السفن عن طريق ضغط البخار فقد من الله على الإنسان لا بأنه إن يشأ أطفأها ، فهذا فى مقدور كل إنسان . ولكن بأنه سبحانه أوجدها بإيجاد ما يحترق (أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم — الواقعة ٧١ — ٧٤) .

والحرارة التى تنشأ عند الاحتراق مصدرها الأصلى الشمس ، خزنها الله للإنسان فى النبات طاقة كيماوية عن طريق تغذى النبات بثانى أكسيد

الكربون الموجود فى الهواء بفعل المادة الخضراء فى ورق الشجر إذا تعرض لضوء الشمس المباشر أو غير المباشر ، على اختلاف فى الدرجة طبعا . وإلى تلك الإشارة فى قوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون — يس ٨٠) .

والفحم الحجرى أصله الشجر ابتلعته الأرض بزلزال أو نحوه فتفحم فى جوفها بالضغط والحرارة . وزيت البترول أصله عضوى . والمواد العضوية كلها أصلها الأول نباتى ، حتى الحيوانى منها ، لأن آكلة اللحوم من الحيوانات إنما تعيش على آكلة النبات . فسبحان الله العظيم الذى علم أن النار لا بد لنا منها فى الحياة ، فأنشأ لنا من بين البذور أو النوى من ناحية ، وماء الأرض وترابها وهوائها وضوء الشمس من ناحية أخرى ، شجرا نستوقده نارا نستخدمها كما هى فى أغراضنا أو نحولها إلى ما نحتاجه من طاقة أخرى .

وكما أن الفلك قد سخرها الله للإنسان مع صنع الإنسان إياها ، فكذلك غيرها من اختراعات الإنسان سخرها الله للإنسان بهديه إلى صنعها من ناحية ، ولجريها على سنة أو سنن لله فيها من ناحية أخرى . وليس هناك اختراع إلا وهو يجرى على سنة أو سنن لله لولاها ما جرى وما كان . فلو لم يكن فى آى القرآن الكريم ما يشير إلى غير الفلك مما صنع أو يصنع الإنسان ، لكان فى القياس على الفلك وتسخير الله إياها إشارة كافية . والقياس فى الإسلام أصل من أصول النظر والاستنباط بحكم قوله تعالى (أفلا تتفكرون) و (أفلا تعقلون) و (فاعتبروا يا أولى الأبصار) .

لكن الأمر أقرب وأيسر من هذا . إذ هناك فى القرآن إشارات إلى غير الفلك من الاختراعات عن طريق العام من النصوص ، فمثلا قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا — الإسراء ٧٠) نص هو من العموم بحيث يشمل كل ما يمكن أن يأتى به الإنسان مما يشهد له بفضل ، أو يوسع الله به على الناس فى

الرزق . وإذا تذكرنا أن الله سبحانه يخاطب بالقرآن الناس فى كل عصر جاء أو يجىء بعد نزوله فإن من الواضح أن قوله (وحملناهم فى البر والبحر) مطلق غير مقيد بطريقة خاصة للحمل . فهو فى كل عصر يفيد كل ما يستعمله فى الحمل أهل ذلك العصر — يفيد فيما قبل عصر الاختراع ما كان يركبه الإنسان فى البر من حيوان أو عربات تجرها أو يركض بها الخيل أو الكلاب ، وما كان يركبه فى البحر من قوارب وسفن خشبية تسير بالجداف أو الشراع . ويفيد فى عصر الاختراع والعلم الحديث كل ما جد ، أو يستجد . فى البر والبحر من آلات الحمل والانتقال .

وإذا سأل سائل : فأين تجد فى القرآن الإشارة إلى وسائل الحمل فى الجو ؟ أجيب بأن فيه على الأقل إشارتين : الأولى فى قوله تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون — يس ٤١ و٤٢) وبصرف النظر عما فى كلمة (ذريتهم) من الإشارة فى كل عصر إلى ما يمكن أن يدخله الاختراع من تحسين فى الفلك فى المستقبل ، فإن الإشارة العجيبة المقصودة هى فى قوله (من مثله) ، وقد كان الناس ، ولعلهم لا يزالون ، يفهمون من هاتين الكلمتين ركائب حيوان البر ، خصوصا الإبل التى شبهها طرفة العبد بالسفينة من قديم ، والتى لا يزال فى الناس من يسميها سفن الصحراء . وعلى هذا الفهم لا يكاد يكون هناك وجه شبه بين الفلك وبينها إلا مجرد الحمل أو الركوب عند قطع المسافات الطويلة . وهو وجه شبه كاف فى وقته وإن لم يكد يحقق شيئاً من المثلية المشار إليها فى الآية ، اللهم إلا عن طريق المجاز .

لكن قوله تعالى (من مثله) يقتضى وجه شبه أمكن من مجرد الركوب وقطع المسافات . يقتضى صفة من الصفات الخاصة بالفلك تتوافر فى ذلك الذى خلقه الله ليركبه الناس وذريتهم . وواضح أن أظهر صفات الفلك أنها تسبح فى انتقالها حقيقة لا مجازا . فإذا وجد فى أى عصر — والقرآن مخاطب به كل عصر — من وسائل الانتقال والركوب فى غير البحر ما يشارك الفلك فى صفتها الأساسية

هذه من السبح ، كان ذلك هو الأولى أن يكون المراد بقوله تعالى (من مثله) فى الآية الكريمة الثانية . ووسائل الانتقال عن طريق الجو هى التى تتصف عليها بهذا الوصف الأساسى فى الفلك ، فإن الطيارة فى الجو تسبح فى الهواء كما تسبح السفينة فى الماء . فهذا إذن هو الوجه الذى ينبغى أن تفهم عليه هذه الآية فى هذا العصر الحديث ، فإن القرآن يفهم منه أهل كل عصر بقدر ما أوتوا من العلم . (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ـ العنكبوت ٤٣)، ويكون الفهم أولى وأجدر بالتقديم ، أى أقرب إلى مراد الله فى كتابه ، كلما كان أكثر اعتمادا على فهم العبارة القرآنية على الحقيقة لا المجاز .

تلك إذن إحدى الإشارتين . أما الثانية فهى فى قوله (والسابحات سبحا) من آيات أول سورة النازعات — وهى إشارة من باب القسم الذى نبهنا إليه من قبل . وواضح أنها إشارة أعم كثيراً من أختها ، لأنها تشمل كل سابحة فى ماء أو هواء أو مائع أيا كان . فهى تشمل حيوان البحر وسفنه ، كما تشمل طير الجو وطياراته . بل هى تشمل الكواكب والنجوم التى أخبر الحق سبحانه بأنها تسبح فى أفلاكها (كل فى فلك يسبحون — الأنبياء ٣٣) . وإلى هـــذا المعنى ذهب بعض أئمة التفسير . لكن لا داعى لهذا التخصيص مادام القسم على ذلك الإطلاق . والمفعول المطلق (سبحا) يدل على أن المراد من السبح حقيقته لا مجازه . وعلى أى حال فالقاعدة فى فهم القرآن أن يفهم أولا على الحقيقة ، فإن لم تمكن فعلى المجاز . والحقيقة هنا ممكنة فى كل ما ذكرنا . بل هى تشمل هذه الصواريخ التى يتحدثون عنها ويهدد بعض الأمم بها بعضاً ، كما تشمل القمير الصناعى الذى أطلقه أو يطلقه الروس أو الأمريكان أو غيرهم من أمم الأرض . إنها كلها فى فترة دورانها حول الأرض تسبح فى فضاء الله بإذنه كما تسبح الكواكب فى أفلاكها .

وقد انتهى بنا المطاف الآن حيث بدأنا ، فقد كان الذى دعا إلى هذا البحث تساؤل بعض الناس عقب إطلاق الروس قميرهم الأول : أين الإشارة إليه فى القرآن ، وقد قال الله سبحانه (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) . ولما كنا

نرى أن قصر معنى (الكتاب) فى الآية على اللوح المحفوظ أشبه بالتهرب من الجواب وأن المعنى يشمل القرآن واللوح المحفوظ كليهما ، وأنه إذا كان لا بد من قصره على أحدهما فالقرآن أولى به . وإذن لا يكون القمير أولى بالتساؤل عنه من أى اختراع كان أو يكون للإنسان .

ولما كان هـذا هو الرأى فى اعتقادنا فقد رأينا أن نقوم بهذا البحث سدا لباب فتنة قد يفتحها الشيطان على من قـد تبلغه الشبهة من الشباب ، إن عاجلا وإن آجلا ، ولا يجد لها جوابا . والرجاء فى الله أن نكون قدبلغنا من ذلك بتوفيقه سبحانه ما فيه مقنع إن شاء الله لمن يقرأ هذه الفصول بقلب متسع لقبول الحجة ، غير مسدود باستبعاد أن يشير القرآن إلى الاختراعات ، لأنه كتاب أنزله الله لهداية الناس ، كأن الاختراعات ليست من أكبر آيات الله للناس ، وأدلها عليه سبحانه ، أو كأنها ليست المظهر العملى أو الدليل المحسوس الملموس على كثير من سنن الله فى الكون .

تتمة إحاطة القرآن باختراعات الإنسان ـ ٤ ـ

بقيت فى هـــذا الموضوع بقية وإن كانت غير ضرورية لتحقيق الغرض الذى من أجله كتبت هـذه الكلمات . واستتمام البحث يقتضى الإلمام بهـذه البقية . لكننا قبل البدء فى ذلك نحب أولا أن نذكر القارىء بالحديث الشريف الذى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبالأثر الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه اللذين استشهدنا بهما فيما سبق على صحة المذهب الذى ذهبناه فى الاستدلال بالنصوص والإشارات القرآنية العامة التى أوردنا بعضها فى المـاضى دليلا على إحاطة القرآن الكريم باختراعات الإنسان . ونحب ثانيا أن نزيد القارىء اطمئنانا على اطمئنان أننا لم نتكلف فى فهم الآيات ولم نبتدع ، وذلك بإيراد ما قاله إمام من أئمـة التفسير فى آيتين أو ثلاث من مثل ما استشهدنا به من العام الشامل من آيات القرآن .

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ـ البقرة ٢٩) « وجمع بقوله مافى الأرض جميعاً جميع المنافع فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال. ومنها ما يتوصل بضروب الحرف والأمور التى استنبطها العقلاء ، وبين تعالى أن كل ذلك إنما خلقها كى ينتفع بها كما قال (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، الجاثية ١٣) . وواضح أن ضروب الحرف والأمور التى استنبطها العقلاء تشمل مانسميه اليوم بالاختراعات. وقال فى تفسير قوله تعالى (الذى خلق فسوى ـ الأعلى ٢) « قوله خلق فسوى يحتمل أن يريد به خلق الناس خاصة ، ويحتمل أن يريد الحيوان ، ويحتمل أن يريد كل شىء خلقه » . وواضح أن الإحتمال الثالث يغنى عن الاحتمالين الأخيرين ، فهما وغيرهما مندرجان تحته . فهو الوجه فى فهم الآية ، خصوصاً إذا تذكرنا ما هو معروف فى اللغة من أن حذف المفعول يفيد العموم .

وقال فى تفسير قوله تعالى (والذى قدر فهدى ـ الأعلى ٣) « إن قوله (قدر) يتناول المخلوقات فى ذواتها وصفاتها ، كل واحد على حسبه . فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم ، وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ، ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقداراً معلوماً كما قال (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ـ الحجر ٢١) . وتفصيل هذه الجملة مما لا يفى بشرحه المجلدات ، بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل سافلين تفسير هذه الآية وتفصيل هذه الجملة » . والجثة فى كلام الإمام المفسر هى المعروفة الآن بالكتلة فى اصطلاح علماء الطبيعة ، والعظم هو المعروف بالحجم ، والأيون جمع (أين) يريد بها الأماكن والمواطن . وواضح أن اختراعات الإنسان بجوانبها المتعددة داخلة فى هذا الذى ذكر الامام فى تفسير « وقدر » واهتداء الإنسان اليها بإذن الله داخل لا شك فى قوله تعالى « فهدى » فإن حذف المفعول كما قلنا يفيد العموم .

لكن القرآن كما أحاط باختراعات الإنسان من الناحية العـــامة أحاط أيضا بجوانبها الخاصة. وقد ذكرنا فى الكلمات السابقة بعضاً من هذه الجوانب وبقى بعض ، ذكرنا فيما ذكرنا الاشارة القرآنية إلى تركيب العناصر ، وهى لابد منها فى العيش وفى كل إختراع ، تلك الاشارة عن طريق القسم فى قوله (والشفع والوتر) كما بينا من قبل فى شبه تفصيل . لكن الإشارات القرآنية ذهبت وراء ذلك فتناولت مثلا مواطن خامات العناصر التى تستخرج منها ، ودلت عليها بألوانها فى قوله تعالى فى الآية ٢٧ من سورة فاطر (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) . فالسواد والحمرة يغلبان على خامات أهم العناصر الداخلة فى الإختراعات . كالحديد والنحاس والمنجنيز ، والبياض يغلب على خامات عناصر مهمة أخـــرى كالألومنيوم والمغنسيوم والخارصين . والألوان الأخرى لهذه ولغيرها من العناصر تتكون من هذه الألوان الثلاثة بنسب مختلفة ، وإليها الإشارة فى قوله تعالى (مختلف ألوانها) .

فالقرآن الكريم قدأشار إلى العناصر التى لا بد منها فى كل إختراع من ناحية الاختلاف بينها فى التركيب من اللبنات الثلاث التى خلق الله منها كل عنصر ، أعنى الإلكترون والبروتون والنيوترون كما يسميها الإفرنج ، أو الكهيرب والأبيب والعويطب كما ينبغى أن تسمى فى العربية ، كما أشار إلى تلك العناصر من ناحية مواطنها وألوان خاماتها فى الجبال .

وأهم تلك العناصر كلها من حيث دخوله فى كل إختراع هو الحديد . وقد صرح به القرآن وخصه بالذكر لأهميته البالغة فى حيـــاة الإنسان فى سورة سميت باسمه ، وذلك فى قوله من سورة الحديد (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ـ الحديد ٢٥) . وفى قوله (وأنزلنا الحديد) معجزة قرآنية علمية ، لأن التحليل الطيفى قد أثبت أن الحديد عنصر من عناصر النجوم والشمس التى انفصلت

عنها الأرض انفصالا أشار إليه القرآن فى سورة الأنبياء (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما — ٣٠) فكأن الله سبحانه وتعالى أنزل الحديد من الشمس مع الأرض لينتفع به الإنسان فى اختراعاته كما ينتفع به فى دمه . وهاتان الآيتان الكريمتان كل منهما مثل عجيب من أمثلة الإعجاز العلمى للقرآن .

والحديد وغيره من العناصر يستخرج من خاماته بواسطة النار ، أو ما تتحول حرارتها إليه من طاقة كهربائية مثلا . وإلى هذا الجانب أشار القرآن إشارة عجيبة فى مغزاها ووضوحها وذلك فى قوله من سورة الرعد (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض — ١٧) . وفى هذه الآية الكريمة إشارة أحاطت بفن التعدين الذى هو أساس كل اختراع .

والنار لابد منها طبعا فى الاختراعات وغيرها ، فهى جانب من الجوانب التى بدونها لا تقوم لاختراع قائمة . وقد ذكرنا فيما سبق كيف من الله على الإنسان بالنار فى آية سورة يس وآيات سورة الواقعة من حيث النشأة على الأخص . وقد رأينا فى الآية السابقة كيف أشار الله سبحانه إليها من حيث الاستعمال فى غير العادى من الأمور كالطهى والاستضاءة .

وليست هذه هى الإشارة الواحدة التى تشمل استعمال الإنسان النار فى اختراعاته ، فهناك على الأقل إشارتان أخريان ، إحداهما صريحة والأخرى ضمنية . أما الصريحة ففى قصة السد وابتناء ذى القرنين إياه (آتونى زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً . فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا — الكهف ٩٦و٩٧) . وفى هاتين الآيتين إشارة إلى جانب آخر من أهم جوانب التعدين من ناحية ، والاختراعات من ناحية أخرى . فإن الحديد النقى ليس فى قوة بعض سبائكه ، فأنواع الفولاذ كلها هى من سبيك الحديد مع قليل من

الكربون أو غيره كالمنجنيز . وفى الآية إشارة إلى باب السبائك كلها بذكر مثل منها ، مثل سبك الحديد والنحاس معا ، إذ القطر هو النحاس .

أما الإشارة الأخرى الضمنية ففى قوله تعالى تذكيرا بنعمه على سيدنا داود (وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر فى السرد ـ سبأ ١٠ و ١١) . وإذا كان الله سبحانه ألان الحديد لنبيه داود معجزة بغير نار ، ففى الآية الكريمة تعليم ضمنى لغير داود أن يلين الحديد بالنار ، حتى يستطيع أن ينتفع به فى اختراعاته المضروب لها هنا المثل بعمل الدروع السابغة ، والمضروب للتقدير الضرورى فيها المثل بالتقدير فى السرد الذى أمر الله به نبيه داود ، وذكره فى القرآن تعليما وتنبيها للإنسان إلى ما ينبغى عليه فى كل اختراع .

ولن يستغنى الإنسان قط فى حياته وصناعاته عن النار من مصادرها الحاضرة ، ولكن سيستغنى عنها قريباً أو بعيدا فى بعض الصناعات والاختراعات بالطاقة الذرية إن استطاع الإنسان تحكما فيها وتصريفا لها فيما ينفع ، بدلا من استعمالها للتدمير فى قنابله الذرية والإيدروجينية . والعناصر الشعاعة لم يكتشفها العلم إلا فى أواخر القرن الماضى . والطاقة الهائلة المخزونة فى الذرة لم يتنبأ بها العلم إلا فى أوائل هذا القرن . ولم يتمكن من استخدامها ، ولو للتدمير ، إلا فى أواخر الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، بعد إنفاق مئات الملايين من الدولارات فى إنتاج قنبلتين ذريتين اثنتين ، دمر بهما الأمريكان هيروشيما ونجزاكى ، فأرغما اليابان بذلك على التسليم وليس هذا مقام التعريف بالإشعاع الذرى والطاقة الذرية . لكن مهما يكن من أمرهما وطرق إنتاجهما واستعمال الإنسان لهما ، فهما وما إليهما داخلان تحت إشارتين شاملتين فى آيتين كريمتين على الأقل ، آية سورة النمل ، وآية سورة سبأ أو سورة الحديد .

أما آية سورة النمل (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ـ ٢٥) ، فواضح أنها تشمل كل مخبوء فى السماء أو فى الأرض يظهره الله للإنسان متى شاء وكيف شاء . فهى تشمل

طاقة الشمس وطاقات النجوم المتولدة فى بواطنها من المتفجرات الذرية والتفاعلات النووية ، والتى لولاها لانطفأت الشمس والنجوم من زمان بعيد، وتشمل فيما تشمل العناصر الشعاعة فى الأرض كاليورانيوم والراديوم التى تنفث أشعتها الكهربية (أو الإلكترونية كما يسميها الإفرنج اشتقاقا من كلمة كهرباء عندهم) المعروفة بأشعة باء (أو بيتا عند الإفرنج تسمية بحرف الباء اليونانى) . وتنفث أشعتها الهليومية الموجبة التكهرب المعروفة بأشعة ألف (أو ألفا عند الإفرنج باسم حرف الألف اليونانى). ثم أشعة صرفة ، لا كهربية ولا مادية ، شديدة النفاذ لشدة قصر موجاتها . تعرف بأشعة جيم (أو جاما عند الإفرنج باسم ثالث الأبجدية اليونانية) . وهذه الأشعة تخرج من ذرات العناصر الشعاعة أينما كانت وكيفما كانت بنفس السرعة المذهلة ، وعلى نفس النمط المقدر العجيب الخاص بكل عنصر شعاع ، لا يستطيع الإنسان له تقديما ولا تأخيرا ولا تبديلا ولا تغييرا. فالله وحده هو الذى يخرج خبء تلك العناصر فى مواطنها من الجبال والرمال ، وفى مركباتها ومخازنها الرصاصية فى معامل الإنسان .

وأما آية (٢) من سورة سبأ أو (٤) من سورة الحديد (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) فهى على عمومها أخص من الآية السابقه ، فتلك تتعلق بإخراج كل مخبوء فى العالم كله ، وهذه تتعلق بالخبء بعد إخراجه ، وما يتصل منه بالأرض على الأخص . وليس كل ما ينزل من السماء ينزل نحو الأرض ، فالنزول أمر نسبى ، والأعلى بالنسبة لجزء هو أسفل بالنسبة لجزء آخر من السماء . وليست الأرض بالسيار الوحيد فى المجموعة الشمسية فتكون هى مرمى ما يرد على تلك المجموعة . وليس كل ما ينزل نحو الأرض من السماء يصل إلى الأرض ، وإلا لما طابت الحياة على الأرض لكثرة ما تمطر به من النيازك ، بل لهلك الإنسان والحيوان بفيض الأشعة النفاذة المهلكة الآتية إلى الأرض من الشمس ، ومن النجوم ، ومما لا يعلم علمه إلا الله الذى يحمى الأرض من شر ذلك كله بما يشاء وبالغلاف الهوائى الذى تحترق النيازك فيه ، والذى يمتص ، خصوصا بطبقة

الأوزون الرقيقة التى تعلوه ، كثيراً من تلك الأشعة الضارة ، من فوق البنفسجية ، أى الأقصر موجة من الأشعة البنفسجية فى ضوء الشمس ، ومن الأشعة المسماة بالأشعة الكونية ، وهى أقصر جميع الأشعة المعروفة موجة ، وأعظمها من أجل ذلك نفاذا فى الأرض ، وأضرها بالإنسان الذى لايدرى كيف تكونت فوق الأرض إلا ظنا ، والذى يحاول الآن أن يتعرف بعض أمرها بما يرسل حول الأرض من قميرات .

فالله سبحانه يعلم مايلج فى الأرض من ذلك ومن غيره ، ويعلم ما يخرج من الأرض من أشعة الطاقة الذرية للعناصر الشعاعة التى لاسلطان للإنسان على نمط تحللها الإشعاعى . ومن الأشعة التى يتحكم فيها الإنسان عند إرسالها ، ويخرج أكثرها بعد ذلك عن حكمه ، أشعة الراديو . كما يعلم سبحانه مايخرج من الأرض إثر التفجيرات الذرية أو الأيدروجينية ، وما يخرج منها من صواريخ تنطلق فتعود أو لاتعود إلى الأرض ، ومن قميرات مصنوعة يطلقها الإنسان يتعرف بها فضاء ما فوق هواء الأرض ، ويحاول أن يرهب أو يخضع بها أخاه الإنسان .

وقد ختم الله آية سبأ بذكر رحمته ومغفرته (وهو الرحيم الغفور) إشارة إلى وقاية الأرض من شرماينزل من السماء مما يضر أهل الأرض ولايدرونه ، ولوشاء لأهلكهم به بذنوبهم . وختم سبحانه آية الحديد بتذكيره أهل الأرض بأنه سبحانه معهم بعلمه وسلطانه أينما كانوا (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير — ٤) ، كأنما يحذرهم سبحانه إذا بلغوا من العلم والقوة ما علم أنه سيفتح بابه لهم ، أن يغتروا أوأن يطغوا بالصواريخ أوالقميرات أوالأشعة القاتلة يطلقونها على الناس من جو السماء . فإنه سبحانه معهم يعلم ما يعملون ولو شاء لأهلكهم بنفس ما اغتروا وطغوا به ، إن هم لم يرجعوا إلى الله ، ويحسنوا القيام على ما استخلفهم فيه . وعندئذ يصبح العلم وسلطانه نقمة على الإنسان كما تبين فى الحربين العالميتين التى مضت أولاهما ، ولا تزال آثار أخراهما تظل أهل الأرض وتهددهم إلى اليوم .

حتى هذه الناحية ، ناحية انقلاب اختراعات الإنسان وبالا عليه ، إن هو لم يتق الله فيها ويحسن استعمالها فيما ينفع الناس — حتى هذه الناحية من نواحى الاختراعات قد أحاط بها القرآن فى مثل قوله تعالى (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ـ الرعد ١١) ، وقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض — الأنعام ٦٥) . وليس العذاب من فوق مقصورا على الصواعق والبراكين ولا العذاب من تحت مقصوراً على الزلازل . بل كل ما ينطبق عليه وصف الفوقية أو التحتية من العذاب وأسبابه داخل فيما أوعد الله عباده به فى أول الآية ، وما خرج عن هذين الوصفين فهو داخل فى آخر الآية (ويذيق بعضكم بأس بعض) .

وإذن فالآية قد أشارت إلى كل اختراع يصب بواسطته الدمار من فوق ، من نحو مدفع أو طيارة أو صاروخ أو قير ، أو يصب الدمار بواسطته من تحت ، من نحو غواصة أو لغم أو طوربيد ، وإلى ما بين ذلك من وسائل الدمار من نحو مدفع رشاش أو مصفحة أو دبابة . فإن كل شىء غير هذا مما لا يخطر على بال أحد الآن قد أحاط به القرآن فى مثل قوله (وما يعلم جنود ربك إلا هو — المدثر ٣١) .

والإختراعات من حيث هى مصدر قوة لأمة على أمة قد أحاط بها القرآن فى قوله تعالى خطابا للجماعة الإسلامية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم — الأنفال ٦٠) ، وقوله (ما استطعتم من قوة) يوجب على المسلمين فى كل عصر إحراز كل علم يوصل إلى كل اختراع يجعل لهم القوة والغلبة دائما للحكمة التى ذكرها الله فى آخر الآية ، فإنه لا يزال لهم فى الظاهر أو الباطن عدو ، عرفوه أو جهلوه ، لا يكفيهم شره إلا خوفه من تلك القوة الغالبة التى أمرهم الله بإعدادها .

وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم تلك القوة الواجب إعدادها قدر المستطاع بأنها الرمى بقوله (ألا إن القوة الرمى)، وقد يكون صلى الله عليه وسلم قالها للمرة الثالثة . لم يقل إن القوة السيف ولا الرمح ، ولا إن القوة الرمى عن القوس والمنجنيق ، وهي آلات الحرب فى عصره ، ولكنه حين جعل الرمى هو القوة أطلقه ليكون له فى كل عصر وسائله التى تليق بتقدم علوم القوة فى العصر الذى يعيش فيه المسلمون ، ولا يزال الرمى إلى الآن هو القوة . وسيظل كذلك فيما يستجد من العصور ، وإن ترقت وسائله وصارت أشد فتكا .

فكما حل الرصاص والقنابل محل السهام ، وحلت الدبابات والمصفحات والطيارات القاذفة محل الخيل ، انقلبت الطيارات إلى نفاثات سرعتها تسبق الصوت فتدهم من غير أن يسمع لها حس ، وتفتك من غير أن يعصم منها حصن ، وبقنابل تكفى إحداها لتدمير المدينة الآهلة بالملايين . وتعدى الأمر سبق الصوت إلى سبق الرادار ، فلا ينفع رادار فى إنذار مع الصواريخ الذرية والايدروجينية عابرة القارات والمحيطات ، بل يوشك الخطب أن يفوق كل ذلك فلا تنفع فى دفعه حيلة ولا علم ، إذا انقلبت القميرات الدوارة حول الأرض إلى وسيلة لرش الأرض ورجمها بالطاقة الذرية ، حتى صار كل الأمل فى منع الدمار محصورا فى خشية أن يعم الدمار .

ذلك مثل رائع للأمر القرآنى يصدق على مر الزمان ، وللإشارة القرآنية تحيط بكل وسائل القوة التى يمكن أن يخترعها الإنسان ، ثم هو مثل رائع لتفسير الرسول للنص القرآنى بوحى من الله تحقيقاً لقول الله (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون — النحل ٤٤) . وبعد فهل يا ترى بقى من جوانب اختراعات الإنسان جانب لم يحط به القرآن ؟

﴿ تم بحمد الله ﴾

محتويات الكتاب

الكتاب الأول

الاسلام دين الفطرة

الكتاب الثانى

محمد رسول الهدى

صفحة

الكتاب الثالث

القرآن المعجزة الخالدة

تصويب

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٩	الأنسان	الإنسان
٢	٢٣	واصاف	واتصاف
٣	١٤		يدرسها
٤	الأخير	قراءتها	قرائنها
٧	٣	ياديه	بتأديبه
٢٢	٧	آية ٢٤	آية ٣٤
٢٣	١٨	٩١ – ٩٥	٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥
٢٥	٤	فلسين	فلسطين
٢٧	٢	عاهدتهم	عاهدتم
٢٩	٤	احدما	أحدها
٣٠	١٤	له	الله
٣٠	١٩	اينونى	إئتونى
٣١	١٥	قرأنى	قرآنى
٤٥	٢٠	للتحميص	للتمحيص
٥٤	١٤	بسيصه	بسيطة
٥٦	١٢	الق	التى
٥٨	٦	كانا	كأنما
٥٨	١٨	الموجيه	الموجبة
٩٥	٣	المرتيه	المرئية
١٣٨	٢١	التقره ٨٥	البقرة – ١٨٥
١٤١	١٨	فضل	فصل
١٤٣	١٨	الماثده	المائدة
١٥٢	٨	القليل	قليل
١٥٧	٢٢	وسلم يكن	وسلم لم يكن

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦١	٢١	قبلها	قبلهما
١٦٢	١٣	—	النبيون الذين أسلموا
١٧٥	١٢	النازعات ٩	النازعات ٢٩
١٧٦	١٦ و ١٧	كل فلك يسبحون	كل فى فلك يسبحون
٢٠١	٢٠	واذ قلنا للملائكة	وإذ قال ربك للملائكة
٢١٢	٢١	إن ربك	وأن ربك
٢١٣	٣	وآباؤهم	وآباءهم
٢١٥	عنوان	الإعجاز العلمى	من الإعجاز العلمى
٢٣٥	١١	لجأ	لجاء
٢٥٨	٢	بالاخرى	بالأحرى
٢٦٣	٢٣	الدين	الذين
٢٦٤	٣	دخانا	دخان
٢٦٩	١٢	الطور ١٠	الطور ٩ ، ١٠
٢٧٧	٤	وثانيتها	وثانيتها
٢٨١	٣	وعن الأرض أنها تهوى	وعن الأرض أنها تنشق وعن الجبال أنها تهوى
٢٨٢	١٥	٦ — ١٢	٦ — ٨ و ١٢
٢٨٤	آخر ٢٣	الروته	الروعة
٢٨٨	آخر سطر	يتم	يتمم (مرتان)
٢٩٥	١٨	(ق)	(ق ٧)
٣٣٤	٢٤	للتباعد والعظيم	للتباعد العظيم
٣٣٨	١٧	للاظم	للتعظيم
٣٤٤	١٨	لا ين	لا بين
٣٦٥	٢	مرا. له	مرادا له

رقم الإيداع ٤٠٢٧ / ١٩٧٣

ملحق للتصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	١١	الذى	التى
١٧	٢١	أبناؤهم	أبناءهم
٢٥	٧	(من نكث	(فمن نكث
٣١	١١	(سخر	(وسخر
٣٤	٢٣	نحي	نحيا
٣٥	٢٣	قل	قال
٤٦	٦	عينهم	أعينهم
٥٩	٧	الجليل ، ودوران	الجليل : دوران
٦٢	١	فى موضوعها	فى موضعها
٦٤	١٠	الارجع	الأرجح
٦٥	١٧	سنن	سننا
٧٦	أواخر الهامش	لهادى	لهاد
٧٧	١٦	أمرو	أمروا
٨١	٩	تركوا شأنهم	تركوا وشأنهم
١٠٧	١١	إبى	أبى
١٠٨	١١	تحميص	تمحيص
١٠٩	١	لوجد	لو وجد
١١١	١٣	ليس بضروى	ليس بضرورى
١١٣	٣	محمد رسرل	محمد رسول
١١٤	٢	تحميص	تمحيص
١١٦	٣	وإبراهيم وعيسى	وإبراهيم وموسى وعيسى
١٢٥	٢١	قرانية	قرآنية
١٤٠	١٠	والمؤمنين	وللمؤمنين
١٤١	١٩	(إنا له لحافظون)	(وإنا له لحافظون)
١٤٩	١٥	الكتاب	الكتاب وما هو من الكتاب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٦	٧	أنزل إليهم	نزل إليهم
١٦٨	١١	ذانيا	ذاتيا
١٧٣	الأخير	الغوب	الغرب
١٧٤	١٠	لغير السلم	لغير المسلم
١٧٩	٩	ما يصاحبكم	ما بصاحبكم
١٩٣	١٧	يعفو	يعف
٢٠٢	١٠	مكية ومدنية	مكيه ومدنيه
٢٠٧	١	نبأ	نبأ
٢٠٧	١٧	الصورة	السورة
٢١٠	٢٠	مذكر	مدكر
٢١١	١٦	ناقه	ناقة
٢١٧	عنــوان	الإعجاز العلمى	من الإعجاز العلمى
٢٢٢	٨	إلى	إلا
٢٢٣	٨	التى تزال	التى لا تزال
٢٦٤	١٧	خلقنا	خلقتا
٢٦٩	٣ (عنوان)	والقيامية	والقيامة
٢٧٨	١	وينحتون	وتنحتون
٣١٥	٧	نزله بها	نزل بها
٣٣٤	٢١	والسماء	أم السماء
٣٣٤	٢٢	نرد	نريد
٣٣٧	٤	فى زجاجه	فى زجاجة
٣٤٨	١٣	إلى الآيات	إلى بعض الآيات
٣٤٩	٨	وذكر	وذكرا
٣٥٥	١	التفريع	التفريغ
٣٥٩	آخر سطر	وإليك	دواليك
٣٦٢	آخر ٧	تلس	تلمس